يطبع لأول مرة محققاً

إتحاف السادة المتقين

للسيد الإمام

محمد بن محمد بن محمد المرتضى الحسيني الزبيدي

بشرح

إحياء علوم الدين

لحجة الإسلام الإمام

محمد بن محمد بن محمد الطوسي الغزالي

تحقيق

أشرف محمد أحمد

راجعه ودققه

عثمان أيوب البوريني

محمد سميح الشيخ حسين

2024

المجلد الثالث والعشرون وفيه كتاب الصبر والشكر

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب الصبر والشكر

- بيان فضيلة الصبر
- بيان حقيقة الصبر ومعناه
- بيان كون الصبر نصف الإيمان
- بيان الأسامي التي تتجدَّد للصبر بالإضافة إلىٰ ما عنه الصبر
- بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف
- بيان مَظانِّ الحاجة إلىٰ الصبر وأن العبد
- بيان دواء الصبر وما يُستعان به عليه
- بيان فضيلة الشكر
- بيان حدِّ الشكر وحقيقته
- بيان طريق كشفِ الغطاء عن الشكر في حق الله تعالىٰ
- بيان تمييز ما يحبه الله تعالىٰ عمَّا يكرهه
- بيان حقيقة النعمة وأقسامها
- بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر
- بيان وجه اجتماع الصبر والشكر علىٰ شيء واحد
- بيان فضل النعمة علىٰ البلاء
- بيان الأفضل من الصبر والشكر

٣٢ - كتاب الصبر والشكر (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وصلىٰ الله علىٰ سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا.

الله ناصر كل صابر.

الحمد لله الذي جعل الحمد مفتاحًا لِذكره، ومصباحًا يهتدي به مَن وُفِّق لشكره، وسببًا للمزيد من فضله ونعمته، ودليلاً علىٰ آلائه وعظمته. أحمدُه علىٰ ما أخذ وأعطىٰ، وعلىٰ ما أبلىٰ وابتلىٰ، الباطن لكل خفيَّة، الحاضر لكل سريرة، العالِم بما تكنُّ الصدورُ وما تخون العيونُ وتُخفِي الظنونُ. وأسأله الصبر علىٰ بلوائه، والشكر علىٰ نعمائه. وأشهد أن لا إله إلا الله، غير معدول به، ولا مشكوك فيه، ولا مكفور دينه، ولا مجحود تكوينه، شهادةَ مَن صدقت نيَّتُه وصَفت دخلته وخلُص يقينُه وثقلت موازينه. وأشهد أن سيدنا ومولانا محمدًا عبده ورسوله وصفيَّه وخليله ونجيَّه وحبيبه وبعيثه ونجيبه، المختار من خلائقه، والمفتاح لشرح حقائقه، والمختص بفضائل كراماته، والمصطفىٰ لمكارم رسالاته، شهادةً

(١) انظر الكلام عن الصبر والشكر في: قوت القلوب ٢/ ٥٣٨ - ٥٨٥. الرسالة القشيرية ص ٣١٠ - ٣١٥، ٣٢٤ - ٣٣٠، وشرحها إحكام الدلالة ١/ ٥٤٥ - ٥٥٦، ٢/ ٥٦٨ - ٥٨١. عوارف المعارف ص ٣٣٤، ٣٤١ - ٣٤٩. بصائر ذوي التمييز ٣/ ٣٣٤ - ٣٤٠، ٣٧١ - ٣٨٣. مدارج السالكين لابن القيم ٢/ ١٥١ - ١٦٨، ٢٣٢ - ٢٤٦. تنبيه الغافلين لأبي الليث السمرقندي ص ١٩٦ - ٢٠٣، ٣٤٨ - ٣٥٣ (ط - مكتبة الإيمان بالمنصورة).

يوافق فيها السر الإعلان، والقلب اللسان. صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله الأنجُم الهُداة وأصحابه السادة الكرام الثقات وسلَّم تسليمًا كثيرًا كثيرًا.

أما بعد، فهذا شرح كتاب «الصبر والشكر»، وهو الثاني من الربع الرابع والثاني والثلاثون من كتاب الإحياء للإمام الهمام حجَّة الإسلام عَلَم الأئمة الأعلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي، قدَّس الله سره، وضاعف بِرَّه، ونفع بأسرار علومه، ومتَّع أبصارَ العارفين في رياض معارفه وفهومه. سلكتُ فيه منهاج الإيضاح والبيان والإفصاح والتبيان لنظم عقود جواهره الفرائد الحِسان وضبطِ قواعد فوائده المهذَّبة المؤسَّسة الأركان، مع كشف العويصات وتنبيه إلىٰ الإشارات وعزو الأخبار إلىٰ الرواة والآثار إلىٰ الوعاة وتوجيه الأقوال عن الثقات، متجنِّبًا عن الاعتساف والتطويل، مائلاً عن تكثير القال والقيل، متوكِّلاً علىٰ المولىٰ المنعم الجليل في التيسير والتسهيل، سائلاً منه أن ينفع به قارئه وكاتبه والناظر فيه، وأن يبلِّغنا من فضله وإحسانه ما نؤمِّله ونرتجيه، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه، لا إله إلا هو، عليه توكَّلت، وإليه أنيب.

قال رحمه الله تعالىٰ: (**بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله أهل الحمد والثناء**) أصل الثناء من الثني وهو العطف، ومنه الاثنان؛ لعطف أحدهما علىٰ الآخر، والثناء؛ لعطف المناقب في المدح[1]. وقد تقدَّم ذِكر الحمد والثناء وبيان النسبة بينهما في أول كتاب العلم. ومعنىٰ كونه أهلاً لهما: أي مستحقًّا لهما؛ لكماله في ذاته وصفاته، فلا يليق بهما ولا يستحقُّهما إلا هو جلَّ ذِكرُه وثناؤه (**المنفرد**) وفي نسخة: المتفرِّد (**بردِاء الكبرياء**) أي العظمة والجلال، وفيه تلميح إلىٰ الحديث القدسي: قال الله تعالىٰ: «الكبرياء رِدائي»، وقد تقدم الكلام عليه في كتاب ذم الكبر والعُجْب، وسبق الكلام علىٰ الانفراد والتفرُّد في كتاب قواعد العقائد (**المتوحِّد بصفات المجد والعلاء**) المجد: السعة في الكرم والجلال والعز

(١) ذكره البقاعي في نظم الدرر ٩/ ٢٣٦.

والشرف. والعلاء: رفعة القدر. أي هو تعالىٰ مختصٌّ بتلك الصفات فلا يشاركه فيها أحدٌ (**المؤيِّد صفوة الأولياء**) أي خاصَّتهم (**بقوة الصبر علىٰ السَّرَّاء والضَّرَّاء، والشكر علىٰ البلاء والنعماء**) والسرَّاء والضَّراء: حالتا المَسَرَّة والمَضَرَّة. والبلاء: اسم من الابتلاء بمعنىٰ الاختبار والامتحان. واختبار[1] الله تعالىٰ لعباده تارةً بالمَسارِّ ليشكروا، وتارةً بالمَضارِّ ليصبروا، فصارت المنحة والمحنة [جميعًا] بلاء، فالمحنة مقتضية للصبر، والمنحة مقتضية للشكر، والقيام بحقوق الصبر أيسرُ من القيام بحقوق الشكر، فصارت المنحة أعظم البلاءينِ (**والصلاة علىٰ** سيدنا (**محمد سيد الأنبياء**) أي رئيسهم وزعيمهم، وقد ثبتت سيادتُه علىٰ ولد آدم بالأخبار الصحيحة (**وعلىٰ أصحابه سادة الأصفياء وعلىٰ آله قادة البَرَرة الأتقياء صلاةً محروسة بالدوام عن الفناء**) أي تدوم أبد الآباد فلا تفنَىٰ (**ومصونة**) أي محفوظة (**بالتعاقُب**) أي التوالي والتكرار (**عن التصرُّم والانقضاء**) أي الانقطاع والانتهاء. وحكم إفراد الصلاة عن السلام تقدَّم البحث فيه في أول كتاب العلم.

(**أما بعد، فإن الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر، كما وردت به الآثار وشهدت له الأخبار**) قال العراقي[2]: رواه الديلمي في مسند الفردوس[3] من رواية يزيد الرقاشي عن أنس، ويزيد ضعيف.

قلت: وكذلك رواه البيهقي في الشعب[4] ولكن بلفظ: «نصف في الصبر، ونصف في الشكر».

(**وهما أيضًا وصفانِ من أوصاف الله تعالىٰ واسمان من أسمائه الحسنىٰ؛ إذ سمَّىٰ نفسه صبورًا وشكورًا**) فالصبور[5] هو الذي لا تحمله العجلةُ علىٰ المسارعة

---

(١) المفردات للراغب ص ٦١.

(٢) المغني ٢/ ١٠١١.

(٣) الفردوس بمأثور الخطاب ١/ ١١١.

(٤) شعب الإيمان ١٢/ ١٩٣.

(٥) المقصد الأسنىٰ للغزالي ص ١٦١.

إلىٰ الفعل قبل أوانه بل يُنزِل الأمورَ بقدر معلوم، ويجريها علىٰ سَنَن محدود، لا يؤخِّرها عن آجالها المقدَّرة لها تأخيرَ متكاسلٍ، ولا يقدِّمها علىٰ أوقاتها تقديمَ مستعجلٍ، بل يودع كلَّ شيء في أوانه علىٰ الوجه الذي يجب أن يكون وكما ينبغي، وكل ذلك من غير مقاساة داعٍ علىٰ مضادَّة الإرادة.

والشكور[1] هو الذي يجازي بيسير الطاعات كثيرَ الدرجات، ويعطي بالعمل في أيام معدودة نعيمًا في الآخرة غير محدود، ومَن جازىٰ الحسنةَ بأضعافها يقال إنه شكور لتلك الحسنة، ومَن أثنىٰ علىٰ المحسن أيضًا فيقال إنه شكور. فإن نظرتَ إلىٰ معنىٰ الزيادة في المُجازاة لم يكن الشكور المطلق إلا هو سبحانه؛ لأن زيادته في المجازاة غير محصورة ولا محدودة. وإن نظرتَ إلىٰ معنىٰ الثناء فثناء كل مثنٍ علىٰ فعل غيره، والرب تعالىٰ إذا أثنىٰ علىٰ أعمال عباده فقد أثنىٰ علىٰ فعل نفسه؛ لأن أعمالهم من خلقه، فإن كان الذي أعطىٰ فأثنىٰ شكورًا فالذي أعطىٰ وأثنىٰ علىٰ المعطي أحق بأن يكون شكورًا، فثناء الله علىٰ عباده عطية منه.

(فالجهل بحقيقة الصبر والشكر جهل بكِلا شطرَي الإيمان، ثم هو غفلة عن) معرفة **(وصفينِ من أوصاف الرحمن)** جل وعز **(ولا سبيل إلىٰ الوصول إلىٰ القُرب من الله تعالىٰ إلا بالإيمان)** به **(وكيف يُتصور سلوك سبيل الإيمان دون معرفة ما به الإيمان)** وهو الصبر والشكر **(ومَن به الإيمان)** وهو الصبور الشكور **(والتقاعُد عن معرفة الصبر والشكر تقاعُدٌ عن معرفة مَن به الإيمان وعن إدراك ما به الإيمان. فما أحوج كِلا الشطرين إلىٰ الإيضاح والبيان، ونحن)** بحمد الله تعالىٰ **(نوضِّح كِلا الشطرين في كتاب واحد؛ لارتباط أحدهما بالآخر، إن شاء الله تعالىٰ)** أي فلم يفرد لكل واحد منهما كتابًا كما فعله غيره من المتكلِّمين علىٰ مقامات اليقين.

(١) السابق ص ١١٤.

(الشطر الأول: في الصبر)

وهو المقام الثاني من مقامات اليقين (وفيه بيان فضيلة الصبر، وبيان حدِّه وحقيقته، وبيان كونه نصف الإيمان، وبيان اختلاف أساميه باختلاف متعلقاته، وبيان أقسامه بحسب اختلاف القوة والضعف، وبيان مَظانِّ الحاجة إلىٰ الصبر، وبيان دواء الصبر وما يُستعان به عليه. فهي سبعة فصول تشتمل علىٰ جميع مقاصده إن شاء الله تعالىٰ).

بيان فضيلة الصبر

اعلمْ أنه (**قد وصف الله تعالىٰ الصابرين بأوصاف**) جليلة (**وذكر الصبر في القرآن في نيِّف وسبعين موضعًا**) وعن الإمام أحمد أنه [قال]: ذكر الله الصبر في القرآن في نحو من تسعين موضعًا. بتقديم التاء علىٰ السين؛ نقله صاحب القاموس في البصائر. وهو مقام شريف أثنىٰ الله عليه في كتابه (**وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلىٰ الصبر وجعلها**) أي تلك الدرجات والخيرات (**ثمرة له**) ونتيجة. وهو في القرآن علىٰ سبعة عشر نوعًا:

الأول: أنه جعل الصابرين أئمَّة المتقين، وقرن الصبر باليقين، وأن بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين (**فقال عزَّ من قائل**: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤] قال ابن عيينة في هذه الآية: أخذوا برأس الأمر فجعلهم الله رؤساء[1].

النوع الثاني: أنه تمَّم عليهم كلمته الحسنىٰ في الدين (**و**) منه (**قال تعالىٰ**: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ﴾) [الأعراف: ١٣٧].

النوع الثالث: إيجابه الجزاء لهم بأحسن أعمالهم (**و**) منه (**قال تعالىٰ**: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾) [النحل: ٩٦].

النوع الرابع: مضاعفة أجرهم علىٰ كل عمل (**و**) منه (**قال تعالىٰ**: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾) [القصص: ٥٤].

النوع الخامس: رفعُ جزائهم فوق كل جزاء، فجعله بلا نهاية ولا حد (**و**)

---

(١) الرسالة للقشيري ص٤٣٩، وتفسير ابن كثير ٦/ ٣٧٢ (ط دار طيبة).

منه **(قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝﴾** [الزمر: ١٠] **فما من قُربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر)** فقد أوجب الجزاءَ للمتَّصف به بغير حساب وحدود، فدلَّ ذلك علىٰ أنه من أفضل المقامات **(ولأجل كون الصوم من الصبر وأنه نصف الصبر)** رواه ابن ماجه والبيهقي من حديث أبي هريرة بلفظ: «الصيام نصف الصبر»[١] **(قال الله تعالىٰ: الصوم لي وأنا أجزي به)** رواه الشيخان[٢] والنسائي[٣] وابن حبان[٤] من حديث أبي هريرة بلفظ: «قال الله عَزَّوَجَلَّ: كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به ...» الحديث. وعند الطبراني[٥] وابن النجار من حديث ابن مسعود بلفظ: «هو له إلا الصوم هو لي ...» الحديث. وقد تقدم الكلام عليه مفصلاً في كتاب أسرار الصوم **(فأضافه إلىٰ نفسه)** تشريفًا له **(من بين سائر العبادات)**.

النوع السادس: (ووعد الصابرين بأنه معهم) أي أوجب لهم معيَّة تتضمَّن حفظهم ونصرهم وتأييدهم، ليست معيَّة عامة، أعني معيَّة العلم والإحاطة **(فقال: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝﴾)** [الأنفال: ٤٦] فهذا إخبار منه تعالىٰ أنه معهم، ومَن كان معه الله غلب، كمَن كان معه عدَّة[٦]، وهذا كما قال: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].

(و) النوع السابع: (علَّق النصرةَ) والمَدَد بجنده **(علىٰ الصبر فقال تعالىٰ: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۝﴾)** [آل عمران: ١٢٥] فاشترط الصبر والتقوىٰ لإمداده لجنده ونصره وتأييده. وفي الحديث: «النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، وإن مع

---

(١) تقدم هذا الحديث في كتاب الصوم.

(٢) صحيح البخاري ٢/ ٢٩، ٤/ ٧٨، ٤٠٢، ٤١٤. صحيح مسلم ١/ ٥١١.

(٣) سنن النسائي ص ٣٥٠ - ٣٥١.

(٤) صحيح ابن حبان ٨/ ٢١٠ - ٢١١.

(٥) المعجم الكبير ١٠/ ١٢٠، ١٥٨.

(٦) في القوت: كما أن من كان معه علا.

العسر يسرًا». رواه أبو نعيم والخطيب[١] وابن النجار عن أنس مرفوعًا.

(و) النوع الثامن: (جمع للصابرين بين أمور) ثلاثة (لم يجمعهما لغيرهم) وقد فرَّقها على جُمَل [أهل] العبادات بعد البشارة في الآخرة والعقبى (فقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة: ١٧٥] فالهدى والرحمة والصلوات مجموعة للصابرين) وهذا من باب التدلِّي.

(واستقصاء جميع الآيات في مقام الصبر يطول) ولكن نذكر بقية الأنواع التي سبق الوعدُ بها فمن ذلك وهو:

النوع التاسع: الأمر به، وقد تقدم مثاله في سياق المصنِّف وهو قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾ [الأنفال: ٤٦] وكقوله تعالى: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: ١٥٣] وقوله: ﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] وقوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [النحل: ١٢٧].

النوع العاشر: النهي عن ضدِّه، كقوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ﴾ [الأحقاف: ٣٥] وقوله: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥﴾ [الأنفال: ١٥] فإنَّ تولية الأدبار تركُ الصبر والمصابرة.

النوع الحادي عشر: الثناء على أهله، كقوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ١٧﴾ [آل عمران: ١٧] وقوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] ونظائره كثيرة.

النوع الثاني عشر: إيجاب محبَّته لهم، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

---

(١) تاريخ بغداد ١١/ ٥٨٣.

النوع الثالث عشر: إخباره بأن الصبر خير لهم، كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦] وكقوله: ﴿وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النساء: ٢٥].

النوع الرابع عشر: إطلاق البشرىٰ لأهل الصبر، كقوله تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة: ١٥٥].

النوع الخامس عشر: الإخبار بأن أهل الصبر مع أهل العزائم، كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورىٰ: ٤٣].

النوع السادس عشر: الإخبار بأنه ما يُلقَّىٰ الأعمال الصالحة وجزاءها إلا أهل الصبر، كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصص: ٨٠] وقوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ [فصلت: ٣٥].

النوع السابع عشر: الإخبار بأن الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب ودخول الجنة إنما نالوه بالصبر، كقوله تعالىٰ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤].

(وأما الأخبار) الواردة في فضيلة الصبر **(فقد قال ﷺ: الصبر نصف الإيمان)** رواه أبو نعيم والخطيب والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود بزيادة: «واليقين الإيمان كله»، وقد تقدم[١] **(علىٰ ما سيأتي وجهُ كونه نصفًا.**

وقال ﷺ: من أقلِّ ما أوتيتم) كذا في النسخ، وفي القوت: إن أقلَّ ما أوتيتم **(اليقين وعزيمة الصبر، ومَن أُعطي حظه منهما لم يبالِ بما فاته من قيام الليل وصيام النهار، ولأنْ تصبروا علىٰ ما أنتم عليه أحب إليَّ من أن يوافيني كلُّ امرئ منكم بمثل عمل جميعكم، ولكني أخاف أن تُفتح الدنيا عليكم بعدي فينكر بعضكم بعضًا وينكركم أهل السماء عند ذلك، فمَن صبر واحتسب ظفرَ بكمال ثوابه. ثم**

---

(١) في كتاب الصوم.

قرأ قوله تعالىٰ: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم﴾ **الآية)** [النحل: ٩٦] تقدم هذا الحديث في كتاب العلم مختصرًا، وذكر العراقي[١] أنه لم يجده هكذا بطوله. وهو هكذا في القوت وعزاه إلىٰ أبي أمامة الباهلي من رواية شهر بن حوشب عنه. وسيأتي بتمامه في آخر كتاب الزهد في الفصول التي نلحقها بخاتمته.

(وروىٰ جابر) بن عبد الله رضي الله عنه **(أنه سُئل النبي ﷺ عن الإيمان)** ما هو؟ **(فقال)**: هو **(الصبر والسماحة)** قال صاحب القاموس: وهذا من أجمع الكلام وأعظمه برهانًا وأوعبه لمقامات الإيمان من أولها إلىٰ آخرها، فإن النفس يُراد منها شيئان: بذلُ ما أُمِرتْ به وإعطاؤه فالحامل عليه السماحة، وتركُ ما نُهيتْ عنه والبعد عنه فالحامل عليه الصبر.

وقد سبقه البيهقي[٢] بهذا فقال: يعني بالصبر: الصبر عن محارم الله، وبالسماحة: أن يسمح بأداء ما افتُرض عليه. انتهىٰ.

وسبقهما إمام الطائفة الحسن البصري فقال: يعني الصبر عن المعصية، والسماحة علىٰ أداء الفرائض[٣].

قال العراقي[٤]: رواه الطبراني في مكارم الأخلاق[٥] وابن حبَّان في الضعفاء[٦]،

---

(١) المغني ٢/ ١٠١١.

(٢) شعب الإيمان ١٠/ ٣٧٥.

(٣) رواه عنه أبو نعيم في حلية الأولياء ٢/ ١٥٦. ورواه البيهقي في شعب الإيمان ١٢/ ١٨٩ بلفظ: «الإيمان الصبر والسماحة، الصبر عن محارم الله، وأداء فرائض الله». ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الصبر ص ٣٨ (ط - دار ابن حزم) بلفظ: «قيل للحسن: ما الصبر وما السماح؟ قال: السماح بفرائض الله، والصبر عن محارم الله».

(٤) المغني ٢/ ١٠١١.

(٥) مكارم الأخلاق ص ٣٢٣.

(٦) المجروحون من المحدثين ٢/ ٤٨٩.

وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر، ضعيف. ورواه الطبراني في الكبير[١] من رواية عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جدِّه.

قلت: وذكر صاحب القوت أنه من رواية ابن المنكدر عن جابر. وقد رواه أبو يعلىٰ[٢] كذلك. وقوله في يوسف أنه ضعيف هو قول النسائي[٣]، وروىٰ الذهبي[٤] عنه أنه قال فيه: إنه متروك، ثم ساق له ممَّا أُنكِر عليه هذا الخبر. وأما حديث عبيد بن عمير عن أبيه وهو عمير بن قتادة الليثي – له صحبة – فأخرجه البخاري في التاريخ[٥] بلفظ: «أفضل الإيمان الصبر والسماحة». ورواه الديلمي هكذا في مسند الفردوس من حديث معقل بن يسار. وعزاه صاحب القاموس إلىٰ كتاب الأدب المفرد للبخاري بلفظ المصنف.

(وقال) ﷺ **(أيضًا: الصبر كنز من كنوز الجنة)** قال العراقي[٦]: غريب، لم أجده.

قلت: ربما يشهد له ما رواه سعيد بن منصور والخطيب[٧] من حديث علي رضي الله عنه: «أربعة من كنز الجنة: إخفاء الصدقة، وكتمان المصيبة، وصلة الرحم، وقول: لا حول ولا قوة إلا بالله». وهذا لأن كتمان المصيبة من جملة الصبر. ويحتمل أن يكون: من كنوز الخير، بدل: من كنوز الجنة، وقد رُوي ذلك من قول الحسن البصري: الصبر كنز من كنوز الخير، لا يعطيه الله إلا لعبد كريم عنده[٨].

---

(١) المعجم الكبير ١٧/ ٤٩.

(٢) مسند أبي يعلىٰ ٣/ ٣٨٠.

(٣) في الضعفاء والمتروكين للنسائي ص ٢٤٦: «شامي متروك الحديث».

(٤) ميزان الاعتدال ٤/ ٤٧٢.

(٥) التاريخ الكبير ٥/ ٢٥.

(٦) المغني ٢/ ١٠١٢.

(٧) تاريخ بغداد ٤/ ٣٠٥.

(٨) رواه ابن أبي الدنيا في الصبر ص ٢٨.

(وسُئل) ﷺ (مرةً: ما الإيمان؟ فقال: الصبر) أي بجميع أنواعه الآتي ذِكرها، فبها تتم مراتب الإيمان. وقد أحاله العراقي على حديث عليٍّ الآتي ذِكره للمصنف في الآثار، ولفظه: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد». ولا يخفَىٰ أنهما حديثان متغايران، فتأمل.

(وهذا يشبه قولَه ﷺ: الحج عرفة. معناه: معظم الحج عرفة) وقد تقدم في كتاب التوبة وفي كتاب الحج. أي معظم أركانه، فكذلك الصبر معظم أركان الإيمان.

(وقال أيضًا ﷺ: أفضل الأعمال ما أُكرِهت عليه النفوس) هكذا هو في القوت، واستطرد ذِكره في كتاب التوبة فقال: ثم علىٰ التائب أن يعمل في قطع معتاد إن كان، ثم ليصبر علىٰ مجاهدة النفس في الهوىٰ إن بُلي به. ثم قال: فهذه الخصال من أفضل أعمال المريدين وأزكاها، ومعها تُلهَم النفس المطمئنة رشدها وتقواها، وبها تخرج من وصف الأمَّارة بالسوء إلىٰ وصف المطمئنة إلىٰ أخلاق الإيمان، وهذا أحد المعاني في الخبر المشهور: «أفضل الأعمال ما أُكرِهت عليه النفوس»؛ لأن النفس تكره خلاف الهوىٰ، والهوىٰ ضد الحق، والله تعالىٰ يحب الحق، فصار إجبار النفس علىٰ خلاف الهوىٰ وعلىٰ وفاق الحق؛ لأن محبَّة الحق من أفضل الأعمال.

وقال العراقي(١): لا أصل له مرفوعًا، وإنما هو من قول عمر بن عبد العزيز، هكذا رواه ابن أبي الدنيا في كتاب محاسبة النفس(٢).

(وقيل: أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ داود ﷺ): يا داود (تخلَّقْ بأخلاقي، وإن من أخلاقي أني أنا الصبور) نقله صاحب الرسالة. والتخلُّق بأخلاق الله تعالىٰ والتحلِّي

---

(١) المغني ٢/ ١٠١٢.

(٢) محاسبة النفس ص ١٢٣.

بمعاني صفاته وأسمائه بقدر ما يُتصور في حقه[١]؛ ليصير بذلك ربانيًا رفيقًا للملأ الأعلىٰ من الملائكة علىٰ بساط القُرب. وسيأتي الكلام علىٰ ذلك.

(**وفي حديث**) عطاء بن أبي رباح التابعي المكي الثقة (**عن ابن عباس**) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: (**لما دخل رسول الله ﷺ علىٰ الأنصار فقال: أمؤمنون أنتم؟ فسكتوا، فقال عمر**) بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان مع النبي ﷺ، أو كان جالسًا معهم إذ ذاك فأجاب نيابةً عنهم وقال: (**نعم يا رسول الله. قال: وما علامة إيمانكم؟ قالوا: نشكر علىٰ الرخاء**) أي الرخص والسعة (**ونصبر علىٰ البلاء**) أي الاختبار والشدة (**ونرضىٰ بالقضاء. فقال ﷺ: مؤمنون أنتم ورب الكعبة**) هكذا أورده صاحب القوت. وقال العراقي[٢]: رواه الطبراني في الأوسط[٣] من رواية يوسف بن ميمون، وهو منكر الحديث عن عطاء.

(**وقال ﷺ: في الصبر علىٰ ما تكره خير كثير**) ولفظ القوت: إن في الصبر علىٰ ما تكره خيرًا كثيرًا.

قال العراقي[٤]: رواه الترمذي من حديث ابن عباس، وقد تقدم[٥].

(**وقال المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ: إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم علىٰ ما تكرهون**)[٦]

---

(١) هذه العبارة نقلها الشارح عن كتاب المقصد الأسنىٰ للغزالي ص ٤٢.

(٢) المغني ٢/ ١٠١٢.

(٣) المعجم الأوسط ٩/ ١٦٣. ولفظه: «دخل رسول الله ﷺ علىٰ عمر ومعه أناس من أصحابه، فقال: أمؤمنون أنتم؟ فسكتوا، ثلاث مرات، فقال عمر في آخرهم: نعم، نؤمن علىٰ ما أتيتنا به، ونحمد الله في الرخاء ونصبر علىٰ البلاء ونؤمن بالقضاء. فقال رسول الله ﷺ: مؤمنون ورب الكعبة».

(٤) المغني ٢/ ١٠١٢ - ١٠١٣.

(٥) في كتاب رياضة النفس، وعزاه العراقي هناك إلىٰ الطبراني في المعجم الكبير، وهذا المتن ليس عند الترمذي.

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في الزهد ص ١٢٧ والبيهقي في الزهد الكبير ص ١٦٧ وابن الأعرابي في الزهد وصفة الزاهدين ص ١٠٢ والدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٣/ ٢٦٥ بلفظ: «إنكم =

ولفظ القوت: إلا بالصبر.

(وقال رسول الله ﷺ: لو كان الصبر رجلاً لكان كريمًا، والله يحب الصابرين) قال العراقي[١]: رواه الطبراني من حديث عائشة، وفيه صبح بن دينار، ضعَّفه العقيلي[٢].

قلت: ورواه كذلك أبو نعيم في الحلية[٣] من طريق صبح بن دينار البلدي، عن المعافَىٰ بن عمران، عن [إسرائيل و] سفيان، عن منصور، عن مجاهد، عن عائشة. ثم قال: غريب، تفرَّد به المعافَىٰ.

(والأخبار في هذا) الباب ممَّا **(لا تُحصَىٰ)** لكثرتها، ومن ذلك ما رواه الديلمي[٤] بلا إسناد من حديث الحسين بن علي رضي الله عنهما: «الصبر مفتاح الفرج، والزهد غِنىٰ الأبد».

وروىٰ القضاعي[٥] من حديث ابن عمر وابن عباس: «انتظار الفرج بالصبر عبادة».

وروىٰ الطبراني في الكبير[٦] من حديث الحكم بن عمير الثمالي: «الصبر والاحتساب هنَّ عتقُ الرقاب، ويُدخِل الله صاحبَهنَّ الجنة بغير حساب».

(وأما **الآثار**) في الصبر **(فقد وُجد في رسالة عمر بن الخطاب** رضي الله عنه **إلىٰ أبي موسىٰ الأشعري** رضي الله عنه) أرسلها إليه حين كان واليًا بالبصرة: **(عليك بالصبر، واعلمْ أن الصبر صبران أحدهما أفضل من الآخر: الصبر في المصيبات حسن، وأفضل منه الصبر عمَّا**

= لن تدركوا ما تريدون إلا بترككم ما تشتهون، ولا تنالون ما تأملون إلا بصبركم علىٰ ما تكرهون».

(١) المغني ٢/ ١٠١٣.

(٢) الضعفاء الكبير ٢/ ٦٠٣.

(٣) حلية الأولياء ٨/ ٢٩٠.

(٤) الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ٤١٥.

(٥) مسند الشهاب ١/ ٦٢ - ٦٣.

(٦) المعجم الكبير ٣/ ٢٤٥.

حرَّم الله تعالىٰ[١]. واعلمْ أن الصبر مِلاك الإيمان، وذلك بأن التقوىٰ أفضل البِر، والتقوىٰ بالصبر) رواه إبراهيم بن بشَّار الرمادي عن سفيان، عن والد إدريس بن عبد الله[٢]، عن سعيد بن أبي بُردة بن أبي موسىٰ، عن أبيه. وكان أبو موسىٰ قد أوصىٰ إلىٰ ابنه أبي بُردة برسائل عمر التي كان يكتبها إليه[٣].

(وقال علي رضي الله عنه: بُني الإيمان علىٰ أربع دعائم: اليقين والصبر والجهاد والعدل) ولفظ القوت: وقد جعل عليٌّ رضي الله عنه الصبر ركنًا من أركان الإيمان، وقرنه بالجهاد والعدل والإيقان فقال: بُني الإيمان علىٰ أربع دعائم: علىٰ اليقين والصبر والجهاد والعدل.

قلت: وقد رُوي ذلك من حديث علي مرفوعًا، قال أبو نعيم في الحلية[٤]: حدثنا أحمد بن السِّندي، حدثنا الحسن بن علويه القَطَّان، حدثنا إسماعيل بن عيسىٰ العَطَّار، حدثنا إسحاق بن بشر، حدثنا مقاتل، عن قتادة، عن خلاس بن عمرو قال: كنا جلوسًا عند علي بن أبي طالب إذ أتاه رجل من خُزاعة فقال: يا أمير المؤمنين، هل سمعتَ رسول الله ﷺ ينعت الإسلام؟ قال: نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بُني الإسلام علىٰ أربعة أركان: علىٰ الصبر واليقين والجهاد والعدل

---

(١) إلىٰ هنا كلام عمر بن الخطاب، وما بعده كلام الغزالي. وقد أورده المتقي الهندي في كنز العمال ٣/ ٧٥١ وابن كثير في تفسيره ١/ ٢٥١ وعزياه لابن أبي حاتم في تفسيره. وقد روىٰ ابن أبي الدنيا في كتاب الصبر ص ٢٩ مثله عن ميمون بن مهران، وروىٰ قوام السنة في الترغيب والترهيب ٢/ ٢٩٤ مثله أيضا عن الحسن البصري.

(٢) الصواب: عن إدريس والد عبد الله بن إدريس.

(٣) رواه وكيع في أخبار القضاة ص ٥٤، ١٨١ والخطيب في الفقيه والمتفقه ص ٤٩٢ عن علي بن محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب، عن إبراهيم بن بشار، عن سفيان بن عيينة، عن إدريس أبي عبد الله بن إدريس قال: أتيت سعيد بن أبي بردة، فسألته عن رسائل عمر بن الخطاب التي كان يكتب بها إلىٰ أبي موسىٰ الأشعري، وكان أبو موسىٰ قد أوصىٰ بها إلىٰ أبي بردة، فأخرج إليَّ كتبا.

(٤) حلية الأولياء ١/ ٧٤ - ٧٥.

...» الحديث، وهو طويل، وقد تقدم بعضه في كتاب التوبة. ثم قال صاحب الحلية: كذا رواه خلاس بن عمرو مرفوعًا، وخالف الرواةَ عن علي فقال: الإسلام، ورواه الأصبغ بن نباتة عن علي فقال: الإيمان. ورواه الحارث عن علي مرفوعًا مختصرًا، ورواه قبيصة بن جابر عن علي من قوله، ورواه العلاء ابن عبد الرحمن عن علي من قوله.

قلت: وبلفظ «الإيمان» موقوفًا رواه صاحب نهج البلاغة(١).

(وقال) علي رضي الله عنه **(أيضًا: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا جسد لمَن لا رأس له، ولا إيمان لمَن لا صبر له)** كذا في القوت، ولكن بلفظ: إنما الصبر من الإيمان. وهكذا رواه البيهقي في الشعب(٢) بإسناده إليه قال: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قُطع الرأس مات الجسد. ثم قال علي رافعًا صوته: أما إنه لا إيمان لمَن لا صبر له.

وروىٰ صاحب نهج البلاغة(٣): قال علي رضي الله عنه: أوصيكم بخمس لو ضربتم إليها آباط الإبل لكانت لذلك أهلاً: لا يرجونَّ أحدٌ منكم إلا ربه، ولا يخافن إلا ذنبه، ولا يستحينَّ أحد إذا سُئل عمَّا لا يعلم أن يقول: لا أعلم، ولا يستحين أحد إذا لم يعلم الشيء أن يتعلَّمه، وعليكم بالصبر، فإن الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد، ولا خير في جسد لا رأس معه، ولا في إيمان لا صبر معه. انتهىٰ.

وقد رُوي أوله مرفوعًا من حديث أنس، رواه الديلمي في مسند الفردوس(٤) من رواية يزيد الرقاشي عن أنس، ويزيد ضعيف.

(وكان عمر) بن الخطاب رضي الله عنه **يقول: نِعم العِدلان)** مثنىٰ العِدْل بكسر

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٨/ ٢٦٧.

(٢) شعب الإيمان ١٢/ ١٩٥.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٨/ ٣١٥.

(٤) الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ٤١٤.

العين والدال المهملتين[١]، وهو الحِمْل زِنةً ومعنىً؛ إذ كلٌّ منهما عديل للآخر. قال ابن فارس[٢]: العِدل: الذي يعادِل في الوزن والقدْر. وعَدْله بالفتح: ما يقوم مقامَه من غير جنسه. وفي المصباح[٣]: عِدل الشيء بالكسر: مثله من جنسه أو مقداره **(ونعمت العلاوة للصابرين. يعني بالعِدلين: الصلاة والرحمة، وبالعلاوة: الهدىٰ، والعِلاوة)** بالكسر: **(ما يُحمَل فوق العدلين علىٰ البعير)** فيكون كعِدلٍ ثالثٍ. وفي المصباح[٤]: ما يعلَّق علىٰ البعير بعد حمله مثل الإداوة والسُّفرة، والجمع: عَلاوَىٰ **(وأشار به إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾)** كذا في القوت. وقد أخرجه سعيد بن منصور[٥] وابن المنذر والحاكم[٦] وصحَّحه والبيهقي في السنن[٧] وابن أبي الدنيا في العزاء عن عمر بن الخطاب قال: نِعم العدلان ونعم العلاوة: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [نعم العدلان] ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٦ - ١٥٧] نِعم العلاوة.

(وكان حبيب بن أبي حبيب) البَجَلي[٨]، أبو عمرو البصري، نزيل الكوفة، صدوق يخطئ[٩]، روىٰ له الترمذي **(إذا قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾** [ص: ٤٤] يعني داود عليه السلام **(بكىٰ وقال: واعجباه! أعطىٰ وأثنىٰ. أي**

---

(١) الصواب أن الدال ساكنة.

(٢) مجمل اللغة ص ٦٥١.

(٣) المصباح المنير ص ٣٩٦.

(٤) السابق ص ٤٢٨.

(٥) تفسير سعيد بن منصور ٢/ ٦٣٤.

(٦) المستدرك علىٰ الصحيحين ٢/ ٣٢٤.

(٧) السنن الكبرىٰ ٤/ ١٠٨.

(٨) تقريب التهذيب ص ٢١٨.

(٩) في التقريب: مقبول.

هو المعطي للصبر وهو المثني عليه) والرب[1] إذا أثنىٰ علىٰ أعمال عباده فقد أثنىٰ علىٰ فعل نفسه؛ لأن أعمالهم من خلقه.

(وقال أبو الدرداء) رضي الله عنه: **(ذروة الإيمان الصبر للحُكم والرضا بالقدَر)** نقله صاحب القوت. وقال أبو نعيم في الحلية[2]: حدثنا محمد بن علي بن حبيش، حدثنا موسىٰ بن هارون الحافظ، حدثنا أبو الربيع وداود بن رشيد قالا: حدثنا بقية، حدثنا بُحَير بن سعد، عن خالد بن معدان، حدثني يزيد بن مرثد الهَمْداني أبو عثمان، عن أبي الدرداء أنه كان يقول: ذروة الإيمان الصبر للحُكم، والرضا بالقدر، والإخلاص في التوكل، والاستسلام للرب تعالىٰ.

(هذا بيان فضيلة الصبر من حيث النقل، فأما من حيث النظر بعين الاعتبار فلا تفهمه إلا بعد فهم حقيقة الصبر ومعناه؛ إذ معرفة الفضيلة والرتبة معرفة صفة، فلا تحصل قبل معرفة الموصوف) فلا بد من معرفة الموصوف الذي هو حقيقة الصبر **(فلنذكر حقيقته ومعناه. وبالله التوفيق)**.

---

(١) المقصد الأسنىٰ للغزالي ص ١١٤.

(٢) حلية الأولياء ١/ ٢١٦.

بيان حقيقة الصبر ومعناه

اعلمْ) هداك الله تعالىٰ (**أن الصبر مقام**) شريف (**من مقامات الدين**) وهو ثاني مقام من مقامات اليقين (**ومنزل**) منيف (**من منازل السالكين**) في طريق الحق، لا يستغني عنه سالك ألبتَّة إلا رجل انسلخ من غفلته إلىٰ حضرة ربِّه، فإن هذا المنزل لا يعرفه ولا يدور حوله إلىٰ أن يرجع إلىٰ بشريَّته وإنسانيَّته (**وجميع مقامات الدين إنما تنتظم من ثلاثة أمور: معارف وأحوال وأعمال**) وذلك لأن المقامات كلها من الإيمان بالله ولله، كما دلَّ عليه قولُه تعالىٰ: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي﴾ [البقرة: ١٨٦] وللإيمان بالله ولله عقود كثيرة لا نهاية لها، علىٰ ما أشرنا إليه في أول كتاب التوبة. وكل عقد من هذه العقود أصل، ولذلك الأصل فرع، وللفرع ثمرة (**فالمعارف هي الأصول**) الثابتة في القلوب بما أمدَّها الله به من النظر والاعتبار (**وهي تورث الأحوالَ**) أي إن لتلك الأصول فروعًا تنشأ عنها هي مواجيد القلوب وأحوال لها بسبب ما جبلها عليه من محبة سعادتها وكمالها (**والأحوال تثمر الأعمالَ**) أي إن لتلك الأحوال ثمارًا هي الأعمال الناشئة عن أحوال القلوب، وبها النجاة والكمال، فالعلم هو الأصل الذي هو عقد من عقود الإيمان بالله ولله، والحال ما ينشأ عنه من المواجيد، والعمل هو ما تنشئه المواجيد علىٰ القلوب والجوارح من الأعمال (**فالمعارف كالأشجار**) فإنها ثابتة في القلوب ثبوت الأشجار في الأرض (**والأحوال كالأغصان**) فإنها متفرِّعة عن تلك المعارف تفرُّع الأغصان عن الأشجار (**والأعمال كالثمار**) فإنها تنشأ من تلك الأحوال نشأةَ الثمار من الأغصان. وقد بيَّن ذلك قولُه تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ الآية [إبراهيم: ٢٤] وتقدمت الإشارة إليه أول كتاب التوبة (**وهذا مطَّرد في جميع منازل السالكين إلىٰ الله تعالىٰ، واسم «الإيمان» تارةً يختصُّ**

بالمعارف) فقط التي هي الأصول **(وتارةً يطلق علىٰ الكل)** أي عليها مع ما ينشأ منها ويُثمَر منها **(كما ذكرناه في اختلاف اسم الإيمان والإسلام في كتاب قواعد العقائد. وكذا الصبر)** من جملة عقود الإيمان بالله ولله **(لا يتم إلا بمعرفة سابقة وبحالة قائمة)** تنشأ عن تلك المعرفة هي كالفرع لها **(فالصبر علىٰ التحقيق عبارة عنهما)** عن تلك المعرفة والحالة **(والعمل هو كالثمرة يصدر عنها، ولا يُعرَف هذا إلا بمعرفة كيفية الترتيب بين)** الموجودات و**(الملائكة والإنس والبهائم، فإن الصبر خاصِّية الإنس)** أي مخصوص بنوع الإنسان؛ لتركُّبه من طرفَي مشابهة الملائكة والبهائم **(ولا يُتصور ذلك في البهائم والملائكة. أما)** عدم تصوُّره **(في البهائم فلنقصانها)** وتسفُّل[1] درجتها في نفس الحياة التي بها شرفُها؛ لأن الحي هو الدرَّاك الفعَّال، وفي إدراك البهيمة نقصٌ، وفي فعلها نقص، أما إدراكها فنقصانه أنه مقصور علىٰ الحواس، وإدراك الحس قاصر؛ لأنه لا يدرك الأشياء إلا بمماسَّة أو بقرب منها، فالحس معزول عن الإدراك إن لم تكن مماسَّةٌ ولا قُربٌ، فإن اللمس والذوق يحتاجان إلىٰ المماسَّة، والسمع والبصر والشم تحتاج إلىٰ القرب، وكل موجود لا تُتصور فيه مماسة ولا قرب فالحس معزول عن إدراكه في هذه الحالة، وأما فعلُها فسيأتي في سياق المصنف قريبًا **(وأما)** عدم تصوُّره **(في الملائكة فلكمالها)** وعلوِّ درجتها **(وبيانه: أن البهائم سُلِّطت عليها الشهوات وصارت مسخَّرة)** أي منقادة **(لها، فلا باعث لها علىٰ الحركة والسكون إلا الشهوة، وليس فيها قوة تُصادِم الشهوةَ وتردُّها عن مقتضاها حتىٰ يسمَّىٰ ثبات تلك القوة في مقابلة مقتضَىٰ الشهوة صبرًا)** وهو إشارة إلىٰ نقصانها في فعلها **(وأما الملائكة عليهم السلام فإنهم جُرِّدوا للشوق إلىٰ حضرة الربوبية والابتهاج بدرجة القرب منها، ولم تسلَّط عليهم شهوة صارفة صادَّة عنها حتىٰ تحتاج إلىٰ مصادمة ما يصرفها عن)** مطالعة **(حضرة الجلال بجند آخر يغلب الصوارف)** ولتقدُّسها عن الشهوة كانت داعية للقرب إلىٰ الله تعالىٰ **(وأما الإنسان)** فدرجته متوسطة بين الدرجتين، فكأنَّه

---

(١) المقصد الأسنىٰ ص ٤٥ - ٤٦.

مركَّب من بهيمية ومَلَكية (**فإنه خُلق في ابتداء الصبا ناقصًا مثل البهيمة**) أي في الإدراك؛ إذ ليس له منه أولاً إلا الحواس التي يحتاج في الإدراك بها إلىٰ طلب القرب من المحسوس بالسعي والحركة إلىٰ أن يشرق عليه [بالآخرة] نور العقل المتصرِّف في ملكوت السموات والأرض من غير حاجة إلىٰ حركة بالبدن وطلبِ قربٍ أو مماسَّة مع المدرك له، بل مدركه الأمور المقدَّسة عن قبول القرب والبعد بالمكان (**لم يُخلَق فيه إلا شهوة الغذاء الذي هو محتاج إليه**) فهي مستولية عليه (**ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة**) وفي أثناء ذلك تظهر فيه شهوة الغضب، وبحسب مقتضَىٰ كل هذه الشهوات يكون انبعاثه (**ثم شهوة النكاح علىٰ الترتيب**) إلىٰ أن تظهر فيه الرغبة في طلب الكمال والنظر للعاقبة وعصيان مقتضَىٰ تلك الشهوات (**وليس له قوة الصبر البتَّة؛ إذ الصبر عبارة عن ثبات جند في مقابلة جند آخر قام القتال بينهما؛ لتضادِّ مقتضياتهما ومطالبهما، وليس في الصبي إلا جند الهوىٰ، كما في البهائم**) يدعو إلىٰ أفعال ملائمة لشهوته (**ولكن الله تعالىٰ بفضله وسعة جوده**) وكرمه (**أكرم بني آدم ورفع درجتهم عن درجة البهائم**) إذ قد خصَّهم بالكمال في الإدراك وفي العقل (**فوكل به**) أي بكل واحد منهم (**عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ مَلَكينِ، أحدهما يهديه والآخر يقوِّيه، فتميَّز بمعونة الملكين عن**) رتبة (**البهائم، واختصَّ بصفتين، إحداهما: معرفة الله تعالىٰ ومعرفة رسوله، و**) الثانية: (**معرفة المصالح المتعلقة بالعواقب، وكل ذلك حاصل من المَلَك الذي إليه الهداية والتعريف، فالبهيمة لا معرفة لها ولا هداية إلىٰ مصالح العواقب، بل إلىٰ مقتضَىٰ شهواتها في الحال فقط، فلذلك لا تطلب إلا اللذيذ، فأما الدواء النافع مع كونه مضرًّا في الحال فلا تطلبه**) ولا ترغب إليه (**ولا تعرفه، فصار الإنسان بنور الهداية يعرف أن اتِّباع الشهوات لها مَغَبَّات مكروهة في العاقبة**) يقال: للأمر غِبٌّ بالكسر، ومَغَبَّة: أي عاقبة (**ولكن لم تكن هذه الهداية كافية ما لم تكن له قدرة علىٰ ترك ما هو مضرٌّ، فكم من مضرٍّ يعرفه الإنسان - كالمرض النازل به مثلاً - ولكن لا قدرة له علىٰ دفعه، فافتقر إلىٰ قدرة وقوة يدفع بها في نحر الشهوات، فيجاهدها بتلك**

القوة حتىٰ يقطع عداوتها) من أصلها (عن نفسه، فوكل الله تعالىٰ به مَلَكًا آخر يسدِّده ويؤيده ويقوِّيه بجنود) باطنة (لم تروها، وأمر هذا الجند بقتال جند الشهوات، فتارةً يضعُف هذا الجندُ، وتارةً يقوَىٰ، وذلك بحسب إمداد الله تعالىٰ عبده بالتأييد) والمعونة (كما أن نور الهداية أيضًا يختلف في الخلق اختلافًا لا ينحصر، فلنسمِّ هذه الصفة التي بها فارق الإنسانُ البهائمَ في قمع الشهوات وقهرها باعثًا دينيًّا) لكون تلك القوة تبعث إلىٰ أمور الدين (ولنسمِّ مطالبة الشهوات بمقتضياتها: باعث الهوىٰ) لكونها تبعث إلىٰ هوىٰ النفس (وليُفهَم أن القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوىٰ، والحرب بينهما سِجال) أي متوالية لا تنقطع (ومعركة هذا القتال) أي ميدانه ومحله (قلب العبد، ومَدَدُ باعث الدين من الملائكة الناصرين لحزب الله، ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لأعداء الله) ومعرفة[1] هذا من الإيمان لله تعالىٰ، وهو تصديق الله تعالىٰ فيما أخبر به من عداوة النفس والشيطان والشهوات للعقل والمعرفة والمَلَك الملهِم للخير. وأن الشهوات والنفس من حزب الشيطان، والمعرفة والعقل والملائكة من جند الله وحزبه، وهذا الإيمان واجب لا يستغني عنه سالك لطريق الله تعالىٰ (فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة، فإن ثبت) هذا الباعث (حتىٰ قهره) أي باعث الشهوة (واستمر علىٰ مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين) وأنزله الله في جواره، ومتَّعه بالنظر إلىٰ وجهه (وإن تخاذل وضعُف حتىٰ غلبته الشهوةُ ولم يصبر في دفعها التحق بأتباع الشياطين) ووُسم عليه بميسم الإبعاد عن حضرة رب العالمين (فإذًا تركُ الأفعال المشتهاة عملٌ يثمره حالٌ يسمَّىٰ: الصبر، وهو ثبات باعث الدين الذي هو في مقابلة باعث الشهوة، وثبات باعث الدين حال تثمرها المعرفةُ بعداوة الشهوات ومضادَّتها لأسباب السعادات في الدنيا والآخرة، فإذا قويَ يقينُه - أعني المعرفة التي تسمَّىٰ إيمانًا، وهو اليقين بكون الشهوة عدوًّا قاطعًا لطريق الله تعالىٰ - قويَ ثباتُ باعث

(١) من هنا إلىٰ قوله (الملهم للخير) عن كتاب روضة الطالبين للغزالي ص ١٦٢ [ضمن مجموع رسائل الغزالي].

الدين، وإذا قويَ ثباتُه تمَّت الأفعال) الصادرة عنه **(علىٰ خلاف ما تتقاضاه الشهوة، فلا يتم تركُ الشهوة إلا بقوة باعث الدين المضادِّ لباعث الشهوة، وقوة المعرفة والإيمان تقبِّح مغبَّةَ الشهوات وسوء عاقبتها)** والقدر الواجب من ثبات باعث الدين تقويته بالوعد والوعيد وسائر البواعث الحادثة المقوِّية له إلىٰ أن يغلب وينتصر ويفوز بالخُلَع السَّنية الموعودة له، ولو لم يكن إلا قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝﴾ [الزمر: ١٠] وإن تغافل وتلاشىٰ في أمره ولم يستمد بمزايا من الملَك خُذل وغُلب وحقَّت عليه كلمةُ العذاب بقضاء الله وقدره، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ [الأنعام: ١٠٧] ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٣] ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝﴾ [هود: ١١٩] **(وهذان الملَكان هما المتكفِّلان بهذين الجندين بإذن الله تعالىٰ وتسخيره إيَّاهما، وهما من)** جملة **(الكرام الكاتبين، وهما الملَكان الموكَّلان بكل شخص من الآدميين)** قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝﴾ [الانفطار: ٩ - ١٢] روىٰ ابن جرير[1] عن ابن عباس قال: جعل الله علىٰ ابن آدم حافظينِ في الليل وحافظينِ في النهار يحفظان عمله ويكتبان أثره. وروىٰ البزار[2] من حديث ابن عباس: «إن الله ينهاكم عن التعرِّي، فاستحيوا من ملائكة الله الذين معكم الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدىٰ ثلاث حالات: الغائط والجنابة والغسل، فإن اغتسل أحدكم بالعراء فليستتر بثوبه أو بجِذمة حائط أو ببعيره». وفيه حفص بن سليمان، ليِّن الحديث. وروىٰ ابن مردويه من حديث ابن عباس قال: خرج رسول الله ﷺ عند الظهيرة، فرأىٰ رجلاً يغتسل بفلاة من الأرض، فحمد الله وأثنىٰ عليه ثم قال: «أما بعد، فاتقوا الله، وأكرِموا الكرام الكاتبين الذين معكم ليس يفارقونكم إلا عند إحدىٰ منزلتين: حيث يكون الرجل عند خلائه، أو يكون مع أهله؛ لأنهم كرام كما

---

(١) جامع البيان ٢١/ ٤٢٥.

(٢) مسند البزار ١١/ ٨٩.

سمَّاهم الله، فإذا اغتسل أحدكم بالعراء فليستتر بجِذم حائط أو ببعيره فإنهم لا ينظرون إليه».

(وإذا عرفتَ أن رتبة الملَك الهادي أعلىٰ من رتبة الملَك المقوِّي لم يخْفَ عليك أن جانب اليمين الذي هو أشرف الجانبين من جنبتَي الدست ينبغي أن يكون مسلَّمًا له) موكولاً إليه (فهو إذًا صاحب اليمين، والآخَر صاحب الشِّمال، وللعبد طوران في الغفلة والفكر، وفي الاسترسال والمجاهدة، فهو بالغفلة معرض عن صاحب اليمين ومسيء إليه، فيكتب إعراضه) عنه (سيئة، وبالفكر مقبل عليه؛ ليستفيد منه الهداية، فهو به محسن، فيكتب له إقباله به حسنة، وكذا بالاسترسال، وهو معرض عن صاحب اليسار، تارك للاستمداد منه، فهو به مسيء إليه، فيُثْبِت عليه سيئةً، وبالمجاهدة مستمد من جنوده فيُثْبِت له به حسنة، وإنما تثبُت) وفي نسخة: ثبتت (هذه الحسنات والسيئات بإثباتهما، فلذلك سُمِّيا كرامًا كاتبين، أما الكرام فلانتفاع العبد بكرمهما، ولأن الملائكة كلهم كرام بَرَرة) كما وصفهم الله تعالىٰ بذلك، وهم كما وُصفوا (وأما الكاتبين فلإثباتهما الحسنات والسيئات) في صحائف أعمال العباد (وإنما يكتبان في صحائف مطويَّة في سر القلب) أي باطنه (ومطويَّة عن سر القلب حتىٰ لا يطَّلع عليه في هذا العالَم، فإنهما وكتبتهما وخطهما وصحائفهما وجملة ما يتعلَّق بهما من جملة عالم الغيب والملكوت لا من عالم الشهادة) والمُلك (وكل شيء من عالم الملكوت لا تدركه الأبصار في هذا العالم) وإنما تدركه البصائر الصافية المصقولة بأنوار العرفان (ثم تُنشَر هذه الصحائف المطويَّة عنه مرتين: مرة في القيامة الصغرىٰ، ومرة في القيامة الكبرىٰ. وأعني بالقيامة الصغرىٰ: حالة الموت؛ إذ قال ﷺ: مَن مات فقد قامت قيامتُه) قال العراقي[1]: رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث أنس بسند ضعيف. انتهىٰ.

---

(١) المغني ٢/ ١٠١٣.

قلت: وعند ابن لال في مكارم الأخلاق والديلمي[١] من حديث أنس: «إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته، فاعبدوا الله كأنَّكم ترونه، واستغفروه كل ساعة». وروىٰ العسكري في الأمثال من حديث أنس: «أكثِروا ذِكر الموت، فإنكم إن ذكرتموه في غِنىٰ كدَّره عليكم، وإن ذكرتموه في ضِيق وسَّعه عليكم، الموت القيامة، إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته، يرىٰ ما له من خير وشر». وفيه داود بن المحبَّر كذاب، عن عنبسة بن عبد الرحمن متروك متهَم، عن محمد بن زاذان، قال البخاري[٢]: لا يُكتَب حديثه. ورواه ابن لال في المكارم بلفظ: «أكثِروا ذِكر الموت، فإنَّ ذلك تمحيص للذنوب وتزهيد في الدنيا، الموت القيامة». وعند ابن أبي الدنيا: «فإنه يمحِّص الذنوب ويزهِّد في الدنيا». وسنده ضعيف جدًّا.

وروىٰ الطبراني من طريق زياد بن علاقة عن المغيرة بن شعبة قال: يقولون القيامة القيامة، وإنما قيامة الرجل موته. ومن رواية سفيان عن أبي قيس قال: شهدتُ جنازة فيها علقمة، فلما دُفن قال: أما هذا فقد قامت قيامته[٣].

(وفي هذه القيامة يكون العبد وحده، وعندها يقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾) أي أفرادًا (﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾) [الأنعام: ٩٤] أي في وقت الولادة **(وفيها يقال: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤﴾)** [الإسراء: ١٤] أي حاسبًا **(أما في القيامة الكبرىٰ الجامعة لكافة الخلائق)** من الأول إلىٰ الآخر **(فلا يكون وحده، بل ربما يحاسَب علىٰ ملأ من الخلق)** ورؤوس الأشهاد **(وفيها يُساق المتَّقون إلىٰ الجنة والمجرمون إلىٰ النار زمرًا لا آحادًا)** كما دلَّ عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ الآية [الزمر: ٧٣] **(والهول الأول هو هول القيامة الصغرىٰ)** يعني به هول الموت **(ولجميع أهوال القيامة الكبرىٰ نظير، فإنَّ للقيامة الصغرىٰ**

---

(١) الفردوس بمأثور الخطاب ١/ ٢٨٥.

(٢) التاريخ الكبير ١/ ٨٨، وفيه: «منكر الحديث، لا يكتب حديثه».

(٣) رواهما الطبري في جامع البيان ٢٣/ ٤٦٩، والدولابي في الكنىٰ والأسماء ص ٩٣٠.

مثل زلزلة الأرض مثلاً) الموعود بها في القيامة الكبرىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝﴾ [الزلزلة: ١] (فإن أرضك الخاصة بك بدنك تتزلزل في الموت) أي تضطرب وترتجُّ (فإنك تعلم أن الزلزلة إذا نزلت ببلدة صدقَ أن يقال: قد زُلزلت أرضهم، وإن لم تزلزَل البلاد المحيطة بها، بل لو زُلزل مسكن الإنسان وحده فقد حصلت الزلزلة في حقه؛ لأنه إنما يتضرَّر عند زلزلة جميع الأرض بزلزلة مسكنه لا بزلزلة مسكن غيره، فحصَّته من الزلزلة قد توفَّرت عليه من غير نقصان. واعلمْ أنك أرضيٌّ مخلوق من التراب، وحظك الخاص من التراب بدنك فقط، فأما بدن غيرك فليس بحظِّك، والأرض التي أنت جالس عليها بالإضافة إلىٰ بدنك ظرف ومكان) لحلولك فيه (وإنما تخاف من تزلزُله أن يتزلزل بدنك بسببه، وإلا فالهواء أبدًا متزلزل وأنت لا تخشاه) ولا تعنىٰ به (إذ ليس يتزلزل به بدنُك، فحظُّك من زلزلة الأرض كلها زلزلة بدنك فقط، فهي أرضك وترابك الخاص بك، وعظامك جبال أرضك) أي بمنزلتها؛ لصلابتها بالإضافة إلىٰ سائر أجزاء البدن (وأطرافك أشجار أرضك) لارتفاعها كارتفاع الأشجار (ورأسك سماء أرضك) لعلوِّها كعلوِّ السماء (وقلبك شمس أرضك) أي بمنزلتها في السماء في تنويرها (وسمعك وبصرك وسائر حواسِّك) الظاهرة (نجوم سمائك) أي بمنزلتها (ومفيض العرق من بدنك بحر أرضك) أي بمنزلته في إسالة الفوَّهات (وشعورك) النابتة في البدن (نبات أرضك) أي بمنزلته في النمو (وهكذا إلىٰ جميع أجزائك) وقد أشار إليه المصنف في كيمياء السعادة[1] فقال: إن نفس ابن آدم مختصرة من العالَم، وفيها من كل صورة في العالم أثر منه؛ لأن هذه العظام كالجبال، ولحمه كالتراب، وشعره كالنبات، ورأسه مثل السماء، وحواسه مثل الكواكب (فإذا انهدمت بالموت أركانُ بدنك فقد زُلزلت الأرض زلزالها) أي اضطرابها المقدَّر لها (فإذا انفصلت العظام واللحوم من بعضها فقد حُملت الأرض والجبال فدُكَّتا دكَّة واحدة، فإذا أرمت

---

(١) كيمياء السعادة ص ٤٥٦ [ضمن مجموع رسائل الغزالي].

العظامُ) أي بليت ونخرت **(فقد نُسفت الجبال نسفًا)** يشير بذلك إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾﴾ [طه: ١٠٥] وفي نسخة: فقد بُسَّت الجبال بسًّا **(فإذا أظلم قلبُك عند الموت فقد كُوِّرت الشمس تكويرًا)** أي[1] لُفَّت، من كوَّرت العمامة: إذا لففتها، بمعنىٰ رُفعت؛ لأن الثوب إذا أريدَ رفعُه لُفَّ. أو لُفَّ ضوؤها فذهب انبساطه في الآفاق وزال أثرُه **(فإذا بطل سمعُك وبصرك وسائر حواسك فقد انكدرت النجوم انكدارًا)** أي أظلمت، أو انقضت **(فإذا تشقَّق دماغك فقد انشقَّت السماء انشقاقًا)** أي صارت شُقة شقَّة، أو انشقَّت بالغمام **(فإذا انفجر من هول الموت عرقُ جبينك)** وذلك عند الموت؛ فإن الجبين لا يعرق إلا عند معاينة الأهوال، ولا هول أعظم من الموت **(فقد فُجِّرت البحار تفجيرًا، فإذا التفَّت إحدىٰ ساقيك بالأخرىٰ - وهما مطيَّتاك - فقد عُطِّلت العِشار تعطيلاً)** أي تُركت مهمَلة، والعِشار هي النوق اللواتي أتىٰ علىٰ حملهن عشرةُ أشهر، جمع عُشَراء **(فإذا فارقت الروح الجسد فقد حُملت الأرض فمُدَّت)** أي بُسطت بأن تُزال جبالها وآكامها **(حتىٰ ألقت ما فيها)** أي في جوفها **(وتخلَّت)** أي تكلَّفت في الخلو أقصىٰ جهدها حتىٰ لم يبقَ شيء في بطنها **(ولست أطوِّل بجميع موازنة الأحوال والأهوال، ولكني أقول: بمجرد الموت تقوم عليك هذه القيامة الصغرىٰ)** وتعايِن أهوالها **(ولا يفوتك من القيامة الكبرىٰ شيء ممَّا يخصُّك، بل ما يخصُّ غيرَك)** أيضًا **(فإن بقاء الكواكب في حق غيرك ماذا ينفعك وقد انتثرت حواسُّك التي بها تنتفع بالنظر إلىٰ الكواكب، والأعمىٰ)** الذي ذهب بصره **(يستوي عنده الليل والنهار، وكسوف الشمس وانجلاؤها؛ لأنها قد كسفت في حقه دفعةً واحدةً، فهو حصَّته منها، فالانجلاء بعد ذلك حصَّة غيره)** ممَّن يراه **(ومَّن انشقَّ رأسه فقد انشقَّت سماؤه؛ إذ السماء عبارة عمَّا يلي جهةَ الرأس)** لسموِّه: أي علوه وارتفاعه، ولذا سُمِّي السحاب سماءً بهذا الاعتبار **(فمَن لا رأس له لا سماء له، فمن أين ينفعه بقاءُ السماء لغيره؟ فهذه هي**

---

(١) أنوار التنزيل للبيضاوي ٥/ ٢٨٩، ٢٩٧.

القيامة الصغرىٰ) المشار إليها في الحديث المذكور **(والخوف بعدُ أسفل، والهول بعد مؤخَّر، وذلك إذا جاءت الطامَّة الكبرىٰ)** أي المصيبة العظمىٰ تطمُّ علىٰ الكل وتعمُّ **(وارتفع الخصوص وبطلت السموات والأرض)** ومُحيت آثارها **(ونُسفت الجبال)** نسفًا فصارت هباءً منبثًّا **(وتمت الأهوال.**

واعلمْ أن هذه الصغرىٰ وإن طوَّلنا في وصفها فإنَّا لم نذكر عُشر عشير أوصافها بالنسبة إلىٰ القيامة الكبرىٰ) وهي **(كالولادة الصغرىٰ بالنسبة إلىٰ الولادة الكبرىٰ، فإن للإنسان ولادتين، إحداهما: الخروج من الصلب والترائب إلىٰ مستودع الأرحام، فهو في الرحم في قرار مكين إلىٰ قدَر معلوم)** كما أخبر عنه سبحانه في كتابه العزيز **(وله في سلوكه إلىٰ الكمال منازل)** يسلكها **(وأطوار)** ينتقل إليها **(من نطفة وعَلَقة ومُضْغة وغيرها إلىٰ أن يخرج من مضيق الرحم إلىٰ فضاء العالَم)** وسعته **(فنسبة عموم القيامة الكبرىٰ إلىٰ خصوص القيامة الصغرىٰ كنسبة سعة فضاء العالم إلىٰ سعة فضاء الرحم، ونسبة سعة العالم الذي يُقدِم عليه العبد بالموت إلىٰ سعة فضاء الدنيا كنسبة فضاء الدنيا أيضًا إلىٰ الرحم، بل أوسع وأعظم، فقِس الآخرة بالأولىٰ)** قال الله تعالىٰ: (﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨] **وما النشأة الثانية إلا علىٰ قياس النشأة الأولىٰ، بل أعداد النشآت ليست محصورة في النشأتين)** الأولىٰ والثانية **(وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾** [الواقعة: ٦١] **فالمقرُّ بالقيامتين)** الصغرىٰ والكبرىٰ **(مؤمن بعالم الغيب والشهادة، وموقن بالمُلك والملكوت، والمقرُّ بالقيامة الصغرىٰ دون الكبرىٰ ناظر بالعين العوراء إلىٰ أحد العالَمين)** عالَم المُلك فقط **(وذلك هو الجهل والضلال والاقتداء بالأعور الدجَّال)** إذ هو ممسوخ العين اليمنىٰ، كما ورد ذلك في الأخبار **(فما أعظم غفلتك يا مسكين! وكلنا ذلك المسكين)** قد ضُربت الغفلة علىٰ بصائرنا حُجُبًا، وكيف تغفل **(وبين يديك هذه الأهوال)** والمصائب والأوحال **(فإن كنت لا تؤمن بالقيامة الكبرىٰ بالجهل والضلال)** وإغواء العدو الحيال **(أفلا تكفيك**

دلالةُ القيامة الصغرىٰ؟ أوَ ما سمعتَ قول سيد الأنبياء) ﷺ (كفىٰ بالموت واعظًا) قال العراقي[١]: رواه البيهقي في الشعب من حديث عائشة[٢]، وفيه الربيع بن بدر، وهو ضعيف. ورواه الطبراني من حديث عقبة بن عامر. وهو معروف من قول الفضيل بن عياض، رواه البيهقي في الزهد[٣]. انتهىٰ.

هكذا هو في نسخة كتاب العراقي: عقبة بن عامر، والصواب: عمَّار بن ياسر، فقد رواه الطبراني والبيهقي في الشعب والقضاعي في مسند الشهاب[٤] والعسكري في الأمثال من طريق يونس بن عبيد عن الحسن عن عمار بن ياسر مرفوعًا، ولفظه: «كفىٰ بالموت واعظًا، وكفىٰ باليقين غِنًىٰ، وكفىٰ بالعبادة شغلاً». وعند الطبراني وحده أيضًا بلفظ: «كفىٰ بالموت واعظًا، وكفىٰ باليقين غِنًىٰ».

وروىٰ العسكري في الأمثال من طريق يحيىٰ بن إسحاق، عن ابن لهيعة، عن حنين بن أبي حكيم، عن أنس قال: جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ فقال: إن فلانًا جاري يؤذيني. فقال: «اصبرْ علىٰ أذاه، وكُفَّ عنه أذاك». قال: فما لبث إلا يسيرًا إذ جاء فقال: يا رسول الله، إن جاري ذاك مات. فقال النبي ﷺ: «كفىٰ بالدهر واعظًا، وبالموت مفرِّقًا». ورواه كذلك ابن السني في عمل يوم وليلة[٥].

وروىٰ ابن أبي الدنيا في كتاب البر والصلة[٦] من رواية أبي عبد الرحمن الحُبُلِّي مرسلاً: «كفىٰ بالموت مفرِّقًا».

---

(١) المغني ٢/ ١٠١٣.

(٢) بل من حديث عمار بن ياسر. شعب الإيمان ١٣/ ١٣٦.

(٣) الزهد الكبير ص ٢١٦.

(٤) مسند الشهاب ٢/ ٣٠٣.

(٥) عمل اليوم والليلة ص ٣٣٨.

(٦) بل في كتاب الصبر ص ١١٤.

وروى ابن أبي شيبة[١] وأحمد في الزهد وابن أبي الدنيا في ذكر الموت[٢] عن الربيع بن أنس مرسلاً: «كفى بالموت مزهِّدًا في الدنيا ومرغِّبًا في الآخرة».

(أوَ ما سمعتَ بكربه ﷺ عند الموت) وقوله: «إن للموت سكرات، وإن للموت فزعًا» **(حتىٰ قال ﷺ: اللهم هوِّنْ علىٰ محمد سكرات الموت)** قال العراقي[٣]: رواه الترمذي[٤] - وقال: غريب - والنسائي في اليوم والليلة[٥] وابن ماجه[٦] من حديث عائشة بلفظ: «اللهم أعنِّي علىٰ سكرات الموت».

(أوَ ما تستحي من استبطائك هجومَ الموت) والساعة **(اقتداءً برِعاع الغافلين الذين لا ينظرون)** ولفظ التنزيل: ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ أي[٧] لا ينتظرون (﴿إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾) هي النفخة الأولىٰ (﴿تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾) أي يختصمون في معاملاتهم، لا يخطر ببالهم أمرُها، كقوله تعالىٰ: ﴿أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [يوسف: ١٠٧] (﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةٗ﴾) في شيء من أمورهم (﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾) فيروا حالهم، بل يموتون حيث تبغتهم **(فيأتيهم المرض نذيرًا من الموت)** أي مخوفًا منه **(فلا ينزجرون)** ولا يتَّعظون **(ويأتيهم الشيب رسولًا منه)** بدنوِّ أجلهم **(فما يعتبرون)** ولا ينتبهون **(فيا حسرة علىٰ العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون})** فإن المستهزئ بالناصح المخلص المنوط بنصحه خير الدارين أحق بأن يتحسَّر ويُتحسَّر عليه **(أفيظنون أنهم في الدنيا خالدون؟** ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾) أي ألم يعلموا (﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١٢/ ٢٨.

(٢) ورواه أيضا في ذم الدنيا ص ١٠٣.

(٣) المغني ٢/ ١٠١٣.

(٤) سنن الترمذي ٢/ ٢٩٩.

(٥) السنن الكبرىٰ ٦/ ٣٨٩، ٩/ ٤٠١.

(٦) سنن ابن ماجه ٣/ ١٣٢.

(٧) أنوار التنزيل ٤/ ٢٦٤ - ٢٧٠.

لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾) أي ألم يروا كثرة إهلاكنا مَن قبلهم وكونهم غير راجعين إليهم (أم **يحسبون أن الموتىٰ** سافروا **من عندهم فهم معدومون؟ كلاً**) حرف ردع وزجر (**إن كل لما جميع لدينا محضرون**) يوم القيامة للجزاء (**ولكن ما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين**) لاعتيادهم علىٰ العناد وتمرُّنهم عليه (**وذلك لأنّا جعلنا من بين أيديهم سدًّا ومن خلفهم سدًّا**) أي قد أحاط بهم سدَّانِ (**فأغشيناهم**) أي غطينا علىٰ أبصارهم (**فهم لا يبصرون**) قدَّامهم ووراءهم، فهم محبوسون في مطمورة الجهالة، ممنوعون عن النظر في الآيات والدلائل (**وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون**.

ولنرجع إلىٰ الغرض، فإنَّ هذه تلويحات تشير إلىٰ أمور) من علوم المكاشفة (**هي أعلىٰ من علوم المعاملة، فنقول: قد ظهر أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوىٰ، وهذه المقاومة**) بين الباعثين (**من خاصة الآدميين؛ لِما وُكل بهم من الكرام الكاتبين**) وهما الملَكان الموكَّلان بكل شخص منهم، فيكتبان الآثار ويحفظان الأعمال (**ولا يكتبان شيئًا علىٰ الصبيان والمجانين**) ففي الخبر: «رُفع القلم عن الصبي حتىٰ يبلغ، وعن المجنون حتىٰ يعقل» (**إذ قد ذكرنا أن الحسنة في الإقبال علىٰ الاستفادة منهما، والسيئة في الإعراض عنهما، وما للصبيان والمجانين سبيل إلىٰ الاستفادة، فلا يُتصور منهما إقبال وإعراض، وهما لا يكتبان إلا الإقبال والإعراض من القادرين علىٰ الإقبال والإعراض، ولعمري إنه قد تظهر مبادئ إشراق نور الهداية عند**) بلوغ الصبي (**سن التمييز، وتنمو علىٰ التدريج**) شيئًا فشيئًا (**إلىٰ سن البلوغ كما يبدو نور الصبح**) في أول ظهوره (**إلىٰ أن يطلع قرص الشمس**) بارزًا للعيون (**ولكنها هداية قاصرة لا ترشد إلىٰ مَضارِّ الآخرة بل إلىٰ مَضارِّ الدنيا، فلذلك يُضرَب علىٰ ترك الصلوات ناجزًا**) فروىٰ أحمد وأبو داود والحاكم من حديث ابن عمرو: «مُروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع [سنين]

واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين ...» الحديث[١] **(ولا يعاقَب علىٰ تركها في الآخرة، ولا يُكتَب عليه في الصحائف ما يُنشَر في الآخرة، بل علىٰ القيِّم العدل)** إن كان يتيمًا **(والوليِّ البَر الشفيق إن كان من الأبرار وكان علىٰ سَمْت الكرام الكاتبين البَرَرة الأخيار أن يكتب علىٰ الصبي سيئته وحسنته علىٰ صحيفة قلبه، فيكتبه عليه بالحفظ، ثم ينشره عليه بالتعريف، ثم يعذِّبه عليه بالضرب)** كما في مضمون الخبر السابق **(فكل وليٍّ هذا سمتُه في حق الصبي فقد ورثَ أخلاق الملائكة واستعملها في حق الصبي، فينال بها درجة القرب من رب العالمين كما نالته الملائكة، فيكون مع النبيِّين والمقرَّبين والصدِّيقين)** من عباده الصالحين **(وإليه الإشارة بقوله ﷺ: أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة. وأشار إلىٰ أصبعيه الكريمتين ﷺ)** رواه أحمد[٢] والبخاري[٣] وأبو داود[٤] والترمذي[٥] وابن حبان[٦] من حديث سهل بن سعد بلفظ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا». وأشار بالسبَّابة والوسطىٰ. وقد تقدم[٧].

ورواه أيضًا الطبراني في الكبير[٨] من حديث أبي أمامة.

وروىٰ أبو يعلىٰ[٩] من حديث عائشة: «أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين». وجمع بين السبَّابة والوسطىٰ ... الحديث، وفيه ليث بن أبي سليم، مختلَف فيه.

---

(١) تقدم هذا الحديث في كتاب آداب الصحبة، وفي كتاب رياضة النفس.

(٢) مسند أحمد ٣٧/ ٤٧٦.

(٣) صحيح البخاري ٣/ ٤١٣، ٤/ ٩٢.

(٤) سنن أبي داود ٥/ ٤١٤.

(٥) سنن الترمذي ٣/ ٤٧٩.

(٦) صحيح ابن حبان ٢/ ٢٠٧.

(٧) في كتاب آداب الصحبة.

(٨) المعجم الكبير ٨/ ٣٥١.

(٩) مسند أبي يعلىٰ ٨/ ٢٨٠.

وروىٰ عبد الرزاق والحكيم[١] والطبراني[٢] والبيهقي[٣] والخرائطي في مكارم الأخلاق[٤] وابن عساكر[٥] من رواية بنت مُرَّة الفِهْرية عن أبيها: «أنا وكافل اليتيم له أو لغيره إذا اتقىٰ الله في الجنة كهاتين» وأشار بأصبعيه المسبِّحة والوسطىٰ.

(١) نوادر الأصول ص ٤٥٠.
(٢) المعجم الكبير ٢٠/ ٣٢٠ - ٣٢١.
(٣) السنن الكبرىٰ ٦/ ٤٦٣.
(٤) مكارم الأخلاق ص ٢١٥.
(٥) تاريخ دمشق ٤٣/ ٥٩.

بيان كون الصبر نصف الإيمان

(اعلمْ) وفَّقكَ الله تعالىٰ **(أن الإيمان تارةً يختصُّ في إطلاقه بالتصديقات بأصول الدين)** وهي المعارف **(وتارةً يختصُّ)** في إطلاقه **(بالأعمال الصالحة الصادرة عنها)** أي عن تلك التصديقات **(وتارةً يطلَق عليهما جميعًا، وللمعارف أبواب وللأعمال أبواب)** كثيرة **(ولاشتمال لفظ «الإيمان» علىٰ جميعها)** بالإطلاق الثالث **(كان الإيمان نيِّفًا وسبعين بابًا)** كما في خبر أبي هريرة عند الترمذي: «الإيمان بضع وسبعون بابًا، فأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق، وأرفعها قول لا إله إلا الله». وقال: حسن صحيح. وعند ابن حبان: «الإيمان سبعون أو اثنان وسبعون بابًا، أرفعه لا إله إلا الله، وأدناه إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان». وقد تقدم[1] **(واختلاف هذه الإطلاقات ذكرناه في كتاب قواعد العقائد من ربع العبادات)** فليراجَع هناك **(ولكن الصبر نصف الإيمان)** كما ورد في الخبر **(باعتبارين وعلىٰ مقتضَىٰ إطلاقين:**

أحدهما: أن يطلَق) الإيمان **(علىٰ التصديقات والأعمال جميعًا، فيكون للإيمان ركنان، أحدهما اليقين، والآخَر الصبر. والمراد باليقين: المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالىٰ عبده إلىٰ أصول الدين، والمراد بالصبر: العمل بمقتضَىٰ اليقين؛ إذ اليقين يعرِّفه أن المعصية ضارة والطاعة نافعة، ولا يمكن تركُ المعصية والمواظبة علىٰ الطاعة إلا بالصبر وهو استعمال باعث الدين في قهر باعث الهوىٰ والكسل، فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار، ولهذا جمع رسول الله ﷺ بينهما)** أي اليقين والصبر **(فقال)**: إن **(من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ...**

---

(١) في كتاب قواعد العقائد، وهو في الصحيحين، ولكن اقتصر الشارح هنا علىٰ عزوه إلىٰ سنن الترمذي ٤/ ٣٦٠ وصحيح ابن حبان ١/ ٣٨٤، ٣٨٦، ٤٠٧، ٤٢٠.

الحديث الخ) من رواية شهر بن حوشب عن أبي أمامة مرفوعًا، وقد تقدم قريبًا. وبهذا الاعتبار أيضًا يكون اليقين نصف الإيمان؛ لأنه أحد ركنيه. ويقرَّر كون الصبر نصف الإيمان بوجه آخر هو أنه - كما سيأتي - أن الصبر عن المعاصي أشرف من الصبر على الطاعات؛ لأن الآفات الداخلة على الطاعات من جملة المعاصي؛ لأن للعدو حظًّا في دخول الآفات عليها، وكل أحد يقدر على القيام بالطاعة، ولا يقدر على تلك المعصية إلا الصدِّيقون، والصبر على المصائب أشرف من الصبر على المعاصي؛ إذ لا ألم في ترك المعاصي، والمصائب محكُّ الإيمان، ولأن الصبر عن المعاصي يكون في الغالب من مشاهدة الوعد والوعيد، والصبر على المصائب في الغالب لا يكون إلا عن مشاهدة القضاء والقدر، والقضاء والقدر من الإيمان بالله، والوعد والوعيد من الإيمان بالله، وما نشأ عن الإيمان بالله تعالى كان أفضل، ويشرُف الصبرُ بشرف المصبور فيه والمصبور لأجله، وبه يُعرَف سر قوله: «الصبر نصف الإيمان»؛ لأن النصف الأول هو العلم، والنصف الثاني هو العمل.

(الاعتبار الثاني: أن يطلَق) الإيمان **(على الأحوال المثمرة للأعمال لا على المعارف، وعند ذلك ينقسم جميع ما يلاقيه العبد إلى ما ينفعه في الدنيا والآخرة أو يضرُّه فيهما، وله بالإضافة إلى ما يضرُّه حال الصبر وبالإضافة إلى ما ينفعه حال الشكر، فيكون الشكر أحد شطرَي الإيمان بهذا الاعتبار، كما أن اليقين أحد الشطرين بالاعتبار الأول، وبهذا النظر قال ابن مسعود رضي الله عنه: الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر)** كذا في القوت، وقد رواه البيهقي بنحوه **(وقد يُرفَع أيضًا إلى رسول الله ﷺ)**(١) كما رواه البيهقي والديلمي من حديث أنس، وقد تقدم **(ولما كان الصبر صبرًا عن باعث الهوى بثبات باعث الدين وكان باعث الهوى قسمين: باعث من جهة الشهوة وباعث من جهة الغضب، فالشهوة لطلب اللذيذ، والغضب للهرب من المؤلم، وكان الصوم صبرًا عن مقتضَى الشهوة فقط - وهي شهوة**

---

(١) قال البيهقي في الشعب ١٢/ ١٩٣: المحفوظ عن ابن مسعود من قوله غير مرفوع.

البطن والفرج - دون مقتضىٰ الغضب، قال ﷺ بهذا الاعتبار: الصوم نصف الصبر) كما رواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة، وتقدم[1] **(لأن كمال الصبر بالصبر عن دواعي الشهوة ودواعي الغضب جميعًا، فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع الإيمان)** وباعتبار أن الصبر لا يتم إلا بعمل يثمره وعمل هو ثمرته يكون الصبر الإيمان كله كما في الحديث، وباعتبار[2] أن مَدار اليقين علىٰ الإيمان بالله وبقضائه وقدره وما جاء به رسله، مع الثقة بوعده ووعيده، فهو متضمِّن لكل ما يجب الإيمان به، يكون اليقين الإيمان كله، كما في تتمَّة خبر ابن مسعود السابق. ولما كان الرضا بالقضاء نظام التوحيد ومنتهَىٰ درجة الزاهدين يكون «الصبر الرضا» كما في خبر أبي موسىٰ الأشعري عند الحكيم[3] وابن عساكر[4]، ومن ثَم قالوا: اليقين الإيمان بالقدَر والسكون إليه **(فهكذا ينبغي أن تفهم تقديرات الشرع لحدود الأعمال والأحوال ولنسبتها إلىٰ الإيمان، والأصل فيه أن تعرف كثرة أبواب الإيمان، وأن اسم «الإيمان» يطلَق علىٰ وجوه مختلفة)** واعتبارات شتَّىٰ.

---

(١) وهو عند الترمذي (٣٥١٩٩)، وأحمد في مسنده (١٨٣١٣) عن عن رجل من بنىٰ سليم من أصحاب النبي ﷺ، وقال الترمذي: حسن.

(٢) فيض القدير ٤/ ٢٣٣.

(٣) نوادر الأصول ص ٧٠٢.

(٤) تاريخ دمشق ٢٥/ ٢٤٧.

بيان الأسامي التي تتجدَّد للصبر بالإضافة إلى ما عنه الصبر

(اعلمْ) أرشدك الله تعالىٰ (أن الصبر) في اللغة: الحبس والكف في ضيق، ومنه: قُتل فلان صبرًا: إذا أُمسِك وحُبس للقتل، قال تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ الآية [الكهف: ٢٨] أي احبسْ نفسك معهم. وهو (ضربان، أحدهما: ضرب بدنيٌّ) ويقال له الجسمي أيضًا، وذلك (كتحمُّل المَشاقِّ بالبدن والثبات عليها) علىٰ[١] قدْر قوة البدن، ونهايته معلومة، وأكثرها لذوي الجسوم الخشنة، وليس ذلك بفضيلة تامة، ولهذا قال الشاعر[٢]:

والصبر بالأرواح يُعرَف فضله ... صبر الملوك وليس بالأجسام

(وهو إما بالفعل كتعاطي الأعمال الشاقَّة إما من العبادات) كأنْ يصلي حتىٰ ترم رجلاه، أو يصوم مواصلًا حتىٰ تسقط قوتُه (أو من غيرها) كالمشي الكثير ورفعِ الحجر الثقيل (وإما بالاحتمال) وهو الانفعالي (كالصبر علىٰ الضرب الشديد) بالمقارع (والمرض العظيم والجراحات الهائلة، وذلك قد يكون محمودًا إذا وافق الشرعَ) نصًّا أو قياسًا أو استحبابًا (ولكن المحمود التام هو الضرب الآخَر، وهو الصبر النفسي) وذلك بأن يكفَّ النفسَ (عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوىٰ) وبه تتعلَّق الفضيلة (ثم هذا الصبر[٣]) ضربان: (إن كان صبرًا عن) تناوُل (شهوة البطن والفرج سُمِّي عفَّة) فالعفة[٤] لا تتعلق إلا بالقوىٰ الشهوية، ولا تتعلق من

(١) الذريعة للراغب ص ٢٣١ - ٢٣٢.

(٢) هو أبو تمام الطائي، والبيت في ديوانه ص ٢٧٨ من قصيدة يهنئ فيها الواثق بالله العباسي بالخلافة ويعزيه بأبيه المعتصم.

(٣) في الجميع: الضرب.

(٤) الذريعة ص ٢٢٤.

القوىٰ الشهوية إلا بالمَلاذِّ الحيوانية، وهي المتعلقة بالغارينِ البطن والفرج دون الألوان الحسنة والألحان الطيبة والأشكال المنتظمة، والعفة أُسّ الفضائل، وإنما تتعلق بضبط القلب عن التطلُّع للشهوات البدنية وعن اعتقاد ما يكون جالبًا للبغي والعدوان، وتمامها يتعلق بحفظ الجوارح (**وإن كان عن احتمال مكروه**) وهو الضرب الثاني فهذا قد (**اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذي غلب عليه الصبرُ**) وأخصرُ من ذلك: اختلفت أساميه بحسب اختلاف مواقعه (**فإن كان**) ذلك (**في**) نزول (**مصيبة اقتُصِر**) به (**علىٰ اسم الصبر**) ولم يُتعدَّ به هذا الاسم (**وتضادُّه حالةٌ تسمَّىٰ: الجزع والهلع**) والحزن (**وهو إطلاق دواعي الهوىٰ ليسترسل في رفع الصوت وضرب الخدود**) ولدم الصدور (**وشقِّ الجيوب وغيرها**) ممَّا يشاكلها (**وإن كان**) ذلك (**في احتمال الغنىٰ**) فقد (**سُمِّي: ضبط النفس، وتضادُّه حالةٌ تسمىٰ: البَطَر**) وقال بعضهم[1]: ضبطُ النفس [يقال] في الأشياء الملذَّة، والصبر يقال في الأشياء المحزنة. وقال بعضهم: بل هما من الأسماء المترادفة علىٰ معنًىٰ واحد (**وإن كان**) ذلك (**في حرب ومقاتَلة سُمِّي شجاعة، ويضادُّه الجبنُ. وإن كان في كظم الغيظ**) وهو إمساك النفس عن قضاء وطرٍ (**والغضب سُمِّي حلمًا، ويضادُّه التذمُّر**) بالذال المعجمة. وإن كان في بذل المال وإنفاقه سُمِّي سخاء، ويضادُّه التبذير (**وإن كان**) ذلك (**في نائبة من نوائب الزمان مضجِرة**) أي مقلِقة (**سُمِّي سعة الصدر، ويضادُّه الضجر والتبرُّم وضِيق الصدر. وإن كان في إخفاء كلام**) وإمساكه في الضمير (**سُمِّي كتمان السر، وسُمِّي صاحبه كَتُومًا**) ويضادُّه الإفشاءُ (**وإن كان عن فضول العيش سُمِّي زهدًا، ويضادُّه الحرصُ. وإن كان صبرًا علىٰ قدْر يسير من الحظوظ سُمِّي قناعة، ويضادُّه الشَّرَهُ**) محرَّكة (**فأكثر أخلاق الإيمان داخل في الصبر، ولذلك لما سُئل ﷺ مرةً عن الإيمان قال: هو الصبر**) كما تقدم قريبًا (**لأنه أكثر أعماله وأعزُّها، كما قال**) ﷺ: (**الحج عرفة**) تقدم في كتاب التوبة، وفي كتاب

---

(١) أي صاحب الذريعة.

الحج (**وقد جمع الله تعالىٰ أقسام ذلك وسمَّىٰ الكل صبرًا**) في آية واحدة (**فقال: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ﴾ أي المصيبة ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي الفقر ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ أي المحاربة**) فهذا صبر عامٌّ، ولما كان أشقَّ شيءٍ علىٰ النفوس وأصعبه علىٰ الطباع وفيه عزائم الأمور اشترط الله علىٰ المتقين والصادقين والصابرين الصبر علىٰ الشدائد والمكاره، وحقَّق بالصبر صِدقهم وتقواهم، وأكمل به وصفهم وأعمال بِرِّهم فقال: (﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧] **فإذا هذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها**) فاختلفت الأسامي لذلك، واستدلُّوا بذلك علىٰ فضيلته في نفسه وأنه مقصود لذاته (**ومَن يأخذ المعاني من الأسامي يظن أن هذه الأحوال مختلفة في ذواتها وحقائقها من حيث رأىٰ الأسامي مختلفة**) وهذا نظرٌ قاصر (**والذي يسلك الطريق المستقيم وينظر بنور الله**) ممَّا أفيضَ به علىٰ بصيرته (**يلحظ المعاني أولاً فيطَّلع علىٰ حقائقها**) الأصلية (**ثم يلاحظ الأسامي، فإنها**) وُضعت (**دالَّةً علىٰ المعاني، فالمعاني هي الأصول، والألفاظ هي التوابع، ومَن يطلب الأصول من التوابع لا بد وأن يزلَّ**) قدمُه (**وإلىٰ الفريقين الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا﴾**) يعثر[1] كل ساعة ويخرُّ (﴿عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ﴾) لوعورة طريقه واختلاف أجزائه، ولذلك قابله بقوله: (﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا﴾) قائمًا سالمًا من العثار (﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ٢٢﴾) [الملك: ٢٢] مستوي الأجزاء والجهة (**فإن الكفار لم يغلطوا فيما غلطوا فيه إلا بمثل هذه الانعكاسات**) فكان سببًا لعثارهم (**نسأل الله حُسن التوفيق بكرمه ولطفه**) آمين.

(١) أنوار التنزيل للبيضاوي ٥/ ٢٣١.

بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف

(اعلمْ) هداك الله تعالىٰ (أن باعث الدين بالإضافة إلىٰ باعث الهوىٰ له ثلاثة أحوال:

إحداها: أن يقهر داعي الهوىٰ) ويصدمه مرةً (فلا تبقىٰ له قوة المنازعة) مع باعث الدين أصلًا (ويتوصل إليه بدوام الصبر) في أحواله كلها (وعند هذا يقال: مَن صبرَ ظفرَ) أي نال الفوز والفلاح، أو المراد: مَن صبرَ علىٰ مخاتلة عدوِّه ظفر به (والواصلون إلىٰ هذه الرتبة هم الأقلُّون) لصعوبة القيام بالدوام (فلا جَرَمَ هم الصدِّيقون المقرَّبون) الذين وصفهم الله تعالىٰ في كتابه العزيز فقال: (﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾) أقرُّوا بربوبيَّة المعبود وقيامه به وإحاطته عليه، وذلك خُلاصة التوحيد (﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾) علىٰ هذا الإقرار ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الآية [فصلت: ٣٠] (فهؤلاء لازَموا الطريقَ المستقيم) في التوحيد (واستووا علىٰ الصراط القويم، واطمأنت نفوسهم علىٰ مقتضَىٰ باعث الدين، وإياهم ينادي المنادي: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨﴾) [الفجر: ٢٧ - ٢٨] وهؤلاء هم السابقون.

(الحالة الثانية: أن تغلب دواعي الهوىٰ وتسقط بالكلِّية منازعةُ باعث الدين فيُسلِم نفسه إلىٰ جند الشيطان) فيستولي عليها (ولا يجاهد؛ ليأسه من المجاهدة، وهؤلاء هم الغافلون) الظالمون لأنفسهم (وهم الأكثرون، وهم الذين استرقَّتهم شهواتُهم) أي تملَّكتهم وجعلتهم كالأرِقَّاء (وغلبت عليهم شِقوتُهم) وسوء حظِّهم (فحكَّموا أعداءَ الله في قلوبهم التي هي سر من أسرار الله تعالىٰ) والمراد بها اللطيفة الربَّانية لا المُضغة اللحمانية، بدليل قوله: (وأمر من أموره، وإليهم الإشارة بقوله

تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ [السجدة: ١٣] وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام: ١٠٧] وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾ [البقرة: ٢٥٣] وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود: ١١٨ - ١١٩] **(وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فخسرت صفقتهم)** وبارت تجارتُهم **(وقيل لمَن قصد إرشادهم)** بلسان الوحي: (﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم: ٢٩ - ٣٠] **وهذه الحالة علامتها اليأس والقنوط والغرور بالأماني، وهو غاية الحمق)** ونهاية الجهل **(كما قال ﷺ: الكيِّس مَن دانَ نفسَه)** أي ملكها **(وعملَ لِما بعد الموت، والأحمق مَن أتبع نفسه هواها وتمنَّىٰ علىٰ الله)** الأماني. رواه أحمد والترمذي وابن ماجه من حديث شداد بن أوس، وقد تقدم في ذم الغرور **(وصاحب هذه الحالة إذا وُعظ قال: أنا مشتاق إلىٰ التوبة، ولكنها قد تعذَّرت عليَّ، فلست أطمع فيها. أو لم يكن مشتاقًا إلىٰ التوبة ولكن قال: إن الله غفور رحيم كريم، فلا حاجة به إلىٰ توبتي. وهذا المسكين قد صار عقله رقيقًا)** أي مملوكًا **(لشهوته، فلا يستعمل عقله إلا في استنباط دقائق الحِيَل التي بها يتوصَّل إلىٰ قضاء شهوته، فقد صار عقله في يد شهواته، كمسلم أسير في أيدي الكفار، فهم يستسخرونه)** أي يستخدمونه **(في رعاية الخنازير وحفظ الخمور وحملها)** من موضع إلىٰ موضع **(ومحلُّه عند الله تعالىٰ محل مَن يقهر مسلمًا أو يسلمه إلىٰ الكفار ويجعله أسيرًا عندهم؛ لأن تفاحُش جنايته سببه أنه سخَّر ما كان حقه أن لا يستسخره، وسلَّط مَن كان حقه أن يتسلَّط عليه، وإنما استحق المسلم أن يكون متسلِّطًا لِما فيه من معرفة الله وباعث الدين، وإنما يستحق الكافر أن يكون مسلَّطًا عليه لِما فيه من الجهل بالدين وباعث الشياطين، وحق المسلم علىٰ نفسه أوجبُ من حق غيره عليه، فمهما سُخِّر**

المعنىٰ الشريف الذي هو من حزب الله وجند الملائكة للمعنىٰ الخسيس الذي هو من حزب الشياطين المبعِدين عن الله تعالىٰ كان كمَن أرقَّ مسلمًا لكافر) أي جعله رقيقًا له **(بل هو كمَن قصد الملك المنعِم عليه)** المحسن له **(فأخذ أعزَّ أولاده وسلَّمه إلىٰ)** يد **(بعض**[1] **أعدائه، فانظر كيف يكون كفرانه لنعمته واستيجابه)** أي استحقاقه **(لنقمته؛ لأن الهوىٰ أبغض إله عُبد في الأرض عند الله تعالىٰ)** وقد رُوي ذلك من حديث أبي أمامة بلفظ: «أبغضُ إله عُبد عند الله في الأرض هو الهوىٰ». هكذا رواه الطبراني في الكبير بإسناد ضعيف[2] **(والعقل أعزُّ موجود خُلق علىٰ وجه الأرض)** وقد وردت فيه أخبار تقدم ذِكرُها في آخر كتاب العلم.

(الحالة الثالثة: أن تكون الحرب سِجالاً) ودولاً **(بين الجندين، فتارةً له اليد)** أي الغلبة والقهر **(عليها، وتارة لها عليه، وهذا من المجاهدين يُعَدُّ مثله لا من الظافرين، وأهل هذه الحالة هم الذين)** قال الله تعالىٰ فيهم: (﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٠٢﴾ [التوبة: ١٠٢] **هذا باعتبار القوة والضعف، وتتطرَّق إليه أيضًا ثلاثة أحوال باعتبار عدد ما يصبر عنه، فإنه)** لا يخلو **(إما أن يغلب جميعَ الشهوات، أو لا يغلب شيئًا منها، أو يغلب بعضها دون بعض)** فالحالة الأولىٰ للسابقين، والثانية للظالمين، والثالثة للمقتصدين **(وتنزيل قوله تعالىٰ:** ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٠٢﴾ **علىٰ مَن غلب بعض الشهوات دون بعض أَولىٰ)** من تنزيله علىٰ الحالة الثانية **(والتاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقًا يشبَّهون بالأنعام، بل هم أضلُّ سبيلاً؛ إذ البهيمة لم تُخلَق لها المعرفة والقدرة التي بها تجاهد مقتضَىٰ الشهوات، وهذا قد خُلق ذلك له وعطَّله)** أي أهمله **(فهو الناقص حقًّا، المدبر يقينًا، ولذلك قيل:**

---

(١) في الجميع: أبغض.

(٢) لفظ الطبراني في المعجم الكبير ٨/ ١٢٣: «ما تحت ظل السماء من إله يعبد من دون الله أعظم عند الله من هوىٰ متبع».

ولـم أرَ في عيـوب النـاس شـيئًا[١] كنقـص القادريـن علـىٰ التمـام)[٢]

وفي نسخة: نقصًا، بدل: شيئًا. فإنه[٣] قبيح بذي العقل أن يكون بهيمة وقد أمكنه أن يكون إنسانًا، أو إنسانًا وقد أمكنه أن يكون ملَكًا، وأن يرضىٰ بقنية معارة وحياة مستَرَدَّة وله أن يتَّخذ قنية مخلَّدة وحياة مؤبَّدة (**وينقسم الصبر أيضًا باعتبار اليسر والعسر إلىٰ ما يشقُّ علىٰ النفس فلا يمكن الدوام عليه إلا بجهد جهيد وتعب شديد، ويسمَّىٰ ذلك تصبُّرًا**) وصاحبه: متصبِّر، أي متكلِّف الصبر وحامل نفسه عليه (**وإلىٰ ما يكون من غير شدة تعب بل يحصل بأدنىٰ تحامُل علىٰ النفس، ويُخَص ذلك باسم الصبر**) وإلىٰ ما يكتسب الصبر ويُبتلَىٰ به، ويُخَص ذلك باسم الاصطبار، فالمراتب ثلاثة، وهي في الوصف والكيف، وهناك مرتبتان أُخريان في القدْر والكم وهما الصبور والصَّبَّار، فالصبور: العظيم الصبر، الذي صبره أشد من صبر غيره. والصَّبَّار: الشديد الصبر. فكملت المراتب خمسة، وأعمُّها: الصابر (**وإذا دامت التقوىٰ وقويَ التصديقُ بما في العاقبة من الحسنىٰ تيسَّر الصبرُ**) وسهُل عليه (**ولذلك قال تعالىٰ:** ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾) [الليل: ٥ - ٧] فتيسيره للحالة اليسرىٰ هو إدامته علىٰ الصبر علىٰ طاعته وتسهيلها عليه (**ومثال هذه القسمة قدرة المصارع علىٰ غيره، فإن الرجل القوي يقدر علىٰ أن يصرع الضعيف بأدنىٰ حملة**) عليه (**وأيسر قوة بحيث لا يلقاه في مصارعته**) إياه (**إعياء ولا لُغوب**) أي تعب (**ولا تضطرب فيه نفسُه، ولا ينبهر**) أي لا تنقطع نفسه من الضعف (**ولا يقوَىٰ علىٰ أن يصرع الشديدَ إلا بتعب ومزيد جهد وعَرق جبين**) وهو كناية عن الشدة (**فهكذا تكون المصارعة بين باعث الدين وباعث الهوىٰ، فإنه علىٰ الحقيقة صراع بين جنود الملائكة وجنود الشياطين، ومهما اندفعت الشهوات**

---

(١) في الجميع: عيبًا.

(٢) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه ص ٤٨٣.

(٣) الذريعة للراغب ص ٦١.

وانقمعت وتسلَّط باعثُ الدين واستولىٰ) أي غلب وقهر **(وتيسَّر الصبر بطول المواظبة أورث ذلك مقامَ الرضا)** وباعتبار ذلك يكون الصبر الرضا، أي ينفتح له بابُه **(كما سيأتي في)** آخر **(كتاب الرضا)** إن شاء الله تعالىٰ **(فالرضا أعلىٰ)** مقامًا **(من الصبر، ولذلك قال ﷺ: اعبد الله علىٰ الرضا، فإن لم تستطع ففي الصبر علىٰ ما تكره خيرٌ كثير)** قال العراقي[1]: رواه الترمذي من حديث ابن عباس.

(وقال بعض العارفين: أهل الصبر علىٰ ثلاث مقامات، أولها: تركُ الشكوىٰ، وهذه درجة التائبين. والثانية: الرضا بالمقدور، وهذه درجة الزاهدين. والثالثة: المحبَّة لِما يصنع به مولاه، وهذه درجة الصدِّيقين) وهذه المراتب -كما تراها- علىٰ طريق الترقِّي، فالتحقُّق بالصبر يفتح باب الوصول إلىٰ التلذُّذ بالبلوىٰ، وهذه حالة التائبين، ثم إلىٰ مقام الرضا، ثم إلىٰ مقام المحبَّة **(وسنبيِّن في كتاب المحبة)** إن شاء الله تعالىٰ **(أن مقام المحبة أعلىٰ من مقام الرضا، كما أن مقام الرضا أعلىٰ من مقام الصبر)** اعلمْ أن متعلقات الرضا والصبر والشكر والمحبة متَّحدة لا اختلاف فيها، فإذا اتَّحدت أعمال المقامات فلا يصح التفاضل بينها إلا بأسبابها وأحوالها التي هي حداث[2] علىٰ الأعمال، فانظر فليس الخبر كالعيان، إن السالك لا يُدعَىٰ باسم عمله إنما يُدعَىٰ باسم حاله، فتقول: هذا حاله الصبر، وهذا حاله الرضا، وهذا حاله الشكر، وهذا حاله المحبة؛ لأن حال الصبر تصدر عنه الطاعةُ بعد ألم ومدافعة العدو الداعي إلىٰ المعصية وبعد مشقَّة ومقاساة، وحال الرضا تصدر عنه الطاعة باستسلام وانقياد وإذعان بلا منازع، وحال الشكر تصدر عنه الطاعة بفرح وسرور واهتمام، وحال المحبة تصدر عنه الطاعة بحلاوة وطلاوة ونشاط، ولو بذل روحه ما أحسَّ بالملل. ولهذا الكلام بقية يأتي ذِكرُها بعدُ **(وكان**

---

(١) المغني ٢/ ١٠١٤. وقد تقدم هذا الحديث في كتاب رياضة النفس وفي أول كتاب الصبر والشكر، وذكرنا أن هذا المتن ليس عند الترمذي.

(٢) كذا، وهو خطأ مطبعي، والصواب: حواث. وانظر: سراج العابدين ٢/ ٣٣٨ (ط دار الفكر).

هذا الانقسام يجري في صبر خاص وهو الصبر علىٰ المصائب والبلايا) لا في صبر عامٍّ شامل لجميع أفراده، فقد رُوي عن الحسن وغيره: الصبر علىٰ ثلاثة معانٍ: صبر عن المعصية وهو أفضلها، وصبر علىٰ الطاعة، وصبر علىٰ المصائب. وقد رُوي ذلك من حديث ابن عباس[١]: «الصبر ثلاثة: فصبر علىٰ المصيبة، وصبر علىٰ الطاعة، وصبر عن المعصية ... الحديث. فهذه التقاسيم باعتبار متعلق الصبر.

(واعلمْ أن الصبر أيضًا ينقسم باعتبار حكمه إلىٰ فرض ونفل ومكروه ومحرَّم. فالصبر عن المحظورات فرض، وعلىٰ المكاره نفل، والصبر علىٰ الأذىٰ المحظور محظور، كمَن تُقطَع يده أو يد ولده وهو يصبر عليه ساكتًا، وكمَن يُقصَد حريمه بشهوة محظورة فتهيج غيرته فيصبر عن إظهار الغيرة ويسكت علىٰ ما يجري علىٰ أهله، فهذا الصبر محرَّم، والصبر المكروه هو الصبر علىٰ أذىٰ يناله بجهة مكروهة في الشرع) وهذا يدلُّك علىٰ أن الصبر لا يُراد لذاته. ولفظ القوت: الصبر فرض ونفل، يُعرَف ذلك بمعرفة الأحكام، فما كان أمرًا أو إيجابًا فالصبر عليه أو عنه فرض، وما كان حثًّا أو ندبًا فالصبر عليه أو عنه ندبٌ وفضل **(فليكن الشرع مَحَكَّ الصبرِ)** فما كان المصبور عليه أو عنه من المأمورات فهو فرض، أو من المندوبات فهو فضل **(فيكون الصبر نصف الإيمان، ولا ينبغي أن يخيَّل إليك أن جميعه محمود، بل المراد منه)** أي من الصبر المحمود **(أنواع من الصبر مخصوصة)** وقال[٢] القطب الجيلاني قُدِّس سره في فتوح الغيب[٣]: لا بد للعبد من أمر يفعله ونهي يجتنبه وقدَرٍ يصبر عليه. ا.هـ. وذلك متعلق بطرفين: طرف من جهة الرب، وطرف من جهة العبد. فالأول هو أنَّ له سبحانه علىٰ عبده حكمين: كوني قدَري، وشرعي ديني.

---

(١) بل من حديث علي بن أبي طالب، كما سيأتي قريبا.

(٢) فيض القدير للمناوي ٤/ ٢٣٤ - ٢٣٥، نقلا عن كتاب عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم ص ٤٨ - ٥٠ باختصار.

(٣) فتوح الغيب ص ٦ (ط - مكتبة مصطفىٰ البابي الحلبي)، وعبارته: «لا بد لكل مؤمن في سائر أحواله من ثلاثة أشياء: أمر يمتثله، ونهي يجتنبه، وقدر يرضىٰ به».

فالكوني متعلق بخَلْقه، والشرعي بأمره. فالأول يتوقَّف حصول الثواب فيه علىٰ الصبر، والثاني لا يتم إلا به، فرجع الدين كلُّه إلىٰ هذه القواعد الثلاثة: الصبر علىٰ المقدور، وترك المحظور، وفعلُ المأمور. وأما الطرف الثاني فإن العبد لا ينفكُّ عن هذه الثلاثة أيضًا، ولا يسقُط عنه ما بقي التكليف، فقيام عبودية القدَر علىٰ ساق الصبر، ولا تستوي إلا عليه كما لا تستوي السنبلة إلا علىٰ ساقها، وهذه الثلاثة قد وقعت الإشارة إليها بآية ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾ [لقمان: ١٧].

بيان مَظانِّ الحاجة إلى الصبر وأن العبد لا يستغني عنه في حال من الأحوال

(اعلمْ) وفَّقك الله تعالىٰ (أن جميع ما يلقاه العبد في هذه الحياة) الدنيا (لا يخلو من نوعين، أحدهما هو الذي يوافق هواه، والآخَر هو الذي لا يوافقه بل يكرهه. وهو محتاج إلىٰ الصبر في كل واحد منهما، وهو في جميع الأحوال لا يخلو عن أحد هذين النوعين أو عن كليهما، فهو إذًا لا يستغني قط عن الصبر.

النوع الأول: ما يوافق الهوىٰ وهو الصحة) في البدن (والسلامة) من الآفات (والمال والجاه وكثرة العشيرة) من بنيه وبني عمِّه (واتساع الأسباب) المحصِّلة لذلك (وكثرة الأتباع) من المماليك والأُجَراء (والأنصار) والأعوان (وجميع مَلاذِّ الدنيا، وما أحوج العبد إلىٰ الصبر علىٰ هذه الأمور، فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهماك في مَلاذِّها المباحة [منها][1]، أخرجه ذلك إلىٰ البَطَر والطغيان، فإن الإنسان لَيطغىٰ أنْ رآه استغنىٰ) كما قال الله تعالىٰ في كتابه العزيز ردعًا لمَن كفر بنعمة الله لطغيانه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦﴾ أي يتجاوز عن الحدود ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٦ - ٧] أي رأىٰ نفسَه، و«استغنىٰ» مفعوله الثاني؛ لأنه بمعنىٰ علمَ، ولذا جاز أن يكون فاعله ومفعوله ضميرين لواحد؛ قاله البيضاوي[2] (حتىٰ قال بعض العارفين: البلاء يصبر عليه المؤمن، والعوافي لا يصبر عليها إلا صدِّيق) ولفظ القوت: ويقال: إن البلاء والفقر يصبر عليهما المؤمن ... والباقي سواء.

---

(١) زيادة من الجميع.

(٢) أنوار التنزيل ٥/ ٣٢٥.

(**وقال سهل: الصبر علىٰ العافية أشد من الصبر علىٰ البلاء**) ولفظ القوت: وكان سهل يقول: الصبر علىٰ العوافي أشد من الصبر علىٰ البلاء.

(و) لذلك (**لما فُتحت أبواب الدنيا**) من سائر البلاد (**علىٰ الصحابة** ﷺ) وذلك في خلافة عمر رضي الله عنه فنالوا من العيش واتَّسعوا (**قالوا: ابتُلينا بفتنة الضَّرَّاء فصبرنا، وابتُلينا بفتنة السَّرَّاء فلم نصبر**) فعظَّموا الاختبارَ بالسَّرَّاء وهو ما سرَّ علىٰ الاختبار بالضَّرَّاء وهو ما ضرَّ. قال الطبراني[1]: حدثنا عبد الرحمن بن جابر الطائي، حدثنا بشر بن شعيب بن أبي حمزة، عن أبيه، عن الزهري، عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال: قال عبد الرحمن بن عوف: بُلينا بالضَّرَّاء فصبرنا، وبُلينا بالسَّراء فلم نصبر (**ولذلك حذَّر الله عباده من فتنة المال والزوج والولد فقال:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾) [المنافقون: ٩] لأن فيهما ما يسُرُّ فيشغل عن ذِكر الله تعالىٰ (**وقال** عز وجل: ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾) [التغابن: ١٤] لأن في الأزواج والأولاد ما يُفرَح به فيوافق فيهم الهوىٰ ويخالف بودِّهم المولىٰ، فصاروا أعداء في العقبىٰ لِما يؤول إليه من شأنهم.

(**وقال** ﷺ: **الولد مَبخلة مَجبنة مَحزنة**) رواه أبو يعلىٰ الموصلي من حديث أبي سعيد بلفظ: «الولد ثمرة القلب، وإنه مَبخلة مَجبنة مَحزنة». وقد تقدم. ورواه أحمد وابن سعد والطبراني من حديث يعلىٰ بن مُرَّة العامري: «الولد مَبخلة مَجبنة، وإن آخر وطأة وطئها الله بوجٍّ». وتقدم أيضًا.

(**ولما نظر** ﷺ **إلىٰ ولده الحسن** رضي الله عنه **يتعثَّر في قميصه نزل عن المنبر واحتضنه وقال: صدق الله** ﴿أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ **إني لما رأيت ابني**) هذا (**يتعثَّر**) في قميصه (**لم أملك نفسي أنْ أخذته**) قال العراقي[2]: رواه أصحاب

(١) مسند الشاميين ٤/ ٢٤١ - ٢٤١.

(٢) المغني ٢/ ١٠١٤.

السنن من حديث بريدة، وقالوا: الحسن والحسين. وقال الترمذي: حسن غريب. انتهىٰ.

قلت: رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وأبو يعلىٰ وابن خزيمة وابن حبان والحاكم والبيهقي والضياء، كلهم من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه رفعه قال: «صدق الله ورسوله ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ نظرت إلىٰ هذين الصبيين يمشيان ويعثُران فلم أصبر حتىٰ قطعت حديثي ورفعتهما».

وروىٰ ابن ماجه من حديث يوسف بن عبد الله بن سلام قال: جاء الحسن والحسين يستبقان إلىٰ النبي ﷺ، فضمَّهما إليه وقال: «الولد مَبخلة مَجبنة».

وروىٰ العسكري في الأمثال والحاكم في صحيحه من طريق معمر عن ابن خثيم عن محمد بن الأسود بن خلف عن أبيه أن النبي ﷺ أخذ حسنًا فقبَّله، ثم أقبل عليهم فقال: «إن الولد مجبنة مبخلة»، وأحسبه قال: مَجهلة. وتقدم.

وروىٰ العسكري من حديث عمر بن عبد العزيز قال: زعمت المرأة الصالحة خولة بنت حكيم أن رسول الله ﷺ خرج وهو محتضن حسنًا أو حسينًا وهو يقول: «إنكم لتجبِّنون وتجهِّلون، وإنكم لَمن ريحان الله»(١).

(**ففي ذلك عِبرة لأولي الأبصار**) وقد جمع الله بين ما سرَّ وضرَّ، وجعلهما من وصف المتقين، ومدحهم بالإحسان معهما، فقال تعالىٰ: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ

---

(١) حديث أبي سعيد وحديث يعلىٰ بن مرة وحديث يوسف بن عبد الله وحديث الأسود بن خلف وحديث خولة بنت حكيم، تقدمت كلها في كتاب ذم البخل وحب المال. أما حديث بريدة فرواه: أحمد في مسنده ٣٨/ ٩٩. وأبو داود في سننه ٢/ ١٠٨. والترمذي في سننه ٦/ ١١٨. والنسائي في سننه ص ٢٣١، ٢٦١. وابن ماجه في سننه ٥/ ٢١٥. والبيهقي في السنن الكبرىٰ ٣/ ٣٠٩، ٦/ ٢٧٣. وابن خزيمة في صحيحه ٢/ ٣٥٥، ٣/ ١٥٢. وابن حبان في صحيحه ١٣/ ٤٠٢ - ٤٠٣. والحاكم في المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ٤١٥، ٤/ ٣٠٨.

وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٤] (فالرجل كل الرجل مَن يصبر على العافية، ومعنى الصبر عليها: أن لا يركن إليها، ويعلم أن كل ذلك مستودَع عنده) أي بمنزلة الوديعة (وعسى أن يُسترجَع على القُرب) إلى المودِع (وأن لا يرسل نفسه في الفرح بها) والركون إليها (ولا ينهمك في التنعُّم واللذة واللهو واللعب، وأن يؤدي حقوق الله تعالى في ماله بالإنفاق) منه في المواضع اللائقة (وفي بدنه ببذل المعونة للخلق) على قدر استطاعته (وفي لسانه ببذل الصدق، وكذلك في سائر ما أنعم الله به عليه) وقال صاحب القوت: ومن الصبر: صبرٌ على العوافي أن لا يجريها في مخالفة، والصبر على الغِنى أن لا يبذله في الهوى، والصبر على النعمة أن لا يستعين بها على معصية. فحاجة المؤمن إلى الصبر في هذه المعاني ومطالبته بالصبر عليها كحاجته ومطالبته بالصبر على المكاره والفقر والصبر على الشدائد والضرَّاء (وهذا الصبر متصل بالشكر، فلا يتم إلا بالقيام بحق الشكر، كما سيأتي) إن شاء الله تعالى (وإنما كان الصبر على السَّرَّاء أشد لأنه مقرون بالقدرة) والتمكُّن (ومن العصمة أن لا تقدر) هو من قول عليٍّ رضي الله عنه، كما تقدم. والمشهور على الألسنة: أن لا تجد (والصبر على الحجامة والفصد إذا تولاَّه غيرُك أيسر من الصبر على فصدك نفسك وحجامتك نفسك، والجائع عند غَيبة الطعام أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمةُ الطيبة اللذيذة) المشتهاة (وقدرَ عليها) من غير مانع حقيقي أو حكميٍّ (فلهذا عظُمت فتنةُ السَّرَّاء.

النوع الثاني: ما لا يوافق الهوى والطبعَ) ولا يلائمه (وذلك لا يخلو إما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصي، أو لا يرتبط باختياره كالمصائب والنوائب، أو لا يرتبط) أوله (باختياره ولكن له اختيار في إزالته كالتشفِّي من المؤذي بالانتقام منه. فهذه ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما يرتبط باختياره، وهو سائر أفعاله التي توصَف بكونها طاعة أو معصية، وهما ضربان:

الضرب الأول: الطاعة، والعبد يحتاج إلىٰ الصبر عليها، فالصبر علىٰ الطاعة شديد) وفيه مشقَّة (لأن النفس بطبعها تنفر عن) ذل (العبودية وتشتهي) عز (الربوبية، ولذلك قال بعض العارفين: ما من نفس إلا وهي مضمرة ما أظهره فرعون من قوله: أنا ربُّكم الأعلىٰ. ولكن فرعون وجد له مجالاً وقبولاً فأظهر) ما كان مضمرًا في قلبه (إذ استخفَّ قومَه) أي وجدهم أخِفَّاء العقول (فأطاعوه) وامتثلوا له (وما من أحد إلا وهو يدَّعي ذلك مع عبده وخادمه وأتباعه وكلِّ مَن هو تحت قهره وطاعته، وإن كان ممتنعًا من إظهاره) بلسانه (فإنَّ امتعاضه) أي احتقاره (وغيظه عند تقصيرهم في خدمته واستبعاده ذلك ليس يصدر إلا عن إضمار الكبر ومنازعة الربوبيَّة في رِداء الكبرياء) يشير إلىٰ الحديث القدسي المتقدم ذكِره: «مَن نازعني رِداء الكبرياء قصمتُه» (فإذًا العبودية شاقَّة علىٰ النفس مطلقًا. ثم من العبادات ما يُكرَه بسبب الكسل كالصلاة، ومنها ما يُكره بسبب البخل كالزكاة، ومنها ما يُكره بسببهما جميعًا كالحج والجهاد) فإنهما عبادتان مشتركتان في المال والبدن (فالصبر علىٰ الطاعة صبرٌ علىٰ الشدائد، ويحتاج المطيع إلىٰ الصبر علىٰ طاعته في ثلاثة أحوال:

الأولىٰ: قبل الطاعة) أي قبل الشروع فيها (وذلك في تصحيح النية والإخلاص، والصبر عن شوائب الرياء ودواعي الآفات وعند العزم[1] علىٰ الإخلاص والوفاء، وذلك من الصبر الشديد عند مَن يعرف حقيقة النية والإخلاص) علىٰ ما سيأتي بيانه في كتاب الإخلاص (وآفات الرياء ومكائد النفس) علىٰ ما تقدم في كتاب ذم الرياء (وقد نبَّه عليه ﷺ؛ إذ قال: إنما الأعمال بالنية، ولكل امرئ ما نوىٰ) متفق عليه من حديث عمر، وقد تقدم[2] (وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥] ولهذا) المعنىٰ (قدَّم اللهُ تعالىٰ الصبرَ علىٰ العمل فقال جلَّ ذِكرُه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾) [هود: ١١] أشار إليه صاحب القوت، وهذا يسمَّىٰ: الصبر لله.

---

(١) كذا، والصواب: عقد العزم. كما في الجميع.

(٢) في كتاب آداب الأكل.

(الحالة الثانية: حالة العمل كيلا يغفل عن الله تعالىٰ في أثناء عمله ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه، ويدوم علىٰ شرط الأدب إلي آخر العمل الأخير فيلازم الصبرَ عن دواعي الفتور إلىٰ الفراغ منه) ويتأنَّىٰ ويترك العجلة حتىٰ ينقضي صحيح الأركان، كامل السنن والهيئات **(وهذا أيضًا من شدائد الصبر، ولعله المراد بقوله تعالىٰ: ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾** [العنكبوت: ٥٨ - ٥٩] **أي صبروا إلىٰ تمام العمل)** وهذا يسمَّىٰ: الصبر مع الله.

(الحالة الثالثة): الصبر **(بعد الفراغ من العمل؛ إذ يحتاج إلىٰ الصبر عن إفشائه لغيره و)** عن **(التظاهر به للسمعة والرياء، والصبر عن النظر إليه بعين العُجب، وعن كل ما يُبطِل عمله ويُحبِط أثره، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ۝﴾** [محمد: ٣٣] **وكما قال تعالىٰ: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾** [البقرة: ٢٦٤] **فمَن لم يصبر بعد الصدقة عن المنِّ والأذىٰ فقد أبطل عمله)** وأحبط أجره. وقال بعض السلف: لا يتم المعروفُ إلا بثلاث: تعجيله، وتصغيره، وكتمه[(١)]. وكذلك الصبر بترك التكبُّر به علىٰ أحد من العباد والإدلال به علىٰ الله، بل رؤية المنَّة والفضل، وما أحوج العبادة إلىٰ الصبر في عدم دخول هذه الآفات عليها، وهذا القسم يسمَّىٰ: الصبر بالله، وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧] **(والطاعات تنقسم إلىٰ فرض ونفل، وهو محتاج إلىٰ الصبر عليهما جميعًا، وقد جمعهما الله تعالىٰ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾** [النحل: ٩٠] **فالعدل هو الفرض، والإحسان هو النفل، وإيتاء ذي القربىٰ هو المروءة وصلة الرحم، وكل ذلك يحتاج إلىٰ صبر.**

الضرب الثاني: المعاصي، فما أحوج العبد إلىٰ الصبر عنها، وقد جمع الله

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٣/ ١٩٨ والبيهقي في شعب الإيمان ١٣/ ٣٢٩ عن جعفر بن محمد الصادق. وعند البيهقي: شكره، بدل: كتمه. ورواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٣/ ٧١ عن ابن عباس، وزاد: «فإنه إذا عجله هنأه، وإذا صغره عظمه، وإذا ستره تممه».

أنواع المعاصي في قوله: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ﴾) وقال صاحب القوت: ومن الصبر: كفُّ الأذىٰ عن الخلق، وهو مقام العادلين، يدخل في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ ثم احتمال الأذىٰ من الخلق، وهو مقام المحسنين، يدخل في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ ومن الصبر: الصبر علىٰ الإنفاق وإعطاء أهل الحقوق حقوقهم الأقرب فالأقرب، وهذا مقام المقرَّبين[١]، يدخل في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ومنه: الصبر عن الفحشاء، وهو الأمر الفاحش في العلم والإيمان. والصبر عن المنكر، وهو ما أنكره العلماء. والصبر عن البغي، وهو التطاول والغلوُّ ومجاوزة الحد بالكبر والإسراف في أمور الدنيا. فهذه الآية جامعة لمعنىٰ الصبر، وهي قطب القرآن، ثلاث منها الصبر علىٰ العدل والإحسان والإعطاء، وثلاث منها الصبر عن الفحشاء والمنكر والبغي. وكان ابن مسعود يقول: هذه الآية أجمعُ آيةٍ في كتاب الله لأمر ونهي[٢].

(**وقال ﷺ: المهاجر مَن هجر السوءَ، والمجاهد مَن جاهد هواه**) قال العراقي[٣]: رواه ابن ماجه بالشطر الأول، والنسائي في الكبرىٰ بالشطر الثاني، كلاهما من حديث فضالة بن عبيد بإسنادين جيدين، وقد تقدما[٤].

(**والمعاصي مقتضَىٰ باعث الهوىٰ**) وفي نسخة: بواعث الهوىٰ (**وأشد أنواع الصبر عن المعاصي الصبر عن المعاصي التي صارت مألوفة**) للطبع (**بالعادة**) واعتاد عليها وأنسَ بها (**فإن العادة**) كما قالوا (**طبيعة خامسة**) زائدة علىٰ الطباع الأربعة (**فإذا انضافت العادة إلىٰ الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان علىٰ**

---

(١) في القوت: المنفقين.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد ص ١٤٨، والحاكم في المستدرك علىٰ الصحيحين ٢/ ٤٢١، والطبري في جامع البيان ١٤/ ٣٣٧، والطبراني في المعجم الكبير ٩/ ١٤٢، والبيهقي في شعب الإيمان ٤/ ٨٣. وفي بعض الروايات: للخير والشر. وفي بعضها: للحلال والحرام.

(٣) المغني ٢/ ١٠١٤.

(٤) في كتاب آداب الصحبة، وفي كتاب العزلة، وفي كتاب رياضة النفس.

جند الله تعالىٰ، فلا يقوَىٰ باعثُ الدين علىٰ قمعهما وإزالتها، ثم إن كان ذلك الفعل مما يتيسَّر فعلُه كان الصبر عنه أثقل علىٰ النفس) وأشد (كالصبر عن معاصي اللسان من الغِيبة، والكذب، والمِراء، والثناء علىٰ النفس تعريضًا وتصريحًا، وأنواع المزح المؤذي للقلوب، وضروب الكلمات التي يُقصَد بها الإزراء والاستحقار، و) من ذلك (ذِكرُ الموتىٰ والقدح فيهم وفي علومهم وسِيَرهم) وأحوالهم (ومناصبهم، فإنَّ ذلك في ظاهره غيبة، وفي باطنه ثناء علىٰ النفس) ومدحٌ لها (فللنفس فيه شهوتان، إحداهما: نفيُ الغير، والأخرىٰ: إثبات نفسه، وبها) أي بهذه الشهوة. وفي نسخة: بهما (تتم له الربوبية التي هي) مضمَرة (في طبعه، وهي ضد ما أُمِر به من العبودية) في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦] (ولاجتماع الشهوتين وتيسُّر تحريك اللسان ومصير ذلك معتادًا في المحاورات يعسُر الصبر عنها، وهي أكثر الموبقات حتىٰ بطل استنكارُها واستقباحها من القلوب) وذلك (لكثرة تكريرها وعموم الأُنس بها، فترىٰ الإنسان يلبس حريرًا مثلاً فيستبعد غاية الاستبعاد، ويطلق لسانَه طول النهار في أعراض الناس فلا يستنكر ذلك، مع ما ورد في الخبر من أن الغيبة أشد من الزنا) رواه ابن النجار من حديث جابر، والديلمي(١) من حديث أبي سعيد. وتمام الحديث: «وإن الرجل يزني فيتوب فيتوب الله عليه، وإن صاحب الغيبة لا يغفر الله له حتىٰ يغفر له صاحبُه». وقد تقدم في آفات اللسان.

(ومَن لم يملك لسانه) وفي نسخة: نفسه (في المحاورات ولم يقدر علىٰ الصبر علىٰ ذلك فيجب عليه العزلة والانفراد) عن الناس (فلا ينجيه) من ذلك (غيرُه، فالصبر علىٰ الانفراد أهون من الصبر علىٰ السكوت مع المخالطة) معهم (وتختلف شدة الصبر في آحاد المعاصي باختلاف داعية تلك المعصية في قوتها وضعفها، وأيسر من حركةِ اللسان حركةُ الخواطر) من الباطن (باختلاج الوساوس، فلا جَرَمَ يبقىٰ حديث النفس في العزلة، ولا يمكن الصبر عنه أصلاً إلا بأن يغلب علىٰ القلب

---

(١) الفردوس بمأثور الخطاب ٣/ ١١٦ من حديث أبي سعيد وجابر معًا.

همٌّ آخر في الدين يستغرقه) ويستولي عليه (كمَن أصبح وهمومه همٌّ واحد) أي اجتمعت في همٍّ واحد ولم تتشعَّب به (وإلا فإن لم يستعمل الفكر في شيء معيَّن لم يُتصور فتور الوسواس عنه) أبدًا.

(القسم الثاني: ما لا يرتبط هجومه باختياره وله اختيار في دفعه، كما لو أوذي بفعل أو قول وجُني عليه في نفسه أو ماله، فالصبر علىٰ ذلك بترك المكافأة تارةً يكون واجبًا، وتارة يكون فضيلة. قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم: ما كنا نعدُّ إيمان الرجل إيمانًا إذا لم يصبر علىٰ الأذىٰ) ولفظ القوت: قال بعض العلماء: ما كنا نعدُّ إيمان مَن لم يؤذَ فيحتمل الأذىٰ ويصبر عليه إيمانًا. وقد فعل الله ذلك بالمؤمنين اختبارًا، وأخبر أن ذلك ليس منه عذابًا وإنما هو فتنة [لمن أراد فتنته] وبلاء من الناس، فصار ذلك فتنة عليهم وابتلاء لهم، وصار رحمة للمؤذَىٰ وخيرًا في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠] أي ليس ذلك عذابًا إنما هو رحمة باطنة، كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦ كَلَّاۖ﴾ [الفجر: ١٦ - ١٧] أي لم أُهِنْك بالفقر، كما لم أكرم الآخر بالنعيم إكرامًا. وعلىٰ [معنىٰ] هذا خاطب نبيَّه محمدًا ﷺ بالصبر الذي أمره به فقال: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾ [ص: ١٧] فسلاَّه به وفضَّله عليه. ومن الصبر: حبسُ النفس عن المكافأة [والصبر] علىٰ الأذىٰ توكُّلاً علىٰ المولىٰ (وقال الله ﷻ: ﴿وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ۝١٢﴾) [إبراهيم: ١٢] وهذا صبر أهل الخصوص، وقد قال بعض أهل المعرفة: لا يثبُت لعبد مقامٌ في التوكل حتىٰ يؤذَىٰ ويصبر علىٰ الأذىٰ. وقد ذكره الله تعالىٰ في قوله: ﴿وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ﴾ الآية.

(وقسم رسول الله ﷺ مرةً مالاً، فقال بعض الأعراب من المسلمين: هذه قسمة ما أُريدَ بها وجه الله. فأُخبِر به رسول الله ﷺ، فاحمرَّت وَجْنتاه ثم قال: رحم الله أخي موسىٰ، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر) قال ذلك يوم حنين إذ أعطىٰ

الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن مائة من الإبل، وأعطىٰ غيرهم أقلَّ من ذلك، فقال رجل: إن هذه القسمة ما أريدَ بها وجه الله. فقاله ﷺ. رواه أحمد والشيخان من حديث ابن مسعود، وقد تقدم[1].

(وقال تعالىٰ) لحبيبه ﷺ: (﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤٨] وقال تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾) [المزمل: ١٠] بعد قوله: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل: ٩] ففيهما أن مقام التوكُّل لا يثبُت [للعبد] حتىٰ يصبر علىٰ الأذىٰ، وهو أول مقام الرضا (وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ الآية [الحجر: ٩٧ - ٩٨] وقال تعالىٰ: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾) [آل عمران: ١٨٦] ففي أول الآية إشارة إلىٰ المقام الثاني من مقامات الرضا وهو صبر النفس علىٰ أحكام البلاء، وفي السياق الذي يليه إشارة إلىٰ أول مقام الرضا وهو الصبر علىٰ الأذىٰ، وفي آخره قرن التقوىٰ بالصبر، والتقوىٰ جُمَّاع كل خير، كما أن الصبر داخل في كل خير وبر، فمَن جمعهما أوتي عزائم الأمور وكان من المحسنين (أي إن تصبروا علىٰ) الأذىٰ و(المكافأة) وتتَّقوا عند الابتلاء والمكاره، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف: ٩٠] (ولذلك مدح الله تعالىٰ العافين عن حقوقهم في القصاص وغيره فقال تعالىٰ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾) [النحل: ٢٦١] وقال تعالىٰ: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ الآية [الشورىٰ: ١٤] ثم قال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورىٰ: ٤٣] فالأول عنىٰ به المكافأة، والانتصار بالحق من العدل، والعدل حسن. والثاني هو الصبر، والعفو من الإحسان والفضل، وهو أحسن.

---

(١) في كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة.

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ الآية [الزمر: ١٨] فاستماع القول هو العدل، واتِّباع الأحسن هو العفو، وفيه المدح بالهداية والعقل، وهذا مقام المخبتين، قيل: هم الذين لا يَظلمون، فإذا ظُلموا لم ينتصروا، فالمدح بالوصف لأهل هذا المقام هو الإخبات وهو الخشوع والطمأنينة إلىٰ [حسن] الجزاء من الله في الآخرة لقرب اللقاء وسرعة فناء الدنيا.

(وقال ﷺ: صِلْ مَن قطعك، وأعطِ مَن حرمك، واعْفُ عمَّن ظلمك) رواه ابن النجار[1] من حديث علي بلفظ: «صِلْ مَن قطعك، وأحسِنْ إلىٰ مَن أساء إليك، وقل الحقَّ ولو علىٰ نفسك». وقد تقدم.

(ورأيت في الإنجيل: قال عيسىٰ ابن مريم ﷺ: لقد قيل لكم) يعنىٰ في التوراة وغيره من كتب السماء **(من قبل: إن السن بالسن والأنف بالأنف، وأنا أقول لكم: لا تقاوموا الشر بالشر، بل مَن ضرب خدَّك الأيمن فحوِّل إليه الخد الأيسر، ومَن أخذ رِداءك فأعطِه إزارك، ومَن سخَّرك لتسير معه ميلًا فسِرْ معه ميلين.**

وكل ذلك أمرٌ بالصبر علىٰ الأذىٰ، فالصبر علىٰ أذىٰ الناس من أعلىٰ مراتب الصبر) وقد تقدم أنه أول مقام من مقامات الرضا **(لأنه يتعاون فيه باعثُ الدين وباعث الشهوة والغضب جميعًا.**

القسم الثالث: ما لا يدخل تحت حصر الاختيار أوله وآخره كالمصائب مثل موت الأعِزَّة وهلاك الأموال وزوال الصحة بالمرض وعمىٰ العين وفساد الأعضاء، وبالجملة سائر أنواع البلاء، فالصبر علىٰ ذلك من أعلىٰ مقامات الصبر) وهو ثاني مقام من مقامات الرضا المقرِّب التام لقوله ﷺ: «نحن - معاشر الأنبياء - أكثر الناس بلاء، ثم الأمثل فالأمثل». ولقوله سبحانه في المجمَل: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝﴾

---

(١) وكذلك ابن الأعرابي في معجمه ص ٧٤٤، وأوله: لما أن ضممت إليَّ سلاح النبي ﷺ وجدت في ذؤابة - أو علاقة - سيفه ثلاثة أحرف: صل ... الخ.

[المدثر: ٧] ثم فسَّره في الكلام المفسَّر فقال: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] **(قال ابن عباس ﷺ: الصبر في القرآن على ثلاثة أوجُه)** باعتبار متعلقه: **(صبر على أداء فرائض الله، فله ثلاثمائة درجة)** أي منزلة عالية في الجنة **(وصبر عن محارم الله، فله ستمائة درجة. وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى، فله تسعمائة درجة)** ولفظ القوت: وروينا عن ابن عباس: الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه: صبر على أداء فرائض الله، وصبر عن محارم الله، وصبر في المصيبة عند الصدمة الأولى، فمَن صبر على أداء فرائض الله فله ثلاثمائة درجة، ومَن صبر عن محارم الله فله ستمائة درجة، ومَن صبر في المصيبة عند الصدمة الأولى فلة تسعمائة درجة.

قلت: وهذا قد رُوي مرفوعًا من حديث علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الصبر[١] وأبو الشيخ في كتاب الثواب والديلمي في مسند الفردوس[٢]، كلهم من طريق عبد الله بن محمد بن زيرك، عن عمر بن علي، عن عمر بن يونس اليماني، عن مدرك بن محمد السدوسي، عن رجل يقال له علي، عن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رفعه: «الصبر ثلاث: فصبر على المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، فمَن صبر على المصيبة حتى يردَّها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض. ومَن صبر على الطاعة كتب الله له ستمائة درجة، ما بين الدرجتين كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش. ومَن صبر عن المعصية كتب الله له تسعمائة درجة، ما بين الدرجتين كما بين تخوم الأرض إلى منتهَى العرش مرتين».

وهذا[٣] صريح في أن الصبر على المقدور أدنى المراتب، ثم الصبر على المأمور، ثم عن المحظور. وله وجه، وذلك لأن الصبر على مجرَّد القدَر يأتي

---

(١) الصبر ص ٣١.

(٢) الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ٤١٦.

(٣) فيض القدير للمناوي ٤/ ٢٣٥، نقلا عن كتاب عدة الصابرين لابن القيم ص ٣٦ - ٣٧ بتصرف.

به البَر والفاجر والمؤمن والكافر، فلا بد لكلٍّ منهم من الصبر عليه اختيارًا أو اضطرارًا، والصبر علىٰ الأوامر فوقه ودون الصبر عن المحرَّمات، فإن الأوامر أكثرها محبوب للنفس؛ لِما فيها من العدل والإحسان والإخلاص والبِر، والصبر علىٰ المخالفات صبرٌ علىٰ مخالفة هوىٰ النفس وحملها علىٰ غير طبعها، وهو أشق شيء وأصعبه، ومَن صبر عن المعاصي التي أكثرها مَحابٌّ للنفوس فقد ترك المحبوب العاجل في هذه الدار لمحبوب آجل في دار أخرىٰ، ولا يصبر علىٰ ذلك إلا الصدِّيقون. وهذه الثلاثة مَحابُّ النفوس الزكية الفاضلة. قالوا: والمناهي من باب حمية النفس عن لذَّاتها وحميتها مع قيام داعي التناول وقوَّته خطبٌ مهول، ولهذا كان باب قربان النهي مسدودًا، وباب الأمر مقيَّدًا بالمستطاع، ومن ثَم كانت عامَّة العقوبات علىٰ المنهيَّات، وأما تركُ المأمور فلم يرتِّب الله عليه حدًّا معيَّنًا، وأعظم المأمورات الصلاة، وقد اختُلف هل فيه حدٌّ أم لا. وبهذا استبان سرُّ الترتيب الواقع في حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأما الترتيب الواقع في خبر ابن عباس - علىٰ ما ذكره المصنِّف تبعًا لصاحب القوت - فله أيضًا وجه، وقد أشار إليه المصنف بقوله: **(وإنما فُضِّلت هذه المرتبة مع أنها من الفضائل علىٰ ما قبلها وهي من الفرائض لأن كل مؤمن يقدر علىٰ الصبر عن المحارم، فأما الصبر علىٰ بلاء الله تعالىٰ فلا يقدر عليه إلا الأنبياء؛ لأنه بضاعة الصدِّيقين، فإنَّ ذلك شديد علىٰ النفس)** وذكر صاحب القوت عقب قول ابن عباس السابق ما نصه: وهذا يحتاج إلىٰ تفسير، لم يقصد ابن عباس أن الصبر علىٰ المصيبة أفضل من الصبر عن المحارم ومن الصبر علىٰ أداء الفرائض؛ لأن الصبر علىٰ ذينك من مزيد أحوال المسلمين، والصبر علىٰ المصيبة من مقامات اليقين، وإنما فُضِّل المقام في اليقين علىٰ المقام في الإسلام **(ولذلك قال ﷺ: اللهم إني أسألك من اليقين ما تهوِّن به عليَّ مصائبَ الدنيا)** رواه[1] الترمذي والنسائي والحاكم وصحَّحه من حديث ابن عمر، وحسَّنه الترمذي، وقد تقدَّم في كتاب الدعوات **(فهذا صبرٌ مستنده حُسن اليقين)** وأحسنُ الناس صبرًا

(١) المغني للعراقي ٢/ ١٠١٥.

عند المصائب أكثرهم يقينًا، وأكثر الناس جزعًا وسخطًا في المصائب أقلُّهم يقينًا وأكثرهم حبًّا للدنيا. ومثله ما رواه سَلمة بن وردان عن أنس رفعه: «مَن ترك المِراء وهو محقٌّ بنىٰ الله له بيتًا في أعلىٰ الجنة، ومَن ترك المِراء وهو مبطل بنىٰ له في وسط الجنة، ومَن ترك الكذب بنىٰ له في رَبَض الجنة». فقد علمتَ أن ترك الكذب والمِراء مبطلاً أفرضُ وأوجبُ، فينبغي أن يكونا أفضل، ولكنَّ المعنىٰ فيه أن الكذب باطل يتركه المسلمون، والمِراء والعبد محقٌّ صادق ثم لا يماري زهدًا في التظاهر ورغبةً في الصمت والسلامة فلا يصبر علىٰ هذا إلا الموقنون وهم خصوص المؤمنين، فمقامه من اليقين والزهد وإيثار الصمت والخمول علىٰ الكلام والشهرة أفضل، فهو [من] اليقين، فصار هذا الموقن مقامه أفضل من عموم المؤمنين الذين يتركون الكذب والمُماراة وإن كانا أفرض وأوجب. فهذا بيان ذلك ومعناه. ويقال: من علامة [اليقين] التسليم للقضاء بحُسن الصبر والرضا، وهو مقام العارفين. فأما اشتراط الصبر في المصيبة عند الصدمة الأولىٰ فلأنه يقال: كل شيء يبدو صغيرًا ثم يكبر إلا المصيبة فإنها تبدو كبيرة ثم تصغر، فاشتُرط لعِظَم الثواب لها عند أول كبرها قبل صغرها، وهي في صدمة القلب أول ما يبغته الشيءُ، فينظر إلىٰ نظر الله عَزَّوَجَلَّ فيستحي فيحسن الصبرَ، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور: ٤٨] وهذا مقام المتوكلين علىٰ الله تعالىٰ.

كل هذا السياق في كتاب القوت.

وقال بعض مَن اختصر الإحياء وزاد عليه ما نصه: أما آداب الصبر فقد تقدم أن حقيقة الصبر: ثبات باعث الدين في محاربة باعث الهوىٰ ومقابلته، فليبدأ في ذلك بالأهم فالأهم، فالمجاهدة الباطنة كالمجاهدة الظاهرة، قال الله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣] فالبداية بترك المحظورات وهو واجب، ثم بالمكروهات وهو مستحَب، ثم بفضول المباحات الشاغلة عن رب الأرض والسموات وهي قُربة. فإن قيل: لِمَ فرَّقتَ بين المستحَب

والقُربة وهما واحد؟ فأقول: بينهما عند التحقيق فرقٌ، وذلك أن الله تعالىٰ بمَنِّه وفضله أثابنا علىٰ كل حسنة ثوابًا عاجلاً وثوابًا آجلاً، ومن جملة الثواب العاجل أن يثيبك علىٰ تلك الحسنة حسنةً تناسبها وتليها في الدرجة، فإذا تركتَ مكروهًا لله أثابك الله عليه بترك مكروه هو أدق منه في الرتبة، وإذا تركتَ مباحًا شاغلاً فتح لقلبك بسببه بابًا إليه، فحقيقة القربة نفحة من نفحات الرحمة تكشف لقلب العبد وجودَ الله وجماله، فيترك فضول المباحات بسبب ذلك، ويعرف هذا مَن يفرِّق بين حق النفس وحظِّها، فإن كنت من أهل الذوق وإلا فالتصديق به واجب تقليدًا، ثم البداءة بالواجب من الطاعات، ويقدِّم الأوجب علىٰ الواجب، وما يفوت علىٰ ما لا يفوت، وهذا واجب، ثم يقدِّم أفضل الفضائل فأفضلها، ويترك الفاضل للأفضل إذا لم يمكن الجمع بينهما، والدعاء للظالم والشفقة عليه من هذا النوع، وهو من مقامات المحسنين، ثم الصبر علىٰ المصائب بالثبات عند الصدمة الأولىٰ؛ لأن كل شيء يوجد صغيرًا ثم يأخذ في النماء والزيادة إلا المصيبة فإنها تبدو عظيمة ثم تصغر وتأخذ في النقصان، وهذا واجب، فإن غفل وجزع ثم رجع عن غفلته وندم واسترجع كان ندمه واسترجاعه توبة له، وقد قلنا إن التوبة تصح من كل ذنب، ويدخل في هذا النوع الصبر علىٰ اللعن، ومكافأة الجاني بما هو معصية حرام، ومكافأته بما هو مباح مكروه؛ لذهاب الملائكة وعدم إجابتها عنه، وإن تألَّم في باطنه ولكن ترك المكافأة عليه في الظاهر فهو أحسن حالاً من الأول، ولا يدخل في نهي التحريم؛ لأن الألم لم يدخل تحت اختيار العبد، والرب تعالىٰ لا يكلِّف العباد ولا يؤاخذهم إلا بما يدخل تحت اختيارهم، ويُستحب علاج الألم وتكسُّبه إلىٰ أن يستوي عند القلب وجود الأذىٰ وعدمه كما تُكتسَب الطاعه والمشقة وتُجتنَب المعاصي، فإن فرح بالجناية ودعا للجاني فهذه هي القُربة الصدِّيقية، ولا يحصل هذا إلا لعبد فتح نور التوحيد قلبَه فارتفعت عن قلبه رؤية الوسائط وشاهد المتوحِّد بالأفعال، ويعرِّفه إيمانه أن سيده اختار له ذلك ليزكِّي قلبه وينمي له نوره.

إلىٰ هنا كلامه.

(**وكان أبو سليمان**) الداراني رحمه الله تعالىٰ (**يقول: واللهِ ما نصبر علىٰ ما نحب، فكيف نصبر علىٰ ما نكره**) نقله صاحب الرسالة قال: سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي يقول: سمعت أبا جعفر الرازي يقول: سمعت عباسًا يقول: سمعت أحمد بن أبي الحواري يقول: سألت أبا سليمان عن الصبر، فقال ... فذكره[١].

(**وقال النبي ﷺ: قال الله عَزَّوَجَلَّ: إذا وجَّهت إلىٰ عبد من عبيدي مصيبةً في بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييتُ منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانًا أو أنشر له ديوانًا**) قال العراقي[٢]: رواه ابن عدي في الكامل[٣] من حديث أنس بسند ضعيف.

قلت: وكذلك رواه الحكيم في النوادر[٤] والديلمي في مسند الفردوس[٥].

(**وقال ﷺ: انتظار الفرج بالصبر عبادة**) [قال العراقي[٦]]: رواه القضاعي في مسند الشهاب[٧] من حديث ابن عمر وابن عباس، وابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة[٨] من حديث ابن عمر دون قوله «بالصبر»، وكذا رواه أبو سعيد الماليني في مسند الصوفية[٩] من حديث ابن عمر، وكلها ضعيفة. وللترمذي[١٠] من حديث ابن

---

(١) ورواه أيضا قوام السنة في الترغيب والترهيب ٢/ ٢٩٤، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٤/ ١٥٠.
(٢) المغني ٢/ ١٠١٥.
(٣) الكامل في الضعفاء ٧/ ٢٦٠٨.
(٤) نوادر الأصول ص ٧٠٠.
(٥) الفردوس بمأثور الخطاب ٣/ ١٧٢.
(٦) المغني ٢/ ١٠١٥.
(٧) مسند الشهاب ١/ ٦٢ - ٦٣.
(٨) الفرج بعد الشدة ص ١٠ من حديث علي بن أبي طالب، وليس ابن عمر.
(٩) الأربعون في شيوخ الصوفية ص ١٨٩ (ط - دار البشائر الإسلامية).
(١٠) سنن الترمذي ٥/ ٥٣٢.

مسعود: «أفضل العبادة انتظار الفرج». وتقدم في الدعوات. انتهىٰ.

قلت: وممَّن رواه دون قوله «بالصبر» ابن عدي[١] والخطيب[٢] من حديث أنس بسند ضعيف. ورواه الترمذي وحسَّنه[٣] من حديث ابن مسعود في أثناء حديث. وقد رُوي من حديث علي بمثل لفظ القضاعي، رواه ابن عبد البر والبيهقي[٤]، ورواه ابن أبي الدنيا وابن عساكر[٥] من حديث علي بلفظ: «انتظار الفرج [من الله] عبادة، ومَن رضي بالقليل من الرزق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بالقليل من العمل».

(**وقال ﷺ: ما من عبد مؤمن أصيبَ بمصيبة فقال كما أمره الله تعالىٰ: إنَّا لله وإنا إليه راجعون، اللهم آجرني**) بالمد (**في مصيبتي وأعقبني خيرًا منها، إلا فعل الله به ذلك**) قال العراقي[٦]: رواه مسلم[٧] من حديث أم سلمة. انتهىٰ.

قلت: لفظ مسلم: «ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي وأخلفْ لي خيرًا منها إلا آجره الله في مصيبته وأخلفَ له خيرًا منها». قالت: فلما توفي أبو سلمة قلتُ كما أمرني رسول الله ﷺ، فأخلف الله لي خيرًا منه: رسول الله ﷺ.

وروىٰ أحمد[٨] عن أم سلمة قالت: أتاني أبو سلمة يومًا من عند رسول الله

---

(١) الكامل في الضعفاء ٢/ ٥٠٨.

(٢) تاريخ بغداد ٢/ ٥٣٧.

(٣) لم يحسنه، وإنما قال: «هكذا روىٰ حماد بن واقد هذا الحديث، وقد خولف في روايته، وحماد بن واقد هذا هو الصفار، ليس بالحافظ. وروىٰ أبو نعيم هذا الحديث عن إسرائيل عن حكيم بن جبير عن رجل عن النبي ﷺ مرسلا، وحديث أبي نعيم أشبه أن يكون أصح».

(٤) شعب الإيمان ١٢/ ٣٥٥.

(٥) تاريخ دمشق ٥٧/ ١٢٨ - ١٢٩.

(٦) المغني ٢/ ١٠١٦.

(٧) صحيح مسلم ١/ ٤٠٨ - ٤٠٩.

(٨) مسند أحمد ٢٦/ ٢٦٢.

ﷺ فقال: لقد سمعت من رسول الله ﷺ قولاً سُررتُ به، قال: «لا تصيب أحدًا من المسلمين مصيبةٌ فيسترجع عند مصيبته ثم يقول: اللهم أجرني في مصيبتي واخلُفْ لي خيرًا منها، إلا فُعل ذلك به». قالت أم سلمة: فحفظتُ ذلك منه، فلما توفي أبو سلمة استرجعت وقلت: اللهم أجرْني في مصيبتي واخلُفْ لي خيرًا منه، ثم رجعت إلىٰ نفسي وقلت: من أين لي خيرٌ من أبي سلمة؟ فأبدلني الله بأبي سلمة خيرًا منه: رسول الله ﷺ.

ورواه الطيالسي(١) وأبو نعيم في الحلية(٢) بلفظ: «ما من عبد يُصاب بمصيبة فيقول: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، اللهم عندك احتسبت مصيبتي فأجرني فيها وأعقِبْني منها خيرًا إلا أعطاه الله ذلك».

وروىٰ ابن سعد في الطبقات(٣) من حديث أبي سلمة: «ما من عبد يُصاب بمصيبة فيفزع إلىٰ ما أمره الله به من قول: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي هذه وعوِّضْني خيرًا منها إلا آجره الله في مصيبته، وكان قمنًا أن يعوِّضه الله عنها خيرًا [منها]».

وروىٰ أحمد(٤) وابن ماجه(٥) من حديث الحسين بن علي: «ما من مسلم ولا مسلمة يُصاب بمصيبة فيذكرها وإن طال عهدُها فيُحدِث لذلك استرجاعًا إلا جدَّد الله له عند ذلك فأعطاه مثل أجرها يوم أصيبَ بها».

(وقال أنس) رضي الله عنه: **(حدثني رسول الله ﷺ أن الله عز وجل قال: يا جبريل، ما جزاء مَن سلبتُ كريمتيه)**؟ أي عينيه، ويقال للعين كريمة لكونها مكرمة عند صاحبها

---

(١) مسند الطيالسي ٢/ ٦٨٦.

(٢) حلية الأولياء ٢/ ٣.

(٣) الطبقات الكبرىٰ ١٠/ ٨٦.

(٤) مسند أحمد ٣/ ٢٥٦.

(٥) سنن ابن ماجه ٣/ ١١٦.

(قال) جبريل: **(سبحانك، لا علم لنا إلا ما علَّمتنا. قال الله عَزَّوَجَلَّ: جزاؤه الخلود في داري والنظر إلىٰ وجهي)** قال العراقي[١]: رواه الطبراني في الأوسط[٢] من رواية أبي ظلال القَسْملي - واسمه هلال، أحد الضعفاء - عن أنس. ورواه البخاري[٣] بلفظ: «إن الله عَزَّوَجَلَّ قال: إذا ابتليتُ عبدي بحبيبتيه فصبر عوَّضته منهما الجنة». ورواه ابن عدي[٤] وأبو يعلىٰ[٥] بلفظ: «إذا أخذتُ كريمتَي عبدي لم أرضَ له ثوابًا دون الجنة». قلت: يا رسول الله، وإن كانت واحدة؟ قال: «وإن كانت واحدة». وفيه سعيد بن سليم، قال ابن عدي: ضعيف. انتهىٰ.

قلت: ورواه الترمذي[٦] من حديث أنس - وقال: حسن غريب - بلفظ: «إن الله تعالىٰ يقول: إذا أخذتُ كريمتَي عبدي في الدنيا لم يكن له جزاء عندي إلا الجنة». ورواه من حديث أبي هريرة - وقال: حسن صحيح - بلفظ: «يقول الله عَزَّوَجَلَّ: مَن أذهبت حبيبتيه فصبر واحتسب لم أرضَ له ثوابًا دون الجنة». ورواه هناد[٧] كذلك.

وروىٰ الطبراني في الكبير[٨] وابن السني في عمل يوم وليلة[٩] وابن عساكر[١٠]

---

(١) المغني ٢/ ١٠١٦.

(٢) المعجم الأوسط ٨/ ٣٥٤، ولفظه: «قال أبو ظلال القسملي: دخلت علىٰ أنس بن مالك، فقال لي: يا أبا ظلال، متىٰ أصيب بصرك؟ قلت: لا أعقله. قال: أفلا أحدثك حديثا حدثنا به نبي الله ﷺ عن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ عن ربه تعالىٰ؟ قال: إن الله قال: يا جبريل، ما ثواب عبدي إذا أخذت كريمتيه إلا النظر إلىٰ وجهي والجوار في داري. ولقد رأيت أصحاب النبي ﷺ يبكون حوله، يريدون أن تذهب أبصارهم».

(٣) صحيح البخاري ٤/ ٢٥.

(٤) الكامل في الضعفاء ٣/ ١٢٣٨.

(٥) مسند أبي يعلىٰ ٧/ ٢٣٤.

(٦) سنن الترمذي ٤/ ٢٠٤ - ٢٠٥.

(٧) الزهد ١/ ٢٢٩.

(٨) المعجم الكبير ٨/ ٢٢٥.

(٩) عمل اليوم والليلة ص ٣٨٢.

(١٠) تاريخ دمشق ١١/ ١٣٣.

من حديث أبي أمامة: «إن الله تعالىٰ يقول: يا ابن آدم، إذا أخذتُ منك كريمتيك فصبرتَ واحتسبت عند الصدمة الأولىٰ لم أرضَ لك ثوابًا دون الجنة». ورواه أحمد[١] وابن ماجه[٢] مثله بلفظ: «يقول الله تعالىٰ: يا ابن آدم ...».

وروىٰ عبد بن حميد[٣] وسمويه وابن عساكر[٤] من حديث أنس: «قال الله عَزَّوَجَلَّ: وعزّتي لا أقبض كريمتَي عبدٍ فيصبر لحكمي ويرضىٰ بقضائي فأرضىٰ له بثواب دون الجنة».

وحديث أنس عند البخاري رواه أيضًا أحمد[٥]، وزاد: يعني عينيه.

ورواه كذلك الطبراني في الكبير[٦] من حديث جرير، وفي لفظ له من حديثه: «قال الله عَزَّوَجَلَّ: مَن سلبتُ كريمتيه عوَّضته منهما الجنة».

وروىٰ ابن حبان[٧] والطبراني[٨] وأبو نعيم في الحلية[٩] وابن عساكر[١٠] من حديث العرباض بن سارية: «قال الله عَزَّوَجَلَّ: «إذا سلبتُ من عبدي كريمتيه وهو بهما ضنين لم أرضَ له بهما ثوابًا دون الجنة إذا حمدني عليهما».

ورواه الطبراني[١١] وحده من حديث أبي أمامة نحوه بلفظ: «قال ربُّكم».

---

(١) مسند أحمد ٣٦/ ٥٦٢.

(٢) سنن ابن ماجه ٣/ ١١٤.

(٣) المنتخب من مسند عبد بن حميد ٢/ ٢٤٧.

(٤) تاريخ دمشق ٣٧/ ٢٧١.

(٥) مسند أحمد ١٩/ ٤٤٩، ٢٠/ ٥٠.

(٦) المعجم الكبير ٢/ ٣٠٣.

(٧) صحيح ابن حبان ٧/ ١٩٤.

(٨) المعجم الكبير ١٨/ ٢٥٤، ٢٥٧.

(٩) حلية الأولياء ٦/ ١٠٣.

(١٠) تاريخ دمشق ٥٢/ ٣٨٣.

(١١) المعجم الكبير ٨/ ١٢٤.

وروىٰ أحمد[1] وأبو يعلىٰ[2] من حديث أنس: «قال ربُّكم: مَن أذهبتُ كريمتيه ثم صبر واحتسب كان ثوابه الجنة».

ورواه أبو نعيم في الحلية[3] من حديث أنس بلفظ: «يقول الله: لا أذهب بصفيَّتَي عبدٍ فأرضىٰ له ثوابًا دون الجنة».

(وقال ﷺ: يقول الله عز وجل: «إذا ابتليتُ عبدي ببلاء فصبر ولم يشكني إلىٰ عُوَّاده أبدلته لحمًا خيرًا من لحمه ودمًا خيرًا من دمه، فإذا أبرأتُه أبرأته ولا ذنب له، وإن توفَّيته فإلىٰ رحمتي) قال العراقي[4]: رواه مالك في الموطأ[5] من حديث عطاء ابن يسار مرسلاً، وقال ابن عبد البر في التمهيد[6]: رواه عبَّاد بن كثير عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد. انتهىٰ. وعبَّاد بن كثير ضعيف. ورواه البيهقي[7] موقوفًا علىٰ أبي هريرة. انتهىٰ.

قلت: وقد رواه الحاكم[8] مرفوعًا من حديث أبي هريرة بلفظ: «قال الله تعالىٰ: إذا ابتليتُ عبدي المؤمن فلم يشكني إلىٰ عُوَّاده أطلقتُه من أساري، ثم أبدلته لحمًا خيرًا من لحمه، ودمًا خيرًا من دمه، ثم يستأنف العمل». وقد رواه البيهقي كذلك.

ورواه الطبراني وابن عساكر[9] من حديث أنس بلفظ: «ثلاثة من كنوز البر: إخفاء الصدقة، وكتمان المصيبة، وكتمان الشكوىٰ. يقول الله تعالىٰ: إذا ابتليت

---

(1) مسند أحمد ٢١/ ٤٢١.

(2) مسند أبي يعلىٰ ٧/ ٢٦٨.

(3) حلية الأولياء ٩/ ٢٣٧.

(4) المغني ٢/ ١٠١٦.

(5) الموطأ ٢/ ٩٤٠.

(6) التمهيد ٥/ ٤٧.

(7) السنن الكبرىٰ ٣/ ٥٢٥ مرفوعا وموقوفا.

(8) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ٤٩٣.

(9) تاريخ دمشق ٥٢/ ٣١٦.

عبدي ببلاء فصبر ولم يشكني إلىٰ عُوَّاده ثم أبرأته أبدلته لحمًا خيرًا من لحمه ودمًا خيرًا من دمه، وإن أرسلته أرسلته ولا ذنب عليه، وإن توفَّيته توفيته إلىٰ رحمتي».

(**وقال داود** عليه السلام) في بعض مخاطباته مع الله عز وجل: (**يا رب، ما جزاء الحزين الذي يصبر علىٰ المصائب ابتغاءَ مرضاتك؟ قال: جزاؤه أن أُلبِسه لباس الإيمان فلا أنزعه عنه أبدًا**) رواه الديلمي وابن عساكر من حديث ابن مسعود، وفيه جسر بن فرقد، ضعيف، ولفظه: «قال داود عليه السلام: إلهي، ما جزاء مَن شيَّع ميتًا إلىٰ قبره ابتغاءَ مرضاتك؟ قال: جزاؤه أن تشيِّعه ملائكتي فتصلي علىٰ روحه في الأرواح. قال: اللهم، فما جزاء من يعزِّي حزينًا ابتغاءَ مرضاتك؟ قال: أن أُلبِسه لباس التقوىٰ وأستره به من النار فأدخله الجنة ... الحديث».

(**وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالىٰ في خطبته: ما أنعم الله علىٰ عبد نعمة فانتزعها منه وعوَّضه منها الصبر إلا كان ما عوَّضه منها أفضل ممَّا انتزع منه. وقرأ**) قوله تعالىٰ: (﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ۝١٠﴾) [الزمر: ١٠] أخرجه أبو نعيم في الحلية(١) فقال: حدثنا أبو محمد [حدثنا أحمد بن الحسين، حدثنا] أحمد بن عبد الجبار، حدثنا سعيد بن عامر، عن محمد بن عمرو قال: سمعت عمر بن عبد العزيز يخطب فقال: ما أنعم الله علىٰ عبد نعمة ثم انتزعها منه فعاضَه ممَّا انتزع منه الصبر إلا كان ما عاضه خيرًا ممَّا انتزع منه. ثم قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ۝١٠﴾.

وقد نقله كذلك صاحب العوارف.

(**وسُئل فضيل**) بن عياض رحمه الله تعالىٰ (**عن الصبر، فقال: هو الرضا بقضاء الله. قيل: وكيف ذلك؟ قال: الراضي لا يتمنَّىٰ فوق منزلته**)(٢) وكأنَّه يشير

---

(١) حلية الأولياء ٥/ ٢٩٨.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الرضا عن الله بقضائه ص ٥٣، والبيهقي في شعب الإيمان ١/ ٣٩٥، مقتصرينِ علىٰ قوله (الراضي لا يتمنىٰ فوق منزلته).

إلىٰ ثاني مقام من مقامات الصبر الذي هو درجة الزاهدين، وإليه يشير ما رواه[١] الحكيم[٢] والديلمي[٣] وابن عساكر[٤] من حديث أبي موسىٰ الأشعري: «الصبر الرضا». وفي لفظ: «الصبر رضا». يعني أن التحقُّق بالصبر هو الذي يفتح باب الوصول إلىٰ مقام الرضا.

(وقيل: حُبس الشِّبْلي رحمه الله تعالىٰ) وقتًا (في المارستان) هو دار المرضىٰ (فدخل عليه جماعة، فقال) لهم: (من أنتم؟ قالوا: أحبَّاؤك جاؤوك زائرينَ. فأخذ يرميهم بالحجارة) اختبارًا لمحبَّتهم له (فأخذوا يهربون) منه (فقال) لهم: (لو كنتم أحبَّائي) صادقين (لصبرتم علىٰ بلائي)[٥] اعتبارًا بنفسه فيما هو فيه من بلاء السجن في المارستان ونسبته إلىٰ الجنون وليس بمجنون. نقله القشيري في الرسالة.

(وكان بعض العارفين في جيبه رقعة يخرجها كل ساعة ويطالعها) أي يقرأ ما فيها (وكان فيها: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾) [الطور: ٤٨] ولفظ القشيري في الرسالة: وقال بعضهم: كنت بمكة، فرأيت فقيرًا طاف بالبيت وأخرج من جيبه رقعة ونظر فيها ومرَّ، فلمَّا كان بالغد فعل مثل ذلك، فترقَّبتُه أيامًا وهو يفعل مثل ذلك، فيومًا من الأيام طاف ونظر في الرقعة وتباعد قليلاً وسقط ميتًا، فأخرجتُ الرقعة من جيبه فإذا فيها: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾.

(وقيل: إن امرأة فتح) بن شخرف (الموصلي) وكانت من العارفات (عثرت) أي وقعت برجلها (فانقطع ظفرها فضحكت، فقيل لها: أما تجدين ألم الوجع؟ فقالت: إن لذة ثوابه أزالت عن قلبي مرارة وجعه)[٦] أورد المصنف هذه

(١) فيض القدير ٤/ ٢٣٣.

(٢) نوادر الأصول ص ٧٠٢.

(٣) الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ٤١٥.

(٤) تاريخ دمشق ٢٥/ ٢٤٧.

(٥) اللمع للطوسي ص٧٧.

(٦) رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٧/ ١٥٩ - ١٦٠ عن زيد بن أبي الزرقاء الموصلي.

القصة هنا استدلالاً بها على الصبر على البلايا، ومعلوم أن المستلِذَّ بالبليَّة لا يُعَدُّ صابرًا حقيقةً، ولذلك لم يوصَف سيدنا أيوب عليه السلام بالصبَّار فقال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ﴾ [ص: ٤٤] ولم يقل: صبَّارًا؛ لكونه كان يستلذُّ ما نزل به في بعض أحيانه.

(وقال داود لسليمان عليهما السلام) يختبره: بِمَ يُستدَل على تقوى المؤمن؟ فقال: (يُستدلُّ على تقوى المؤمن بثلاث) خصال: الأولى: (حُسن التوكل فيما لم يَنَلْ، و) الثانية: (حسن الرضا فيما قد نال، و) الثالثة: (حسن الصبر فيما قد فات[١]).

وقال نبيُّنا ﷺ: من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك) قال العراقي[٢]: لم أجده مرفوعًا، وإنما رواه ابن أبي الدنيا في المرض والكفَّارات[٣] من رواية سفيان عن بعض الفقهاء قال: من الصبر أن لا تحدِّث بمصيبتك، ولا بوجعك، ولا تزكِّي نفسك. انتهى.

قلت: وقال صاحب القوت: وقد روينا عن النبي ﷺ حديثًا مقطوعًا: «الصبر في ثلاث: الصبر عن تزكية النفس، والصبر عن شكوى المصيبة، والصبر على الرضا بقضاء الله خيره وشره».

(ويُروَى عن بعض الصالحين أنه خرج يومًا) إلى السوق، فساوم شيئًا من الطعام (و) كانت (في كمِّه صَرَّة) فيها دراهم، فأراد أن يدفع لصاحب الطعام منها، فضرب بيده عليها (فافتقدها فإذا هي قد أُخِذت من كمِّه) أي اختُلِست، أو انحلَّت الصرَّة فوقعت الدراهم (فقال: بارك الله له فيها، لعله أحوج إليها مني) فهذا من

---

(١) رواه البيهقي في الزهد الكبير ص ٣٥١ من طريق محمد بن عيينة الفزاري قال: سمعت ابن المبارك يحدث قال: قال داود لابنه سليمان عليهما السلام: يا بني، إنما يستدل على تقوى الرجل بثلاثة أشياء: بحسن توكله على الله فيما نابه، وبحسن رضاه فيما آتاه، وبحسن صبره فيما ابتلاه.

(٢) المغني ٢/ ١٠١٧.

(٣) المرض والكفارات ص ١٧٦، ومن طريقه البيهقي في شعب الإيمان ١٢/ ٣٨٣. ورواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٦/ ٣٨٩ من قول سفيان الثوري.

الصبر على المصيبة وعدم إظهار الجزع، وقد وقع مثل هذا لابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنهُ.

(ورُوي عن بعضهم أنه قال: مررت على سالم مولى أبي حذيفة) بن[١] عتبة ابن ربيعة بن عبد شمس، أحد السابقين الأولين، وكان من أكثرهم قرآنًا **(في القتلى)** وكان معه لواء المهاجرين[٢]، روى ابن المبارك في كتاب الجهاد[٣] له أنه قال حينئذٍ: بئس حامل القرآن أنا. يعني إن فررت، فقُطعت يمينه، فأخذه بيساره [فقُطعت] فاعتنقه إلى أن صُرع، فقال لأصحابه: ما فعل أبو حذيفة؟ يعني مولاه، قيل: قُتل. قال: فأضجِعوني بجنبه **(وبه رَمَق)** أي بقية الروح **(فقلت له: أسقيك ماء؟ فقال: جُرَّني قليلاً إلى)** جهة **(العدو، واجعل الماء في التُّرس، فإني صائم، فإن عشتُ إلى الليل شربتُه)** ومات على حالته ولم يشرب الماء، فأرسل عمر ميراثه إلى مولاته ثُبَيتة.

(فهكذا كان صبر سالكي طريق الآخرة على بلاء الله تعالى.

فإن قلت: فبماذا تُنال درجة الصبر في المصائب وليس الأمر إلى اختياره، فهو مضطرٌّ شاء أم أبى، فإن كان المراد به أن لا تكون في نفسه كراهية المصيبة فذلك غير داخل في الاختيار؟ فاعلمْ أنه إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع، وشقِّ الجيوب، وضرب الخدود) والهلع، والتسخُّط **(والمبالغة في الشكوى، وإظهار الكآبة)** أي الحزن **(وتغيير العادة في الملبس والمفرش والمطعم. وهذه الأمور داخلة تحت**

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ٤/ ١٠٣ - ١٠٦.

(٢) يعني يوم اليمامة سنة ١٢ هـ.

(٣) الجهاد ص ١٢٣ (ط - دار المطبوعات الحديثة) من طريق إبراهيم بن حنظلة عن أبيه أن سالما مولى أبي حذيفة قيل له يومئذ في اللوى: هل تحتفظ به؟ فقال غيره: تخشى من نفسك شيئا فتولِّي اللوى غيرك؟ فقال: بئس حامل القرآن أنا إذًا. فقُطعت يمينه، فأخذ اللوى بيساره، فقطعت يساره، فاعتنق اللوى وهو يقول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ فلما صرع قال لأصحابه: ما فعل أبو حذيفة؟ قيل: قتل. قال: فما فعل فلان؟ لرجل قد سماه، قيل: قتل. قال: فأضجعوني بينهما.

اختياره، **فينبغي أن يجتنب جميعها)** فإنه يفسد واجب الصبر، ويحبط عمله في أجر المصيبة، بل يأثم علىٰ فعله (و) عليه أن **(يُظهِر الرضا بقضاء الله تعالىٰ، ويبقىٰ مستمرًّا علىٰ عادته)** في سائر أحواله، ومَن فعل شيئًا ممَّا تقدَّم ذِكرُه فلا ثواب له علىٰ مصيبة؛ لأن نفس المصيبة لا ثواب عليها؛ لأن الله لا يثيب العبادَ إلا علىٰ ما يدخل تحت اختيارهم، وإنما الثواب علىٰ الصبر لا علىٰ المصيبة، بل هو آثم في تسخُّطه علىٰ قضاء ربِّه (و) عليه أن **(يعتقد أن ذلك كان وديعة)** عنده **(فاستُرجِعت، كما رُوي عن الرُّمَيصاء أم سليم)** ﷺ، هي[1] ابنة مِلْحان بن خالد بن زيد بن حرام بن جُندب الأنصارية، وهي أم أنس خادم رسول الله ﷺ، اشتهرت بكنيتها، واختُلف في اسمها علىٰ أقوال: سهلة، أو رُمَيلة، أو رميثة، أو مُلَيكة، أو الرميصاء أو العُمَيصاء، وقيل: بل هما لقبان لها **(أنها قالت: توفي ابن لي، وزوجي أبو طلحة)** زيد بن سهل **(غائب)** وكانت قد أسلمت مع السابقين إلىٰ الإسلام من الأنصار، فغضب زوجها مالك بن النضر وخرج إلىٰ الشام فمات بها، فتزوجت بعده أبا طلحة، وكان صداقها الإسلام **(فقمت فسجَّيته)** أي غطيته **(في ناحية البيت، فقَدِم أبو طلحة)** من غيبته **(فقمت فهيَّأت له إفطاره، فجعل يأكل، فقال: كيف الصبي)**؟ وكان مريضًا **(فقلت: بأحسن حال بحمد الله ومَنِّه، فإنه لم يكن منذ اشتكىٰ خيرًا منه الليلة. ثم تصنَّعتُ له أحسن ما كنت أتصنَّع له قبل ذلك حتىٰ أصاب مني حاجته)** يعني خالطها **(ثم قلت: ألا تعجب من جيراننا؟ قال: ما لهم؟ قلت: أُعيروا عارية، فلما طُلبت منهم واستُرجعت جزعوا. فقال: بئس ما صنعوا. فقلت: هذا ابنك كان عارية من الله تعالىٰ، وإن الله تعالىٰ قد قبضه إليه. فحمد الله واسترجع، ثم غدا علىٰ رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: اللهم باركْ لهما في ليلتهما. قال الراوي: فلقد رأيت لهما بعد ذلك في المسجد سبعة كلهم قد قرأوا القرآن)** قال العراقي[2]: رواه

---

(١) الإصابة ١٣/ ٢٢٦ - ٢٢٨.

(٢) المغني ٢/ ١٠١٧.

الطبراني في الكبير(١)، ومن طريقه أبو نعيم في الحلية(٢)، والقصة في الصحيحين(٣) من حديث أنس مع اختلاف. انتهىٰ.

قلت: قصتها في الصحيح: لما مات ولدها من أبي طلحة فقالت لما دخل: لا يذكر أحد ذلك لأبي طلحة قبلي. فلما جاء وسأل عن ولده قالت: هو أسكَنُ ما كان. فظن أنه عوفي، وقام فأكل، ثم تزيَّنت له وتطيَّبت، فنام معها وأصاب منها، فلما أصبحت قالت له: احتسِبْ ولدك. فذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: «بارك الله لكما في ليلتكما». فجاءت بولد وهو عبد الله بن أبي طلحة، فأنجب ورُزق أولادًا قرأ القرآن منهم عشرة كُمَّلاً

(وروىٰ جابر) بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه (**أنه ﷺ قال: رأيتني دخلت الجنة، فإذا أنا بالرُّمَيصاء امرأة أبي طلحة**) قال العراقي(٤): رواه النسائي في الكبرىٰ(٥) بإسناد صحيح. انتهىٰ.

قلت: رواه من طريق عبد العزيز [بن عبد الله] بن أبي سلمة عن محمد بن المنكدر عن جابر.

وقال ابن سعد في الطبقات(٦): أخبرنا محمد بن عبد الله الأنصاري، حدثنا حميد، عن أنس قال: قال نبي الله ﷺ: «دخلت الجنة، فسمعت خَشفة بين يديَّ، فإذا أنا بالغُمَيصاء بنت مِلْحان». ومن طريق حماد عن ثابت عن أنس نحوه، لكن قال: الرميصاء. أوردهما في ترجمة أم سليم. وقد رواه أيضًا أحمد(٧)

---

(١) المعجم الكبير ٢٥/ ١١٦ - ١١٨.

(٢) حلية الأولياء ٢/ ٥٧ - ٥٩.

(٣) صحيح البخاري ١/ ٤٠١، ٣/ ٤٤٩. صحيح مسلم ٢/ ١٠٢٨، ١١٤٨.

(٤) المغني ٢/ ١٠١٧.

(٥) السنن الكبرىٰ ٧/ ٤٠٣.

(٦) الطبقات الكبرىٰ ١٠/ ٤٠٠.

(٧) مسند أحمد ١٩/ ٢٠، ٩٣، ٢٧٨، ٢١/ ١٥٨، ٣٣٠.

ومسلم[١] والنسائي[٢] وأبو يعلىٰ[٣] وابن حبان[٤]، كلهم من حديث أنس بالروايتين.

(وقد قيل) في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥﴾ [المعارج: ٥] **(الصبر الجميل هو أن لا يُعرَف صاحب المصيبة؛ إذ يشبه غيرَه)** ولفظ القشيري في الرسالة: هو أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يُدرَىٰ مَن هو[٥] **(ولا يخرجه عن حدِّ الصابرين توجُّعُ القلب)** ورقَّته **(ولا فيضان العين بالدمع علىٰ الميت، فإنَّ ذلك مقتضَىٰ البشرية، ولا يفارق الإنسانَ إلىٰ الموت، ولذلك لما مات إبراهيم ولدُ النبي ﷺ)** من مارية القبطية **(فاضت عيناه)** بالدموع **(فقيل له: أما نهيتنا عن هذا؟ فقال: إن هذه رحمة، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء)** قال العراقي: متفق عليه[٦] من

---

(١) صحيح مسلم ٢/ ١١٤٨.

(٢) السنن الكبرىٰ ٧/ ٤٠٣.

(٣) مسند أبي يعلىٰ ٦/ ٢٢٣، ٤٤٠.

(٤) صحيح ابن حبان ١٦/ ١٦٢.

(٥) أورده السيوطي في الدر المنثور ١٤/ ٦٩٢ عن عبد الأعلىٰ بن الحجاج بن خلي بن معدي كرب الحميري، وعزاه للحكيم الترمذي. وهو في كتاب الصبر لابن أبي الدنيا ص ٨٥ – ٨٥ وتاريخ دمشق ٤٩/ ٣٧٦ من رواية عبد الأعلىٰ عن أخيه قيس بن الحجاج.

(٦) صحيح البخاري ١/ ٤٠١ – ٤٠٢. صحيح مسلم ٢/ ١٠٩٤. ولفظ البخاري: «دخلنا مع رسول الله ﷺ علىٰ أبي سيف القين – وكان ظئرا لإبراهيم – فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبله وشمه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله؟ فقال: يا ابن عوف، إنها رحمة. ثم أتبعها بأخرىٰ فقال ﷺ: إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون». أما قوله (وإنما يرحم الله من عباده الرحماء) فهو في حديث أسامة بن زيد عند البخاري ١/ ٣٩٦، ٤/ ٢٦، ٢٢٠، ٣٧٩، ٣٩٤ ومسلم ١/ ٤١٠. ولفظ مسلم: «كنا عند النبي ﷺ، فأرسلت إليه إحدىٰ بناته تدعوه وتخبره أن ابنا لها في الموت، فقال للرسول: ارجع إليها فأخبرها أن لله ما أخذ وله ما أعطىٰ، وكل شيء عنده بأجل مسمىٰ، فمرها فلتصبر ولتحتسب. فعاد الرسول فقال: إنها قد أقسمت لتأتينها. فقام النبي ﷺ، وقام معه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل، =

حديث أنس باختلاف.

(**بل ذلك أيضًا لا يُخرِج عن مقام الرضا، فالمُقدِم على الحجامة والفصد راضٍ به، وهو متألِّم بسببه لا محالة، وقد تفيض عينُه**) بالدمع (**إذا عظُمَ ألمُه. وسيأتي ذلك في كتاب الرضا إن شاء الله تعالىٰ**) وممَّا لا يخرجه عن حدِّ الصابرين أيضًا حكاية المصيبة للتداوي، وللعالِم يتعلم منه الصبر والرضا، والصديق ليعرف الحال، لا علىٰ قصد الشكوىٰ؛ لأن هذا ممَّا تعمُّ به البلوىٰ.

(**وكتب ابن أبي نجيح**) هكذا هو في النسخ، أبو[1] يسار المكي الثقفي مولاهم، وأبو نَجِيح - كعظيم - اسمه يسار، روىٰ له الجماعة. وفي نسخة القوت: ابن أبي يحيىٰ، وهو[2] عبد الله بن محمد بن أبي يحيىٰ الأسلمي، لقبه سَحْبَل، وقد يُنسَب إلىٰ جده، روىٰ له أبو داود (**يعزِّي بعضَ الخلفاء**) فكتب: (**إن أحق مَن عرف حق الله تعالىٰ فيما أخذ منه مَن عظَّمَ حقَّ الله تعالىٰ عنده فيما أبقاه له، واعلمْ أن الماضي قبلك هو الباقي لك، والباقي بعدك هو المأجور فيك، واعلمْ أن أجر الصابرين فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يعافَون فيه**)[3] والحمد لله رب العالمين. كذا نقله صاحب القوت.

(**فإذًا مهما دفع الكراهة بالتفكُّر في نعمة الله تعالىٰ عليه بالثواب نال درجة الصابرين. نعم، من كمال الصبر كتمان المرض والفقر وسائر المصيبات، وقد قيل: من كنوز البر كتمان المصائب والأوجاع والصدقة**) ففي[4] إظهار المصيبة

= وانطلقت معهم، فرفع إليه الصبي ونفسه تقعقع كأنها في شنة، ففاضت عيناه، فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء».

(١) تقريب التهذيب ص ٥٥٢، وفيه أن اسمه عبد الله.

(٢) السابق ص ٥٤٣ - ٥٤٤.

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان ١٢/ ٤٤٥ من طريق أبي بكر ابن الأنباري قال: عزىٰ إبراهيم بن أبي يحيىٰ بعض الخلفاء فقال ... فذكره. وذكر الجاحظ في البيان والتبيين ٢/ ٧٤ أن هذه الرسالة كتبها إبراهيم بن أبي يحيىٰ إلىٰ المهدي العباسي يعزيه علىٰ ابنته.

(٤) فيض القدير ٦/ ١٧.

والوجع والتحدُّث بها قدحٌ في الصبر، مفوِّت للأجر، وكتمانها رأس الصبر، وقد شكا الأحنف بن قيس إلىٰ عمه وجع ضرسه وكدره، فقال: مه! لقد ذهبت عيني منذ أربعين سنة، فما شكوتها لأحد[١]. فكتمان هؤلاء الثلاثة كنز يُدَّخَر لصاحبه ليوم فاقته، لا يطَّلع علىٰ ثوابه ملَكٌ، ولا يُدفَع إلىٰ خُصَمائه، بل يعوِّضهم الله من باقي أعماله أو خزائن فضله؛ ليبقىٰ له كنزُه، وذلك إذا كان صبرًا منه ورضا عن ربِّه وحياءً منه أن يشكو أو يستغني بأحد من خلقه. وهذا قد رُوي مرفوعًا، وإنما تبع المصنفُ فيه صاحبَ القوت، حيث لم يصرِّح برفعه، فقد رواه أبو نعيم في الحلية[٢] وكذا البيهقي[٣] من حديث زافر بن سليمان عن عبد العزيز بن أبي روَّاد عن نافع عن ابن عمر رفعه، ثم قال أبو نعيم: غريب، تفرَّد به زافر عن عبد العزيز. انتهىٰ. وقال الذهبي[٤]: زافر بن سليمان، قال ابن عدي: لا يتابَع علىٰ حديثه[٥]. وعبد العزيز بن أبي روَّاد [قال ابن حبان[٦]]: يروي عن نافع عن ابن عمر نسخة موضوعة. وأورده ابن الجوزي في الموضوعات[٧].

وروىٰ الطبراني من حديث أنس: «ثلاث من كنوز البِر: كتمان الشكوىٰ، وكتمان المصيبة، وكتمان الصدقة». ورواه الطبراني أيضًا وابن عساكر من حديثه [بلفظ]: «ثلاث من كنوز البِر: إخفاء الصدقة، وكتمان المصيبة، وكتمان الشكوىٰ،

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان ١٢/ ٣٨١ وابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٤/ ٣٢٥ عن مغيرة بن مقسم الضبي قال: شكا ابن أخي الأحنف بن قيس وجعا بضرسه، فقال الأحنف: لقد ذهبت عيني منذ ثلاثين سنة فما ذكرتها لأحد.

(٢) حلية الأولياء ٨/ ١٩٧.

(٣) شعب الإيمان ١٢/ ٣٧٧.

(٤) ديوان الضعفاء والمتروكين ص ١٤١.

(٥) عبارة ابن عدي في الكامل ٣/ ١٠٨٩: «أحاديثه مقلوبة الإسناد، مقلوبة المتن، وعامة ما يرويه لا يتابع عليه، ويكتب حديثه مع ضعفه».

(٦) المجروحون من المحدثين ٢/ ١١٩ - ١٢٠.

(٧) أورده ٣/ ١٩٩ من حديث أنس، ولم يذكر حديث ابن عمر.

يقول الله تعالىٰ: إذا ابتليت عبدي ببلاء فصبر ...» الحديث، وقد تقدم قريبًا.

وبهذا ظهر أن الحديث له أصل، وإيراد ابن الجوزي إياه في الموضوعات فيه نظرٌ.

(فقد ظهر لك بهذه التقسيمات أن وجوب الصبر عامٌّ في جميع الأحوال والأفعال) لا يُخَصُّ منها حال دون حال، ولا فعل دون فعلٍ **(فإنَّ الذي كُفي الشهوات كلها واعتزل وحده فلا يستغني عن الصبر علىٰ العزلة والانفراد ظاهرًا، وعن الصبر عن وساوس الشيطان باطنًا، فإن اختلاج الخواطر لا يسكن)** أبدًا **(وأكثر جولان الخواطر إنما يكون في فائت لا تدارُك له أو في مستقبل لا بد وأن يحصل منه ما هو مقدَّر)** من الأزل **(فهو كيفما كان تضييعُ زمانٍ)** فأيُّ فائدة في شيء فات ولم يمكن تلافيه أم أيُّ فائدة في شيء هو غيب لا يُدرَىٰ كيف يكون؟ وإليه أشار القائل:

ما مضىٰ فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها[1]

(وآلة العبد قلبه، وبضاعته عمره) وكلٌّ منهما نفيس **(فإذا غفل القلب في نفَس واحد عن ذكر يستفيد به أنسًا بالله تعالىٰ أو عن فكر يستفيد به معرفة الله تعالىٰ ليستفيد بالمعرفة محبَّةَ الله تعالىٰ)** ويحظىٰ بمزيد القُرب منه **(فهو مغبون)** أي خاسر **(هذا إذا كان فكره ووسواسه في المباحات)** الشرعية وكان ذلك **(مقصورًا عليه، ولا يكون ذلك غالبًا، بل يتفكَّر في وجوه الحِيَل)** وأنواع الخداع **(لقضاء الشهوات)** النفسية **(إذ لا يزال ينازع كلَّ من تحرك علىٰ خلاف غرضه في جميع عمره أو مَن يتوهَّم أنه ينازعه ويخالف أمره أو غرضه بظهور أمارة)** أي علامة **(له منه)** تدل علىٰ ذلك **(بل يقدِّر المخالفةَ من أخلص الناس في حبِّه)** وأحبهم إليه **(حتىٰ في أهله وولده ويتوهَّم مخالفتهم له)** في أمره أو غرضه **(ثم يتفكَّر في كيفية زجرهم وكيفية قهرهم وجوابهم عمَّا يتعلَّلون به في مخالفته)** فيطول الحال ويكثُر

---

(١) تقدم هذا البيت في كتاب الحلال والحرام.

الاشتغالُ (**ولا يزال في شغل دائم**) لا ينتهي إلىٰ حدٍّ (**فللشيطان جندان: جند يطير، وجند يسير، والوسواس**) العارض منه (**عبارة عن حركة جنده الطيَّارة، والشهوة عبارة عن حركة جنده السيارة، وهذا لأن الشيطان خُلق من النار، وخُلق الإنسان من صَلصال كالفَخَّار**) كما هو نص الكتاب العزيز (**والفخار قد اجتمع فيه مع النار الطينُ**) إذ لا يكون فخارًا يصلصل إلا بدخوله في النار (**والطين طبيعته السكون**) والاستقرار والبرودة (**والنار طبيعتها الحركة**) والاضطراب والحرارة (**فلا تُتصور نار مشتعلة لا تتحرك، بل لا تزال تتحرك بطبعها، وقد كُلِّف الملعون المخلوق من النار أن يطمئن عن حركته ساجدًا لِما خلق الله من الطين، فأبىٰ**) أي امتنع (**واستكبر واستعصىٰ، وعبَّر عن سبب استعصائه بأن قال: خلقتَني من نار وخلقته من طين**) وإن النار أشرف من الطين، فكيف يسجد الشريف للمشروف؟! (**فإذًا حيث لم يسجد الملعون لأبينا آدم ﷺ فلا ينبغي أن يُطمع في سجوده لأولاده**) وقد وقع ذلك في مراجعته لبعض الأنبياء حين قال له: ألا تطلب من الله أن يتوب عليَّ؟ فقال: نعم. فرفع يديه وسأله ذلك وراجعَه في قبول توبة إبليس، فجاء الخطاب: نعم إن سجد لقبر آدم ﷺ. فقال له ذلك النبيُّ، فقال: أنا لم أسجد له وهو حي، فكيف أسجد له وهو ميت[1] (**ومهما كفَّ عن القلب وسواسَه وعداوته وطيرانه وجولانه فقد أظهر انقيادَه وإذعانه**) في الجملة (**وانقياده بالإذعان سجود منه، فهو روح السجود**) ومعناه في الباطن (**وإنما وضعُ الجبهة علىٰ الأرض قالبه وعلامته**

---

(١) قال السيوطي في الدر المنثور ١/ ٢٧٣ - ٢٧٤: «أخرج ابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان عن ابن عمر قال: لقي إبليس موسىٰ، فقال: يا موسىٰ، أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وكلمك تكليما، إن تبت وأنا أريد أن أتوب فاشفع لي إلىٰ ربي أن يتوب عليَّ. قال موسىٰ: نعم. فدعا موسىٰ ربه، فقيل: يا موسىٰ، قد قضيت حاجتك. فلقي موسىٰ إبليس فقال: قد أُمرتَ أن تسجد لقبر آدم ويتاب عليك. فاستكبر وغضب وقال: لم أسجد له حيا أسجد له ميتا؟! وأخرج ابن المنذر عن أنس قال: إن نوحا لما ركب السفينة أتاه إبليس، فقال له نوح: من أنت؟ قال: أنا إبليس. قال: فما جاء بك؟ قال: جئت تسأل لي ربي هل لي من توبة؟ فأوحىٰ الله إليه: أن توبته أن يأتي قبر آدم فيسجد له، فقال: أما أنا لم أسجد له حيا أسجد له ميتا؟! فاستكبر وكان من الكافرين».

الدالَّة عليه بالاصطلاح، ولو جعل وضع الجبهة علىٰ الأرض علامة استخفاف بالاصطلاح لتُصوِّر ذلك، كما أن الانبطاح بين يدي) الرجل **(المعظَّم المحترم يُرَىٰ استخفافًا بالعادة، فلا ينبغي أن يدهشك صدفُ الجوهر عن الجوهر، وقالب الروح عن الروح، وقشر اللب عن اللب، فتكون ممَّن قيَّده عالَمُ الشهادة بالكلية عن عالَم الغيب)** والملكوت **(وتحقَّق أن الشيطان من المنظَرين)** أي من الذين قد أُمهِلوا **(فلا يتواضع لك بالكف عن الوسواس إلىٰ يوم الدين، إلا أن تصبح وهمومك كلها هم واحد)** لا تتشعَّب بك في الأودية **(فتشغل قلبَك بالله وحده، فلا يجد الملعون مجالاً فيك)** ولا يتمكَّن منك ما دمتَ كذلك كأنَّك في حصن منيع **(فعند ذلك تكون من عباد الله المخلَصين)** ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢، الإسراء: ٦٥] **(الداخلين في الاستثناء عن سلطنة هذا اللعين)** كما في الكتاب العزيز **(ولا تظنن أنه يخلو عنه قلبٌ فارغ، بل هو سيَّال يجري من ابن آدم مجرىٰ الدم)** كما في الخبر: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرىٰ الدم». رواه أحمد والشيخان من حديث أنس، وقد تقدم ذِكرُه[١]. وتقدم أيضًا الاختلاف فيه أنه[٢] هل هو علىٰ حقيقته بأن جُعلت له قوة وقدرة علىٰ الجري في باطن الإنسان في مجاري دمه، أو علىٰ الاستعارة لكثرة إغوائه ووسوسته وأنه لا يفارق الإنسانَ كما لا يفارقه دمُه **(وسيلانه مثل الهواء في القدَح، فإنك إن أردتَ أن يخلو القدح عن الهواء من غير أن تشغله بالماء أو بغيره فقد طمعتَ في غير مَطمع، بل بقدر ما يخلو من الماء يدخل فيه الهواء لا محالة، فكذلك القلب المشغول بفكر مهمٍّ في الدين يخلو عن جولان الشياطين)** فيه **(وإلا فمَن غفل عن الله تعالىٰ ولو في لحظة فليس له في تلك اللحظة قرين إلا الشيطان، ولذلك قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾)** أي يغفل عنه ولم يهتدِ إلىٰ طريقه **(﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾)** [الزخرف: ٣٦] أي مقارن له لا يفارقه في أحواله.

---

(١) في كتاب الصوم، وفي كتاب عجائب القلب.

(٢) إكمال المعلم للقاضي عياض ٧/ ٦٥.

(وقال ﷺ: إن الله يبغض الشاب الفارغ) قال العراقي[١]: غريب، لم أجده.

قلت: روىٰ صاحب الحلية[٢] في ترجمة ابن مسعود أنه قال: إني لأكرهُ أن أرىٰ الرجل فارغًا لا في عمل دنيا ولا آخرة. وفي لفظ له: إني لأمقتُ الرجل أن أراه فارغًا ليس في شيء من عمل الدنيا ولا في عمل الآخرة.

(وهذا لأن الشاب إذا تعطَّل عن عمل يشغل باطنَه بمباح يستعين به علىٰ دينه كان ظاهره فارغًا، ولم يبقَ قلبُه فارغًا، بل يعشِّش فيه الشيطان ويبيض ويفرِّخ، ثم تزدوج أفراخُه أيضًا وتبيض مرة أخرىٰ وتفرِّخ، وهكذا يتوالد نسل الشيطان توالُدًا أسرع من توالُد سائر الحيوانات؛ لأن طبعه من النار، وإذا وجد الحلفاء اليابسة كثُر توالُدُه، فلا يزال تتوالد النار من النار ولا تنقطع البتَّة، بل تسري شيئًا فشيئًا) وقليلاً فقليلاً **(علىٰ الاتصال، فالشهوة في نفس الشاب للشيطان كالحلفاء اليابسة للنار، وكما لا تبقىٰ النار إذا لم يبقَ لها قوت وهو الحطب فلا يبقىٰ للشيطان مجال إذا لم تكن شهوةٌ)** ولذلك قالوا:

فالنار تأكل نفسها ... إن لم تجد ما تأكله[٣]

(فإذًا إذا تأمَّلتَ علمتَ أن أعدىٰ عدوِّك شهوتك، وهي صفة نفسك) ففي الخبر: «أعدَىٰ عدوِّك نفسُك التي بين جنبيك». وفي رواية: «زوجتك التي تضاجعك». وروىٰ العسكري عن سعيد بن أبي هلال مرسلاً: «ليس عدوك الذي إن قتلته كان لك نورًا وإن قتلك دخلت الجنة، ولكن أعدىٰ الأعداء لك نفسك التي بين جنبيك»[٤] **(ولذلك قال)** أبو المغيث **(الحسين بن منصور)** بن

---

(١) المغني ٢/ ١٠١٧.

(٢) حلية الأولياء ١/ ١٣٠.

(٣) البيت لعبد الله بن المعتز، وهو في ديوانه ص ٣٨٩.

(٤) ورواه الطبراني في المعجم الكبير ٣/ ٣٣٤ موصولا من حديث أبي مالك الأشعري، وفيه: «ولكن أعدىٰ عدوك ولدك الذي خرج من صلبك، ثم أعدىٰ عدو لك مالك والذي ملكت يمينك».

أبي بكر بن عمر بن عبد الله بن الليث بن أبي بكر بن أبي صالح بن عبد الله ابن أبي أيوب الأنصاري (**الحَلاَّج**) صحب[١] الجنيد والنوري وغيرهما، واختلف الناس فيه، فأفتىٰ كثير من العلماء بإباحة دمه، فقُتل يوم الثلاثاء لسبع بقين من ذي القعدة سنة ٣٠٩ (**حين كان يُصلَّب**) وذلك ببغداد (**وقد سُئل عن التصوف**) فقيل له: (**ما هو؟ فقال: هي نفسك، إن لم تشغلها**) بالذكر والفكر (**شغلتك**)[٢] بما يبعدك عن حضرة الله.

(**فإذًا حقيقة الصبر وكماله الصبر عن كل حركة مذمومة**) ذمَّها الشارع (**وحركة الباطن أَولىٰ بالصبر عن ذلك**) لِما فيه من الوساوس والخطرات (**وهذا صبر دائم لا يقطعه إلا الموت. نسأل الله حسن التوفيق بمَنِّه وكرمه**).

---

(١) لباب الأنساب لابن الأثير ١/ ٤٠٣.

(٢) رواه الخطيب في تاريخ بغداد ٨/ ٧١١ عن أبي العباس الرزاز قال: كان أخي خادما للحسين بن منصور، فسمعته يقول: لما كانت الليلة التي وُعد من الغد قتله قلت له: يا سيدي أوصني. فقال لي: عليك نفسك، إن لم تشغلها شغلتك.

بيان دواء الصبر وما يُستعان به عليه

(اعلمْ) هداك الله تعالىٰ **(أن الذي أنزل الداء أنزل الدواء ووعد الشفاء)** روىٰ أبو نعيم في الطب[٣] من حديث أبي هريرة: «إن الذي أنزل الداء أنزل معه الدواء». ورواه ابن السني والحاكم[٢] بلفظ: «إن الذي أنزل الداء أنزل الشفاء» **(فالصبر وإن كان شاقًّا)** علىٰ النفس **(أو ممتنعًا فتحصيله ممكن بمعجون)** مركَّب من **(العلم والعمل، فالعلم والعمل هما الأخلاط التي منهما تُركَّب الأدوية)** النافعة **(لأمراض القلوب كلها، ولكن يحتاج كل مرض إلىٰ علم آخر وعمل آخر، وكما أن أقسام الصبر مختلفة فأقسام العلل المانعة منه مختلفة، وإذا اختلفت العلل اختلف العلاج؛ إذ معنىٰ العلاج: مضادَّة العلة وقمعها)** لأن[٣] النفس إن كانت زكية طاهرة مهذَّبة الأخلاق فينبغي أن يسعىٰ لحفظها وجلب مزيد قوة إليها واكتساب زيادة صفاء لها، فإن كانت ناقصة عادمة الكمال والصفاء وجب العلاج بضد العلَّة المطلوب زوالها، فيعالج مرض الجهل بالعلم، ومرض البخل بالسخاء، ومرض الكبر بالتواضع، ومرض الشَّرَه بالكف عن المشتهَىٰ تكلُّفًا **(واستيفاء ذلك ممَّا يطول، ولكنا نعرِّف الطريق في بعض الأمثلة فنقول: إذا افتقر إلىٰ الصبر عن شهوة الوقاع مثلاً وقد غلبت عليه الشهوة بحيث لا يملك معها فرجه)** في حال يقظته ونومه **(أو يملك فرجه ولكن ليس يملك عينه)** بالتطلُّع **(أو يملك عينه ولكن ليس يملك قلبه ونفسه؛ إذ لا تزال تحدِّثه)** في سرِّه **(بمقتضيات الشهوة، ويصرفه ذلك عن المواظبة علىٰ الذكر والفكر)** والمراقبة **(والأعمال الصالحة، فنقول)** في علاجه: **(قد قدَّمنا أن**

---

(٣) الطب النبوي ١/ ١٨٣ - ١٨٤، ٢/ ٥٢٩.

(٢) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٣٢١.

(٣) ميزان العمل للغزالي ص ٢٥٩.

الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع باعث الهوىٰ، وكل متصارعينِ أردنا أن يغلب أحدهما الآخر فلا طريق لنا فيه إلا تقوية مَن أردنا أن تكون له اليد العليا) أي الغلبة (وتضعيف الآخر، فلزمنا ههنا تقويةُ باعث الدين وتضعيف باعث الشهوة، فأما باعث الشهوة فسبيل تضعيفه ثلاثة أمور:

أحدها: أن تنظر إلىٰ مادة قوتها وهي الأغذية الطيبة) اللذيذة (المحرِّكة للشهوة من حيث نوعها ومن حيث كثرتها، فلا بد من قطعها بالصوم الدائم، مع الاقتصار عند الإفطار علىٰ طعام قليل في نفسه، ضعيف في جنسه، فيحترز عن) تناول (اللحم) في المأكولات (و) عن (الأطعمة الميِّهجة للشهوة) في طبعها أو بملابسة الأبازير.

(الثاني: قطعُ أسبابه الميِّهجة له في الحال، فإنه إنما يهيج بالنظر إلىٰ مَظانِّ الشهوة؛ إذ النظر يحرك القلب، والقلب يحرك الشهوة) ومن ذلك قولهم: مَن أدار ناظره أتعب خاطره (وهذا يحصل) علاجُه (بالعزلة) عن الناس مرةً (والاحتراز عن مَظانِّ وقوع البصر علىٰ الصور) الجميلة (المشتهاة) بالطبع (والفرار منها بالكلية. قال رسول الله ﷺ: النظرة سهم مسموم من سهام إبليس) رواه الحاكم[١] والبيهقي من حديث حذيفة بلفظ: «النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة، فمَن تركها من خوف الله أثابه الله إيمانًا يجد حلاوته في قلبه».

وروىٰ الحكيم الترمذي في النوادر[٢] من حديث علي: «النظر إلىٰ محاسن المرأة سهم من سهام إبليس [مسموم] فمَن صرف بصره عنها رزقه الله عبادة يجد حلاوتها».

وروىٰ أبو نعيم في الحلية[٣] من حديث ابن عمر: «نظرُ المؤمن إلىٰ محاسن

---

(١) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٤٥٦.

(٢) نوادر الأصول ص ٩٧٨.

(٣) حلية الأولياء ٦/ ١٠١، وأوله: «النظرة الأولىٰ خطأ، والثانية عمد، والثالثة تدمر، نظر المؤمن ...» الخ.

المرأة سهم من سهام إبليس مسموم، مَن تركها من خشية الله ورجاء ما عنده أثابه الله بذلك عبادةً تبلغه لذَّتُها».

وقد تقدم ذِكرُ هذا الحديث مرارًا.

(**وهذا سهم يسدِّد الملعون ولا ترس يمنع منه**) ويتترَّس به (**إلا تغميض الأجفان والهرب من صوب رميه**) وقد روىٰ الديلمي[1] من حديث أبي هريرة: «يقول الله تعالىٰ: يا ابن آدم، إن نازعك بصرُك إلىٰ بعض ما حرَّمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقين، فأطبِقْهما عليه ...» الحديث (**فإنه إنما يرمي هذا السهم عن قوس الصور، فإذا انقلبتَ عن صوب الصور لم يصبْك سهمُه**) وأمنتَ من شرِّه.

(**الثالث: تسلية النفس بالمباحات من الجنس الذي تشتهيه، وذلك بالنكاح**) مع حليلته (**فإنَّ كل ما يشتهيه الطبع ففي المباحات من جنسه ما يغني عن المحظور منه، وهذا هو العلاج الأنفع**) والدواء الأكبر (**في حق الأكثر، فإنَّ قطع الغذاء**) مطلقًا (**يُضعِف عن سائر الأعمال**) الصالحة التي تستدعي القوة (**ثم قد لا تُقمَع الشهوة في حق أكثر الرجال، ولذلك قال ﷺ**): يا أيها الناس (**عليكم بالباءة**) أي النكاح (**فمَن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وِجاء**) رواه الطبراني في الأوسط والضياء من حديث أنس، وقد تقدم في كتاب النكاح.

(**فهذه ثلاثة أسباب. فالعلاج الأول - وهو قطعُ الطعام - يضاهي قطع العلف عن البهيمة الجَمُوح**) أي العاصية عن التأديب (**وعن الكلب الضاري**) أي اللَّهِج بأكل لحم الصيد (**ليضعُف فتسقط قوته. و**) العلاج (**الثاني يضاهي تغييبَ اللحم عن الكلب وتغييب الشعير عن البهيمة حتىٰ لا تتحرك بواطنهما بسبب مشاهدتهما**) بالعين والحس (**و**) العلاج (**الثالث يضاهي تسليتَها بشيء قليل ممَّا يميل إليه طبعُها حتىٰ يبقىٰ معها من القوة ما تصبر به علىٰ التأديب**) والرياضة.

---

(١) الفردوس بمأثور الخطاب ٥/ ٢٣٦.

(وأما تقوية باعث الدين فإنما تكون بطريقين:

أحدهما: إطماعه في فوائد المجاهدة وثمراتها في الدين والدنيا) والقدر الواجب منه تقويته بالوعد والوعيد أو بما رأيته من البواعث الحادثة المقوِّية له إلىٰ أن يغلب وينتصر ويفوز بالخُلَع السَّنِية الموعودة له **(وذلك بأن يُكثِر فكره في الأخبار التي أوردناها في فضل الصبر وفي حُسن عواقبه في الدنيا والآخرة. وفي الأثر: أن ثواب الصبر علىٰ المصيبة أكثر ممَّا فات، وأنه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة؛ إذ فاته ما لا يبقىٰ معه إلا مدة الحياة، وحصل له ما يبقىٰ بعد موته أبد الدهر)** كأنه يشير إلىٰ أثر ابن عباس المتقدم: أن مَن صبر علىٰ المصيبة عند الصدمة الأولىٰ فله تسعمائة درجة، تبعًا لصاحب القوت، وقد تقدم الكلام عليه، وأن المرويَّ من حديثه علىٰ خلاف ذلك **(ومَن أسلم خسيسًا في نفيس فلا ينبغي أن يحزن لفوات الخسيس في الحال، وهذا من باب المعارف، وهو من الإيمان)** بالترغيب والترهيب، وبالقضاء والقدر خيره وشره وحلوه ومره من الله تعالىٰ، والإيمان بهذا واجب، والشريعة طافحة بهذا، والقرآن من فاتحته إلىٰ خاتمته ترغيب وترهيب وتذكير يتذكَّر به اللبيب، فإذا قرأ العبد القرآن بالتدبُّر والإصغاء أحضر قلبَه وتفكَّرَ فيما رتَّب الله تعالىٰ علىٰ الطاعات من الجزاء والكرامات وعلىٰ المخالفات قويَ إيمانُه ويقينُه، وإليه أشار المصنف بقوله: **(فتارةً يضعُف، وتارةً يقوَىٰ، فإن قويَ قوَّىٰ باعثَ الدين وهيَّجه تهييجًا شديدًا، وإن ضعُف ضعَّفه، وإنما قوة الإيمان يعبَّر عنها باليقين، وهو المحرِّك لعزيمة الصبر، وأقل ما أُوتي الناس الصبر وعزيمة اليقين)** كما رُوي ذلك من حديث شهر بن حوشب عن أبي أمامة رفعه، وقد تقدم ذِكرُه. وإذا قويَ يقينُه انهزم كيدُ الشيطان وحزبه، وإذا قويَ يقينُه بالقضاء والقدر صبر علىٰ ما ابتلاه الله، وإن اتَّسعت معرفته حتىٰ يرىٰ المصيبة نعمة حصل منه الشكر عوضًا عن الصبر، فارتفعت بذلك درجته عند الله تعالىٰ.

(والثاني: أن يعوِّد هذا الباعث مصارعة باعث الهوىٰ تدريجًا قليلاً قليلاً حتىٰ

يدرك لذَّة الظفر بها فيستجرئ عليها وتقوَىٰ منتُه) أي قوَّته (في مصارعتها، فإن الاعتياد والممارسة للأعمال الشاقة يؤكِّد القُوَىٰ التي تصدر عنها تلك الأعمالُ، ولذلك تزيد قوةُ الحمَّالين) للأحمال الثقيلة (والفلاحين) لمعاناة أعمال الأراضي (والمقاتلين) في الحروب (وبالجملة، فقوة الممارسين للأعمال الشاقة تزيد علىٰ قوة الخيَّاطين والعطَّارين) وهم الصيادلة (والفقهاء) في المدارس (والصالحين) في الزوايا (وذلك لأن قُواهم لم تتأكَّد بالممارسة) والمزاولة (فالعلاج الأول يضاهي أطماعَ المصارع بالخلعة عند الغلبة ووعده بأنواع الكرامة) والإنعام (كما وعد فرعون سَحَرته عند إغرائه إيَّاهم بموسىٰ) عليه السلام (حيث قال: وإنكم إذًا لمن المقرَّبين. و) العلاج (الثاني) أيضًا (يضاهي تعويدَ الصبي الذي تُراد منه المصارعة والمقاتلَة مباشرة أسباب ذلك منذ) زمن (الصبا حتىٰ يأنس به ويستجرئ عليه وتقوَىٰ فيه منتُه، فمَن ترك بالكلِّية المجاهدة بالصبر ضعُف فيه باعثُ الدين، ولا يقوَىٰ علىٰ الشهوة وإن ضعُفت، ومَن عوَّد نفسه مخالفة الهوىٰ غلبها مهما أراد.

فهذا منهاج العلاج في جميع أنواع الصبر، ولا يمكن استيفاؤه، وإنما أشدُّها كفُّ الباطن عن حديث النفس) وتوارُد الهواجس علىٰ الخواطر (وإنما يشتد ذلك علىٰ مَن تفرَّغ له) بهمَّته بالكلِّية (بأنْ قمعَ الشهوات الظاهرة وآثر العزلةَ) والانفراد عن الخلق (وجلس للمراقبة والذِّكر والفكر، فإن الوساوس لا تزال تجاذبه من جانب إلىٰ جانب) وتحول بينه وبين شغله (وهذا لا علاج له ألبتَّة إلا قطع العلائق كلها ظاهرًا وباطنًا بالفرار عن الأهل والولد والمال والجاه والرفقاء والأصدقاء) والأقارب والمعارف (ثم الاعتزال) عنهم (إلىٰ زاوية) من زوايا البلد (بعد إحراز قدْر يسير من القوت) يقيم به صلبه (وبعد القناعة به) واتخاذ رفيق صالح يعينه علىٰ أحواله (ثم تركُ ذلك كله لا يكفي ما لم تَصِر الهموم همًّا واحدًا وهو الله تعالىٰ) فلا يكون له همٌّ إلا هو، ولا شغل إلا به (ثم إذا غلب ذلك علىٰ القلب فلا يكفي ذلك ما لم يكن له مجال في الفكر وسيرٌ بالباطن في ملكوت السموات والأرض وعجائب

صنعِ الله تعالىٰ) فيهما (وسائر أبواب معرفة الله تعالىٰ، حتىٰ إذا استولىٰ ذلك علىٰ قلبه) وغلب (دفع اشتغالُه بذلك مجاذبة الشيطان ووسواسه) وما يغمر قلبَه من همزاته (وإن لم يكن له سير بالباطن فلا ينجيه إلا الأوراد المتواصلة المرتَّبة في كل لحظة) أو في كل وقت مخصوص (من القراءة والأذكار والصلوات، ويحتاج مع ذلك إلىٰ تكليف القلب الحضورَ) إذ القراءة والأذكار من غير حضور القلب لا تجدي نفعًا (فإنَّ الفكر بالباطن هو الذي يستغرق القلبَ دون الأوراد الظاهرة) الجارية علىٰ اللسان في منزلة حديث النفس (ثم إذا فعل ذلك كلَّه لم يَسلم له من الأوقات إلا بعضها) أي بالشرط المذكور (إذ لا يخلو في جميع أوقاته من حوادث تتجدَّد فتشغله عن الفكر والذكر من مرض وخوف وإيذاء من إنسان وطغيان من مخالِط؛ إذ لا يستغني عن مخالطة مَن يعينه في بعض أسباب المعيشة) بحسب الضرورة الطارئة (فهذا أحد الأنواع الشاغلة) عن الذكر والفكر (وأما النوع الثاني فهو ضروري أشد ضرورة من الأول وهو اشتغاله بالمطعم والملبس وأسباب المعاش، فإن تهيئة ذلك أيضًا تحوج إلىٰ شغل إن تولاَّه بنفسه) يشغله عمَّا هو بصدده (وإن تولاَّه غيرُه فلا يخلو عن شغل قلب بمَن يتولاَّه) في بعض الأحوال والأحيان ضرورةً (ولكن بعد قطع العلائق كلِّها يَسلم له أكثر الأوقات إن لم تهجم به مَلَمَّة أو واقعة) من مَلَمَّات الدهر ووقائعه (وفي تلك الأوقات يصفو القلبُ) عن الكَدَر (ويتيسَّر له الفكر) فيتوجَّه علىٰ قلبه بفكره وهو ذاكر ويراقب عليه (وينكشف فيه من أسرار الله تعالىٰ في ملكوت السموات والأرض ما لا يقدر علىٰ عُشر عشيره في زمان طويل لو كان مشغول القلب بالعلائق) وذلك الانكشاف لا حدَّ له يقف عليه (والانتهاء إلىٰ هذا) المقام (هو أقصىٰ المقامات التي يمكن أن تُنال بالاكتساب والجهد) بقدر الطاقة البشرية (فأما مقادير ما ينكشف ومَبالِغ ما يَرِدُ من لطف الله في الأعمال والأحوال فذلك يجري مَجرىٰ الصيد، وهو بحسب الرزق) المقسوم (فقد يقلُّ الجهد ويجلُّ الصيدُ) أي يعظُم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء (وقد يطول الجهد ويقل الحظُّ) فلا ينال مقدار جهده (والمعوَّل وراء هذا الاجتهاد علىٰ

جذبة من جذبات الرحمن، فإنها توازي أعمالَ الثَّقَلين) وعلىٰ هذا بناء سلوك الشيخ أبي علي الفارمذي قُدِّس سره، وهو شيخ المصنِّف، فالجذب عنده مقدَّم علىٰ السلوك، وإليه ذهب بعض الشيوخ في الطريقة العلية النقشبندية، ومَن يتيسَّر له هذا الحال أولاً يأمرونه بمراقبة الجلالة، ثم بذكر النفي والإثبات. وذهب بعضهم إلىٰ أن السلوك مقدَّم علىٰ الجذب، وأن الجذب نتيجة السلوك، فمَن قال بذلك يأمر المريد أولاً بذكر النفي والإثبات ثم بمراقبة الجلالة[1] **(وليس ذلك باختيار العبد)** أي حصول الجذبة الإلهية؛ لكونه من واردات الحق **(نعم، اختيار العبد في أن يتعرَّض لتلك الجذبة بأن يقطع عن قلبه جواذب الدنيا)** فيتخلَّىٰ عنها، فيكون حريًّا بورود الجذبة الإلهية إليه **(فإن المجذوب إلىٰ أسفل السافلين لا ينجذب إلىٰ أعلىٰ عِلِّيِّين، وكل منهوم علىٰ الدنيا)** حريص علىٰ تحصيلها **(فهو منجذب إليها)** لا يلوي علىٰ غيرها **(فقطعُ العلائق الجاذبة هو المراد بقوله ﷺ: إن لربِّكم في أيام دهركم نفحات، ألا فتعرَّضوا لها)** رواه الطبراني في الكبير وابن النجار من حديث محمد بن مَسلمة بلفظ: «فتعرَّضوا لها لعلَّه أن تصيبكم نفحةٌ منها فلا تشقون بعدها أبدًا». وقد تقدم في الجمعة[2]. والمراد بالنفحات هنا: التجلِّيات المقرِّبات، والتعرُّض لها بتطهير القلب وتزكيته من الأكدار والأخلاق الذميمة والطلب منه في كل وقت، فإنه لا يُدرَىٰ في أيِّ وقت يكون فتح خزائن المِنَن **(وذلك لأن تلك النفحات والجذبات لها أسباب سماوية؛ إذ قال تعالىٰ: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢﴾)** [الذاريات: ٢٢] والرزق[3] رزقان: ظاهر وهي الأقوات والأطعمة وذلك للظواهر وهي الأبدان، وباطن وهي المعارف والمكاشفات وذلك للقلوب والأسرار **(وهذا من أعلىٰ أنواع الرزق)** وأشرفها، فإن ثمرته حياة الأبد، وثمرة الرزق الظاهر قوة الجسد إلىٰ مدة قريبة الأمد، والله تعالىٰ هو المتولِّي لخلق

---

(١) انظر: الطريقة النقشبندية وأعلامها ص٤٧، ٤٨، للدكتور أحمد درنيقة (ط جروس برس).

(٢) وكذلك في كتاب عجائب القلب مع الشرح المذكور.

(٣) المقصد الأسنىٰ للغزالي ص ٩٠، وانظر أيضا في معناه: هداية المريد للقاني ٢/ ١١٧٥- ١١٨٠.

الرزقين، والمتفضِّل بالإيصال إلىٰ كِلا الفريقين (والأمور السماوية غائبة عنا، فلا ندري متىٰ ييسِّر الله تعالىٰ أسباب الرزق) المعنوي (فما علينا إلا تفريغ المحل) من المُشغِلات (والانتظار لنزول الرحمة) فيه (وبلوغ الكتاب أجله) أي مُنتهاه الذي قُدِّر له (كالذي يُصلِح الأرضَ وينقِّيها من الحشيش ويبثُّ فيها البذر، وكل ذلك لا ينفعه) وفي نسخة: لا ينفعها (إلا بمطر، ولا يدري متىٰ يقدِّر الله أسباب المطر، إلا أنه يثق بفضل الله تعالىٰ ورحمته أنه لا يخلي سنة عن مطر) كما جرت به سنَّته (فكذلك قلَّما تخلو سنة وشهر ويوم عن جذبة من الجذبات) الإلهية (ونفحة من النفحات) الرحمانية (فينبغي أن يكون العبد قد طهَّر القلب عن حشيش الشهوات، وبذر فيه بذر الإرادة والإخلاص، وعرَّضه لمَهابِّ رياح الرحمة، وكما يقوَىٰ انتظارُ الأمطار في أوقات الربيع وعند ظهور الغيم فيقوَىٰ انتظار تلك النفحات في الأوقات الشريفة وعند اجتماع الهِمَم وتساعد القلوب كما في يوم عرفة ويوم الجمعة وأيام رمضان) فإنَّ هذه أيام شريفة وأوقات منيفة تجتمع فيها الهموم وتتوجَّه القلوب بحضورها إلىٰ الله تعالىٰ، فانتظار النفحات الإلهية يكون قويًّا (فإن الهِمَم والأنفاس أسباب بحكم تقدير الله لاستدرار) أخلاق (رحمته) وفيوضاته (حتىٰ) إنه (تُستدَرُّ بها) أي بالهِمَم والأنفاس (الأمطار في أوقات الاستسقاء) عند حصول الجدب (وهي لاستدرار أمطار المكاشفات) الإلهية (ولطائف المعارف) السُّبْحانية (من خزائن الملكوت) الغيبية (أشد مناسبةً منها لاستدرار قطرات الماء) من السماء (واستجرار الغيوم من أقطار البحار والجبال، بل الأحوال والمكاشَفات حاضرة معك في قلبك، وإنما أنت مشغول عنها بعلائقك وشهواتك، فصار ذلك حجابًا بينك وبينها، فلا تحتاج) إلىٰ شيء من خارج (إلا إلىٰ أن تنكسر الشهوة) والشَّبَق (ويُرفَع الحجاب فتشرق أنوار المعارف) المتنوِّعة (من باطن القلب)[1] ممَّا يلي

(١) وتقدم إن كان قصده معرفة حقائق ما أخبرت به الرسل بدون توسط الرسل فهو باطل، وانظر: قانون التأويل لابن العربي ص٢٤٦، الرد علىٰ المنطقيين لابن تيمية ص٥١٠.

عالَم الملكوت (**وإظهار ماء الأرض بحفر القنىٰ أسهل وأقرب من استنزال الماء إليها من مكان بعيد منخفض عنها**) وأَولىٰ بوصف الدوام والثبات لحصول الإمدادات التي لا تنقطع؛ إذ المستنزَل من المكان الآخَر قد ينقطع ولا يثبُت (**ولكونه حاضرًا في القلب ومنسيًّا بالشغل عنه سمَّىٰ الله تعالىٰ جميعَ معارف الإيمان**) ذِكرًا و(**تذكُّرًا**) وتذكرة وذكرىٰ (**فقال تعالىٰ**: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾) [الحجر: ٩] والمراد به القرآن؛ لكونه يذكِّر باللسان وبالقلب (**وقال تعالىٰ**: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٩﴾) [ص: ٢٩] أي ليتَّعظوا (**وقال تعالىٰ**: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾) [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠] ولا يكون الذِّكر إلا بعد النسيان. وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ [المزمل: ١٩، الإنسان: ٢٩] وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ [الزمر: ٢١، ق: ٣٧] (**فهذا هو علاج الصبر عن الوساوس والشواغل**) الجاذبة من طريق الحق (**وهو آخر درجات الصبر**) وأشدُّها علىٰ السالكين، وفيها تزلُّ أقدام الأقوياء فضلاً عن الضعفاء (**وإنما الصبر عن العلائق كلها مقدَّم علىٰ الصبر عن الخواطر**) فإذا فرغ منها استقبله هذا الباب العظيم الهائل، فإن وجد شيخًا كاملاً فليعتصم به ولا يفارقه، وهو بعد هذا المنزل إما هالك أو مالك؛ لأنه يرىٰ الخواطر تأتيه كأمواج البحر تبهر أبصارَ القلوب رؤيتُها، فكيف التوسُّط في لججها؟ ومن أجل هذا (**قال الجنيد**) قُدِّس سره: (**المسير من الدنيا إلىٰ الآخرة سهل**) هيِّن (**علىٰ المؤمن، وهجران الخلق في حب الحق شديد، والمسير من النفس إلىٰ الله تعالىٰ صعب شديد، والصبر مع الله أشد**) هكذا رواه القشيري في الرسالة سماعًا عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: سمعت الحسين بن يحيىٰ يقول: سمعت جعفر بن محمد يقول: سمعت الجنيد يقول ... فذكره. والمعنىٰ أن المسير من الدنيا سهل وإن كانت فيه صعوبة ما من حيث فراق محبوبه، وذلك لكمال الجزاء. وهجران الخلق في طاعة الله شديد؛ لمخالفته هوىٰ النفس من حظوظها. والمسير من النفس بعدم الالتفات لهواها إلىٰ الله تعالىٰ بالعمل المحض أمره شديد للمخالفة المذكورة. والصبر مع الله حتىٰ لا يرجع الصابر إلىٰ

الالتفات لهواها أشدُّ مما ذُكر (**فذكر شدة الصبر عن شواغل القلب ثم شدة هجران الخلق**) فانظر، فما أغزر علمه، فإنه ليس في الطريق عائق رابع، أما العائق الأول: الدنيا، والعائق الثاني: إقبال الخلق على المريد، والعائق الثالث: حوم الشياطين بين القلب وبين الملكوت، وليس له علاج إلا الاعتماد على الله، ثم الاعتصام بالشيخ المفيد، ثم الإقبال على معاني الذِّكر بكُنْه الهمَّة، فمَن كان لله كان الله له، ثم تخفيفه العلائق ما استطاع، فإنه لا مَطمع في الورع قبل القناعة، ولا في الزهد قبل الورع، ولا في فراغ القلب قبل الزهد، ولا في الفكر قبل المعرفة، ولا في المعرفة قبل الفكر، ولا في المحبة قبل المعرفة (**وأشد العلائق على النفس علقة الخلق وحب الجاه، فإنَّ لذة الرياسة والغلبة والاستعلاء والاستتباع أغلب اللذَّات في الدنيا على نفوس العقلاء، وكيف لا تكون أغلب اللذات ومطلوبها صفة من صفات الله تعالى وهي الربوبية، والربوبية محبوبة ومطلوبة بالطبع للقلب؛ لِما فيه من المناسبة لأمور الربوبية، وعنه العبارة بقوله تعالى**: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] **وليس القلب مذمومًا على حبه ذلك، وإنما هو مذموم على غلط وقع له بسبب تغرير الشيطان اللعين المبعد**) من رحمة الله تعالى (**عن عالَم الأمر؛ إذ حسده على كونه من عالم الأمر فأضلَّه وأغواه**) عن طريق الرشد (**وكيف يكون مذمومًا عليه وهو يطلب سعادة الآخرة**) وهو أعلى النعم الموهوبة وأشرُفها، ومَن يطلب سعادة الآخرة (**فليس يطلب إلا بقاء لا فناء فيه، وعزًّا لا ذل فيه، وأمنًا لا خوف فيه، وغِنى لا فقر فيه، وكمالاً لا نقصان فيه**) وقدرة لا عجز فيها، وعلمًا لا جهل فيه، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ الآية [هود: ١٠٨] ولا يمكن الوصول لذلك إلا باكتساب الفضائل النفسية واستعمالها (**وهذه كلها من أوصاف الربوبية، وليس مذمومًا على طلب ذلك، بل حق كل عبد أن يطلب مُلكًا عظيمًا لا آخر له، وطالب المُلك طالب للعز والعلو والكمال لا محالة، ولكن المُلك ملكان: ملك مشوب بأنواع الآلام**) والأكدار (**وملحوق بسرعة الانصرام**) أي الانقطاع (**ولكنه عاجل وهو في الدنيا، وملك مخلَّد دائم لا يشوبه كدرٌ ولا ألم**) أي لا يخالطه

(**ولا يقطعه قاطعٌ، ولكنه آجِل**) أي متأخِّر (**وقد خُلق الإنسان عجولاً راغبًا في العاجلة**) كما في نص القرآن (**فجاء الشيطان وتوسَّل إليه بواسطة العَجَلة التي في طبعه فاستغواه بالعاجلة، وزيَّن له الحاضرة، وتوسَّل إليه بواسطة الحمق**) وهو فساد جوهر العقل (**فوعده بالغرور في الآخرة، ومنَّاه مع مُلك الدنيا مُلْكَ الآخرة، كما قال ﷺ**): الكيِّس مَن دانَ نفسَه وعملَ لِما بعد الموت (**والأحمق**) وفي رواية: والفاجر (**مَن أتبع نفسه هواها وتمنَّىٰ علىٰ الله الأماني**) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه من حديث شداد ابن أوس، وقد تقدَّم (**فانخدع المخذولُ بغروره واشتغل بطلب عز الدنيا ومُلكها علىٰ قدر إمكانه، ولم يَتَدَلَّ الموفَّق بحبل غروره**) ولم ينخدع (**إذ علمَ مداخلَ مكره**) ومطاوي خِدَعه (**فأعرض عن العاجلة، فعُبِّر عن المخذولين وقيل**) وفي نسخة: فعبَّر تعالىٰ عن المخذولين وقال: (﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾) [القيامة: ٢٠ - ٢١] أي تَدَعونها (**وقال تعالىٰ**: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإنسان: ٢٧] **وقال تعالىٰ**: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾) [النجم: ٢٩ - ٣٠] في آيات كثيرة تشير إلىٰ أحوال المخذولين ممَّن آثر الدنيا علىٰ الآخرة (**ولمَّا استطار مكرُ الشيطان في كافة الخلق**) وانتشرت خِدَعه إياهم (**أرسل الله الملائكة إلىٰ الرسل**) عليهم السلام (**وأوحىٰ**) وفي نسخة: فأوحوا (**إليهم ما تمَّ علىٰ الخلق من إهلاك العدو وإغوائه**) وإضلاله (**فاشتغلوا بدعوة الخلق إلىٰ المُلك الحقيقي عن الملك المجازي الذي لا أصل له إن سَلِمَ**) من الكدورات (**ولا دوام له أصلاً، فنادوا فيهم**) بما حكىٰ الله تعالىٰ عنهم في كتابه العزيز: (﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾) أي في جهاد أعداء الله (﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾) فامتنعتم عن الخروج (﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة: ٣٨] **فالتوراة والإنجيل والزبور والقرآن وصحف موسىٰ وإبراهيم**) عليهما السلام (**وكل كتاب منزل ما أُنزل إلا لدعوة الخلق إلىٰ المُلك الدائم المخلَّد**) روىٰ عبد بن حميد وابن مردويه

وأبو نعيم[١] وابن عساكر[٢] من حديث أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله، كم أنزل الله من كتاب؟ قال: «مائة كتاب وأربعة كتب، أنزل علىٰ شيث خمسين صحيفة، وعلىٰ إدريس ثلاثين [صحيفة] وعلىٰ إبراهيم عشر صحائف، وعلىٰ موسىٰ قبل التوراة عشر صحائف، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان». قلت: يا رسول الله، فما كانت صحف إبراهيم؟ قال: «أمثال كلها». قلت: فما كانت صحف موسىٰ؟ قال: «كانت عِبَرًا كلها». قلت: فهل أنزل الله عليك شيئًا ممَّا كان في صحف إبراهيم وموسىٰ؟ قال: «نعم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [الأعلىٰ: ١٧ - ١٩] **(والمراد منهم أن يكونوا ملوكًا في الدنيا ملوكًا في الآخرة، أما ملك الدنيا فبالزهد فيها والقناعة باليسير منها)** بقدر ما يبلِّغه إلىٰ الآخرة **(وأما ملك الآخرة فبالقرب من الله تعالىٰ يدرك[٣] بقاء لا فناء فيه، وعزًّا لا ذل فيه، وقرَّة عين أُخفيتْ في هذا العالَم لا تعلمها نفس من النفوس)** يشير إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧] **(والشيطان يدعوهم إلىٰ ملك الدنيا لعلمه بأن ملك الآخرة يفوت به؛ إذ الدنيا والآخرة ضَرَّتان)** أي بمنزلتهما، إن أرضيتَ إحداهما سخطت الأخرىٰ. وهكذا مثَّلهما عليٌّ رضي الله عنه، وتقدم في كتاب العلم **(ولعلمه بأن الدنيا لا تَسلم له أيضًا)** لأنه يفارقها عن قرب **(ولو كانت تَسلم له لكان يحسده أيضًا، ولكنَّ ملك الدنيا لا يخلو عن المنازعات والمكدِّرات وطول الهموم في التدبيرات، وكذلك سائر أسباب الجاه)** والرياسات **(ثم مهما تَسلم وتتم الأسبابُ)** لِما يوافق راحتَه وهواه **(ينقضي العمر)** وينتهي (﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا﴾) أي محصودًا منكسرًا (﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ

---

(١) حلية الأولياء ١/ ١٦٧.

(٢) تاريخ دمشق ٢٣/ ٢٧٤ - ٢٧٨.

(٣) في أ، وب، وط المنهاج (٧/ ٢٦٧): بدرك. بالباء، وهو الصواب.

بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾ [يونس: ٢٤] **فضرب الله تعالىٰ لها مثلاً فقال: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا﴾** أي يابسًا متكسّرًا (﴿تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ٤٥﴾ [الكهف: ٤٥] **والزهد في الدنيا لمَّا أنْ كان مُلكًا حاضرًا حسده الشيطان عليه فصدَّه عنه)** أي منعه (**ومعنىٰ الزهد: أن يملك العبد شهوته وغضبه فينقادان لباعث الدين ولإشارة الإيمان**) فلا يخالفان مقتضاهما (**وهذا ملكٌ بالاستحقاق؛ إذ به يصير صاحبه حرًّا**) كاملاً (**وباستيلاء الشهوة عليه يصير عبدًا لفرجه وبطنه وسائر أغراضه**) ومهمَّاته (**فيكون مسخَّرًا مثل البهيمة مملوكًا يستجرُّه زمامُ الشهوة آخذًا بمختنقه**) أي حلقومه (**إلىٰ حيث يريد ويهوَىٰ، فما أعظم اغترار الإنسان إذ ظن أنه ينال المُلك بأن يصير مملوكًا، وينال الربوبية بأن يصير عبدًا، ومثل هذا هل يكون إلا معكوسًا في الدنيا، منكوسًا في الآخرة**) مكبًّا علىٰ وجهه (**ولهذا قال بعض الملوك لبعض الزهَّاد: هل من حاجة**) لك إلينا؟ (**قال: كيف أطلب منك حاجة وملكي أعظم من ملكك؟ قال: كيف ذلك؟ قال: مَن أنت عبده فهو عبدي. فقال: كيف ذلك؟ قال: أنت عبدُ شهوتك وغضبك وفرجك وبطنك، وقد ملكتُ هؤلاء كلَّهم، فهم عبيدي.**

فهذا إذًا هو الملك في الدنيا، وهو الذي يسوق إلىٰ الملك في الآخرة، فالمخدوعون بغرور الشيطان خسروا الدنيا والآخرة جميعًا، والذين وُفِّقوا للاشتداد علىٰ الصراط المستقيم) فلم يُفرِطوا ولم يفرِّطوا (**فازوا بالدنيا والآخرة جميعًا. فإذا عرفتَ الآن معنىٰ المُلك والربوبية ومعنىٰ التسخير والعبودية ومدخل الغلط**) والاشتباه (**في ذلك وكيف تعمية الشيطان وتلبيسه**) وخِدَعه ومكره (**فيسهل عليك النزوعُ من المُلك والجاه والإعراض عنهما والصبر عند فواتهما؛ إذ تصير بتركهما ملكًا في الحال وترجو به ملكًا في الآخرة، ومَن كوشفَ بهذه الأمور بعد أن ألفَ الجاهَ وأنسَ به ورسخت فيه بالعادة مباشرةُ أسبابه فلا يكفيه في العلاج مجردُ العلم والكشف، بل لا بد وأن يضيف إليه العمل، وعمله في ثلاثة أمور:**

أحدها: أن يهرب من موضع الجاه حتىٰ لا يشاهد أسبابه فيعسُر عليه الصبرُ مع الأسباب كما يهرب مَن غلبته الشهوةُ عن مشاهدة الصور) الحِسان (المحرِّكة [للشهوة][1]، ومَن لم يفعل هذا فقد كفر نعمة الله في سعة الأرض؛ إذ قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧].

الثاني: أن يكلِّف نفسه في أعماله أفعالاً تخالف ما اعتاده، فيبدل التكلُّف بالتبذُّل) وهو خلاف التصوُّن (وزي الحشمة بزي التواضع، وكذلك كل هيئة وحال وفعل في مسكن وملبس ومطعم وقيام وقعود كان يعتاده وفاءً بمقتضَىٰ جاهه، فينبغي أن يبدلها بما يناقضها) وفي نسخة: بنقائضها (حتىٰ يترسَّخ باعتياد ذلك ضدُّ ما قد رسخ فيه من قبل باعتياد ضده، فلا معنىٰ للمعالجة إلا المضادَّة.

الثالث: أن يرعَىٰ في ذلك التلطُّف والتدريج، فلا ينتقل دفعةً واحدة إلىٰ الطرف الأقصىٰ من التبذُّل) وتركِ التكلُّف (فإن الطبع نَفُور، ولا يمكن نقله عن أخلاقه إلا بالتدريج، فيترك البعض ويسلِّي نفسه بالبعض، ثم إذا قنعت نفسُه بذلك البعض ابتدأ بترك البعض من ذلك البعض إلىٰ أن يَقنع بالبقية، وهكذا يفعل شيئًا فشيئًا إلىٰ أن يقمع تلك الصفات التي رسخت فيه. وإلىٰ هذا التدريج الإشارة بقوله ﷺ: إن هذا الدين متين) أي[2] صلب شديد (فأوغِلْ فيه برفق) أي سِرْ فيه من غير تحمُّل ما لا تطيق، والإيغال: السير الشديد، والوغول: الدخول في الشيء (ولا تبغِّض إلىٰ نفسك عبادةَ الله تعالىٰ، فإن المنبتَّ) وهو مَن انقطع به في السفر وعطبت راحلته (لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقىٰ) أي فلا هو قطع الأرض التي قصدها، ولا هو أبقىٰ ظهره ينتفع به. رواه أحمد والبزار[3] والبيهقي[4] والعسكري في الأمثال

(١) زيادة في الزبيدي وحده.

(٢) فيض القدير ٢/ ٥٤٤.

(٣) كشف الأستار عن زوائد البزار ١/ ٥٧.

(٤) السنن الكبرىٰ ٣/ ٢٧.

من حديث جابر، وضُعِّف. وقد رُوي مختصرًا من حديث أنس: «إن هذا الدين متين، فأوغِلوا فيه برفق». رواه هكذا أحمد[١] والضياء[٢]. ويروىٰ: «إن هذا الدين متين، فأوغِلوا فيه برفق، ولا تكرِّهوا عبادةَ الله إلىٰ عباده، فإن المنبتَّ لا يقطع سفرًا ولا يستبقي ظهرًا». رواه البيهقي[٣] من حديث عائشة. ويُروَىٰ أيضًا مثل سياق المصنف، إلا أنه قال بعد قوله «برفق»: «ولا تبغِّض إلىٰ نفسك عبادةَ ربِّك، فإن المنبت لا سفرًا قطع ولا ظهرًا أبقىٰ، فاعملْ عمل امرئ يظن أنْ لن يموت أبدًا، واحذر حذر مَن يخشىٰ أن يموت غدًا». وفي لفظ: «يظن أنه لن يموت إلا هرمًا». رواه البيهقي[٤] والعسكري من حديث ابن عمرو. قال البيهقي: رُوي هذا الحديث من طرق موصولاً ومرسلاً ومرفوعًا وموقوفًا، وفيه اضطراب[٥]. ورجَّح البخاري في التاريخ[٦] إرساله. وقد تقدم في كتاب ترتيب الأوراد.

(**وبقوله ﷺ: لا تشادُّوا هذا الدينَ، فإنَّ مَن يشادُّه يغلبه**) رواه البخاري من حديث أبي هريرة بلفظ: «لن يُشادَّ هذا الدينَ أحدٌ إلا غلبه، فسدِّدوا وقارِبوا». وقد تقدم أيضًا في كتاب ترتيب الأوراد.

(**فإذًا ما ذكرناه في علاج الصبر عن الوسواس وعن الشهوة وعن الجاه أضِفْه إلىٰ ما ذكرناه من قوانين طرق المجاهدة في كتاب رياضة النفس من ربع المهلكات**

---

(١) مسند أحمد ٢٠/ ٣٤٦.

(٢) الأحاديث المختارة ٦/ ١٢٠.

(٣) شعب الإيمان ٥/ ٣٩٥.

(٤) السنن الكبرىٰ ٣/ ٢٨.

(٥) عبارة البيهقي بعد أن ساقه من طريق محمد بن سوقة عن محمد بن المنكدر عن جابر: «هكذا رواه أبو عقيل، وقد قيل: عن محمد بن سوقة عن محمد بن المنكدر عن عائشة، وقيل: عنه عن محمد بن المنكدر عن النبي ﷺ مرسلا، وقيل عنه غير ذلك، وروي عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ».

(٦) التاريخ الكبير ١/ ١٠٣.

واتخِذْه دستورك؛ لتعرف به علاج الصبر في جميع الأقسام التي فصَّلناها من قبل، فإن تفصيل الآحاد يطول، ومَن راعَىٰ التدريج) والتلطُّف (ترقَّىٰ به الصبرُ إلىٰ حال لا يشق عليه الصبر دونه كما كان يشقُّ عليه الصبر معه فتنعكس أموره فيصير ما كان محبوبًا عنده ممقوتًا، وما كان مكروهًا عنده مشربًا هنيئًا لا يصبر عنه، وهذا لا يُعرَف إلا بالتجربة والذوق) الصحيح (وله نظير في العادات، فإن الصبي يُحمَل علىٰ التعلُّم في الابتداء قهرًا) عليه (فيشق عليه الصبر عن اللعب والصبر مع العلم، حتىٰ إذا انفتحت بصيرتُه وأنسَ بالعلم انقلب الأمر فصار يشق عليه الصبرُ عن العلم والصبر علىٰ اللعب، وإلىٰ هذا يشير ما حُكي عن بعض العارفين أنه سأل) أبا بكر (الشِّبْلي) قُدِّس سره (عن الصبر أيّه أشد؟ فقال: الصبر في الله) وهو الصبر علىٰ تغيير الأخلاق المذمومة والاتِّصاف بالمحمودة والاشتغال بأنواع الطاعات (فقال: لا. قال: الصبر لله) تعالىٰ، وهو الصبر علىٰ ما يَرِدُ علىٰ القلب من الله تعالىٰ وهو متأدِّب معه في حمل ما يَرِدُ منه، راضٍ بذلك (قال: لا. قال: الصبر مع الله) وهو الصبر علىٰ ذلك مع التبرِّي من الحول والقوة (قال: لا. قال: فأَيْش) أيْ أيُّ شيء هو؟ (قال: الصبر عن الله) وهو أن يبعد الله العبدَ عنه بعد تقريبه إليه، فيلازم الباب ويتمرَّغ في التراب (فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه) أن (تتلف)[1] لأن قلبه لم يحمل البعد ولا سماع ذِكره، فهذا الصبر مذموم. وهذا قد أورده القشيري في الرسالة سماعًا عن محمد بن الحسين قال: سمعت علي بن عبد الله البصري يقول: وقف رجل علىٰ الشبلي فقال: أيُّ صبر أشد علىٰ الصابرين؟ ... فذكره. وقال بعضهم: الصبر لله ما كان في أول العبادات، والصبر مع الله ما كان في أثنائها، والصبر بالله ما كان بعد الفراغ منها.

(وقد قيل في معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟﴾)[2] [آل عمران:

---

(١) انظر: اللمع للطوسي ص٧٦.

(٢) انظر: أقوال السلف في تفسير هذه الآية في الدر المنثور للسيوطي ٤/ ١٩٥ - ١٩٩.

٢٠٠] أي (اصبروا في الله تعالىٰ) أي في طاعته (وصابروا بالله تعالىٰ) أي بعونه (ورابطوا مع الله تعالىٰ) أي بالأدب معه ودوام تعظيمه. نقله القشيري. وقيل: الصبر دون المصابرة، والمصابرة دون المرابطة. وقيل: اصبروا بنفوسكم علىٰ طاعة الله، وصابروا بقلوبكم علىٰ البلوىٰ في الله، ورابِطوا بأسراركم علىٰ الشوق إلىٰ الله. وقيل: حالك التي أنت فيها رباطك، وما دون الله تعالىٰ أعداؤك، فأحسِن المرابطةَ في رباط حالك. وقيل: المصابرة هي الصبر علىٰ الصبر حتىٰ يُستغرَق الصبر في الصبر فيعجز الصبر عن الصبر. كما قيل:

صابَرَ الصبرُ فاستغاث به الصبر ... فصاح المحب بالصبر صبرا[1]

كل ذلك نقله القشيري (**وقيل: الصبر لله عناء**[2]) أي مشقَّة وكُلْفة (**والصبر بالله بقاء**) أي عون منه (**والصبر مع الله وفاء**) لِما امتُحِن به (**والصبر عن الله جفاء**) أي بعدٌ وإعراض عنه. نقله القشيري، وزاد بعد قوله «بقاء»: والصبر في الله بلاء. أي اختبار وامتحان بما ينزل من القضاء (**وقد قيل في ذلك**) شعر:

(**والصبر عنك فمذموم عواقبه ... والصبر في سائر الأشياء محمود**)[3]

نقله القشيري. وأورد أيضًا:

---

(١) روىٰ ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٧/ ٤٣٤ عن ذي النون المصري قال: كان لي عصا مكتوب عليها:

عبرات كتبن في الخد سطرا ... قد قرأه من ليس يحسن يقرا
إن موت المحب من ألم الشوق ... وخوف الفراق يورث عذرا
صابر الصبر فاستغاث به الصبر ... فصاح المحب بالحب صبرا

وروىٰ في موضع آخر ٥٦/ ٤٣٣ عن صدقة بن موسىٰ أن هذه الأبيات كانت علىٰ عكازة مالك بن دينار.

(٢) في ب: غناء. والخلاف في نسخ الرسالة قبل، انظر: الرسالة ص٤٣٦ (ط الأزهر).

(٣) في ذيل تاريخ بغداد لابن النجار ١٩/ ٨٩ (ط - دار الكتب العلمية) نسبة هذا البيت للحسين بن منصور الحلاج، مع بيتين آخرين.

وكيـف الصـبر عمَّـن حـلَّ منـي بمنزلـة اليميـن مـن الشِّـمال
إذا لعـب الرجـالُ بـكل شـيء رأيـت الحـب يلعـب بالرجـال[١]

(وقيل أيضًا:

والصبـر يُحمَـد في المواطـن كلِّهـا إلا عليـك فإنـه لا يُحمَـد)[٢]

أورده القشيري بعد قوله: وقال يحيىٰ بن معاذ الرازي: صبر المحبِّين أشد من صبر الزاهدين، واعجبًا كيف يصبرون! وأنشد ... فذكره.

وقال الشيخ عبد الله الأنصاري[٣]: ومن أضعفِ الصبر: الصبر لله وهو صبر العامة، وفوقه الصبر بالله وهو صبر المريدين، وفوقه الصبر علىٰ أحكام الله وهو صبر السالكين.

ومعنىٰ كلامه أن صبر العامة لله، أي رجاء ثوابه وخوف عقابه. وصبر المريدين بالله، أي بقوة الله ومعونته، فهم لا يرون لأنفسهم صبرًا ولا قوة عليه، بل حالهم التحقُّق بلا حول ولا قوة إلا بالله علمًا ومعرفة وحالاً، وفوقها الصبر علىٰ الله، أي علىٰ أحكامه. هذا تقرير كلامه. قال صاحب البصائر: والصواب أن الصبر لله فوق الصبر بالله وأعلىٰ درجةً وأجلُّ شأنًا، فإن الصبر لله متعلِّق بالإلهية، والصبر به متعلق بربوبيَّته، وما تعلق بالإلهية أكمل وأعلىٰ ممَّا تعلق بربوبيَّته، ولأن الصبر له عبادة، والصبر به استعانة، والاستعانة وسيلة، والعبادة غاية، والغاية مرادة لنفسها، والوسيلة مرادة لغيرها، ولأن الصبر به مشترك بين المؤمن والكافر والبَر

---

(١) لم أقف علىٰ قائل هذين البيتين.

(٢) البيت لمحمد بن عبيد الله العتبي البصري. مرآة الجنان ٢/ ٧٤. وفيات الأعيان ٤/ ٣٩٩. الوافي بالوفيات ٤/ ٦. العقد الفريد ٣/ ٢١٨. التذكرة الحمدونية ٤/ ٢٦٣. وفي جميع المصادر: إلا عليك فإنه مذموم.

(٣) أي الهروي، صاحب منازل السائرين ص٥٠، ٥١.

والفاجر، فكل مَن شهد الحقيقة الكونية صبر به، وأما الصبر به[1] فمنزلة الأنبياء والرسل والصدِّيقين، ولأن الصبر له صبرٌ فيما هو حقٌّ له محبوب مرضيٌّ لديه. والصبر به قد يكون في ذلك، وقد يكون فيما هو مسخوط له، وقد يكون في مكروه أو مباح، فأين هذا من هذا؟! وأما تسمية الصبر علىٰ أحكامه صبرًا عليه فلا مُشاحَّة في العبارة بعد معرفة المعنىٰ. والله أعلم.

(**هذا آخر ما أردنا شرحه من علوم الصبر وأسراره**) وقد بقي في الباب بعض مهمَّات لم يُشِرْ إليها المصنف ممَّا هو في كتب الشيوخ.

قال القشيري في الرسالة: قال أبو القاسم الحكيم: قوله تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ أمرٌ بالعبادة، وقوله: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ عبودية، فمَن ترقَّىٰ من درجة «لك» إلىٰ درج «بك» فقد انتقل من درجة العبادة إلىٰ درجة العبودية. قال ﷺ: «بك أحيا، وبك أموت». وقال ذو النون المصري: الصبر: التباعُد عن المخالفات، والسكون عند تجرُّع غَصَص البليَّة، وإظهار الغِنىٰ مع حلول الفقر بساحات المعيشة[2]. وقال ابن عطاء: الصبر: الوقوف مع البلاء بحسن الأدب. وقيل: هو الفناء في البلوىٰ بلا ظهور شكوىٰ. وقال أبو عثمان: الصبَّار: الذي عوَّد نفسَه الهجوم علىٰ المكاره. وقيل: الصبر: المقام مع البلاء بحسن الصحبة كالمقام مع العافية. وقال عمرو بن عثمان: الصبر هو الثبات [مع الله تعالىٰ وتلقِّي بلائه بالرحب والدَّعة. وقال الخَوَّاص: هو الثبات] علىٰ أحكام الكتاب والسنَّة. وقال رُوَيم: الصبر: تركُ الشكوىٰ[3]. وقال ذو النون: الصبر هو الاستعانة بالله. وقال أبو عبد الرحمن

---

(١) كذا، والصواب: له. كما في البصائر ٣/ ٣٨٢.

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٩/ ٣٦٢ بلفظ: «ثلاثة من أعلام الصبر: التباعد عن الخلطاء في الشدة، والسكون ...» والباقي سواء. ورواه البيهقي في شعب الإيمان ١٢/ ٤٠٢ بلفظ أبي نعيم، وفي رواية أخرىٰ له: وإظهار الغنىٰ مع كثرة العيال.

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٣٠١، والبيهقي في شعب الإيمان ١٢/ ٣٨٩، والخطيب في تاريخ بغداد ٩/ ٤٣٠.

السلمي: أنشدني أبو بكر الرازي قال: أنشدني ابن عطاء لنفسه:

سأصبر كي ترضىٰ وأتلفُ حسرةً ... وحسبي أن ترضىٰ ويتلفني صبري

وسمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق يقول: الصبر كاسمه[1]. وقال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الصبر مطيَّة لا تكبو. وقال أبو محمد الجريري: الصبر: أن لا تفرِّق بين حال النعمة والمحنة مع سكون الخاطر فيهما، والتصبُّر هو السكون مع البلاء مع وجدان أثقال المحنة.

وأنشد بعضهم:

صبرتُ ولم أُطلِع هواكَ علىٰ صبري ... وأخفيتُ مابي منك عن موضع الصبر

مخافةَ أن يشكو ضميري صَبابتي ... إلىٰ دمعتي سرًّا فتجري ولا أدري[2]

وقيل: تجرَّع الصبرَ، فإن قتلك قتلك شهيدًا، وإن أحياك أحياكَ عزيزًا. وقيل: الصبر علىٰ الطلب عنوان الظَّفر، والصبر في المحن عنوان الفرج. وفي بعض الأخبار: بعيني ما يتحمَّل المتحمِّلون لأجلي[3]. وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لو كان الصبر والشكر بعيرين لم أبالِ أيَّهما ركبتُ[4]. وكان ابن شبرمة إذا نزل به بلاء

---

(١) هذا الكلام نسبه الراغب في محاضرات الأدباء ٢/ ٥٠٥ لأنوشروان الفارسي، وزاد: وعاقبته العسل.

(٢) لم أقف علىٰ قائل هذين البيتين.

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٤/ ٦٠ عن وهب بن منبه قال: أوحىٰ الله إلىٰ بعض أنبيائه ... فذكره ضمن أثر طويل. ورواه في موضع آخر ٩/ ٢٥٥ عن أبي سليمان الداراني. وفي موضع ثالث ١٠/ ٨٠ من طريق الحارث المحاسبي عن بعض العلماء. ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله ص ٦٣ عن عبد الله بن محمد بن إسماعيل قال: بلغني أن الله أوحىٰ إلىٰ بعض أنبيائه ... فذكره.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الصبر ص ٢٤. ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٣/ ٤٧ بلفظ: «لو أُتيت براحلتين راحلة شكر وراحلة صبر لم أبال أيتهما ركبت».

قال: سحابة ثم تنقشع. وسُئل السري عن الصبر، فجعل يتكلم فيه، فدبَّ علىٰ رجله عقرب وهي تضربه بإبرتها ضربات كثيرة وهو ساكن، فقيل له: لِمَ لم تُنَحِّها؟ فقال: استحييت من الله تعالىٰ أن أتكلم في الصبر ولا لي صبر. وفي بعض الأخبار: الفقراء الصُّبُر هم جلساء الله يوم القيامة. وأوحىٰ الله إلىٰ بعض أنبيائه: أنزلت بعبدي بلائي، فدعاني، فما طُلْتُه بالإجابة، فشكاني، فقلت: عبدي، كيف أرحمك من شيء به أرحمُك. وسمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق يقول: إن الصبر حدُّه: أن لا تعترض علىٰ التقدير، فأما إظهار البلاء علىٰ غير وجه الشكوىٰ فلا ينافي الصبرَ، قال الله تعالىٰ في قصة أيوب عليه السلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: ٤٤] مع ما أخبر عنه أنه قال: ﴿مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٣]. وسمعته يقول: استخرج الله منه هذه المقالة - يعني قوله: ﴿مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ لتكون متنفَّسًا لضعفاء هذه الأمَّة. وسمعته يقول: حقيقة الصبر: الخروج من البلاء علىٰ حسب الدخول فيه، مثل أيوب عليه السلام [فإنه] قال في آخر بلائه: ﴿مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ الآية، فحفظ أدب الخطاب، حيث عرَّض بقوله: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ ولم يصرِّح بقوله: ارحمني. واعلمْ أن الصبر علىٰ ضربين: صبر العابدين، وصبر المحبِّين، فصبر العابدين أحسنُه أن يكون محفوظًا، وصبر المحبِّين أحسنه أن يكون مرفوضًا. وفي معناه أُنشِد:

تبيـن يـوم البيـن أن اعتزامـه علىٰ الصبر من إحدىٰ الظنون الكواذب(١)

وفي هذا المعنىٰ سمعت الأستاذ أبا علي يقول: أصبح يعقوب عليه السلام وقد وعد الصبر من نفسه فقال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨، ٨٣] أي فشأني صبر جميل، ثم لم يمسَّ حتىٰ قال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤].

إلىٰ هنا كله كلام القشيري.

---

(١) البيت لعبد الله بن طاهر بن الحسين أمير خراسان، وهو من أبيات أوردها له أبو الفرج الأصفهاني في الأغاني ٥/ ٢٧١ ضمن قصة له مع المأمون العباسي. وأورده أيضا ابن عساكر في ترجمته من تاريخ دمشق ٢٩/ ٢٣٨.

وقال صاحب العوارف: لكل شيء جوهر، وجوهر الإنسان العقل، وجوهر العقل الصبر، فالصبر عَرَكُ النفس، وبالعرك تلين، والصبر جارٍ في الصابر مجرىٰ الأنفاس؛ لأنه يحتاج إلىٰ الصبر عن كل منهيٍّ ومكروه ومذموم ظاهرًا وباطنًا، والعلم يدل، والصبر يقبل، ولا تنفع دلالة العلم بغير قبول الصبر، ومَن كان العلم سائسه في الظاهر والباطن لا يتم له ذلك إلا إذا كان الصبر مستقره ومسكنه، والعلم والصبر متلازمان كالروح والجسد لا يستقلُّ أحدهما بدون الآخر، ومصدرهما الغريزة العقلية، وهما متقاربان لاتحاد مصدرهما، وبالصبر يتحامل علىٰ النفس، وبالعلم يترقَّىٰ الروح، وهما البرزخ والفرقان بين الروح والجسد[١]؛ ليستقرَّ كل واحد منهما في مستقرِّه، وفي ذلك صريح العدل وصحة الاعتدال، وبانفصال أحدهما عن الآخَر - أعني العلم والصبر - ميل أحدهما إلىٰ الآخر، أعني النفس والروح، وبيان ذلك يدق، وناهيك بشرف الصبر قوله تعالىٰ لنبيِّه ﷺ: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [النحل: ١٢٧] أضاف الصبر إلىٰ نفسه لشرف مكانه وتكميل النعمة به.

ثم نقل مراجعة الرجل مع الشبلي في أشد الصبر، كما تقدم ذِكرُه، ثم قال: وعندي في معنىٰ الصبر عن الله وجه، ولكونه من أشد الصبر علىٰ الصابرين وجه، وذلك أن الصبر عن الله يكون في أخصِّ مقدمات المشاهدة، ثم يرجع العبد عن مولاه استحياءً وإجلالاً، وتنطبق بصيرته خجلاً وذوبانًا، ويتغيَّب في مفاوز استكانته وتخفِّيه؛ لإحساسه بعظيم أمر التجلِّي، وهذا من أشد الصبر؛ لأنه يودُّ استدامةَ هذا الحال تأديةً لحق الجلال، والروح تود أن تكتحل بصيرتُها بأشعة[٢] نور الجمال، وكما أن النفس منازِعة لعموم حال الصبر فالروح في هذا الصبر منازعة، فاشتد الصبرُ عن الله تعالىٰ لذلك، وقال جعفر الصادق رحمه الله تعالىٰ: أمر الله تعالىٰ

---

(١) في العوارف: بين الروح والنفس.

(٢) في العوارف: باستلماع.

أنبياءه بالصبر، وجعل الحظ الأعلىٰ للرسول ﷺ، حيث جعل صبره بالله لا بنفسه فقال: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾.

إلىٰ هنا كلام صاحب العوارف.

وقال صاحب القوت في شرح مقام الصبر: قال بعض الصحابة: ماذا جعل الله من الشفاء والفضل في التقوىٰ والصبر.

قلت: وهذا تصحيف من صاحب القوت أو من الكاتب، نبَّه علىٰ ذلك أبو الحسن نصر بن أحمد الفارسي، قال: إنما هو من قول النبي ﷺ: «ماذا في الأَمَرَّين من الشفاء: الثفاء والصبر»، يعني بالثفاء: حب الرشاد، والصبر هو المرُّ[1].

ثم قال صاحب القوت: وكان سهل يقول: الصبر تصديق الصدق، وأفضل منازل الطاعة الصبر عن المعصية، ثم الصبر علىٰ الطاعة. وقال في معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ [الأعراف: ١٢٨]: أي استعينوا بالله علىٰ أمر الله، واصبروا علىٰ أدب الله. وكان يقول: الصالحون في المؤمنين قليل [والصادقون في الصالحين قليل] والصابرون في الصادقين قليل. فجعل الصبر خاصِّية الصدق، وجعل الصابرين خصوص الصادقين، وكذلك الله سبحانه رفع الصابرين علىٰ الصادقين في ترتيب المقامات، فجعل الصبر مقامًا في الصدق في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ الآية [الأحزاب: ٣٥] علىٰ أن الواو للجمع[2]. والصبر ينقسم إلىٰ عملين، أحدهما لا صلاح للدين إلا به، والثاني هو أصل فساد الدين، ثم يتنوَّع الصبر، فيكون صابرًا علىٰ الذي فيه صلاح الدين

(١) انظر: النهاية لابن الأثير ١/ ٢١٤، ٤/ ٣١٧. المزهر في علوم اللغة للسيوطي ٢/ ١٨٤ (ط - المكتبة العصرية).

(٢) في القوت: «فجعل الصبر مقاما في الصدق إن كانت الأوصاف المنسوقة نعتا واحدا للمسلمين وكانت الواو للمدح، وإن كانت مقامات فالواو للترتيب، فقد جعل الله الصابرين فوق الصادقين والقانتين».

فيكمُل به إيمانُه، ويكون صابرًا عن الذي به فساد الدين فيحسُن به يقينه. وكان ميمون بن مهران يقول: الإيمان والتصديق والمعرفة والصبر شيء واحد. ثم قال: فمَن صبر عن الطمع في الخَلق أخرجه الصبر إلىٰ الورع، ومَن صبر علىٰ الورع في الدين أدخله الصبر في الزهد، ومَن طمع في تصديق الظن الكاذب أدخله الطمعُ في حب الدنيا، ومَن استشعر حب الدنيا أخرجه حبُّها من حقيقة الدين، وقد روينا [في خبر]: «يؤتَىٰ بأشكر أهل الأرض، فيجزيه الله جزاء الشاكرين، ويؤتَىٰ بأصبر أهل الأرض فيقال له: أترضىٰ أن نجزيك كما جزينا هذا الشاكر؟ فيقول: نعم يا رب. فيقول الله: كلا، أنعمتُ عليه فشكر، وابتليتك فصبرتَ، لأضعفنَّ لك الأجرَ عليه. فيُعطَىٰ أضعاف جزاء الشاكرين». وجاء في الخبر: «إن لأبواب الجنة مِصْراعين، يأتي عليها زحام [كثير] إلا باب الصبر فإنه مِصْراع واحد لا يدخل منه إلا الصابرون أهل البلاء في الدنيا واحد بعد واحد». والصبر [والتقوىٰ] معنيان أحدهما منوط بالآخر، لا يتم كل واحد منهما إلا بصاحبه، فمَن كانت التقوىٰ مقامه كان الصبر حاله، فصار الصبر أفضل الأحوال من حيث كانت التقوىٰ أفضل المقامات؛ إذ الأتقىٰ هو الأكرم عند الله، والأكرم عند الله هو الأفضل. وقيل لسفيان الثوري: ما أفضل الأعمال؟ قال: الصبر عند الابتلاء. وقال بعض العلماء: لا يطمعن طامعٌ في مدح الله تعالىٰ له وحُسن ثنائه عليه قبل أن يبتليه فيصبر له، ولا يطمعن أحد في حقيقة الإيمان وحُسن اليقين قبل أن يمدحه الله تعالىٰ ويثني عليه، ولو أظهر الله تعالىٰ علىٰ جوارحه سائرَ الأعمال ثم لم يمدحه بوصف ولم يُثْنِ عليه بخير لم يؤمَن عليه سوء الخاتمة، وذلك أن من أخلاق الله تعالىٰ أنه إذا أحب عبدًا ورضي عمله مدحه ووصفه، فمَن ابتلاه بكراهة ومشقَّة أو هوًىٰ وشهوة فصبر لذلك أو صبر عن ذلك فإنه تعالىٰ يمدحه ويثني عليه بكرمه وجوده، فيُدخِل هذا العبد في أسماء الموصوفين، ويصير واحدًا من الممدوحين، فعندها يثبُت قدمُه من الزلل، ويُختَم له بما سبق له من صالح العمل. وأفضل الصبر: الصبر علىٰ الله تعالىٰ

بالمجالسة له والإصغاء إليه وعكوف الهِمَم عليه وقوة الوجد به، وهذا لخصوص المقرَّبين، أو حياءً منه، أو حبًّا له، أو تسليمًا له، أو تفويضًا إليه، وهو السكون تحت جريان الأقدار وشهودها من الإنعام ومن حُسن تدبير الأقسام وشهود المشيئة له والحكمة فيها والقصد بالابتلاء بها، وهو داخل في قوله تعالىٰ: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾ [المدثر: ٧] وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]. وقال سهل في تأويل قول عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «إن الله يحب كل عبد نومة»، قال: هو الساكن تحت جريان الأحكام عن الكراهة والاعتراض. وقال عمر بن عبد العزيز: أصبحتُ وما لي سرور إلا في مواضع القدَر[1]. ويقال: من علامات اليقين: التسليم للقضاء بحسن الصبر والرضا، وهو مقام العارفين، والصبر أيضًا عن إظهار الكرامات وعن الإخبار بكشف القدرة والآيات داخل في حسن الأدب من المعاملات، وهذا في معنىٰ الحياء من الله تعالىٰ، وهذا طريق المحبِّين لله تعالىٰ، وهو حقيقة الزهد. ومن فضائل الصبر: حبسُ النفس عن حب الحمد والمدح والرياسة، وقد روينا في خبر مقطوع: «الصبر في ثلاث: الصبر عن تزكية النفس، والصبر عن شكوىٰ المصيبة، والصبر علىٰ الرضا بقضاء الله تعالىٰ خيره وشر». واعلمْ أن أكثر معاصي الخلق في شيئين: قلة الصبر عمَّا يحبون، أو قلة الصبر علىٰ ما يكرهون، وقد قرن اللهُ الكراهة بالخير، والمحبة بالشر، في قوله تعالىٰ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ﴾ [البقرة: ٢١٦] وهو الصبر، وهو أوله فريضةٌ مثل أول الإخلاص. والصبر أيضًا حيلة مَن لا حيلة له؛ لأن الأمر إذا كان بيد غيرك لم يكن لك إلا الصبر عليه، ولأن الشيء إذا كان لا يأتيك إلا قليلاً قليلاً وأنت تحتاج إليه لم يكن لك إلا الصبر عليه وإلا انقطع ذلك القليل. وأصل قلة الصبر ضعفُ اليقين بحسن جزاء مَن صبرتَ له؛ لأنه لو قويَ يقينه كان الآجل من الوعد عاجلاً إذا كان الواعد صادقًا، فيحسُن صبرُه لقوة الثقة بالإعطاء، ولا يصبر

(١) تقدم هذا الأثر في كتاب ذم الجاه والرياء بلفظ: «ما قضىٰ الله تعالىٰ لي بقضاء قط فسرني أن يكون قضىٰ لي بغيره، وما أصبح لي هوىٰ إلا في مواقع قدر الله».

العبد إلا لأجل معنيين: مشاهدة العوض، وهو أدناهما، وهذا حال المؤمنين ومقام أصحاب اليمين؛ أو النظر إلىٰ المعوِّض، وهو حال الموقنين ومقام المقرَّبين. فمَن شهد العوضَ غنيَ بالصبر، ومَن نظر إلىٰ المعوِّض حمله النظرُ. والتصبُّر غير الصبر، وهو مجاهدة النفس وحملُها علىٰ الصبر وترغيبها فيه، وهو التعمُّل للصبر [والتصنُّع للصبور] بمنزلة التزهد وهو أن يعمل في أسباب الزهد لتحصيل الزهد، والزهد والصبر هو التحقُّق بالوصف، وذلك هو المقام.

إلىٰ هنا كلام صاحب القوت.

وقال صاحب البصائر نقلاً عن بعض المشايخ(١): كان صبر يوسف عليه السلام عن طاعة امرأة العزيز أكمل من صبره علىٰ إلقاء إخوته إياه في الجُب وبيعهم وتفريقهم بينه وبين أبيه، فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره، لا كسب له فيها، ليس للعبد حيلة فيها غير الصبر، وأما صبره عن المعصية فصبرُ اختيارٍ ورضا ومحاربة للنفس ولا سيَّما مع أسباب تقوَىٰ معها داعيةُ الموافقة، فإنه كان شابًّا، وداعية الشاب إليها قوية، وكان عَزَبًا ليس له ما يعوِّضه ويردُّ شهوته، وغريبًا، والغريب لا يستحي في بلد غربته ممَّا يستحي منه بين أصحابه وأهله، ويحسبونه مملوكًا، والمملوك ليس وازعه كوازع الحر، والمرأة جميلة وذات منصب، وقد غاب الرقيب، وهي الداعية له إلىٰ نفسها والحريصة علىٰ ذلك أشد الحرص، ومع ذلك توعَّدته بالسجن إن لم يفعل. فمع هذه الدواعي كلِّها صبرَ اختيارًا وإيثارًا لِما عند الله، وأين هذا من صبره في الجب علىٰ ما ليس من كسبه(٢)؟! والصبر علىٰ أداء الطاعات أكمل من الصبر علىٰ اجتناب المحرَّمات، فإن مصلحة فعلِ الطاعة أحب إلىٰ الشارع من مصلحة ترك المعصية، ومَفسدة عدم الطاعة أبغض إليه وأكره من مَفسدة وجود المعصية. واعلمْ أن الشكوىٰ إلىٰ الله عز وجل لا تنافي الصبرَ، فإن يعقوب

---

(١) هو الإمام تقي الدين ابن تيمية، كما نقله عنه ابن القيم في مدارج السالكين.

(٢) وهذا فيه خلف لما يراه الغزالي.

عليه السلام وعد بالصبر الجميل، والنبي إذا وعد لا يُخلِف، ثم قال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] وكذلك أيوب عليه السلام أخبر الله عنه أنه وجده صابرًا، مع قوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣] وإنما ينافي الصبرَ شكوىٰ الله لا الشكوىٰ إلىٰ الله، كما رأىٰ بعضهم [رجلاً] يشكو إلىٰ آخر فاقة وضرورة، فقال: يا هذا، تشكو مَن يرحمك إلىٰ مَن لا يرحمك؟! ثم أنشد:

وإذا اعْتَرَتْك بليَّةٌ فاصبرْ لها ... صبر الكريمِ فإنه بك أرحمُ

وإذا شكوتَ إلىٰ ابن آدم إنما ... تشكو الرحيم إلىٰ الذي لا يرحم[(١)]

والله أعلم.

(الشطر الثاني من الكتاب: في الشكر)

وهو المقام الثالث من مقامات اليقين **(وله أركان ثلاثة، الأول: في فضيلة الشكر وحقيقته وأقسامه وأحكامه، الثاني: في حقيقة النعمة وأقسامها الخاصة والعامة، الثالث: في بيان الأفضل من الشكر والصبر.**

الركن الأول: في نفس الشكر)

وفيه بيان فضيلته وحقيقته وأحكامه وأقسامه.

---

(١) هذان البيتان في كتاب الآداب النافعة لمجد الملك ابن شمس الخلافة ص ٩٥ (ط - مكتبة الخانجي) منسوبان لزين العابدين علي بن الحسين، برواية:

وإذا بليت بعسرة فالبس لها ... صبر الكريم فإن ذلك أحزم

لا تشكون إلىٰ العباد فإنما ... تشكو الرحيم إلىٰ الذي لا يرحم

بيـان فضيلـة الشـكر

(اعلمْ) وفَّقك الله تعالىٰ (أن الله تعالىٰ قرن الشكر بالذكر في كتابه) العزيز وأمر به (مع أنه تعالىٰ) عظَّمَ الذكرَ حيث (قال: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] فقال تعالىٰ: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾) [البقرة: ١٥٢] فصار الشكر أكبر؛ لاقترانه به، ورضي بالشكر مجازاةً من عباده لفرط كرمه؛ لأن قوله تعالىٰ: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى﴾ خرج في لفظ المُجازاة لتحقيق الأمر وتعظيم الشكر؛ لأن الفاء للشرط والجزاء، والكاف المتقدمة للتمثيل، فقوله تعالىٰ «فاذكروني» متصل بقوله: كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم فاذكروني واشكروا لي، والمعنىٰ: كمثل ما أرسلتُ فيكم رسولاً منكم فاشكروا لي، وهم يكتفون عن «مِثل» بالكاف، كما يكتفون عن «سوف» بالسين، وهذا تفضيل للشكر عظيم لا يعلمه إلا العلماء بالله تعالىٰ.

(وقال تعالىٰ: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧] فقرن الشكر بالإيمان، ورفع بوجودهما العذابَ.

(وقال تعالىٰ: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾) [آل عمران: ١٤٥].

وقال أيضًا: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤].

(وقال عَزَّوَجَلَّ إخبارًا عن إبليس اللعين: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ [الأعراف: ١٦] قيل: هو طريق الشكر) هذا أحد الوجوه في الآية، نقله صاحب القوت، وقال: فلولا أن الشكر طريق قريب يوصل إلىٰ الله تعالىٰ لَما عمل العدوُّ في قطعه.

(ولعلوِّ رتبة الشكر طعن اللعين في الخلق فقال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾

﴾) [الأعراف: ١٧] فلولا أن الشاكر حبيب رب العالمين ما قال ذلك.

(و) كذلك (قال تعالىٰ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾) [سبأ: ١٣] كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سبأ: ٢٠] وفي[1] الآية تنبيه علىٰ أن توفية شكر الله صعب، ولذلك لم يُثْنِ بالشكر من أوليائه إلا علىٰ اثنين، قال في وصف إبراهيم عليه السلام: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ [النحل: ١٢١] وقال في نوح عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء: ٣].

(**وقد قطع الله تعالىٰ بالمزيد مع الشكر ولم يستثنِ**) فيه (**فقال**: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧]، **واستثنىٰ في خمسة أشياء: في الإغناء والإجابة والرزق والمغفرة والتوبة، فقال تعالىٰ**: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ [التوبة: ٢٨]، **وقال تعالىٰ**: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾ [الأنعام: ٤١]، **وقال تعالىٰ**: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [البقرة: ٢١٢]، **وقال تعالىٰ**: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، **وقال تعالىٰ**: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾) [التوبة: ١٥] وقال أيضًا: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [التوبة: ٢٧]، فالشاكر علىٰ مزيد، والشكور في نهاية المزيد، وهو الذي يكثُر شكرُه علىٰ القليل من العطاء، ويتكرَّر منه الشكر والثناء علىٰ الشيء الواحد من النعم (**وهو خُلقٌ من أخلاق الربوبية؛ إذ قال تعالىٰ**: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾) [التغابن: ١٧] لأنه سمَّاه باسم من أسمائه، والمزيد هو إلىٰ المنعم يجعله ما شاء، فأفضل المزيد حُسنُ اليقين ومشاهدة الصفات، وأول المزيد شهود النعمة أنها من المنعم بها من غير حول ولا قوة إلا بالله، وأوسط المزيد دوام الحال ومتابعة الخدمة والاستعمال، وقد يكون المزيد أخلاقًا، وقد يكون علومًا، وقد يكون في الآخرة تثبيتًا عند فراق الدنيا.

---

(١) المفردات للراغب ص ٢٦٥.

وقال صاحب البصائر[1]: وإذا وُصف الله بالشكر في قوله: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ۝١٧﴾ فإنما يُعنَىٰ به إنعامه علىٰ عباده وجزاؤه بما أقاموه من العبادة.

(وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة) وختام تمنِّيهم **(فقال تعالىٰ:** ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر: ٧٤] **وقال:** ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾) [يونس: ١٠] فلولا أنه أحب الأعمال إليه ما بقَّاهم عليه لديه.

وممَّا يدل علىٰ فضيلة الشكر من الآيات قوله تعالىٰ: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣] واختلف[2] فيه، فقيل: هو منصوب علىٰ التميز، والمعنىٰ: اعملوا ما تعملونه شكرًا لله. وقيل: هو مفعول لقوله «اعملوا»، ولم يقل: اشكروا؛ لينبِّه علىٰ التزام الأنواع الثلاثة من الشكر بالقلب واللسان وسائر الجوارح.

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝١٧٢﴾ [البقرة: ١٧٢] وقال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ إلىٰ قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٢﴾ [النحل: ٧٨] وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾ [إبراهيم: ٥، لقمان: ٣١، سبأ: ١٩، الشورىٰ: ٣٣] وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧] فجعل رضاه عن عباده مشروطًا بالشكر، وهي مَنقبة عظيمة له.

(وأما الأخبار، فقد قال رسول الله ﷺ: الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر) قال العراقي[3]: علَّقه البخاري[4]، وأسنده الترمذي[5] وحسَّنه وابن ماجه[6] [وابن

---

(١) البصائر ٣/ ٣٣٥ نقلا عن مفردات الراغب ص ٢٦٥ - ٢٦٦.

(٢) المفردات ص ٢٦٥.

(٣) المغني ٢/ ١٠١٩.

(٤) صحيح البخاري ٣/ ٤٤٧.

(٥) سنن الترمذي ٤/ ٢٦٥.

(٦) سنن ابن ماجه ٣/ ٢٣٨.

حبان[١]] من حديث أبي هريرة. ورواه ابن ماجه[٢] من حديث سنان بن سَنَّة، وفي إسناده اختلاف.

قلت: وكذلك رواه أحمد[٣] والحاكم[٤] والبيهقي[٥] من حديث أبي هريرة. ولفظ الترمذي: حسن غريب.

وأما لفظ ابن ماجه من حديث سِنان بن سَنَّة الأسلمي - وله صحبة -: «الطاعم الشاكر له مثل أجر الصائم الصابر». وقد رواه كذلك أحمد[٦] والدارمي[٧] والبغوي[٨] والطبراني[٩] والضياء. و«سَنَّة» ضبطوه بالفتح على الصواب. وقد أشار الحافظ إلى الاختلاف الواقع في سنده في الإصابة[١٠]، فراجِعْه.

---

(١) صحيح ابن حبان ٢/ ١٦.

(٢) سنن ابن ماجه ٣/ ٢٣٩.

(٣) مسند أحمد ١٣/ ٢١٣، ٢٦٩.

(٤) المستدرك على الصحيحين ٤/ ٢٤٢ - ٢٤٣.

(٥) السنن الكبرى ٤/ ٥٠٤.

(٦) مسند أحمد ٣١/ ٣٥٤.

(٧) سنن الدارمي ٢/ ١٣١.

(٨) معجم الصحابة ٣/ ٢٦٢.

(٩) المعجم الكبير ٧/ ١١٨.

(١٠) الإصابة في تمييز الصحابة ٤/ ٢٦٣ - ٢٦٤، ونصه: «سنان بن سنة، بفتح المهملة وتشديد النون، الأسلمي. يقال: إنه عم حرملة بن عمرو، ويقال: جده، والأول أصح. وروى عن النبي ﷺ: الطاعم الشاكر له مثل أجر الصائم الصابر. أخرجه ابن ماجه. وروى أحمد من طريق حرملة بن عمرو الأسلمي قال: حججت حجة الوداع، فأردفني عمي سنان بن سنة. قال ابن حبان: يقال: مات سنة اثنتين وثلاثين في خلافة عثمان. قلت: صحفه بعض الرواة بالشين المعجمة. وجاء عن سنان بن سنة حديث آخر غلط فيه راويه، أخرجه أبو بكر ابن أبي شيبة عن وكيع عن ابن أبي ليلى عن عبد الكريم عن معاذ بن مسعود عن سنان بن سنة رفعه في الهدي: فليأكل، فإن أكل غرم. وقال عبيد الله ابن موسى عن أبي ليلى بهذا الإسناد: سنان بن سلمة، أخرجه البغوي، وهو الصواب. وسنان بن سلمة هو ابن المحبق».

تنبيه: قال الطيبي[1]: قد تقرَّر في علم المعاني أن التشبيه يستدعي جهةً جامعة، والشكر نتيجة النعماء، كما أن الصبر نتيجة البلاء، فكيف شبَّه الشاكرَ بالصابر؟ وجوابه: أنه ورد: «الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر»، فقد يُتوهَّم أن ثواب شكر الطاعم يقصُر عن ثواب صبر الصائم، فأزيلَ توهُّمه به، يعني هما سيَّان في الثواب، ولأن الشاكر لمَّا رأىٰ النعمة من الله تعالىٰ وحبس نفسه علىٰ محبة المنعم بالقلب وأظهرها باللسان نال درجة الصابر، فالتشبيه واقع في حبس النفس بالمحبة، والجهة الجامعة حبسُ النفس مطلقًا.

(ورُوي عن عطاء) بن أبي رباح فيما أخرجه أبو القاسم القشيري في الرسالة فقال: أخبرنا أبو الحسن علي بن أحمد بن عبدان الأهوازي، أخبرنا أبو الحسن الصَّفَّار، حدثنا الإسقاطي، حدثنا منجاب، حدثنا [يحيىٰ بن] يعلىٰ، عن أبي جناب، عن عطاء (أنه قال: دخلت علىٰ عائشة ﵂) مع عبيد بن عمير (فقلت): يا أم المؤمنين (أخبرينا بأعجب ما رأيتِ من رسول الله ﷺ. فبكت وقالت: وأيُّ) شيء من (شأنه لم يكن عجبًا)؟ إنه (أتاني ليلةً، فدخل معي في فراشي - أو قالت: في لحافي - حتىٰ مس جلدي جلده، ثم قال: يا ابنة أبي بكر، ذريني) أي اتركيني (أتعبَّد لربي. قالت: قلت: إني أحب قُربك) مني. ثم وافقته في مطلوبه (لكني أؤثر هواك. فأذنتُ له) فيه (فقام إلىٰ قِربة) من (ماء) وكانت معلَّقة فحلَّها (فتوضأ) منها (فلم يُكثِر صب الماء) أي توضأ وضوءًا خفيفًا. ولفظ الرسالة: فأكثرَ صب الماء. أي علىٰ أعضائه فأحسنَ وضوءه (ثم قام يصلي فبكىٰ) وهو قائم (حتىٰ سالت دموعُه علىٰ صدره، ثم ركع فبكىٰ) وهو راكع (ثم رفع رأسه فبكىٰ، ثم سجد فبكىٰ، ثم رفع رأسه فبكىٰ، فلم يزل كذلك يبكي حتىٰ جاء بلال فآذَنَه) بالمد، أي أعلمَه (بالصلاة) أي صلاة الفجر (فقلت: يا رسول الله، ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبدًا شكورًا؟! ولِمَ لا أفعل ذلك) أي أبكي (وقد أنزل الله

---

(١) الكاشف عن حقائق السنن ٩/ ٢٨٥٣.

عليَّ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية) [البقرة: ١٦٤] قال العراقي[١]: رواه أبو الشيخ ابن حيَّان في كتاب أخلاق رسول الله ﷺ[٢]، ومن طريقه ابن الجوزي [في الوفاء[٣]] وفيه أبو جَناب واسمه يحيىٰ بن أبي حية، ضعَّفه الجمهورُ. ورواه ابن حبان في صحيحه[٤] من رواية عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء دون قولها: وأيُّ شأنه لم يكن عجبًا؟ وهو عند مسلم[٥] من رواية عروة عن عائشة مقتصرًا علىٰ آخر الحديث.

قلت: لقد أبعد الشيخُ النجعة[٦]، فهذا قد أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر[٧] وابن مردويه وابن أبي الدنيا في التفكُّر وابن حبان في صحيحه وابن عساكر[٨] كلهم من طريق عطاء قال: قلت لعائشة: أخبريني ... الحديث، وفي آخره: ثم قال: «ويلٌ لمَن قرأها ولم يتفكَّر فيها».

ولفظ الصحيح: أنه ﷺ قام حتىٰ تورَّمت قدماه، فقيل له: تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر؟! قال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»؟!

قال ابن حجر في شرح الشمائل[٩]: وقد ظن مَن سأله ﷺ عن سبب تحمُّله المشقَّة في العبادة أن سببها إما خوف الذنب أو رجاء المغفرة، فأفادهم أن لها سببًا آخر أتم وأكمل هو الشكر علىٰ التأهُّل لها مع المغفرة وإجزال النعمة، وهو -

---

(١) المغني ٢/ ١٠١٩.

(٢) أخلاق النبي ٣/ ١٢٠، ١٦٧.

(٣) الوفا بأحوال المصطفىٰ ٢/ ٢٢٢.

(٤) صحيح ابن حبان ٢/ ٣٨٦.

(٥) صحيح مسلم ٢/ ١٢٩٧. ورواه أيضا البخاري في صحيحه ٣/ ٢٩٣.

(٦) لا بعد في كلام الحافظ العراقي رحمه الله.

(٧) تفسير ابن المنذر ص ٥٣٢.

(٨) تاريخ دمشق ٤/ ١٤١ - ١٤٣.

(٩) أشرف الوسائل ص ٣٧٢.

أعني الشكر - الاعتراف بالنعمة والقيام في الخدمة ببذل المجهود، فمَن أدامَ ذلك كان شكورًا، وقليلٌ ما هم، ولم يفُزْ أحد بكمال هذه المرتبة غير نبيِّنا ﷺ ثم سائر الأنبياء عليهم السلام، وإنما ألزموا [أنفسَهم] بذلك من الجد في العبادة وعظيم الخشية لعلمهم بعظيم نعمة ربهم عليهم ابتداءً بها فضلاً ومنَّة من غير سابقة توجب استحقاقَها أداءً لبعض الشكر، وإلا فحقوقه تعالىٰ أعظم من أن يقوم بها أحد من خلقه.

(**وهذا يدل علىٰ أن البكاء ينبغي أن لا ينقطع أبدًا، وإلىٰ هذا السر يشير ما رُوي**) في بعض الأخبار (**أنه مر بعض الأنبياء**) من بني إسرائيل (**بحجر صغير يخرج منه ماء كثير، فتعجَّب منه**) لمخالفته العادة (**فأنطقه الله تعالىٰ**) معه فسأله عن سبب ذلك (**فقال: منذ سمعت قوله تعالىٰ:** ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦] **فأنا أبكي من خوفه**) أي من خوفي إياه أن يجعلني من تلك الحجارة قال: (**فسأله**) تعالىٰ (**أن يجيره من النار فأجاره**) بوحي منه إليه، وعلم الحجرُ بذلك (**ثم رآه بعد مدة علىٰ مثل ذلك**) الحال (**فقال: لِمَ تبكي الآن**) وقد غفر الله لك بدعائي؟ (**فقال: ذلك بكاء الخوف، وهذا بكاء الشكر والسرور**) هكذا نقله القشيري في الرسالة.

وأنشدوا في المعنىٰ:

هجـم السـرورُ علـيَّ حتـىٰ إننـي ... مـن فـرط مـا قـد سـرَّني أبـكاني
يـا عيـن صـار الدمـع عنـدي عـادةً ... تبكيـن في فـرح وفي أحـزان[1]

ويقال: إن دمعة الحزن حارة، ودمعة السرور باردة.

(**وقلب العبد كالحجارة**) أي في شدته ويبسه (**أو أشد قسوةً**) منها، وذلك

---

(١) لم أقف علىٰ قائل هذين البيتين، ولكن ذكر محقق وفيات الأعيان ٤/ ١٠٥ - ١٠٦ أنه وردت علىٰ لسان قهرمانة بغدادية.

بنص القرآن (**ولا تزول قسوتُه إلا بالبكاء في حال الخوف والشكر جميعًا**) فإنه يليِّنه ويزيل صلابته.

(**ورُوي عنه ﷺ أنه قال: ينادَىٰ يوم القيامة: ليقُم الحَمَّادون**) أي كثيرو الحمد لله تعالىٰ علىٰ نعمه (**فتقوم زُمرة، فيُنصَب لهم لواء، فيدخلون الجنة. قيل**): يا رسول الله (**ومَن الحمَّادون؟ قال: الذين يشكرون الله تعالىٰ علىٰ كل حال. وفي لفظ آخر: الذين يشكرون الله علىٰ السَّرَّاء والضَّرَّاء**) قال العراقي[(١)]: رواه الطبراني[(٢)] وأبو نعيم في الحلية[(٣)] والبيهقي في الشعب[(٤)] من حديث ابن عباس بلفظ: «أول مَن يُدعَىٰ إلىٰ الجنة الحمَّادون ...» الحديث، وفيه قيس بن الربيع، ضعَّفه الجمهور.

قلت: لفظ الطبراني: «أول مَن يُدعَىٰ إلىٰ الجنة يوم القيامة الحمَّادون الذين يحمدون الله علىٰ السَّرَّاء والضَّرَّاء». ورواه كذلك أبو الشيخ والحاكم[(٥)] وابن مردويه.

(**وقال ﷺ: الحمد رِداء الرحمن**) هكذا هو في القوت. وقال العراقي[(٦)]: لم أجد له أصلاً[(٧)]، وفي الصحيح [من حديث أبي هريرة]: «الكبرياء رِداؤه»، وقد تقدم في العلم.

(**وأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ أيوب عليه السلام: إني رضيت بالشكر مكافأةً من أوليائي**

---

(١) المغني ٢/ ١٠٢٠.

(٢) المعجم الكبير ١٢/ ١٩.

(٣) حلية الأولياء ٥/ ٦٩.

(٤) شعب الإيمان ٦/ ٢١٦، ٢٧٥.

(٥) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ٦٨٧.

(٦) المغني ٢/ ١٠٢٠.

(٧) قد أورده السيوطي في الدر المنثور ١/ ٥٧ من قول الضحاك بن مزاحم، وعزاه لابن أبي حاتم في تفسيره.

... **في كلام طويل)** هكذا هو في القوت، قال: وقد روينا في أخبار أيوب عليه السلام أن الله سبحانه أوحىٰ إليه ... فذكره.

(وأوحىٰ الله إليه أيضًا في صفة الصابرين: إن دارهم دار السلام، إذا دخلوها ألهمتهم الشكر وهو خير الكلام، وعند الشكر أستزيدهم، وبالنظر إليَّ أزيدهم) نقله صاحب القوت فقال: وروينا في مُناجاة أيوب عليه السلام أن الله تعالىٰ أوحىٰ إليه في صفة الصابرين ... فذكره. وهذا غاية الفضل.

(ولمَّا نزل في الكنوز ما نزل) وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ الآية [التوبة: ٣٤] **(قال عمر** رضي الله عنه: **فأيُّ المال نتخذ؟ فقال** ﷺ: **ليتَّخذ أحدكم لسانًا ذاكرًا وقلبًا شاكرًا. فأمر باقتناء القلب الشاكر)** واتخاذه مالاً في الآخرة **(بدلاً عن المال)** في الدنيا، وشكرُ القلب هو مشاهدة المنعم في النعمة وظهور المعطي عند العطاء حتىٰ ترىٰ النعمة عنده منه والعطاء عنه؛ لأن الشكر عند الشاكرين معرفة القلب ووصفُه لا وصف اللسان. كذا في القوت، وقد عزاه إلىٰ ثوبان وعمر رضي الله عنهما.

قلت: رواه أحمد والترمذي وحسَّنه وابن ماجه وأبو نعيم في الحلية من حديث ثوبان: «ليتَّخذ أحدكم قلبًا شاكرًا ولسانًا ذاكرًا وزوجة مؤمنة تعينه علىٰ أمر الآخرة». وقد تقدم في كتاب النكاح.

(وقال ابن مسعود) رضي الله عنه: **(الشكر نصف الإيمان)** وقد رُوي من حديث أنس مرفوعًا: «الإيمان نصفان: نصف في الصبر، ونصف في الشكر». رواه الديلمي والبيهقي، وقد تقدم قريبًا.

ومن الأخبار الواردة في الشكر أنه ﷺ قال لمعاذ: «إني أحبك، فلا تنسَ أن تقول في دُبر كل صلاة: اللهم أعنِّي علىٰ ذكرك وشكرك وحُسن عبادتك»[1]. وفي

---

(١) تقدم في كتاب الأذكار والدعوات.

الترمذي[١] من بعض دعائه المشهور: «رب اجعلني لك شَكَّارًا، لك ذَكَّارًا، لك رَهَّابًا، لك مِطواعًا، لك مخبتًا، إليك أَوَّاهًا منيبًا». وفي حديث عمر: «الحمد علىٰ النعمة أمان لزوالها»[٢]. وفي حديث ابن عمرو: «الحمد رأس الشكر، ما شكر اللهَ عبدٌ لا يحمده»[٣].

(١) سنن الترمذي ٥/ ٥١٨ من حديث ابن عباس، وقال: حسن صحيح.

(٢) رواه الديلمي في الفردوس ٢/ ١٥٥.

(٣) رواه عبد الرزاق في مصنفه ١٠/ ٤٢٤، ومن طريقه البيهقي في شعب الإيمان ٦/ ٢٣٠.

بيــان حـدِّ الشكر وحقيقته

(اعلمْ) أنهم قد اختلفوا في الفرق بين الحمد والشكر أيهما أفضل، وفي الحديث المتقدم: «الحمد رأس الشكر، فمَن لم يحمد الله لم يشكره»، والفرق بينهما **(أن الشكر)** أعمُّ من جهة أنواعه وأسبابه وأخصُّ من جهة متعلقاته، والحمد أعمُّ من جهة المتعلَّقات وأخصُّ من جهة الأسباب، ومعنىٰ هذا أن الشكر يكون بالقلب خضوعًا واستكانةً، وباللسان ثناءً واعترافًا، وبالجوارح طاعةً وانقيادًا، ومتعلَّقه النعم دون الأوصاف الذاتية، فلا يقال: شكرنا الله علىٰ حياته وسمعه وبصره وعلمه، وهو المحمود بها، كما هو محمود علىٰ إحسانه وعدله، والشكر يكون علىٰ الإحسان والنعم، فكل ما يتعلق به الشكرُ يتعلق به الحمدُ من غير عكس، وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس، فإن الشكر يقع بالجوارح، والحمد باللسان[1]. فإذا عرفتَ ذلك، فاعلمْ أن الشكر **(من جملة مقامات السالكين)** وهو الثالث من مقامات اليقين **(وهو أيضًا)** كما تقدم **(ينتظم من علم وحال وعمل، فالعلم هو الأصل، فيورث الحالَ، والحال يورث العملَ)** وبه يتَّضح الفرق بين المقامات والأحوال، وقد تقدم الكلام عليه في شرح كتاب التوبة **(أما العلم فهو معرفة النعمة من المنعم، وأما الحال فهو الفرح الحاصل بإنعامه، والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه، ويتعلق ذلك العمل بالقلب وبالجوارح وباللسان، ولا بد من بيان جميع ذلك؛ لتحصل بمجموعه الإحاطةُ بحقيقة الشكر، فإنَّ كل ما قيل في حد الشكر)** علىٰ ما سيأتي بيانه **(قاصر عن الإحاطة بكمال معانيه، فالأصل**

---

(١) النقل من بصائر ذوي التمييز ٣/ ٣٤٠، وأصله لابن القيم في المدارج ٢/ ٢٤٦ (ط دار الكتاب العربي).

الأول العلم، وهو العلم بثلاثة أمور: بعين النعمة، ووجه كونها نعمةً في حقه، وبذات المنعم ووجود صفاته التي بها يتم الإنعامُ ويصدر الإنعامُ منه عليه، فإنه لا بد من نعمة ومنعِم ومنعَم عليه تصل إليه النعمة من المنعم بقصد وإرادة. فهذه الأمور لا بد من معرفتها، هذا في حق غير الله تعالىٰ. فأما في حق الله تعالىٰ فلا يتم إلا بأن يعرف أن النعم كلَّها من الله، وهو المنعم، والوسائط مسخَّرون من جهته. وهذه المعرفة وراء التوحيد والتقديس؛ إذ دخل التقديس والتوحيد فيها، بل الرتبة الأولىٰ في معارف الإيمانِ التقديسُ) وأعني به تنزيه الرب عن الجسمية وتوابعها (ثم إذا عرف ذاتًا مقدَّسة فيعرف أنه لا مقدَّس إلا واحد، وما عداه غير مقدَّس، وهو التوحيد) وهي الرتبة الثانية (ثم يعلم أن كل ما في العالَم فهو موجود من ذلك الواحد فقط) وأنه هو الذي أفاضَ الوجودَ عليه (بل الكل نعمة منه، فتقع هذه المعرفة في الرتبة الثالثة) من رتب الإيمان (إذ ينطوي فيها مع التقديس والتوحيدِ كمالُ القدرة والانفراد بالفعل، وعن هذا عبَّر رسول الله ﷺ، حيث قال: من قال سبحان الله فله عشر حسنات، ومَن قال لا إله إلا الله فله عشرون حسنة، ومن قال الحمد لله فله ثلاثون حسنة) تقدم في كتاب الأذكار والدعوات. قال صاحب القوت: ليس لأن الحمد أعلىٰ من التوحيد ولكن لفضل مقام الشكر، ولأن الله تعالىٰ افتتح به كلامَه في كتابه.

(وقال ﷺ: أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله) قال العراقي[١]: رواه الترمذي[٢] وحسَّنه والنسائي في اليوم والليلة[٣] وابن ماجه[٤] وابن حبان[٥] من حديث جابر. انتهىٰ.

---

(١) المغني ٢/ ١٠٢٠.
(٢) سنن الترمذي ٥/ ٣٩٣.
(٣) السنن الكبرىٰ ٩/ ٣٠٦.
(٤) سنن ابن ماجه ٥/ ٣٣٧.
(٥) صحيح ابن حبان ٣/ ١٢٦.

قلت: ورواه كذلك الحاكم[١]، وعند البيهقي[٢] وابن النجار: «أفضل الدعاء لا إله إلا الله، وأفضل الذكر الحمد لله».

(**وقال ﷺ: ليس شيء من الأذكار يضاعَف مثل ما يضاعَف الحمد لله**) هكذا هو في القوت. وقال العراقي[٣]: لم أجده مرفوعًا، وإنما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر[٤] عن إبراهيم النخعي قال: يقال: إن الحمد أكثر الكلام تضعيفًا.

(**ولا تظن أن هذه الحسنات بإزاء تحريك اللسان بهذه الكلمات من غير حصول معانيها في القلب، فـ «سبحان الله» كلمة تدل علىٰ التقديس**) إذ[٥] التسبيح لغةً: التقديس والتنزيه، يقال: سبَّحت الله، أي نزهَّته عمَّا يقوله الجاحدون (**و«لا إله إلا الله» كلمة تدل علىٰ التوحيد**) إذ معناها: لا معبود بحق إلا الله (**و«الحمد لله» كلمة تدل علىٰ معرفة النعمة من الواحد الحق**) لا غيره، وهو المنعم المطلَق (**فالحسنات بإزاء هذه المعارف التي هي من أبواب الإيمان واليقين**) ومنها يدخل إليهما (**واعلمْ أن تمام هذه المعرفة ينفي الشركَ في الأعمال، فمَن أنعم عليه ملكٌ من الملوك بشيء فإن رأىٰ لوزيره أو وكيله دخلاً في تيسير ذلك وإيصاله إليه فهو إشراكه به في النعمة، فلا يرىٰ النعمة من الملك من كل وجه، بل منه بوجه، ومن غيره بوجه، فيتوزَّع**) أي ينقسم (**فرحُه عليهما، فلا يكون موحِّدًا في حق الملك**) في الحقيقة (**نعم، لا يغضُّ من توحيده في حق الملك وكمال شكره أن يرىٰ النعمة الواصلة إليه بتوقيعه الذي كتبه بقلمه وبالكاغد الذي كتب عليه، فإنه لا يفرح بالقلم والكاغد ولا يشكرهما؛ لأنه لا يُثبِت لهما دخلاً من حيث هما موجودان بأنفسهما**

---

(١) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ٦٨٢، ٦٨٨.

(٢) شعب الإيمان ٦/ ٢١٤.

(٣) المغني ٢/ ١٠٢١.

(٤) الشكر ص ٤٢.

(٥) المصباح المنير ص ٢٦٢.

بل من حيث هما مسخَّران تحت قدرة الملك، وقد يعلم أن الوكيل الموصل أو الخازن أيضًا مضطرَّان من جهة الملك في الإيصال، وأنه لو رُدَّ الأمر إليه ولم يكن من جهة الملك إرهاق وأمرٌ جزمٌ يخاف عاقبته) لو خالفه (لَما سلَّم إليه شيئًا) من تلك النعمة (فإذا عرف ذلك كان نظرُه إلىٰ الخازن الموصل كنظره إلىٰ القلم والكاغد، فلا يورث ذلك شركًا في توحيده من إضافة النعمة إلىٰ الملك، وكذلك مَن عرف الله تعالىٰ وعرف أفعاله علم أن الشمس والقمر والنجوم مسخَّرات بأمره كالقلم مثلاً في يد الكاتب، وأن الحيوانات التي لها اختيار مسخَّرات في نفس اختيارها، فإنَّ الله تعالىٰ هو المسلِّط للدواعي عليها لتفعل شاءت أم أبتْ، كالخازن المضطرِّ الذي لا يجد سبيلاً إلىٰ مخالفة الملك، ولو خُلِّي ونفسه لَما أعطاه ذرَّة ممَّا في يده) أي قليلاً من النعمة (فكل مَن أوصل إليك نعمة من الله تعالىٰ علىٰ يده فهو مضطرٌّ) لا محالة (إذ سلَّط الله عليه الإرادة، وهيَّج عليه الدواعي) والبواعث (وألقىٰ في نفسه أن خيره في الدنيا والآخرة في أن يعطيك ما أعطاك، وأن الغرض المقصود عنده في الحال والمآل لا يحصل إلا به، وبعد أن خلق الله له هذا الاعتقادَ فلا يجد سبيلاً إلىٰ تركه، فهو إذا إنما يعطيك لغرض نفسه لا لغرضك، ولو لم يكن غرضه في العطاء لَما أعطاك، ولو لم يعلم أن منفعته في منفعتك لَما نفعَك، فهو إذًا إنما يطلب نفع نفسِه بنفعك، فليس منعمًا عليك، بل اتَّخذك وسيلة إلىٰ نعمة أخرىٰ هو يرجوها) في نفسه (وإنما الذي أنعم عليك هو الذي سخَّره لك وألقىٰ في قلبه من الاعتقادات والإرادات ما صار به مضطرًّا إلىٰ الإيصال إليك، فإن عرفتَ الأمور كذلك فقد عرفت الله تعالىٰ، وعرفت فِعله، وكنت موحِّدًا، وقدرتَ علىٰ شكره، بل كنت بهذه المعرفة بمجرَّدها شاكرًا، ولذلك قال موسىٰ عليه السلام في مُناجاته: إلهي، خلقتَ آدم بيديك وفعلتَ وفعلت، فكيف شكرَك؟ فقال الله عز وجل: علمَ أن كل ذلك مني، فكانت معرفته شكرًا)[1] نقله القشيري في الرسالة. ورواه الحكيم في النوادر

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر ص ١٤ وهناد في الزهد ٢/ ٣٩٩ - ٤٠٠ والبيهقي في =

عن الحسن مرسلاً[1] بلفظ: «قال موسىٰ: يا رب كيف شكرك [آدم]؟ قال: علمَ أن ذلك مني فكان ذلك شكره.

(فإذًا لا تشكر إلا بأن تعرف أن الكل منه، فإن خالجك ريبٌ) أي داخَلَك شكٌّ (في هذا لم تكن عارفًا لا بالنعمة ولا بالمنعم، فلا تفرح بالمنعم وحده، بل وبغيره، فبنقصان معرفتك ينقص حالُك في الفرح، وبنقصان فرحك ينقص عملُك.

فهذا بيان هذا الأصل.

الأصل الثاني: الحالة المستمَدَّة من أصل المعرفة، وهو الفرح بالمنعم مع هيئة التواضع والخشوع) وفي نسخة: مع هيئة الخضوع والتواضع (وهو أيضًا في نفسه شكرٌ علىٰ تجرُّده) أي بمفرده (كما أن المعرفة شكرٌ) بمفردها (ولكن إنما تكون) تلك الحالة (شكرًا إذا كان جامعًا شروطه) أي الشكر (وشروطه أن يكون فرحك بالمنعم لا بالنعمة ولا بالإنعام، ولعل هذا ممَّا يتعذَّر عليك فهمُه، فنضرب لك مثلاً) ليتَّضح لك به فهمُ المقصود (فنقول: الملك الذي يريد الخروج إلىٰ سفر فأنعم بفرس) من أفراسه المتزيِّنة (علىٰ إنسان يُتصور أن يفرح المنعَم عليه بالفرس) المذكور (من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يفرح بالفرس من حيث إنه فرس، وإنه مال ينتفع به، ومركوب يوافق غرضَه، وإنه جواد نفيس) للكر والفر (وهذا فرحُ مَن لا حظَّ له في الملك، بل غرضه الفرس فقط، ولو وجده في صحراء) مجانًا (فأخذه لكان فرحه مثل ذلك الفرح.

= شعب الإيمان ٦/ ٢٤٥ وابن عساكر في تاريخ دمشق ٧/ ٤٥٢ عن الحسن البصري قال: قال موسىٰ عليه السلام: يا رب، كيف استطاع آدم أن يؤدي شكر ما صنعته إليه؟ خلقته بيدك، ونفخت فيه من روحك، وأسكنته جنتك، وأمرت الملائكة فسجدوا له. فقال: يا موسىٰ، علم أن ذلك مني فحمدني عليه، فكان ذلك شكرا لما صنعت له.

(١) بل رواه عن الحسين بن علي موقوفا. نوادر الأصول ص ٩٢.

الوجه الثاني: أن يفرح به لا من حيث إنه فرس بل من حيث يستدلُّ به على عناية الملك به وشفقته عليه واهتمامه بجانبه، حتى لو وجد هذا الفرس في صحراء أو أعطاه غيرُ الملك لكان لا يفرح به أصلاً؛ لاستغنائه عن الفرس أصلاً، أو لاستحقاره له بالإضافة إلى مطلوبه من نيل المحل) أي المنزلة (في قلب الملك.

الوجه الثالث: أن يفرح به ليركبه فيخرج في خدمة الملك ويحتمل المشقَّةَ في السفر لينال بخدمته رتبةَ القُرب منه، وربما يرتقي إلى درجة الوزارة) وهي درجة تتلو درجةَ الملك (من حيث إنه ليس يَقنع بأن يكون محلُّه في قلب الملك أن يعطيه فرسًا ويعتني به هذا القدر من العناية، بل هو طالب أن لا ينعم الملك بشيء من ماله على أحد إلا بواسطته) وعلى يده (ثم إنه ليس يريد من الوزارة نفس الوزارة أيضًا، بل يريد مشاهدة الملك) في غالب أحواله (والقرب منه) في سائر أحيانه (حتى لو خُيِّر بين القرب منه دون الوزارة وبين الوزارة دون القرب) منه (لاختار القرب) على الوزارة.

(فهذه ثلاث درجات، فالأولى لا يدخل فيها معنى الشكر أصلاً؛ لأن نظر صاحبِها مقصور على الفرس، ففرحُه بالفرس لا بالمعطي، وهذا حال كل مَن فرحَ بنعمة من حيث إنها لذيذة وموافِقة لغرضه، فهو بعيد عن معنى الشكر) فإنه رؤية للنعمة لا للمنعم (والثانية داخلة) وفي نسخة: والثاني داخل (في معنى الشكر من حيث إنه فرحٌ بالمنعم ولكن لا من حيث ذاته بل من حيث معرفة عنايته التي تستحثُّه على الإنعام في المستقبل، وهذا حال الصالحين الذين يعبدون الله ويشكرونه خوفًا من عقابه ورجاءً لثوابه، وإنما الشكر التام في الفرح الثالث وهو أن يكون فرحُ العبد بنعم الله تعالى من حيث إنه يقدر بها على التوصل إلى القرب منه تعالى والنزول في جواره والنظر إلى وجهه على الدوام) من غير انقطاع ولا انصرام (فهذا هو الرتبة العليا) التي إليها تنتهي الآمال والأماني (وأمارته أن لا يفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة للآخرة ومعين عليها، ويحزن بكل نعمة تلهيه) أي تشغله (عن

ذكر الله تعالىٰ وتصدُّه) أي تمنعه (عن سبيله، فإنه ليس يريد النعمة لأنها لذيذة) وموافِقة لطبعه (كما لم يُرِدْ صاحب الفرسِ الفرسَ لأنه جواد) وأصيل (ومهملج) أي سريع السير في الركض (بل من حيث إنه يحمله في صحبة الملك حتىٰ تدوم مشاهدتُه له وقربُه منه) ومكانته لديه (ولذلك قال الشِّبلي رحمه الله تعالىٰ: الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة) نقله القشيري في الرسالة. أي بأن يكون السابق منهما إلىٰ القلب رؤية المنعم، وهذا كما قال بعضهم: ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله قبله[1]. أي الغالب علىٰ القلب رؤية الله ومراقبته، فأيُّ شيء حدث فيه يكون مذكِّرًا له رؤية الله فإنه ذاكر له غير غافل عنه[2] (وقال الخَوَّاص) هو أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد، من أقران الجنيد: (شكرُ العامة) يكون (علىٰ المطعم والملبس والمشرب) ونحوها من النعم الظاهرة (وشكر الخاصة) يكون (علىٰ واردات القلوب) ممَّا يَرِدُ عليها من المعاني التي يعرفها الأولياء كصرف الغفلات عن القلوب بالورع والزهد وغيرهما[3]. وهذا القول نسبه القشيري في الرسالة إلىٰ أبي عثمان سعيد بن إسماعيل الحيري تلميذ أبي حفص الحَدَّاد، ولفظه: وقال أبو عثمان: شكرُ العامة علىٰ المطعم والملبس، وشكرُ الخواصِّ علىٰ ما يَرِدُ علىٰ قلوبهم من المعاني (وهذه رتبة لا يدركها كل مَن انحصرت عنده اللذَّات في البطن والفرج ومدركات الحواس) الظاهرة (من الألوان والأصوات وخلا عن لذة القلب، فإن القلب لا يلتذُّ في حال الصحة إلا بذكر الله تعالىٰ ومعرفته ولقائه) وهي اللذة المعنوية (وإنما يلتذُّ بغيره إذا مرضَ بسوء العادات) وتمكَّنت منه (كما يلتذُّ بعض الناس بأكل الطين) وذلك لفساد مزاجه (وكما يستبشع بعض المرضىٰ الأشياءَ الحلوة) ويستكرهها (ويستحلي الأشياء المرَّة) البشعة (حتىٰ قيل) قائله المتنبي[4]:

---

(١) في حياة الحيوان الكبرىٰ للدميري ١/ ٣٠٦ نسبة هذا القول إلىٰ أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٢) إحكام الدلالة ١/ ٥٤٩.

(٣) السابق بتصرف.

(٤) البيت في ديوانه ص ١٤١.

(ومَن يكُ ذا فم مرٍّ مريض يجد مرًّا به الماءَ الزُّلالا

فإذًا هذا شرط الفرح بنعمة الله تعالىٰ، فإن لم تكن إبل فمعزىٰ)[١] وهو جارٍ مجرىٰ الأمثال **(فإن لم يكن هذا فالدرجة الثانية)** بأن يفرح بالنعمة لا من حيث إنها نعمة بل من حيث إنه يستدل بها علىٰ عناية المنعم به **(أما)** الدرجة **(الأولىٰ فخارجة عن كل حساب)** وذلك بأن يفرح بالنعمة من حيث إنها نعمة فقط ويكون نظرُه مقصورًا عليها **(فكم من فرق بين مَن يريد الملكَ للفرس وبين من يريد الفرس للملك، وكم من فرق بين من يريد الله لينعم عليه وبين من يريد نِعم الله تعالىٰ ليصل بها إليه.**

الأصل الثالث: العمل بموجِب الفرح الحاصل من معرفة المنعم، وهذا العمل يتعلق بالقلب وباللسان وبالجوارح، أما بالقلب فقصدُ الخير) والصلاح **(وإضماره لكافَّة الخلق)** أي عامَّتهم **(وأما باللسان فإظهار الشكر لله بالتحميدات الدالَّة عليه)** بأيِّ صيغة كانت **(وأما بالجوارح فاستعمال نِعم الله في طاعته، والتوقِّي من الاستعانة بها علىٰ معصيته)** قال القشيري في الرسالة: سمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول: سمعت الأستاذ أبا سهل الصُّعلوكي يقول: سمعت المرتعش يقول: سمعت الجنيد يقول: كنت بين يدي السري ألعب وأنا ابن سبع سنين، وبين يديه جماعة يتكلمون في الشكر، فقال لي: يا غلام، ما الشكر؟ فقلت: أن لا تعصي الله تعالىٰ بنعمة. فقال: يوشك أن يكون حظُّك من الله لسانك. قال الجنيد: فلا أزال أبكي علىٰ هذه الكلمة التي قالها السري[٢] **(حتىٰ إن شكر العينين أن تستر كل**

---

(١) هذا لفظ بيت، وتمامه:

ألا إلا تكن إبل فمعزىٰ كأن قرون جِلتها العصي

وهو لامرئ القيس في ديوانه ص ١٧١.

(٢) رواه الخطيب في تاريخ بغداد ٨/ ١٧٢ عن أبي حازم عمر بن أحمد العبدويي عن أبي سهل. وروىٰ قبله من طريق عيسىٰ بن كاسة عن الجنيد قال: سألني السري السقطي: ما الشكر؟ فقلت: أن لا يستعان بنعمه علىٰ معاصيه. فقال: هو ذاك يا أبا القاسم.

عيب تراه لمسلم، وشكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه فيه) ولفظ الرسالة: وقيل: شكر العينين أن تستر عيبًا تراه بصاحبك، وشكر الأذنين أن تستر عيبًا تسمعه فيه **(فيدخل هذا في جملة شكر نعم الله تعالىٰ بهذه الأعضاء)** وهو بيان لشكر هذه الأفعال. وقال صاحب القوت: وأما شكرُ الجوارح للمنعم المُفضِل فهو أن لا يعصيه بنعمة من نِعمه، وأن يستعين بنعمته علىٰ طاعته، ولا يستعين بها علىٰ معاصيه فيكون قد كفرَها، كما قال تعالىٰ: ﴿بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: ٢٨] قيل: استعانوا بنعمه علىٰ معاصيه، فيكون قد كفرها، فالخلق لا يقدرون علىٰ تبديل نعمة الله، ولكن معناه: بدَّلوا شكر نعمة الله كفرًا، وهذا من المضمَر معناه لظهور دليله عليه؛ لأنه أمرهم بالطاعة بالنعم، فخالفوه فعصوه بها، فكان ذلك تبديلهم لِما أُمروا **(والشكر باللسان لإظهار الرضا عن الله تعالىٰ، وهو مأمور به، فقد قال ﷺ لرجل: كيف أصبحتَ؟ فقال: بخير. فأعاد)** عليه **(السؤال)** ثانيةً: كيف أنت؟ فقال: بخير **(حتىٰ قال)** الرجل **(في)** المرَّة **(الثالثة: بخير أحمد الله وأشكره. فقال ﷺ: هذا الذي أردت منك)** يعني إظهار الحمد والشكر والثناء. قال العراقي[1]: رواه الطبراني في الدعاء[2] من رواية الفضيل بن عمرو مرفوعًا نحوه: قال في الثالثة: بخير أحمدُ الله. وهذا معضَل، ورواه في المعجم الكبير[3] من حديث عبد الله بن عمرو، وليس فيه تكرار السؤال، وقال: أحمد الله إليك. وفيه رِشْدين بن سعد، ضعَّفه الجمهور لسوء حفظه. ورواه مالك في الموطأ[4] موقوفًا علىٰ عمر بإسناد صحيح.

(وكان السلف يتساءلون) إذا التقوا عن أحوالهم **(ونيَّتهم استخراج الشكر**

---

(١) المغني ٢/ ١٠٢١.

(٢) الدعاء ص ١٦٦٨.

(٣) المعجم الكبير ١٤/ ٣٥.

(٤) الموطأ ٢/ ٩٦١ عن أنس بن مالك أنه سمع عمر بن الخطاب وسلم عليه رجل، فرد عليه السلام، ثم سأل عمر الرجل: كيف أنت؟ فقال: أحمد إليك الله. فقال عمر: ذلك الذي أردت منك.

لله تعالىٰ؛ ليكون الشاكر مطيعًا) بشكره (والمستنطق له به مطيعًا) باستخراجه إيَّاه منه، فيكون شريكه في ذلك؛ لأنه سبب ذِكره تعالىٰ (وما كان قصدُهم الرياء بإظهار الشوق، وكل عبد سُئل عن حال فهو بين أن يشكر) الله تعالىٰ (أو يشكو أو يسكت، فالشكر طاعة، والشكوىٰ معصية قبيحة من أهل الدين) فمَن علمتَ أنه يشكو مولاه ويتكرَّره عندك قضاءه إذا سألتَه عن حاله فلا تسأله فتكون أنت سببًا لشكواه وشريكه في جهله، وما أقبح بالعبد أن يشكو مولاه (وكيف لا تقبُح الشكوىٰ من ملك الملوك) الذي ليس كمثله شيء (وبيده) ملكوت (كل شيء إلىٰ عبد مملوك لا يقدر علىٰ شيء) ومثله كل شيء (والأحرىٰ بالعبد إذا لم يُحسِن الصبرَ علىٰ القضاء والبلاء وأفضىٰ به الضعفُ) أي ضعفُ اليقين (إلىٰ الشكوىٰ) ولا بد (أن تكون شكواه إلىٰ الله تعالىٰ، فهو المبلي والقادر علىٰ إزالة البلاء) ولذا قال يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] (وذل العبد لمولاه عزٌّ، والشكوىٰ إلىٰ غيره ذلٌّ، وإظهار الذل للعبيد مع كونهم أذِلاَّء قبيحٌ) ولفظ القوت: ويعلم أن الذل والصبر عند المنع عزٌّ وشرف، وهو أفضل وأنفس عند العلماء من التعزُّز بالعبيد والشرف بهم، وأن الطمع والتذلُّل إليهم والاستشراف إلىٰ عبد مملوك مثلك ذل ذليل، وحُسن الذل للعزيز كحُسن الذل للحبيب، وقبحُ الذل للذليل كقبح الذل للعدو، وقد (قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ١٧] وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾) [الأعراف: ١٩٤] والعبادة هي الخدمة والطاعة بذلٍّ، ولا يحسُن بالعبد المقبل أن يُظهِر فقرَه وفاقتَه إلىٰ غير مولاه الذي يلي تدبيرَه ويتولاَّه؛ لأنه عليم خبير بحاله يسمعه ويراه، وهو أعلم بما يصلحه منه (فالشكر باللسان) وحُسن الثناء وجميل النشر للنعماء وتعديد النعم والآلاء (من جملة الشكر) لأن معنىٰ الشكر في اللغة هو الكشف والإظهار، يقال: كثُر وشكَرَ بمعنًىٰ: إذا كشف عن ثغره وأظهرَه، فيكون إظهار الشكر وكشفه باللسان ما ذكرناه.

(وقد رُوي أن وفدًا قَدِموا علىٰ عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالىٰ) في أيام خلافته **(فقام شاب)** من الوفد **(ليتكلم، فقال عمر: الكُبَر الكُبَر)** بضم الكاف فيهما، أي قدِّموا للتكلم الأكبرَ فالأكبر. وهذا اللفظ قد رُوي مرفوعًا في حديث سهل بن أبي حَثْمة، رواه الشيخان وأبو داود[١] **(فقال: يا أمير المؤمنين، لو كان الأمر)** أي التقدُّم ههنا **(بالسن لكان)** غيرك مقدَّمًا عليك؛ إذ **(في المسلمين مَن هو أسنُّ منك)** فعرف فضله ورفعته علىٰ مَن معه **(فقال: تكلمْ. فقال)**: يا أمير المؤمنين **(لسنا وفد الرغبة)** أي لطلب شيء منك **(ولا وفد الرهبة)** أي الخوف من شيء نطلب منك خلاصه **(أما الرغبة فقد أوصلها إلينا فضلُك)** ونحن ببلادنا **(وأما الرهبة فقد آمننا منها عدلُك)** ونحن كذلك ببلادنا **(وإنما نحن وفد الشكر، جئناك نشكرك باللسان، وننصرف)**[٢] علىٰ ما نحن عليه من فضلك وأمنك. نقله القشيري في الرسالة، ولفظه: وقيل: قَدِمَ وفدٌ علىٰ عمر بن عبد العزيز، وكان فيهم شاب، فأخذ يخطب، فقال عمر: الكبر الكبر. فقال الشاب: يا أمير المؤمنين، لو كان الأمر بالسن ... فذكره. وفائدة ذلك التأكيد في طلب تبليغ الشكر لمَن يستحقُّه، فإذا كان المنعم حاضرًا والنعم متوالية والقلب واللسان صامت عن الشكر كان من أقبح القبائح عادةً وشرعًا.

(فهذه هي أصول معاني الشكر المحيطة بمجموع حقيقته، فأما قول مَن قال: إن الشكر هو الاعتراف بنعمة المنعم علىٰ وجه الخضوع) نقله القشيري في الرسالة، ولفظه: وحقيقة الشكر عند أهل التحقيق ... فذكره **(فهو نظرٌ إلىٰ فعل اللسان مع بعض أحوال القلب)** فالاعتراف من جملة أحوال القلب، والخضوع ظهوره علىٰ

---

(١) صحيح البخاري ٤/١١٨، ٢٧٢. صحيح مسلم ٢/ ٧٩٢ - ٧٩٣. سنن أبي داود ٥/١٤٣، في قصة القتيل الذي لم يعرف قاتله.

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٨/ ١٩٥، والبلاذري في أنساب الأشراف ٨/ ١٣٣ - ١٣٤. وفيهما أن هذا الوفد كان من أهل العراق. ورواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٣/ ٥٣٧، ٧/ ٣١٩. ولكن فيه: «قدم رجل علىٰ سليمان ابن عبد الملك في خلافته ...» فذكره بنحوه.

اللسان، وهو أيضًا سبب للشكر لا نفسه. وقد ذكر القشيري أيضًا أن الشكر ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام: شكر باللسان، وهو اعتراف بالنعمة بنعت الاستكانة. وشكر بالبدن والأركان، وهو اتِّصاف بالوفاء والخدمة. وسيأتي ذِكرُ القسم الثالث **(وقول مَن قال: إن الشكر هو الثناء علىٰ المحسن بذكر إحسانه)** ولفظ الرسالة: ويحتمل أن يقال: حقيقة الشكر: الثناء علىٰ المحسن بذكر إحسانه [فشكرُ العبد لله: ثناؤه عليه بذكر إحسانه] إليه، وشكرُ الحق سبحانه للعبد: ثناؤه عليه بذكر إحسانه له **(نظرٌ إلىٰ مجرَّد عمل اللسان)** لأن الثناء والمدح من عمل اللسان خاصةً **(وقول القائل: إن الشكر هو الاعتكاف علىٰ بساط الشهود)** أي حضور الفضل ورؤيته **(بإدامة حفظ الحرمة)** وهذا هو القسم الثالث من أقسام الشكر وهو شكر القلب، كما في الرسالة. وحقيقة الشكر إنما تحصل باجتماع هذه الثلاثة مع الإمكان، وهو **(جامع لأكثر معاني الشكر، لا يشذُّ منه إلا عمل اللسان)** الذي هو الاعتراف بالنعمة بنعت الخضوع. وقريب منه قول أبي بكر الوَرَّاق: شكرُ النعمة مشاهدة المنَّة وحفظ الحرمة[1]. ولكن هذا سبب للشكر لا نفسه، وليس بجامع كالقول السابق **(وقول حمدون القَصَّار)** وهو[2] أبو صالح حمدون بن أحمد بن عمارة النيسابوري، منه انتشر مذهب المَلامتيَّة بنيسابور، صحبَ أبا تراب النخشبي وسلمًا الباروسي، مات سنة إحدىٰ وسبعين ومائتين **(شكر النعمة أن ترىٰ نفسك في الشكر طفيليًّا)** نقله القشيري. أي تضيف النعمة إلىٰ فاعلها، وتتبرأً من إضافتها إليك، وهو **(إشارة إلىٰ أن معنىٰ المعرفة من معاني الشكر فقط)** كأنه يرجع إلىٰ الاعتراف بالنعمة وإضافتها للمنعم، ويقرُب منه قول بعضهم: الشكر: إضافة النعم إلىٰ موليها بنعت الاستكانة. وهذا أيضًا يرجع إلىٰ معنىٰ الاعتراف، وليس بجامع لحقيقة الشكر **(وقول الجنيد)** قُدِّس سره: إن **(الشكر أن لا ترىٰ نفسك**

---

(١) رواه السلمي في طبقات الصوفية ص ١٧٩ (ط - دار الكتب العلمية).

ورواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٢٣٥، دون قوله (وحفظ الحرمة).

(٢) الرسالة القشيرية ص ٧٧.

أهلاً للنعمة) نقله القشيري. أي لأن مَن لم يرَ ذلك ورأىٰ أن النعمة فضل من الله تعالىٰ استحيا من الله أن يكون شكره جزاءً عليها؛ لأنه إذا لاحظ شكره نعمةً أخرىٰ احتاج إلىٰ شكر، فهو يتبرأ من أن يكون شاكرًا أبدًا، وهو **(إشارة إلىٰ حال من أحوال القلب علىٰ الخصوص)** ويقرُب منه قول يحيىٰ بن معاذ: لستَ بشاكر ما دمت تشكر، وغاية الشكر التحيُّر[١] **(وهؤلاء)** السادة **(أقوالهم تعرب)** أي تفصح **(عن أحوالهم)** التي هي ثمرات أعمالهم **(فلذلك تختلف أجوبتهم ولا تتفق، ثم قد يختلف جواب كل واحد في حالين)** مختلفين **(لأنهم لا يتكلمون إلا عن حالتهم الراهنة)** أي الثابتة في الحال **(الغالبة عليهم)** في الوقت **(اشتغالاً بما يهمُّهم عمَّا لا يهمُّهم، أو يتكلمون بما يرونه لائقًا بحال السائل اقتصارًا)** منهم **(علىٰ ذِكر القدْر الذي يحتاج إليه وإعراضًا عمَّا لا يحتاج إليه)** فمن ذلك قول بعضهم: حقيقة الشكر نطق القلب وإقراره بإنعام الرب. وقيل: هو الاستقامة في عموم الأحوال. وقال أبو عثمان: الشكر: معرفة العجز عن الشكر. وقال رُوَيم: الشكر: استفراغ الطاقة. وقيل: الشكر: التلذُّذ بثنائه علىٰ ما لم يستوجبه من عطائه. وقيل: هو قيدُ موجودٍ وصيدُ مفقودٍ. وقيل: هو الغَيبة عن الشكر برؤية المنعم **(فلا ينبغي أن تظن أن ما ذكرناه طعنٌ عليهم وأنه لو عُرِضت عليهم مَجامِع المعاني التي شرحناها كانوا ينكرونها، بل لا يُظَن ذلك بعاقل أصلاً، إلا أن تعرِض[٢] منازعةٌ من حيث اللفظ في أن اسم «الشكر» في وضع اللسان)** الذي هو الكشف والإظهار **(هل يشمل جميعَ المعاني)** المذكورة **(أو يتناول بعضًا مقصودًا)** بالذات **(وبقية المعاني تكون من توابعه ولوازمه، ولسنا نقصد في هذا الكتاب شرح موضوعات اللغات فليس ذلك من علم طريق الآخرة في شيء. والله الموفِّق برحمته)**.

---

(١) ذكره الكلاباذي في التعرف لمذهب أهل التصوف ص ١١٧، وقال: «وذلك أن الشكر نعمة من الله يجب الشكر عليها، وهذا لا يتناهىٰ».

(٢) في ط المنهاج ٧/ ٢٨٧: تفرض. بضم التاء أو فتحها، وسكون الفاء، وفتح أو كسر الراء، وفي أ، وب بلا نقط فلم أتبينها.

بيان طريق كشفِ الغطاء عن الشكر في حق الله تعالىٰ

اعلمْ أنه (لعلَّك يخطر ببالك) ويسبق إلىٰ ذهنك (أن الشكر إنما يُعقَل في حق منعم هو صاحب حظٍّ في الشكر) ينتفع به (فإنَّا نشكر الملوك إما بالثناء ليزيد محلُّهم في القلوب ويظهر كرمُهم عند الناس فيزيد به صيتُهم وجاههم، أو بالخدمة التي هي إعانة لهم علىٰ بعض أغراضهم، أو بالمثول بين أيديهم في صورة الخدم وذلك تكثير لسوادهم) أي جماعتهم (وسبب لزيادة جاههم، فلا نكون شاكرين لهم إلا بشيء من ذلك، وهذا مُحال في حق الله تعالىٰ من وجهين:

أحدهما: أن الله تعالىٰ منزَّه عن الحظوظ والأغراض[1]، مقدَّس عن الحاجة إلىٰ الخدمة والإعانة وعن نشر الجاه والحشمة بالثناء والإطراء) في المدح (وعن تكثير سواد الخدم بالمثول بين يديه رُكَّعًا وسُجَّدًا، فشكرُنا إياه بما لا حظَّ له فيه يضاهي شكرنا الملك المنعم علينا بأن ننام في بيوتنا أو نسجد أو نركع؛ إذ لا حظَّ للملك فيه، وهو غائب لا عِلم له، ولا حظَّ لله تعالىٰ في أعمالنا كلِّها) لغِناه عنها.

(والوجه الثاني: أن كل ما نتعاطاه باختيارنا فهو نعمة أخرىٰ من نعم الله علينا؛ إذ جوارحنا وقدرتنا وإرادتنا ودواعينا وسائر الأمور التي هي أسباب حركتنا ونفس حركتنا من خلق الله تعالىٰ ونعمته، فكيف نشكر نعمة بنعمة؟ ولو أعطانا الملك مركوبًا فأخذنا مركوبًا آخر له وركبناه وأعطانا الملك مركوبًا آخر لم يكن الثاني شكرًا للأول منا، بل كان الثاني يحتاج إلىٰ شكر كما يحتاج الأول، ثم لا يمكن شكر الشكر إلا بنعمة أخرىٰ، فيؤدي إلىٰ أن يكون الشكر محالاً في حق الله تعالىٰ

---

(١) إذا استلزم هذا نفي الحكمة فهو باطل، وانظر: مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية ٨/ ١٤٥- ١٤٧، وشفاء العليل لابن القيم ص٤١٧ وما بعدها (ط دار التراث).

من **هذين الوجهين)** أما الوجه الأول فظاهر، وأما الثاني فلأنه يستلزم أن لا يتناهىٰ **(ولسنا نشكُّ في الأمرين جميعًا، والشرع قد ورد به)** فإنه قد ثبت كلٌّ من تقديس الله تعالىٰ عن الحظوظ والأغراض وتنزيهه عن الاحتياج إلىٰ الإعانة وتكثير السواد، وأن جميع حركاتنا وسكناتنا من خلق الله تعالىٰ ومن نعمه علينا **(فكيف السبيل إلىٰ الجمع؟ فاعلمْ أن هذا الخاطر قد خطر لداود** عليه السلام**، وكذلك لموسىٰ** عليه السلام **فقال: يا رب، كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك)** وفي القوت: وفي أخبار موسىٰ وداود عليهما السلام: يا رب، كيف أشكرك وأنا لا أستطيع شكرك إلا بنعمة ثانية من نِعمك؟ **(وفي لفظ آخر: وشكري لك نعمة أخرىٰ منك توجب عليّ الشكر لك. فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه: إذا عرفتَ هذا فقد شكرتني. وفي لفظ آخر: إذا عرفتَ أن النعم مني)** فقد **(رضيتُ منك بذلك شكرًا)** هذا كله لفظ القوت. ولفظ الرسالة: وقيل: قال داود عليه السلام: إلهي، كيف أشكرك وشكري لك نعمة من عندك توجِب شكرًا؟ فأوحىٰ الله إليه: الآن قد شكرتني.

(فإن قلتَ: فقد فهمتَ السؤال) أي سؤال موسىٰ عليه السلام **(وفهمي قاصر عن إدراك معنىٰ ما أوحي إليهم)** جوابًا لسؤالهم **(فإني أعلم استحالة الشكر لله تعالىٰ، فأما كون العلم باستحالة الشكر شكرًا فلا أفهمه، فإنَّ هذا العلم أيضًا نعمة منه، فكيف صار شكرًا؟ وكأنَّ الحاصل يرجع إلىٰ أنَّ مَن لم يشكر فقد شكر)** وهو غير ظاهر **(وأن قبول الخلعة الثانية من الملك شكرٌ للخلعة الأولىٰ، والفهم قاصر عن درك السر فيه)** لدقَّته وغموضه **(فإن أمكن تعريفُ ذلك بمثال فهو مهمٌّ في نفسه. فاعلمْ أن هذا قرعُ بابٍ من)** أبواب **(المعارف)** الذوقية **(وهي أعلىٰ من علوم المعاملة)** لتعلُّقها بعالم الغيب، ولا يليق كشفُ أسرارها **(ولكنا نشير منها إلىٰ ملامح)** وإشارات **(ونقول: ههنا نظران: نظرٌ بعين التوحيد المحض، وهذا النظر يعرِّفك قطعًا أنه الشاكر وأنه المشكور)** فأما كونه المشكور فظاهر، وأما كونه الشاكر فإنه هو الموفِّق لعبيده لأن يشكروا، وهو الذي ألهمَ علىٰ ألسنتهم وقلوبهم

الثناءَ له، فبهذا الاعتبار يسمَّىٰ شاكرًا **(وإنه المحب وإنه المحبوب)** كما يشير لذلك قوله تعالىٰ: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] **(وهذا نظرُ مَن عرف أنه ليس في الوجود غيره، وأن كل شيء هالك إلا وجهه، وأن ذلك صِدقٌ في كل حال أزلاً وأبدًا)** وهذا[١] النظر لمَن ترقَّىٰ من حضيض المجاز إلىٰ ذروة الحقيقة واستكمل مِعراجه فرأىٰ بالمشاهدة العيانية أنْ ليس في الوجود إلا الله وأن كل شيء هالك إلا وجهه، لا أنه يصير هالكًا في وقت من الأوقات، بل هو هالك أزلاً وأبدًا، لا يُتصور إلا كذلك **(لأن الغير هو الذي يُتصور أن يكون له بنفسه قوام، ومثل هذا الغير)** أن اعتُبِر في ذاته من حيث ذاته فـ **(لا وجود له، بل هو)** عدم محض و**(محال أن يوجَد)** وإذا اعتُبِر من الوجه الذي يسري إليه الوجود من الأول [الحق] رُؤيَ موجودًا لا في ذاته لكن من الوجه الذي يلي موجِده، فيكون الموجود وجه الله فقط، فلكل شيء وجهان: وجه إلىٰ نفسه، ووجه إلىٰ ربه. فهو باعتبار وجه نفسه عدمٌ، وباعتبار وجه الله موجود، فإذًا لا موجود إلا الله ووجهه، فإذًا كل شيء هالك إلا وجهه أزلاً وأبدًا. وقد أشار إليه المصنف بقوله: **(إذ الموجود المحقَّق هو القائم بنفسه)** أو بذاته **(وما ليس له بنفسه قوام فليس له بنفسه وجود، بل هو قائم بغيره، فهو موجود بغيره، فإن اعتُبر ذاته ولم يلتفت إلىٰ غيره لم يكن له وجود البتَّة، وإنما الموجود هو القائم بنفسه، والقائم بنفسه هو الذي لو قُدِّر عدم غيره بقي موجودًا، فإن كان مع قيامه بنفسه يقوم بوجوده وجود غيره فهو قيُّوم)** وبيان ذلك: أن[٢] الأشياء تنقسم إلىٰ ما لا يقوم بنفسه ويفتقر إلىٰ محل كالأعراض والأوصاف فيقال فيها إنها ليست قائمة بأنفسها، وإلىٰ ما لا يحتاج إلىٰ محل فيقال إنه قائم بنفسه كالجواهر، إلا أن الجوهر وإن استغنىٰ عن محل يقوم به فليس مستغنيًا عن أمور لا بد منها لوجوده وتكون شرطًا في وجوده فلا يكون قائمًا بنفسه؛ لأنه محتاج في قوامه إلىٰ وجود غيره وإن لم يحتجْ مع ذلك إلىٰ محل، فإن كان موجودًا يكفي ذاتَه بذاته ولا قوام

---

(١) مشكاة الأنوار ص ٥٨.

(٢) المقصد الأسنىٰ ص ١٤٣.

له بغيره ولا يُشترط في دوام وجوده وجودُ غيره فهو القائم بنفسه مطلقًا، فإن كان مع ذلك يقوم به كلُّ موجود حتىٰ لا يُتصور للأشياء وجود ولا دوام وجودٍ إلا به فهو القيُّوم؛ لأن قوامه بذاته، وقوام كل شيء به (**ولا قيُّوم إلا واحد، ولا يُتصور أن يكون غير ذلك، فإذًا ليس في الوجود غير الحي القيوم، وهو الواحد الصمد**) الفرد الأحد جلَّ شأنُه (**فإن نظرتَ من هذا المقام عرفتَ أن الكل منه مصدره وإليه مرجعه، فهو الشاكر، وهو المشكور، وهو المحب، وهو المحبوب**) فإنك[١] إن نظرتَ إلىٰ معنىٰ الثناء فثناء كل مُثْنٍ علىٰ فعل غيره، والله تعالىٰ إذا أثنىٰ علىٰ أعمال عباده فقد أثنىٰ علىٰ فعل نفسه؛ لأن أعمالهم من خلقه، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦] فإن كان الذي أعطىٰ فأثنىٰ شكورًا فالذي أعطىٰ وأثنىٰ علىٰ المعطي أحق بأن يكون شكورًا (**ومن ههنا نظر حبيب بن أبي حبيب**) البَجَلي البصري، أبو عمرو، نزيل الكوفة، تقدَّم ذِكره (**حيث قرأ**) قوله تعالىٰ: (﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: ٤٤] **فقال: واعجباه! أعطىٰ وأثنىٰ**)[٢] فهذا ثناء الله علىٰ عباده، وهو (**إشارة إلىٰ أنه إذا أثنىٰ علىٰ إعطائه فعلىٰ نفسه أثنىٰ، فهو المثني، وهو المثنَىٰ عليه. ومن ههنا نظر الشيخ أبو سعيد**) الفضل[٣] بن أحمد بن محمد، المعروف بابن أبي الخير (**المِيْهَني**) صاحب كرامات، حدَّث عن أبي علي زاهر بن أحمد السرخسي، وعنه أبو القاسم سلمان بن ناصر الأنصاري، مات بميهنة - وهي بكسر الميم[٤] وسكون المثناة التحتية وهاء مفتوحة ونون: قرية بخابران بين سرخس وأبيورد - سنة ٤٤٠ (**حيث قُرئ بين يديه**) قوله تعالىٰ: (﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ **فقال: لعَمْري يحبهم، ودَعْه يحبهم، ودَعْهم يحبونه، فبحقٍّ يحبهم؛ لأنه إنما يحب نفسه**) فهو قد (**أشار به إلىٰ أنه المحب وأنه المحبوب**)

---

(١) السابق ص ١١٤.

(٢) تقدم هذا الأثر مع التعريف بحبيب بن أبي حبيب في أوائل كتاب الصبر والشكر.

(٣) لباب الأنساب لابن الأثير ٣/ ٢٨٥.

(٤) وضبطها ياقوت في معجم البلدان ٥/ ٢٤٨ بفتح الميم.

وفي تقديم «يحبهم» إشارة إلىٰ أنه لولا سَبْق محبته لنا لَما أحببناه **(وهذه رتبة عالية لا تفهمها إلا بمثال علىٰ حدِّ عقلك، فلا يخفَىٰ عليك أن المصنِّف إذا أحب تصنيفه فقد أحب نفسه، والصانع إذا أحب صنعته فقد أحب نفسه، والوالد إذا أحب ولده من حيث إنه ولده فقد أحب نفسه، وكل ما في الوجود سوىٰ الله تعالىٰ فهو تصنيف الله وصنعته)** بيد قدرته وبديع حكمته **(فإن أحبَّه فما أحب إلا نفسه)** بهذا الاعتبار **(فإذًا لا يحب إلا نفسه، فبحقٍّ أحب ما أحبَّ)** وهو يفتح بابًا عظيمًا من علوم المكاشفة **(وهذا كله نظرٌ بعين التوحيد)** المحض، وهو الذي أشار إليه حبيب بن أبي حبيب وأبو سعيد الميهني **(وتعبِّر الصوفية عن هذه الحالة بـ «فناء النفس»، أي فنيَ عن نفسه وعن غير الله فلم يرَ إلا الله تعالىٰ)** وذلك عند استيلاء أمر الحق سبحانه عليه، فيغلب كونُ الحق علىٰ كونه فيسلب عنه اختياره وإرادته فلا يرىٰ للغير وجودًا إلا بالحق[١] **(فمَن لا يفهم هذا)** ولا يذوقه **(ينكر عليهم)** بجمود ذهنه **(ويقول: كيف فنيَ وطول ظلِّه[٢] أربعة أذرع، ولعله يأكل في كل يوم عدَّة أرطال من الخبز[٣])** ويشرب كذا وكذا من الماء **(فيضحك عليهم الجُهَّال لجهلهم بمعاني كلامهم)** وغفلتهم عن أحوالهم **(وضرورة [قول][٤] العارفين أن يكونوا ضُحكة للجاهلين)** أي يكونوا ممَّن يُضحك عليهم **(وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ۝٢٩﴾)** أي[٥] يستهزئون **(﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠﴾)** أي يغمز بعضهم بعضًا ويشيرون بأعينهم **(﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ۝٣١﴾)** أي ملتذِّين بالسخرية [منهم] **(﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟**

---

(١) عوارف المعارف للسهروردي ٢/ ٣١٢.

(٢) في أ، وب، وط المنهاج ٧/ ٢٩١: ظلله. والظلل: الشخص، أو شخص كل شيء. وانظر: تاج العروس ٢٩/ ٣٨٠.

(٣) في الجميع: أرطالًا من الخبز.

(٤) في أ، وب، وط المنهاج ٧/ ٢٩١ بدونها.

(٥) أنوار التنزيل للبيضاوي ٥/ ٢٩٦.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝٣٢﴾) فنسبوهم إلىٰ الضلال (﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾) أي علىٰ المؤمنين (﴿حَٰفِظِينَ ۝٨١﴾) يحفظون عليهم أعمالهم ويشهدون برشدهم وضلالهم (**ثم بيَّن أن ضحك العارفين عليهم غدًا أعظم؛ إذ قال تعالىٰ:** ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ۝٣٤﴾) حين يرونهم أذِلاَّء مغلولين في النار، وقيل: يُفتَح لهم باب إلىٰ الجنة فيقال لهم: اخرجوا إليها، فإذا وصلوا أُغلِق دونهم، فيضحك المؤمنون منهم حال كونهم (﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٣٥ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝٣٦﴾ [المطففين: ٢٩ - ٣٦].

وكذلك أمّة نوح عليه السلام) لما أراد الله إهلاكهم بالغرق وأمر نوحًا عليه السلام بعمل السفينة (**كانوا يضحكون عليه عند اشتغاله بعمل السفينة**) ويستهزئون به (**فقال**) عليه السلام: (﴿إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ۝٣٨﴾ [هود: ٣٨] **فهذا أحد النظرين**) المذكورين.

(**النظر الثاني: نظرُ مَن لم يبلغ إلىٰ مقام الفناء عن نفسه، وهؤلاء قسمان: قسم لم يُثبِتوا إلا وجود أنفسهم، وأنكروا أن يكون لهم رب يُعبَد، وهؤلاء هم العميان المنكوسون**) المحجوبون بمحض الظُّلمة (**وعماهم في كلتَي العينين؛ لأنهم نفوا ما هو الثابت تحقيقًا، وهو القيُّوم**) المطلق (**الذي هو قائم بنفسه وقائم علىٰ كل نفس بما كسبت، وكل قائم فهو قائم به، ولم يقتصروا علىٰ هذا حتىٰ أثبتوا أنفسهم، ولو عرفوا لعلموا أنهم من حيث هم [هم][1] لا ثبات لهم**) ولا دوام لوجودهم، بل (**ولا وجود لهم، وإنما وجودهم من حيث أُوجِدوا**) من الوجه الذي يلي الموجِد (**لا من حيث وُجِدوا، وفرقٌ بين الموجود**) بنفسه (**وبين الموجَد**) بإيجاد غيره (**وليس في الوجود إلا موجود واحد وموجَد، فالموجود حق، والموجَد باطل من حيث هو هو، والموجود قائم وقيُّوم، والموجَد هالك وفانٍ، وإذا كان كل مَن عليها فانيًا**) وزائلاً مضمحلاًّ أزلاً وأبدًا (**فلا يبقىٰ إلا وجه ربِّك ذو الجلال والإكرام. الفريق الثاني ليس**

---

(١) زيادة من الجميع.

بهم عمًىٰ، ولكن بهم عور؛ لأنهم يبصرون بإحدىٰ العينين وجودَ الموجود الحق فلا ينكرونه، والعين الأخرىٰ إن تمَّ عَماها لم يبصر بها فناءَ غير الموجود الحق فأثبتَ موجودًا آخر مع الله تعالىٰ، وهذا مشرك تحقيقًا) لأنه أشرك مع الله تعالىٰ موجودًا آخر (كما كان الذي قبله جاحدًا تحقيقًا) لأنه جحد ما هو الحق الثابت (فإن جاوز حدَّ العمىٰ إلىٰ العَمَش) وهو ضعفُ البصر بسيلان الدمع (أدرك تفاوتًا بين الموجودينِ فأثبت عبدًا وربًّا) وقسَّم الموجود إلىٰ واجب وممكن (فبهذا القدْر من إثبات التفاوت) بين الموجودينِ (والبعض من الموجود الآخَر دخل في حدِّ التوحيد) أي أوائله (ثم إن كحَّل بصره بما يزيد في أنواره فيقلُّ عمشُه) وسيلان دمعه (وبقدْر ما يزيد في بصره يظهر له نقصان ما أثبته سوىٰ الله تعالىٰ، فإن بقي في سلوكه كذلك فلا يزال يفضي به النقصانُ إلىٰ المحو، فينمحي عن رؤية ما سوىٰ الله تعالىٰ، فلا يرىٰ) في الوجود إلا الله تعالىٰ، فيكون) بذلك (قد بلغ كمالَ التوحيد) فإذًا كمال التوحيد: المحو عن رؤية ما سوىٰ الله تعالىٰ ذاتًا وفعلاً (وحيث أدرك نقصًا في وجود ما سوىٰ الله تعالىٰ دخل في أوائل التوحيد، وبينهما درجات لا تُحصَىٰ، فبهذا تتفاوت درجات الموحِّدين) وتختلف مشاربهم وأذواقهم (وكتبُ الله المنزَّلة علىٰ ألسنة رسله هي الكحل الذي تحصل به أنوار الأبصار) وبهذا الاعتبار سُمِّيت أنوارًا (والأنبياء) عليهم السلام (هم الكَحَّالون، وقد جاؤوا داعينَ إلىٰ التوحيد المحض، وترجمته قول لا إله إلا الله) الدالَّة علىٰ التوحيد (ومعناه) في الحقيقة (أن لا يرىٰ إلا الواحد الحق) ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ۝٩١﴾ [الأنعام: ٩١] (والواصلون إلىٰ كمال التوحيد هم الأقلُّون، والجاحدون والمشركون أيضًا قليلون، وهم علىٰ الطرف الأقصىٰ المقابل لطرف التوحيد؛ إذ عَبَدة الأوثان قالوا: ما نعبدهم إلا ليقرِّبونا إلىٰ الله زُلفىٰ. فكانوا داخلين في أوائل أبواب التوحيد دخولاً ضعيفًا) بهذا الخيال القائم في أذهانهم (والمتوسِّطون هم الأكثرون، وفيهم مَن تنفتح بصيرته في بعض الأحوال) والأحيان (فتلوح له حقائقُ التوحيد ولكن كالبرق الخاطف) يذهب سريعًا و(لا يثبُت) فهو أشبهُ شيء بالأحوال (وفيهم مَن يلوح له ذلك ويثبُت

زمانًا) فيكون أشبه شيء بالمقامات (ولكن لا يدوم، والدوام فيه عزيز) كما قيل:

(لـكل إلـىٰ شـأو العـلا حـركاتٌ ولكـن عزيـز في الرجـال ثبـات)[1]

ولما أمر الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ بطلب القرب فقيل له: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾) [العلق: ١٩] أي دُمْ علىٰ سجودك وتقرَّبْ من ربِّك. وقال مجاهد: أقربُ ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، ألا تسمعونه يقول: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾. أخرجه عبد الرزاق[2] وسعيد بن منصور[3] وابن المنذر. ولما سجد (قال في سجوده: أعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيتَ علىٰ نفسك) رواه مسلم من حديث عائشة بلفظ: «أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك ...» والباقي سواء، وقد تقدم[4] (فقوله «أعوذ بعفوك من عقابك» كلام عن مشاهدة فِعل الله فقط، فكأنَّه لم يرَ إلا الله وأفعاله فاستعاذ بفعله من فعله) وهذا[5] قسم من الفناء المطلق[6]، وهو أن يتجلَّىٰ الحق لعبده بطريق الأفعال ويسلب عنه اختيارَه وإرادته فلا يرىٰ لنفسه ولا لغيره فعلاً إلا بالحق (ثم اقترب ففني عن مشاهدة الأفعال وترقَّىٰ إلىٰ مصادر الأفعال وهي الصفات فقال: أعوذ برضاك من سخطك، وهما) أي الرضا والسخط (صفتان) من صفات الله تعالىٰ (ثم رأىٰ ذلك نقصانًا في التوحيد فاقترب فرقىٰ من مقام مشاهدة الصفات إلىٰ مشاهدة الذات فقال: أعوذ بك منك. وهذا فرار منه إليه من غير رؤية فعلٍ وصفة، ولكنه رأىٰ نفسه فارًّا منه إليه ومستعيذًا ومثنيًا ففنيَ عن

(١) البيت لأبي القاسم عبد الواحد بن محمد بن الحريش الأصفهاني، كما ذكره الثعالبي في يتيمة الدهر ٥/ ١٣٦ (ط - دار الكتب العلمية).

(٢) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٣٨٥.

(٣) تفسير سعيد بن منصور ٨/ ٣٨٨.

(٤) في كتاب آداب تلاوة القرآن، وفي كتاب الأذكار والدعوات.

(٥) عوارف المعارف ص ٣٦٣.

(٦) ويسمىٰ: الفناء الظاهر.

مشاهدة نفسه؛ إذ رأىٰ ذلك نقصانًا، فاقترب فقال: **أنت كما أثنيتَ علىٰ نفسك، لا أحصي ثناء عليك)** أي[1] إني لا أحيط بمحامدك وصفات إلهيَّتك، وإنما أنت المحيط بها وحدك (**فقوله «لا أحصي» خبرٌ عن فناء نفسه وخروجه عن مشاهدتها، وقوله «أنت كما أثنيتَ علىٰ نفسك» بيان أنه المثني وهو المثنَىٰ عليه**) وهو الذي أشار إليه الصدِّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حيث قال: العجز عن درك الإدراك إدراكٌ (**وأن الكل منه بدأ وإليه يعود، وأن كل شيء هالك إلا وجهه**) وأنه لا يحظىٰ مخلوقٌ من ملاحظة حقيقة ذاته إلا بالحيرة والدهشة (**فكان أول مقامه**) ﷺ (**نهاية مقام الموحِّدين، وهو أن لا يرىٰ**) في الوجود (**إلا الله وأفعاله، فيستعيذ بفعل من فعل. فانظر إلىٰ ماذا انتهت نهايته؛ إذ انتهىٰ إلىٰ الواحد الحق حتىٰ ارتفع من نظره ومشاهدته سوىٰ الذات الحق**) وهذا المقام غاية ما ينتهي إليه مَن تمَّ له مقام الفناء المطلق (**ولقد كان** ﷺ **لا يرقَىٰ من رتبة إلىٰ أخرىٰ إلا ويرىٰ الأولىٰ بعدًا**) من الله تعالىٰ (**بالإضافة إلىٰ الثانية، فكان يستغفر الله تعالىٰ من الأولىٰ، ويرىٰ ذلك نقصًا في سلوكه وتقصيرًا في مقامه**) وهو من باب: حسنات الأبرار سيئات المقرَّبين (**وإليه الإشارة بقوله** ﷺ: **إنه لَيغانُ علىٰ قلبي حتىٰ أستغفرُ الله في اليوم والليلة سبعين مرة**) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي وابن حبان من حديث الأغر بن يسار المزني بلفظ: «إنه لَيُغانُ علىٰ قلبي، وإني لأستغفرُ الله في اليوم مائة مرة»، وقد تقدم في كتاب التوبة، وقبله في كتاب الدعوات (**فكان ذلك لترقِّيه إلىٰ سبعين مقامًا بعضها فوق البعض أوائلها وإن كان مجاوزًا أقصىٰ غايات الخلق ولكن كان نقصًا بالإضافة إلىٰ أواخرها، فكان استغفاره لذلك**) وقد تقدم الكلام عليه.

(**ولمَّا قالت عائشة** رَضِيَ اللهُ عَنْهَا) للنبي ﷺ: (**أليس قد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر؟ فما هذا البكاء في السجود؟ وما هذا الجهد الشديد؟ فقال: أفلا أكون عبدًا شكورًا**)؟ رواه[2] أبو الشيخ الأصبهاني في كتاب أخلاق النبي ﷺ، وهو بقية

---

(١) المقصد الأسنىٰ ص ٥٤.

(٢) المغني للعراقي ٢/ ١٠٢٢.

حديث عطاء عنها المتقدِّم قبل هذا بتسعة أحاديث، وهو عند مسلم من رواية عروة عنها مختصرًا، وهو كذلك في الصحيحين[1] مختصرًا من حديث المغيرة ابن شعبة.

وقوله[2] «أفلا» الفاء للسببية عن محذوف، أي أأترك تلك الكُلفة نظرًا إلىٰ تلك المغفرة فلا أكون عبدًا شكورًا؟! لا، بل ألزمُها وإن غُفر لي لأكون عبدًا شكورًا، فالمعنىٰ أن المغفرة سبب لكون ذلك التكلُّف شكرًا فكيف أتركه؟ بل أفعله لأكون مبالغًا في الشكر بحسب الإمكان البشري، ومن ثَم أتىٰ بلفظ العبودية؛ لأنها أخَصُّ أوصافه ﷺ، ولذا ذكرها تعالىٰ في أعلىٰ المقامات وأفضل الأحوال؛ إذ هي مقتضَىٰ [صحة] النسبة المستلزِمة للقيام بأعلىٰ الخدمة وهو الشكر؛ إذ العبد إذا لاحظ كونَه عبدًا وأن مالكه مع ذلك أنعم عليه بما لم يكن في حسابه علم تأكُّد وجوب الشكر والمبالغة فيه عليه، أو (**معناه: أفلا أكون طالبًا للمزيد في المقامات، فإن الشكر سبب الزيادة، حيث قال تعالىٰ**: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾) [إبراهيم: ٧] وقد تقدم قريبًا، وقيل: تقدير الكلام: إذا أنعم عليَّ بالإنعام الواسع أفلا أكون عبدًا شكورًا؟ أي أيصير هذا الإنعام سببًا لخروجي عن دائرة المبالغين في الشكر؟ والاستفهام لإنكار سببية مثل هذا الإنعام لعدم كونه عبدًا شكورًا. ولا يخفَىٰ تكلُّفه. ويصحُّ أن يكون التقدير: غفر لي ما تقدم وما تأخر لعِلمه بأني أكون مبالغًا في عبادته فأكون عبدًا شكورًا، أفلا أكون كذلك؟ وهذا أقرب من الأول.

(**وإذ**) قد (**تغلغلنا في بحار**) علوم (**المكاشفة فلنقبض العنان ولنرجع إلىٰ ما يليق بعلوم المعاملة فنقول: الأنبياء عليهم السلام بُعثوا لدعوة الخلق إلىٰ كمال التوحيد الذي وصفناه**) آنفًا (**ولكن بينهم وبين الوصول إليه مسافة بعيدة وعقبات شديدة، وإنما الشرع كله**) من أوله إلىٰ آخره (**تعريف طريق سلوك تلك المسافة وقطعِ تلك العقبات، وعند ذلك يكون النظر عن مشاهدة أخرىٰ ومقام آخر، فيظهر**

(١) صحيح البخاري ١/ ٣٥٢، ٣/ ٢٩٣، ٤/ ١٨٦. صحيح مسلم ٢/ ١٢٩٧.

(٢) أشرف الوسائل إلىٰ شرح الشمائل ص ٣٧٢.

في ذلك المقام بالإضافة إلىٰ تلك المشاهدة الشكرُ والشاكر والمشكور، ولا تعرف ذلك إلا بمثال) يُضرَب لك (فأقول: يمكنك أن تفهم أن ملكًا من الملوك أرسل إلىٰ عبد قد بعُدَ عنه مركوبًا وملبوسًا ونقدًا) من المال (لأجل زادِه في الطريق حتىٰ يقطع به مسافة البعد ويقرُب من حضرة الملك، ثم تكون له حالتان، إحداهما: أن يكون قصدُه من وصول العبد إلىٰ حضرته أن يقوم) ذلك العبد (ببعض مهمَّاته ويكون له غناء في خدمته، والثانية: أن لا يكون للملك حظٌّ في العبد ولا حاجة به إليه، بل حضوره لا يزيد في مُلكه؛ لأنه لا يقوَىٰ علىٰ القيام بخدمة تغني فيه غناء، وغَيبته لا تُنقِص من مُلكه، فيكون قصدُه من الإنعام عليه بالمركوب والزاد أن يحظىٰ العبد بالقرب منه وينال سعادة حضرته لينتفع هو في نفسه لا لينتفع الملك به) وبانتفاعه (فمنزلة العباد من الله تعالىٰ في المنزلة الثانية لا في المنزلة الأولىٰ، فإنَّ الأولىٰ مُحال علىٰ الله تعالىٰ) لتنزيهه عن الافتقار والاحتياج إلىٰ مُعين (والثانية غير مُحال. ثم اعلمْ أن العبد لا يكون شاكرًا في الحالة الأولىٰ بمجرَّد الركوب والوصول إلىٰ حضرته ما لم يقُم بخدمته التي أرادها الملك منه، وأما في الحالة الثانية فلا يحتاج إلىٰ الخدمة أصلاً، ومع ذلك يُتصور أن يكون شاكرًا أو كافرًا، ويكون شكرُه بأن يستعمل ما أنفذه إليه مولاه فيما أحبَّه لأجله لا لأجل نفسه، وكفرُه أن لا يستعمل ذلك فيه بأن يعطِّله) أي يهمله (أو يستعمله فيما يزيد في بعده منه، فمهما لبس العبد الثوب وركب الفرس ولم ينفق الزاد إلا في الطريق) الذي يوصله إليه (فقد شكر مولاه؛ إذ استعمل نعمته في محبَّته، أي فيما أحبه لعبده لا لنفسه. وإن ركبه واستدبر حضرتَه وأخذ يبعُد منه فقد كفر نعمته، أي استعملها فيما كرهه مولاه لعبده لا لنفسه. وإن جلس ولم يركب لا في طلب القرب ولا في طلب البعد فقد كفر أيضًا نعمتَه) في هذه الصورة (إذ أهملها وعطَّلها، وإن كان هذا دون ما لو بعُد منه، فكذلك خلق الله سبحانه الخلق، وهم في ابتداء فِطرتهم يحتاجون إلىٰ الشهوات[1]) أي استعمالها (لتكمُل بها أبدانُهم فيبعدون بها من حضرته، وإنما

---

(١) في الجميع: إلىٰ استعمال الشهوات.

سعادتهم في القرب منها، فأعدَّ لهم من النعم ما يقدرون علىٰ استعماله في نيل درجة القرب. وعن بعدهم وقربهم عبَّر تعالىٰ إذ قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية [التين: ٤ - ٦] فإذًا نِعمُ الله تعالىٰ آلات يترقَّىٰ العبد بها عن أسفل السافلين، خلقها الله تعالىٰ لأجل العبد حتىٰ ينال بها سعادة القرب، والله تعالىٰ غنيٌّ عنه قرُبَ أم بعُدَ، والعبد فيها بين أن يستعملها في الطاعة فيكون قد شكره لموافقته محبَّة مولاه وبين أن يستعملها في معصيته فقد كفره لاقتحامه ما يكرهه مولاه ولا يرضاه له، فإنَّ الله تعالىٰ لا يرضىٰ لعباده الكفرَ والمعصية) كما هو نص القرآن (وإن عطَّلها) وأهملها (ولم يستعملها في طاعته ولا معصيته فهو أيضًا كفران للنعمة بالتضييع، وكل ما خُلق في الدنيا إنما خُلق آلة للعبد ليتوصل به إلىٰ سعادة الآخرة ونيل القرب من الله تعالىٰ، فكل مطيع فهو بقدر طاعته شاكر نعمة الله في الأسباب التي استعملها في الطاعة، وكل كسلان ترك الاستعمال أو عاصٍ استعملها في طريق البعد) عن حضرة الله تعالىٰ (فهو كافر جارٍ في غير محبَّة الله تعالىٰ، فالمعصية والطاعة تشملهما المشيئةُ) الأزلية (ولكن لا تشملهما المحبةُ والكراهة، بل رُب مرادٍ محبوبٌ، ورُب مرادٍ مكروهٌ) وقد تقدم شيء من ذلك في كتاب قواعد العقائد (ووراء بيان هذه الدقيقة سر القدَر الذي مُنع من إفشائه) وإظهاره، وروىٰ الطبراني من حديث ابن مسعود: «إذا ذُكر القدَر فأمسِكوا»، وسيأتي قريبًا (وقد انحلَّ بهذا) الذي أوردناه (الإشكالُ الأول وهو أنه إذا لم يكن للمشكور حظٌّ فكيف يكون الشكر؟ وبهذا أيضًا ينحلُّ) الإشكال (الثاني، فإنَّا لم نعنِ بالشكر إلا انصراف نعمة الله في جهة محبَّة الله تعالىٰ، فإذا انصرفت النعمة في جهة المحبة بفعل الله تعالىٰ فقد حصل المراد، وفعلُك عطاء من الله تعالىٰ، ومن حيث أنت محلُّه فقد أثنىٰ عليك، وثناؤه نعمة أخرىٰ منه إليك، فهو الذي أعطىٰ، وهو الذي أثنىٰ) كما بيَّنه قولُ حبيب بن أبي حبيب السابق ذِكره (وصار أحدُ فِعْلَيْه سببًا لانصراف فعله الثاني إلىٰ جهة محبَّته، فله الشكر علىٰ كل

حال، وأنت موصوف بأنك شاكر، بمعنىٰ أنك محل المعنىٰ الذي الشكر عبارة عنه، لا بمعنىٰ أنك موجِد له، كما أنك موصوف بأنك عارف وعالِم لا بمعنىٰ أنك خالق العلم وموجِده ولكن بمعنىٰ أنك محل له) ومَظهر لتجلِّيه (وقد وُجد بالقدرة الأزليَّة فيك، فوصفُك بأنك شاكر إثباتُ شيئيَّة لك، وأنت شيء) لثبوتك في الأعيان (إذ جعلك خالقُ الأشياء شيئًا، وإنما أنت لا شيء) في الحقيقة (إذ كنت أنت) في الأزل (ظانًّا لنفسك شيئية من ذاتك، فأما باعتبار النظر إلىٰ الذي جعل الأشياء أشياء) أي موجَدة في الأعيان (فأنت شيء؛ إذ جعلك شيئًا، فإن قطع النظر عن جعله شيئًا كنت لا شيء تحقيقًا، وإلىٰ هذا أشار ﷺ حيث قال: اعملوا، فكلٌّ ميسَّر لِما خُلِقَ له) أي[١] اعملوا بظاهر ما أُمِرتم، فكلُّ مَن خُلق مهيَّأ ومصروف لأمر خُلق ذلك المرء له، فلا يقدر البتَّة علىٰ عمل غيره. وهذا القول قاله (لمَّا قيل له: يا رسول الله ففيمَ العمل إذا كانت الأشياء قد فُرغ منها من قبل)[٢] رواه الطبراني[٣] من حديث ابن عباس وعمران بن حصين بلفظ: قال رجل: يا رسول الله، أنعمل فيما جرت به المقادير وجفَّ به القلمُ أو شيء نستأنفه؟ فقال: «بل فيما جرت به المقاديرُ وجفَّ به القلم». قال: ففيمَ العمل؟ قال: اعملوا ... الخ. ورجاله ثقات.

وروىٰ الشيخان[٤] من حديث عليٍّ قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتانا النبيُّ ﷺ فقعد، وقعدنا حوله، ومعه مِخْصَرة، فنكس وجعل ينكت بمِخْصَرته، ثم قال: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة». فقالوا: يا رسول الله، أفلا نتَّكل علىٰ ما كُتِب؟ فقال: «اعملوا، فكلٌّ ميسَّر لِما خُلِقَ له».

(فبيَّن) ﷺ (أن الخلق مجاري قدر الله ومحل أفعاله وإن كانوا هم أيضًا

---

(١) فيض القدير ٢/ ١٢.

(٢) هو في صحيح مسلم من حديث جابر ٤/ ٢٠٤٠، ومن حديث عمران بن حصين بنحوه ٤/ ٢٠٤١.

(٣) المعجم الكبير ١١/ ١٨، ١٨/ ١٢٩ - ١٣١، ٢٢٣.

(٤) صحيح البخاري ١/ ٤١٩، ٣/ ٣٢٤ - ٣٢٦، ٤/ ١٣٢، ٢١٠، ٤١٧. صحيح مسلم ٢/ ١٢٢٢.

من أفعاله، ولكن بعض أفعاله محل للبعض، وقوله «اعملوا») من[١] الأسلوب الحكيم، منعهم عن الاتّكال وتركِ العمل، وأمرهم بإمساك ما يجب على العبد من امتثال أمر ربِّه وعبوديَّته عاجلاً وتفويض الأمر إليه آجلاً، يعني: أنتم عبيد، ولا بد لكم من العبودية، فعليكم بما أُمِرتم به، وإياكم والتصرُّف في الأمور الإلهية؛ لآية: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦] فلا تجعلوا العبادة وتركها سببًا مستقلاً لدخول الجنة والنار، بل هي أمارات وعلامات لها، ولا بد في الإيجاب من لطف الله أو خذلانه. وهذا القول (**وإن كان جاريًا على لسان رسول الله ﷺ فهو فعلٌ من أفعاله، وهو سبب لعلم الخلق بأن العلم**[٢] **نافع، وعلمُهم فعلٌ من أفعال الله تعالى، والعلم سبب لانبعاث داعية جازمة إلى الحركة والطاعة، وانبعاث الداعية أيضًا من أفعال الله تعالى، وهو سبب لحركة الأعضاء، وهي أيضًا من أفعال الله تعالى، ولكن بعض أفعاله سبب للبعض**، أي الأول شرط للثاني، **كما كان خلقُ**) جوهر (**الجسم سببًا لخلق العَرَض**) لأجل أن يقوم به (**إذ لا يُخلَق العَرَض قبله**) لعدم استقلاله بالقيام (و) كما كان (**خلقُ الحياة شرط لخلق العلم، وخلقُ العلم شرط لخلق الإرادة، والكل من أفعال الله تعالى، وبعضها سبب للبعض، أي هو شرط، ومعنى كونه شرطًا أنه لا يستعدُّ لقبول فعل الحياة إلا جوهر**[٣]**، ولا يستعدُّ لقبول**) صفة (**العلم إلا ذو حياة، ولا لقبول الإرادة إلا ذو علم، فيكون بعض أفعاله سببًا للبعض بهذا المعنى لا بمعنى أن بعض أفعاله موجِد لغيره**) كما يقوله مَن قال بالتولُّد[٤]، ويردُّ عليهم قولُه تعالى: ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم:

---

(١) شرح مشكاة المصابيح للطيبي ٢/ ٥٣٨.

(٢) في الجميع: العمل.

(٣) حقيقة الجوهر ما له حيز عند الوجود، والمتحيز ما يشغل قدرًا من الفراغ. انظر: التذكرة في أحكام الجواهر والأعراض لابن متويه ص٤٧ (ط دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة).

(٤) أول من قال به هو بشر بن المعتمر المعتزلي، وهو معدود من فضائحه. انظر: الفرق بين الفرق للبغدادي ص١١٩ (ط دار الثقافة الدينية)، والملل والنحل للشهرستاني ١/ ٦٤ (ط الحلبي).

٢٥] ففيه دليل علىٰ أنه لا يصدر منا فعلٌ من أفعالنا إلا وهو موجود بقدرته علىٰ ما قدَّرته مشيئتُه (بل ممهد شرط الحصول لغيره، وهذا إذا حُقِّق ارتقىٰ إلىٰ درجة التوحيد الذي ذكرناه) وهو توحيد الأفعال.

(فإن قلتَ: فلِمَ قال الله تعالىٰ) علىٰ لسان رسوله ﷺ: (اعملوا وإلا فأنتم معاقَبون ومذمومون علىٰ العصيان، وما إلينا شيء، فكيف نُذَمُّ وإنما الكل إلىٰ الله تعالىٰ؟ فاعلمْ أن هذا القول من الله سبب لحصول اعتقادٍ فينا، والاعتقاد سبب لهيجان الخوف، وهيجان الخوف سبب لترك الشهوات والتَّجافي) أي التباعُد (عن دار الغرور، وذلك سبب الوصول إلىٰ جوار الله تعالىٰ) في دار كرامته (والله تعالىٰ مسبِّب الأسباب ومرتِّبها) علىٰ أبدع نظام (فمَن سبقت له في الأزل السعادةُ) الموعودة (يسَّرَ له هذه الأسباب حتىٰ تقوده بسلسلتها إلىٰ الجنة) وفي نسخة: إلىٰ الخير (ويعبَّر عن مثله بأن كُلاًّ ميسَّر لِما خُلِقَ له، ومَن لم تسبق له من الله الحسنىٰ بعُدَ عن سماع كلام الله تعالىٰ وكلام رسوله ﷺ وكلام العلماء، فإذا لم يسمع لم يعلم، وإذا لم يعلم لم يَخَفْ، وإذا لم يخفْ لم يترك الركون إلىٰ الدنيا، وإذا لم يترك الركون إلىٰ الدنيا بقي في حزب الشيطان) فإذا صار في ذلك الحزب شمله قولُه تعالىٰ: (﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝﴾ [الحجر: ٤٣] فإذا عرفتَ هذا تعجَّبتَ من أقوام يُقادون إلىٰ الجنة بالسلاسل) يشير إلىٰ ما رواه أحمد[١] وأبو داود[٢] من حديث أبي هريرة: «عجبَ ربُّنا من قوم يُقادُون إلىٰ الجنة في السلاسل». وعند البخاري[٣]: «عجبَ الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل». وعند أبي نعيم في الحلية[٤]: «عجبتُ لأقوام يُقادون إلىٰ الجنة في السلاسل وهم كارهون». ورواه

(١) مسند أحمد ١٣/ ٣٨٨، ١٥/ ١٥٦، ٤٨٦، ٥٤٨.

(٢) سنن أبي داود ٣/ ٢٩٢.

(٣) صحيح البخاري ٢/ ٣٦١.

(٤) حلية الأولياء ٨/ ٣٠٧.

الطبراني[١] من حديث أبي أمامة بهذا اللفظ، إلا أنه قال: يُساقون (فما من أحد إلا وهو مَقُود إلىٰ الجنة بسلاسل الأسباب وهو تسليط العلم والخوف عليه، وما من مخذول إلا وهو مَقُود إلىٰ النار بالسلاسل وهو تسليط الغفلة والأمن والغرور عليه، فالمتَّقون يُساقون إلىٰ الجنة قهرًا، والمجرمون يُقادون إلىٰ النار قهرًا، ولا قاهر إلا الواحد القهَّار، ولا قادر إلا الملك الجبَّار) جلَّ شأنُه (فإذا انكشف الغطاء عن أعين الغافلين فشاهدوا الأمر كذلك سمعوا عند ذلك نداء المنادي: لمَن المُلك اليوم؟ لله الواحد القهَّار. ولقد كان المُلك لله الواحد القهَّار كل يوم لا ذلك اليوم علىٰ الخصوص) وقال في مشكاة الأنوار[٢] عند ذِكر حقيقة الحقائق: إن أهل المشاهدة العيانية لا يفتقرون إلىٰ قيام القيامة ليسمعوا نداء الباري: لمَن المُلك اليوم؟ لله الواحد القهَّار. بل هذا النداء لا يفارق سمعهم أبدًا (ولكن الغافلين لا يسمعون هذا النداء إلا ذلك اليوم، فهو نبأ عمَّا يتجدَّد للغافلين من كشف الأحوال حيث لا ينفعهم الكشفُ. فنعوذ بالله الحليم الكريم من الجهل والعماء، فإنه أصل أسباب الهلاك) الأبدي. والله الموفِّق بفضله.

---

(١) المعجم الكبير ٨/ ٣٤٠.

(٢) مشكاة الأنوار ص ٥٨.

بيان تميز ما يحبه الله تعالى عمَّا يكرهه

(اعلمْ) أرشدك الله تعالىٰ (أنَّ فِعل الشكر وترك الكفر لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله تعالىٰ عمَّا يكرهه؛ إذ معنىٰ الشكر استعمال نِعمه في مَحابِّه) ومراضيه. قال القشيري في الرسالة: سمعت [السلمي يقول: سمعت] محمد بن الحسين يقول: سمعت الحسن بن يحيىٰ يقول: سمعت جعفر بن نصير يقول: سمعت الجنيد يقول: كان السري إذا أراد أن ينفعني سألني، فقال لي يومًا: يا أبا القاسم، أَيْش الشكر؟ فقلت: أن لا يُستعان بشيء من نعم الله تعالىٰ علىٰ معاصيه. فقال: من أين لك هذا؟ فقلت: من مجالستك (ومعنىٰ الكفر نقيض ذلك) إذ حقيقته سترُ نعمة المنعم، فتركُ أداء شكرها (إما بترك الاستعمال) فيَدَعها معطَّلة (أو باستعماله) إيَّاها (في مَكارهه) ومَساخطه (ولتمييز ما يحبه الله تعالىٰ عمَّا يكرهه مَدركان، أحدهما: السمع، ومستنده الآيات والأخبار) من كلام الله تعالىٰ وكلام رسوله ﷺ (والثاني: بصيرة القلب وهو النظر بعين الاعتبار، وهذا الأخير عسير) صعب المنال (وهو لأجل ذلك عزيز) الوجود (فلذلك أرسل الله الرسل وسهَّل بهم الطريقَ علىٰ الخَلق، ومعرفة ذلك تنبني علىٰ معرفة جميع أحكام الشرع في أفعال العباد، فمَن لا يطَّلع علىٰ أحكام الشرع في جميع أفعاله لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلاً) لعدم إحاطته بجميع الأحكام (وأما الثاني - وهو النظر بعين الاعتبار - فهو إدراك حكمة الله تعالىٰ في كل موجود خلقه؛ إذ ما خلق شيئًا في العالَم إلا وفيه حكمة، وتحت الحكمة مقصود، وذلك المقصود هو المحبوب، وتلك الحكمة منقسمة إلىٰ جليَّة وخفيَّة، أما الجلية فكالعلم بأن الحكمة في خلق الشمس أن يحصل بها الفرق بين الليل والنهار، فيكون النهار معاشًا) أي ظرفًا للحركة في المعيشة، أي[1]

---

(١) أنوار التنزيل للبيضاوي ٥/ ٢٧٨.

وقتُ معاش يتقلّبون فيه لتحصيل المعيشة، أو حياة يُبعَثون فيها من النوم (والليل لباسًا) أي غطاءً يستر بظلمته مَن أراد الاختفاءَ (فتيسَّر الحركة عند الإبصار) بنور النهار (والسكون عند الاستتار) بظلمة الليل (فهذا من جملة حِكَم الشمس لا كل الحِكَم فيها، بل فيها حِكَمٌ أخرىٰ كثيرة دقيقة) لا يطَّلع عليها إلا أهل البصيرة (وكذلك معرفة الحكمة في الغيم) وهو السحاب المسخَّر بين السماء والأرض (ونزول الأمطار) منه (وذلك لانشقاق الأرض بأنواع النبات مطعمًا للخَلق ومرعىٰ للأنعام، وقد انطوىٰ القرآن علىٰ جملة من الحِكَم الجليَّة التي تحتملها أفهامُ الخلق دون الدقيق الذي يقصرون عن فهمه؛ إذ قال تعالىٰ) في تعداد النعم الخارجية: (﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾﴾) أي من السحب (﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾) أي[1] بالنبات أو بالكراب، وأسند الشقَّ إلىٰ نفسه، وهو من إسناد الفعل إلىٰ السبب (﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾﴾) كالحنطة والشعير (﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾﴾) يعني الرطبة (﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾﴾ الآية) وتمامها: ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس: ٢٤ - ٣٢] أي فإنَّ الأنواع المذكورة بعضها طعام وبعضها علفٌ (وأما الحكمة في سائر الكواكب السيَّارة منها) وهي السبعة التي تقطع الفَلَكَ (والثوابت) التي لا تسير (فخفيَّة لا يطَّلع عليها كافة الخلق، والقدْر الذي يحتمله فهمُ الخلق[2] أنها زينة للسماء لتستلذَّ العين بالنظر إليها، وأشار إليها قولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾) أي[3] القربىٰ منكم (﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾﴾) [الصافات: ٦] أي بزينة هي الكواكب، والإضافة للبيان، وتعضِّده قراءةُ مَن قرأ بتنوين «زينة» وجرِّ «الكواكب»[4] علىٰ إبدالها منه. وفي الآية وجوه أُخَر (فجميع أجزاء العالَم سماؤه

---

(١) السابق ٥/ ٢٨٨.

(٢) إن كان القدر الذي لا يحتمله فهم الخلق كمثل ما مر من قصة إبراهيم عليه السلام، فقد سبق رده، وهو نفسه رحمه الله تعالىٰ قد رده في فيصل التفرقة.

(٣) السابق ٥/ ٥.

(٤) قال ابن الجزري في النشر ٢/ ٣٥٦: «اختلفوا في «بزينة» فقرأ عاصم وحمزة بالتنوين، وقرأ الباقون بغير تنوين. واختلفوا في «الكواكب» فروىٰ أبو بكر بنصب الباء، وقرأ الباقون بخفضها».

وكواكبه ورياحه وبحاره وجباله ومعادنه ونباته وحيواناته وأعضاء حيواناته لا تخلو ذرَّة من ذرَّاته عن حِكَم كثيرة من حكمة واحدة إلىٰ عشرة إلىٰ ألف) وفي نسخة: من حكمة واحدة إلىٰ عشرة آلاف (وكذلك أعضاء الحيوان) وفي نسخة: الحيوانات (تنقسم إلىٰ ما تُعرَف حكمته كالعلم بأن العين للإبصار لا للبطش، واليد للبطش لا للمشي، والرِّجل للمشي لا للشم، فأما الأعضاء الباطنة من الأمعاء والمرارة والكبد والكِلْية وآحاد العروق) المختلفة (والأعصاب والعضلات وما فيها من التجاويف والالتفاف والاشتباك والانحراف) والالتواء (والدقة والغِلظ وسائر الصفات فلا يعرف الحكمة فيها كافة الناس، والذين يعرفونها) كأهل التشريح (لا يعرفون منها إلا قدرًا يسيرًا بالإضافة إلىٰ ما في علم الله تعالىٰ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء: ٨٥] فإذًا كل مَن استعمل شيئًا في جهة غير الجهة التي خُلق لها ولا علىٰ الوجه الذي أُريدَ به فقد كفر فيه نعمةَ الله تعالىٰ، فمَن ضرب غيره بيده فقد كفر نعمةَ اليد؛ إذ خُلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يهلكه ويأخذ ما ينفعه لا ليُهلِك بها غيرَه. ومَن نظر إلىٰ وجه غير مَحرم فقد كفر نعمةَ العين ونعمة الشمس؛ إذ الإبصار يتم بهما، وإنما خُلقتا ليبصر بهما ما ينفعه في دينه ودنياه ويتَّقي بهما ما يضرُّه فيهما، فقد استعملهما في غير ما أُريدتا له، وهذا لأن المراد من خلق الخلق وخلقِ الدنيا وأسبابها أن يستعين الخلق بها علىٰ الوصول إلىٰ الله تعالىٰ، ولا وصول إليه إلا بمحبَّته والأنس به في الدنيا والتَّجافي) أي التباعُد (عن غرور الدنيا، ولا أنس إلا بدوام الذكر، ولا محبَّة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر) والمراقبة لجلاله وكماله (ولا يمكن الدوام علىٰ الذكر والفكر إلا بدوام البدن) الذي هو بمنزلة المركب له (ولا يبقىٰ البدن إلا بالغذاء، ولا يتم الغذاء إلا بالأرض) في استقراره عليها (والماء والهواء) والغذاء في انتعاشه بها (ولا يتم ذلك إلا بخلق السماء والأرض وخلق سائر الأعضاء ظاهرًا وباطنًا، فكل ذلك لأجل) بقاء (البدن، والبدن مطيَّة النفس) تركب عليه وتستعين به إلىٰ الوصول إلىٰ الآخرة (والراجع إلىٰ الله

تعالىٰ هي النفس المطمئنة[١] **بطول العبادة والمعرفة)** كما يدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ [الفجر: ٢٧ - ٢٨] في أحد وجوه التفسير **(فلذلك قال الله تعالىٰ:** ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾) أي ليدوموا علىٰ العبادة والمعرفة **(فكل مَن استعمل شيئًا في غير طاعة الله فقد كفر نعمة الله تعالىٰ في جميع الأسباب التي لا بدَّ منها لإقدامه علىٰ تلك المعصية. ولنذكر مثالاً واحدًا للحِكَم الخفيَّة التي ليست في غاية الخفاء حتىٰ يُعتبَر بها ويُعلَم طريق الشكر والكفران علىٰ المنعم، فنقول: من)** جملة **(نِعم الله تعالىٰ خلقُ الدراهم والدنانير، وبهما قوام الدنيا)** وملاكها **(وهما حجران)** كسائر الحجارة **(لا منفعة في أعيانهما، ولكن يضطرُّ الخلق إليهما من حيث إن كل إنسان محتاج إلىٰ أعيان كثيرة في مطعمه وملبسه)** ومسكنه **(وسائر حاجاته)** اللازمة **(وقد يعجز عمَّا يحتاج إليه ويملك ما يستغني عنه، كمَن يملك الزعفران مثلاً وهو محتاج إلىٰ جمل يركبه، ومَن يملك الجمل ربما يستغني عنه)** في بعض الأحيان **(ويحتاج إلىٰ الزعفران)** لحاجة دعته إليه **(فلا بد بينهما من معاوضة، ولا بد في مقدار العوض من تقدير)** يُرجَع إليه **(إذ لا يبذل صاحب الجمل جمله بكل مقدار من الزعفران، ولا مناسبة بين الزعفران والجمل حتىٰ يعطي منه مثله في الوزن أو الصورة، وكذا مَن يشتري دارًا بثياب، أو عبدًا بخُفٍّ، أو دقيقًا بحمار، فهذه أشياء لا تناسُب فيها، فلا يُدرَىٰ أن الجمل كم يسوىٰ بالزعفران، فتتعذَّر المعاملات جدًّا)** ويشتبه أمرُها **(فافتقرت هذه الأعيان المتنافرة المتباعدة إلىٰ متوسط بينهما يحكم فيها بحكم عدلٍ)** وسطٍ **(فيُعرَف عن كل واحد رتبته ومنزلته، حتىٰ إذا تقرَّرت المنازل وترتَّبت الرتب عُلِمَ بعد ذلك المُساوي من غير المساوي، فخلق الله الدنانير والدراهم حاكمين متوسطين بين سائر الأموال حتىٰ تقدَّر الأموال بهما)** في المعاملات **(فيقال: هذا الجمل يسوىٰ**

---

(١) والنفس لا تنفصل عن البدن بحال، إذ هو مطية النفس كما قال الإمام، فالرجوع بهما معا، وكلام ابن سينا في الأضحوية ص١٢٦ إن المعاد للنفس دون البدن باطل، وقد رده الإمام الغزالي في عدة من كتبه، وكذا هنا كما سيأتي في كتاب ذكر الموت.

مائة دينار) مثلاً **(وهذا القدْر من الزعفران يسوىٰ مائة، فهما من حيث إنهما متساويان بشيء واحد إذًا متساويان، وإنما أمكن التعديلُ بالتقدير**[(١)]**)** والتخمين **(إذ لا غرض في أعيانهما، ولو كان في أعيانهما غرضٌ ربما اقتضىٰ خصوصُ ذلك الغرض في حق صاحب الغرض ترجيحًا ولم يقتضِ ذلك في حق مَن لا غرض له فلا ينتظم الأمرُ، فإذا خلقهما الله تعالىٰ لتتداولهما الأيدي ويكونا حاكمينِ بين الأموال بالعدل)** والسوية **(ولحكمة أخرىٰ وهي التوصُّل بهما إلىٰ سائر الأشياء؛ لأنهما)** شيئان **(عزيزان في أنفسهما، ولا غرض في أعيانهما، ونسبتهما إلىٰ سائر الأموال نسبة واحدة، فمَن ملكهما فكأنَّه ملك كلَّ شيء، لا كمَن ملك ثوبًا فإنه لا يملك إلا الثوب)** فقط **(فلو احتاج إلىٰ طعام فربما [لم]**[(٢)] **يرغب صاحب الطعام في الثوب؛ لأن غرضه في دابَّة مثلاً، فاحتيجَ إلىٰ شيء هو في صورته كأنَّه ليس بشيء وهو في معناه كأنَّه كل الأشياء)** وإليه يشير قولُ الشاعر:

* إذا صحَّ كافُ الكَيْس فالكل حاصل[(٣)] *

(والشيء إنما تستوي نسبتُه إلىٰ المختلفات إذا لم تكن له صورة خاصة يفيدها بخصوصها، كالمرآة لا لون لها وتحكي كلَّ لون) عند مقابلتها **(فكذلك**

---

(١) في الجميع: بالنقدين.

(٢) سقط مستدرك من الجميع.

(٣) صدر بيت، عجزه:

لديك وكل الصيد يوجد في الفرا

وقبله:

يقولون كافات الشتاء كثيرة ... وما هي إلا واحد غير مفترىٰ

وهما لأبي الثناء محمود بن نعمة بن أرسلان الشيزري [المتوفي سنة ٥٥٦]. خريدة القصر للعماد الأصفهاني - قسم شعراء الشام ١/ ٥٧٦. مرآة الجنان لليافعي ٣/ ٣٦٠. وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/ ٥٢٥، ٤/ ٤١٣. النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ٥/ ٣٥٨ (ط - دار الكتب المصرية). بغية الوعاة للسيوطي ٢/ ٢٨٣.

النقد لا غرض فيه وهو وسيلة إلىٰ كل غرض. وكالحرف) الذي هو أحد أقسام الكلمة الثلاثة (لا معنىٰ له في نفسه وتظهر به المعاني في غيره. فهذه هي الحكمة الثانية، وفيهما أيضًا حِكَمٌ) خفيَّة (يطول ذِكرُها. فكل مَن عمل فيهما عملاً لا يليق بالحِكَم بل يخالف الغرضَ المقصود بالحكم فقد كفر نعمةَ الله تعالىٰ فيهما، فإذًا مَن كنزَهما فقد ظلمهما وأبطل الحكمة فيهما، وكان كمَن حبس حاكم المسلمين في سجن يمتنع عليه الحكمُ بسببه؛ لأنه إذا كنزَ فقد ضيَّع، الحِكَم، ولا يحصل الغرض المقصود به، وما خُلقت الدراهم والدنانير لزيد خاصةً ولا لعمرو خاصة؛ إذ لا غرض للآحاد في أعيانهما، فإنهما حجران، وإنما خُلقا لتتداولهما الأيدي فيكونا حاكمينِ بين الناس وعلامة معرفة للمقادير مقوِّمة للمراتب، فأخبر الله تعالىٰ الذين يعجزون عن قراءة الأسطر الإلهيَة المكتوبة علىٰ صفحات الموجودات بخط إلهيٍّ لا حرف فيه ولا صوت الذي لا يُدرَك بعين البصر) الظاهر (بل بعين البصيرة) الباطنة (أخبر هؤلاء العاجزين بكلام سمعوه من رسوله) المرسَل إليهم (حتىٰ وصل إليهم بواسطة الحرف والصوت المعنىٰ الذي عجزوا عن إدراكه) وفهم معناه (فقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٣٤﴾) [التوبة: ٣٤] وقد تقدم الكلام علىٰ الآية في كتاب الزكاة (وكل مَن اتَّخذ من الدراهم والدنانير آنية من ذهب أو فضة فقد كفر النعمةَ وكان أسوأ حالاً ممَّن كنزَ) ولم ينفق (لأن مثال هذا مثال مَن استسخر حاكمَ البلد في الحياكة والكنس و) غيرهما من (الأعمال التي يقوم بها أخِسَّاء الناس) وأرداؤهم (والحبس أهون منه، وذلك أن الخزف والحديد والرصاص والنحاس) وغيرها من المتطرقات (تنوب مَنابَ الذهب والفضة في حفظ المائعات عن أن تتبدَّد) أي تتفرَّق (وإنما) تُتخذ (الأواني لحفظ المائعات) والحفظ يحصل بغيرهما (ولا يكفي الخزف والحديد) والرصاص (في المقصود الذي أُريدت به النقود) في الغالب، وإن كان يُتعامل ببعضها في بعض الأقطار لكن علىٰ سبيل التبعية لهما

(فمَن لم ينكشف له هذا) المعنىٰ **(انكشف له بالترجمة الإلهية، وقيل: إنه مَن شرب في آنية من ذهب أو فضة فكأنَّما يجرجر في بطنه نارَ جهنم)** لم يصرِّح المصنِّف بكونه حديثًا[1]، وهو متفق عليه[2] من حديث أم سلمة، كما قاله العراقي[3]. ولفظ مسلم: «مَن شرب في إناء من ذهب أو فضة فإنما يجرجر في بطنه نارًا من جهنم».

وروىٰ البيهقي في المعرفة[4] والخطيب[5] وابن عساكر[6] من حديث ابن عمر: «مَن شرب في إناء ذهب أو فضة أو إناء فيه شيء من ذلك فإنما يجرجر في بطنه نار جهنم».

وروىٰ ابن ماجه[7] من حديث عائشة: «مَن شرب في إناء فضة فكأنَّما يجرجر في بطنه نار جهنم».

(وكل مَن عامَلَ معاملةَ الربا علىٰ الدراهم والدنانير فقد كفر النعمة وظلم) أي تعدَّىٰ ووضع الشيء في غير موضعه **(لأنهما خُلقا لغيرهما لا لأنفسهما؛ إذ لا غرض في عينهما، فإذا اتَّجر في عينهما فقد اتَّخذهما مقصودًا علىٰ خلاف وضع الحكمة)** الإلهية **(إذ طلبُ النقد لغير ما وُضع له ظلمٌ، ومَن معه ثوب ولا نقد معه فقد لا يقدر علىٰ أن يشتري به طعامًا ودابَّة؛ إذ ربما لا يُباع الطعام والدابة بالثوب، فهو معذور في بيعه بنقد آخر ليحصِّل النقدَ فيتوصل به إلىٰ مقصوده، فإنهما وسيلتان إلىٰ الغير لا غرض في أعيانهما، وموقعهما في الأموال كموقع الحرف في الكلام، كما قال**

---

(١) قد صرح المصنف في الوسيط ١/ ٢٣٩ وغيره، وهو من كتبه المتقدمة عن الإحياء، وقد أشار إليه ههنا في كتاب العلم.

(٢) صحيح البخاري ٤/ ٢١. صحيح مسلم ٢/ ٩٩٢ - ٩٩٣.

(٣) المغني ٢/ ١٠٢٢.

(٤) معرفة السنن والآثار ١/ ٢٥٢.

(٥) تاريخ بغداد ٣/ ٣٠٦، ١٦/ ٢٠٦.

(٦) تاريخ دمشق ٣٨/ ١٥٣، ٤٧/ ٢٠٣.

(٧) سنن ابن ماجه ٥/ ١٠٢.

النحويون: إن الحرف هو الذي جاء لمعنًىٰ في غيره) كما عرَّفه ابن الحاجب في كافيته[١] (وكموقع المرآة من الألوان، فأما مَن معه نقدٌ فلو جاز له أن يبيعه بالنقد فيتخذ التعاملَ علىٰ النقد غايةَ عمله فيبقىٰ النقد متقيِّدًا عنده ويتنزَّل منزلة المكنوز، وتقييد الحاكم والبريد الموصل إلىٰ الغير ظلمٌ كما أن حبسه ظلمٌ، فلا معنىٰ لبيع النقد بالنقد إلا اتخاذ النقد مقصودًا للادِّخار، وهو ظلمٌ.

فإن قلتَ: فلِمَ جاز بيعُ أحد النقدين بالآخَر) أي[٢] بيع الذهب بالفضة والفضة بالذهب متفاضلين يدًا بيد، وهو بالاتفاق، لا بيع الذهب بالذهب منفردًا والورِق بالورِق منفردًا تِبْرهما ومضروبهما وحليهما إلا مِثلاً بمثل، وزنًا بوزن، يدًا بيد (ولِمَ جاز بيعُ الدرهم بمثله؟ فاعلمْ أن أحد النقدين يخالف الآخَرَ في مقصود التوسُّل؛ إذ قد يتيسَّر التوصلُ بأحدهما من حيث كثرته كالدراهم تتفرَّق في الحاجات قليلاً قليلاً ففي المنع منه ما يشوِّش المقصود الخاصَّ به وهو تيسُّر التوصل به إلىٰ غيره، وأما بيع الدرهم بدرهم يماثله فجائز من حيث إن ذلك لا يرغب فيه عاقل مهما تساويا) في أوصافهما (ولا يشتغل به تاجر، فإنه حيث جرىٰ مجرىٰ وضعِ الدرهم علىٰ الأرض وأخذه بعينه) [يكون][٣] عبثًا ولعبًا (ونحن لا نخاف علىٰ العقلاء أن يصرفوا أوقاتهم إلي وضع الدرهم علىٰ الأرض وأخذه بعينه، فلا نمنع ممَّا لا تتشوَّف النفوسُ إليه إلا أن يكون أحدهما أجود من الآخَر، وذلك أيضًا لا يُتصور جريانه؛ إذ صاحب الجيد لا يرضىٰ بمثله من الرديء) الدون (فلا ينتظم العقدُ، وإن طلب زيادة في الرديء فذلك مما قد يقصده، فلا جَرَم نمنعه منه ونحكم بأن جيدها

(١) الكافية في علم النحو ص ١١ (ط - مكتبة الآداب)، والعزو لابن جني في اللمع أولىٰ وأسد، وانظر اللمع ص٨ (ط دار الكتب الثقافية - الكويت).

(٢) اختلاف الأئمة العلماء لابن هبيرة ١/ ٣٥٨. جواهر العقود لشمس الدين المنهاجي ١/ ٦٤ (ط - مطبعة السنة المحمدية). التفريع في مذهب مالك لابن الجلاب ٢/ ١٥٣ - ١٥٤ (ط - دار الغرب الإسلامي).

(٣) زيادة من المحقق يقتضيها السياق.

ورديئها سواء؛ لأن الجودة والرداءة ينبغي أن يُنظَر إليهما فيما يُقصَد في عينه، وما لا غرض في عينه فلا ينبغي أن يُنظَر إلىٰ مضافات دقيقة في صفاته، وإنما الذي ظلمَ هو الذي ضربَ النقود مختلفةً في الجودة والرداءة حتىٰ صارت مقصودة في أعيانها، وحقُّها أن لا تُقصَد، وأما إذا باع درهمًا بدرهم مثله نسيئةً فإنما لم يجُزْ ذلك) من طريق الزيادة والنَّساء جميعًا (لأنه لا يُقدِم علىٰ هذا إلا مسامح قاصد للإحسان، ففي القرض وهو مَكرُمة) قد حثَّ عليه الشارع، ووردت في فضله أخبار (مندوحةٌ عنه) أي متسَع (لتبقىٰ صورةُ المسامحة، فيكون له حمد وأجر) معًا (والمعاوضة لا حمد فيها ولا أجر، فهو أيضًا ظلمٌ؛ لأنه إضاعة خصوص المسامحة وإخراجها في معرض المعاوضة.

وكذلك الأطعمة خُلقت ليُتغذىٰ بها أو يُتداوىٰ بها، فلا ينبغي أن تُصرَف عن جهتها) التي خُلقت لها (فإنَّ فتح بابِ المعاملة فيها يوجب تغييرَها في الأيدي ويؤخِّر عنها الأكلَ الذي أُريدت له، فما خلق الله الطعام إلا ليؤكل، والحاجة إلىٰ الأطعمة شديدة، فينبغي أن تخرج عن يد المستغني عنها إلىٰ المحتاج) إليها (ولا يتعامل علىٰ الأطعمة إلا مستغنٍ عنها؛ إذ مَن معه طعام فلم لا يأكله إن كان محتاجًا ولم يجعله بضاعة تجارة، وإن جعله بضاعة تجارة فليبعْه ممَّن يطلبه بعوض غير الطعام؛ ليكون محتاجًا إليه، فأما مَن يطلبه بعين ذلك الطعام فهو أيضًا مستغنٍ عنه، ولهذا ورد في الشرع لعنُ المحتكر، وورد فيه من التشديدات ما ذكرناه في كتاب آداب الكسب) والمعاش، من ذلك حديث عمر: «المحتكر ملعون». رواه الحاكم. ومنها حديث أبي هريرة: «مَن احتكر حُكْرة يريد أن يُغلي بها علىٰ المسلمين فهو خاطئ وقد برئت منه ذمَّةُ الله ورسوله». رواه أحمد (نعم، بائع البُر بالتمر معذور؛ إذ أحدهما لا يسد مَسَدَّ الآخَر في الغرض، وبائع صاع من البُر بصاع منه غير معذور) لأنهما جنس واحد (ولكنه عابث، فلا يحتاج إلىٰ منع؛ لأن النفوس لا تسمح به إلا عند التفاوت في الجودة) وبيع[1] صاع من البُر بصاع من شعير مبنيٌّ

(١) اختلاف الأئمة العلماء ١/ ٣٥٩.

علىٰ اختلافهم هل هما جنس واحد أو جنسان، فقال أبو حنيفة والشافعي وأحمد في أظهر روايتيه: هما جنسان. فعلىٰ هذا يجوز بالمفاضلة والمماثلة؛ لأن أحدهما لا يسد مَسَدَّ الآخر. وقال مالك وأحمد في الرواية الأخرىٰ: هما جنس واحد، فلا يجوز بيع بعضهما ببعض إلا مثلاً بمثل، يدًا بيد. ومع جوازه يكون عابثًا (**ومقابلة الجيد بمثله من الرديء لا يرضىٰ بها صاحب الجيد، وأما جيد برديئين فقد يُقصَد ولكن لمَّا كانت الأطعمة من الضروريات**) يضطرُّ إليها الإنسان أبدًا (**والجيد يساوي الرديء في أصل الفائدة**) الذي هو الغذاء (**ويخالفه في وجوه التنعُّم، أسقط الشرع غرض التنعُّم فيما هو القوام. فهذه حكمة الشرع في تحريم الربا**) وقد أشار إلىٰ نحو ذلك القفَّال في محاسن الشريعة[1] (**وقد انكشف لنا هذا بعد الإعراض عن**) الاشتغال في (**فن الفقه**) وذلك عند خروجه من دار السلام ببغداد[2] (**فلنُلحِق هذا بفن الفقهيات، فإنه أقوىٰ من جميع ما أوردناه في الخلافيات، وبهذا يتضح رجحان مذهب الشافعي رحمه الله تعالىٰ**) علىٰ غيره (**في التخصيص بالأطعمة دون المكيلات؛ إذ لو دخل الجِص فيه لكانت الثياب والدواب أَولىٰ بالدخول فيه، ولولا الملح لكان مذهب مالك رحمه الله تعالىٰ أقوىٰ المذاهب فيه؛ إذ خصَّصه بالأقوات**) وتفصيل ذلك: أنهم[3] اختلفوا في علَّة جريان الربا المحرَّم في غير الأعيان الستة المنصوص عليها، فقال أبو حنيفة وأحمد: العلة في الذهب والفضة الوزن والجنس، فكل ما جمعه الوزن والجنس فالتحريم ثابت فيه إذا باعه متفاضلاً كالذهب والفضة، ثم يتعدَّىٰ منها إلىٰ الحديد والرصاص والنحاس وما أشبهها. وقال مالك والشافعي: العلة في الذهب والفضة الثَّمَنيَّة، فلا يجري الربا عندهما في الحديد والنحاس وما أشبههما. وقال أبو حنيفة [وأحمد] في أظهر الروايات

---

(١) محاسن الشريعة ص ٤٢٦ - ٤٣٣ (ط - دار الكتب العلمية).

(٢) لا وجه لهذا التقييد، فإن الإمام واظب علىٰ العزلة والخلوة قرابة من عشر سنين، ومدة خروجه ورجوعه سنتين فقط، وانظر: المنقذ من الضلال ص١٠٧ - ١١٧. والله أعلم.

(٣) اختلاف الأئمة العلماء ١/ ٣٦٥ - ٣٦٧.

عنه، وهي اختيار الخِرَقي من الحنابلة وشيوخ أصحابه: العلة في الأعيان الأربعة الباقية الكيل والجنس[1]، فكل ما جمعه الكيل والجنس فالتحريم فيه ثابت إذا بِيعَ متفاضلاً كالحنطة والشعير والنَّوْرة والجِص والأُشْنان وما أشبهها. وعن أحمد رواية ثانية في علة الأعيان الأربعة: أنها مأكول مكيل أو مأكول موزون. فعلىٰ هذه الرواية لا ربا فيما يؤكل وليس بمكيل ولا موزون مثل الرمان والسفرجل والبطيخ والخيار، ولا في غير المأكول ممَّا يُكال ويوزَن كالنورة والجِص والأُشْنان. وعنه رواية ثالثة في علة الأعيان الأربعة: أنه مأكول جنس. فعلىٰ هذه الرواية يحرُم ما كان مأكولاً خاصةً، ويدخل في التحريم سائر المأكولات، ويخرج منه ما ليس بمأكول. وقال مالك: العلة في الأعيان الأربعة كونها مقتاتة، وما يصلُح للقوت من جنس مدَّخَر فيدخل تحريم الربا في ذلك كله كالأقوات المدَّخَرة واللحوم والألبان والخلول والزيوت والعنب والزبيب والزيتون والعسل والسكر. وقال الشافعي في الجديد: إن العلة في الأعيان الأربعة أنها مطعومة جنس. فعلىٰ هذا يجري الربا عنده في الرمان والسفرجل والبيض ونحوه كالرواية الثالثة عن أحمد. وقال في القديم: مطعومة مكيلة أو موزونة. فعلىٰ هذا لا يجري الربا بمجرَّد الطعم في المطعومات.

ذكر ذلك كلَّه الوزيرُ في الإفصاح، وتقدم في كتاب آداب الكسب.

(ولكن كل معنىٰ يرعاه الشرع فلا بد وأن يُضبَط بحدٍّ، وتحديد هذا كان ممكنًا بالقوت) كما ذهب إليه مالك **(وكان ممكنًا بالمطعوم)** كما ذهب إليه الشافعي **(فرأىٰ الشرع التحديدَ بجنس المطعوم أحرَىٰ)** أي أشمل **(لكل ما هو ضرورة البقاء)** ودوام العيش **(وتحديدات الشرع قد تحيط بأطراف لا يقوَىٰ فيها أصلُ المعنىٰ الباعث علىٰ الحكم، ولكن التحديد يقع كذلك بالضرورة، ولو لم يحدَّ لتحيَّر الخلق في اتِّباع)** وفي نسخة: في تتبُّع **(جوهر المعنىٰ مع اختلافه بالأحوال والأشخاص، فعين المعنىٰ بكمال قوته يختلف بالأحوال والأشخاص، فيكون**

(١) في اختلاف الأئمة: «العلة في الأعيان الأربعة الباقية زيادة كيل في جنس المكيلات».

الحد ضروريًّا، فلذلك قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق: ١] ولأن أصول هذه المعاني لا تختلف فيها الشرائع، وإنما تختلف في وجوه التحديد، كما يحدُّ شرعُ عيسىٰ عليه السلام تحريمَ الخمر بالسكْر، وقد حدَّه شرعُنا بكونه من جنس المسكر؛ لأن قليله يدعو إلىٰ كثيره، والداخل في الحدود داخل في التحريم بحكم الجنس) وفي نسخة: بحكمة الحسم لها (كما دخل أصل المعنىٰ بالحكمة الأصلية.

فهذا مثال واحد لحكمة خفيَّه من حِكَم النقدين، فينبغي أن يُعتبَر شكر النعمة وكفرانها بهذا المثال، فكل ما خُلق لحكمة فلا ينبغي أن يُصرَف عنها، ولا يعرف هذا إلا مَن قد عرف الحكمة) وأتىٰ من بابها (ومَن أوتيَ الحكمة فقد أوتيَ خيرًا كثيرًا) يشير إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] (ولكن لا تصادَف جواهر الحِكَم في قلوب هي مزابل الشهوات) ومَقارُّها (وملاعب الشياطين) ومَحالُّ وساوسها (بل لا يذَّكَّر إلا أولو الألباب) أشار به إلىٰ تمام الآية المذكورة (ولذلك قال ﷺ: «لولا أن الشياطين يحومون علىٰ قلوب بني آدم لنظروا إلىٰ ملكوت السماء» رواه أحمد من حديث أبي هريرة بنحوه، وقد تقدم في كتاب أسرار الصوم (وإذا عرفتَ هذا المثال فقِسْ عليه حركتك وسكونك ونطقك وسكوتك وكلَّ فعل صادر منك، فإنه) لا يخلو (إما شكر وإما كفر؛ إذ لا يُتصور أن ينفكَّ عنهما، وبعض ذلك نصفُه في لسان الفقه الذي تناطَقَ به عوامُّ الناس) وهم المشتغلون بالعلوم الظاهرة (بالكراهة، وبعضه بالحظر، وكل ذلك عند أرباب القلوب) وهم المشتغلون بعلوم الآخرة (موصوف بالحظر، فأقول: مثلاً لو استنجيتَ باليمين فقد كفرتَ نعمة اليدين؛ إذ خلق الله لك اليدين، وجعل إحداهما أقوىٰ من الأخرىٰ) وهي اليمنىٰ، وهذا هو الأغلب، فلا يناقضه الأعسرُ وهو الذي يسراه أقوىٰ من اليمنىٰ لندورة (فاستحقَّ الأقوىٰ بمزيد رجحانه في الغالب التشريفَ والتفضيل، وتفضيل الناقص عدولٌ عن) منهج (العدل، والله

تعالىٰ لا يأمر إلا بالعدل) لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠] **(ثم أحوجَك مَن أعطاك اليدين إلىٰ أعمال بعضُها شريف كأخذ المصحف، وبعضها خسيس كإزالة النجاسة، فإذا أخذتَ المصحف باليسار وأزلتَ النجاسة باليمين فقد خصصتَ الشريفَ بما هو خسيس فغضضتَ من حقه)** أي نقصتَ **(وظلمتَه وعدلتَ عن العدل، وكذلك إذا بصقتَ مثلاً في جهة القبلة أو استقبلتَها في قضاء الحاجة فقد كفرتَ نعمة الله تعالىٰ في خلق الجهات وخلقِ سعة العالَم؛ لأنه خلق الجهات لتكون متَّسعك في حركاتك، وقسَّم الجهات إلىٰ ما لم يشرِّفها، وإلىٰ ما شرَّفها بأنْ وضع فيها بيتًا أضافه إلىٰ نفسه)** تشريفًا له بذلك و **(استمالة لقلبك إليه ليتقيَّد به قلبُك)** ويحترمه **(فيتقيَّد بسببه بدنُك في تلك الجهة علىٰ هيئة الثبات والوقار إذا عبدتَ ربك. وكذلك انقسمت أفعالك إلىٰ ما هي شريفة كالطاعات، وإلىٰ ما هي خسيسة كقضاء الحاجة ورمي البصاق، فإذا رميتَ بصاقك إلىٰ جهة القبلة فقد ظلمتَها وكفرت نعمةَ الله عليك بوضع القبلة التي بوضعها كمالُ عبادتك، وكذلك إذا لبستَ خُفَّك فابتدأتَ باليسرىٰ فقد ظلمتَ؛ لأن الخف وقاية للرِّجل، فللرِّجل فيه حظٌّ، والبداءة في الحظوظ ينبغي أن تكون بالأشرف، فهو العدل والوفاء بالحكمة، ونقيضه ظلمٌ وكفران لنعمة الرِّجل والخف، وهذا عند العارفين كبيرة)** لِما فيه من مناقضة مقام العدل والوفاء **(وإن سمَّاه الفقيه مكروهًا)** وخفَّف أمره علىٰ العامَّة **(حتىٰ إن بعضهم)** أي من العارفين **(كان قد جمع أكرارًا)** جمع كُرٍّ بالضم، أي أحمالاً **(من الحنطة، وكان يتصدَّق بها)** علىٰ المحتاجين **(فسُئل عن سببه فقال: لبست المَداس)** أي النعل **(مرةً فابتدأتُ بالرِّجل اليسرىٰ سهوًا)** من غير اختيار **(فأريد أن أكفِّره بالصدقة)** ولعله وجد الحنطة عزيزة فلذلك اختار التصدُّق بها، أو لكونها ممَّا يعمُّ النفعُ بها أكثر من غيرها **(نعم، الفقيه لا يقدر علىٰ تفخيم الأمر في هذه الأمور؛ لأنه مسكين بُلِيَ)** أي امتُحِن **(بإصلاح العوامِّ الذين تقرُب درجتُهم من درجة الأنعام)** في بلادتهم وحرصهم **(وهم منغمسون)** وفي نسخة: مغموسون **(في ظلمات)** وهميَّة **(أطم وأعظم من أن تظهر أمثال هذه الظلمات**

بالإضافة إليها، فقبيح أن يقال: الذي شرب الخمر وأخذ القدح بيساره فقد تعدَّىٰ) الحدَّ الشرعي (من وجهين، أحدهما: الشرب، والآخَر: الأخذ باليسار. ومَن باع حرًّا) وفي نسخة: خمرًا (في وقت النداء) وهو الأذان الثاني (يوم الجمعة فقبيح أن يقال: خالف من وجهين، أحدهما: بيع الحر) وفي نسخة: الخمر (والآخر: البيع في وقت النداء. ومَن قضىٰ حاجته في محراب المسجد مستدبر القبلة فقبيح أن يُذكَر تركه الأدب في قضاء الحاجة من حيث لم يجعل القبلة عن يمينه. فالمعاصي كلها ظلمات، وبعضها فوق بعض) في القبح (فينمحق بعضها) ويضمحلُّ (في جنب البعض، فالسيد قد يعاقب عبده إذا استعمل سكينه بغير إذنه، ولكن لو قتل بتلك السكين أعزَّ أولاده لم يبقَ) وفي نسخة: لم يكن (لاستعمال السكين بغير إذنه حكمٌ ونكاية في نفسه، فكل ما راعاه الأنبياء والأولياء من الآداب) الظاهرة (وتسامحنا فيه في الفقه مع العوامِّ فسببه هذه الضرورة، وإلا فكل هذه المَكاره عدول عن العدل) المأمور به (وكفران للنعمة ونقصان عن الدرجة المبلِّغة للعبد إلىٰ درجات القرب. نعم، بعضها يؤثِّر في العبد بنقصان القرب وانحطاط المنزلة، وبعضها يُخرِج بالكلِّية عن حدود القرب إلىٰ عالَم البعد الذي هو مستقَرُّ الشياطين) كما أن عالَم القُرب هو مستقَرُّ الملائكة (وكذلك مَن كسر غصنًا من شجرة من غير حاجة ناجزة مهمَّة ومن غير غرض صحيح فقد كفر نعمةَ الله في خلق الأشجار وخلق اليد، أما اليد فإنها لم تُخلَق للعبث) بها (بل للطاعة والأعمال المعينة علىٰ الطاعة، وأما الشجر فإنما خلقه الله تعالىٰ وخلق له العروق وساق إليها) أي إلىٰ عروقها (الماءَ) من باطن الأرض (وخلق فيه قوة الاغتذاء والنماء ليبلغ منتهىٰ نشوءه فينتفع به عبادُه) بظلِّه وثمره (فكسرُه قبل منتهَىٰ نشوئه لا علىٰ وجه ينتفع به عبادُه مخالَفةٌ لمقصود الحكمة وعدول عن العدل، فإن كان له غرض صحيح فله ذلك؛ إذ الشجر والحيوان جُعل) كلٌّ منهما (فداء لأغراض الإنسان، فإنهما جميعًا فانيان هالكان، وإفناء الأخَسِّ) رتبةً (في بقاء الأشرف مدة ما أقرب إلىٰ العدول من تضييعهما جميعًا، وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:

١٣] نعم، إن كسر ذلك من مُلكِ غيره فهو ظالم أيضًا وإن كان محتاجًا) إليه (لأن كل شجرة بعينها فلا تفي بحاجات عباد الله كلِّهم، بل تفي بحاجة واحد، ولو خُصِّص واحد بها من غير رجحان واختصاص كان ظلمًا، فصاحبِ الاختصاص هو الذي حصَّل البذرَ ووضعه في الأرض وساق إليه الماء وقام بالتعهُّد) والخدمة في نموِّه ونشأته (فهو أَولىٰ به من غيره، فترجَّحَ جانبُه بذلك، فإن نبت ذلك في موات الأرض) من نفسه (لا بسقي آدميٍّ اختصَّ بمغرسه) أي منبته بالمِلكية (أو بغرسه) بأن وضع بذره في تلك الأرض وتعهَّده بالسقي (فلا بد من طلب اختصاص آخر وهو السبق إلىٰ أخذه، فللسابق خاصِّية السبق، فالعدل أن يكون هو أَولىٰ به) وهو ترجيح في حقه (وعبَّر الفقهاء عن هذا الترجيح بالمِلك، وهو) في الحقيقة (مجاز محض) أي خالص لا شوب للحقيقة فيه (إذ لا مِلك) حقيقةً (إلا لملك الملوك) جلَّ شأنه (الذي له ما في السموات والأرض) وما في يد العبد فهو مستعار مردود (وكيف يكون العبد مالكًا وهو في نفسه ليس يملك نفسه، بل هو مِلكُ غيرِه) لأن[1] وجوده مستعار من وجودِ غيرِه، وما له الوجود من غيره فوجوده مستعار لا قوام له بنفسه، بل إذا اعتُبِرت ذاته من حيث ذاته فهو عدم محض، وإنما وجوده من حيث نسبته إلىٰ غيره، وذلك ليس بوجود حقيقيٍّ، ونسبة المُستعار إلىٰ المستعير مجاز محض (نعم، الخلق عِباد الله، والأرض مائدة الله) المفروشة (وقد أذنَ لهم في الأكل من مائدته بقدر حاجتهم، كالملك ينصب مائدته لعبيده) فهم شركاء فيها (فمَن أخذ لقمة بيمينه واحتوت عليها براجمه) أي مفاصل أصابعه (فجاء عبد آخر وأراد انتزاعها من يده لم يمكَّن منه، لا لأن اللقمة صارت مِلكًا له بالأخذ باليد، فإنَّ اليد وصاحب اليد أيضًا مملوك، ولكن إذا كانت كل لقمة بعينها لا تفي بحاجة كل العبيد فالعدل في التخصيص عند حصول ضرب من الترجيح والاختصاص، والأخذ اختصاصٌ ينفرد به العبد، فمُنع مَن لا يُدلي) أي لا يتقرَّب (بذلك

---

(١) مشكاة الأنوار ص ٥٦ – ٥٧.

الاختصاص عن مزاحمته) وانتزاع اللقمة منه (فهكذا ينبغي أن تفهم أمر الله في عباده، ولذلك نقول: مَن أخذ من أموال الدنيا أكثر من حاجته وكنزَه وأمسكه) ولم ينفقه (وفي عباد الله مَن يحتاج إليه فهو ظالم) ولو أدّىٰ زكاة ما كنزَه، وهو أحد الوجوه في الآية (وهو من الذين) قال الله تعالىٰ في حقّهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٣٤﴾ [التوبة: ٣٤] وإنما سبيل الله طاعته، وزادُ الخلق في الطاعة) وفي نسخة: في طاعته (أموال الدنيا؛ إذ بها تندفع ضروراتُهم وترتفع حاجاتهم. نعم، هذا لا يدخل في حدِّ فتاوىٰ الفقه؛ لأن مقادير الحاجات خفيَّة) لا تُدرَك (والنفوس في استشعار الفقر في الاستقبال مختلفة، وأواخر الأعمار غير معلومة، فتكليف العوامِّ ذلك يجري مَجرىٰ تكليف الصبيان الوقار والتؤدة والسكوت عن كل كلام غير مهمٍّ، وهم بحكم نقصانهم) في عقولهم (لا يطيقونه، فتركُنا الاعتراض عليهم في اللعب واللهو وإباحتنا ذلك إيَّاهم لا يدل علىٰ أن اللهو واللعب حق، فكذلك إباحتنا للعوام حفظ الأموال والاقتصار في الإنفاق علىٰ قدر الزكوات لضرورة ما جُبِلوا عليه من البخل لا يدل علىٰ أنه غاية الحق) وإلىٰ هذا يشير ما ورد: «كل مال أُدِّيتْ زكاته فليس بكنز» (وقد أشار القرآن إليه؛ إذ قال تعالىٰ: ﴿إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ﴾) أي يبالغ في سؤالكم حتىٰ لا تُبقُوا منها شيئًا إلا وقد صرفتموه في سبيل الحق (﴿تَبۡخَلُواْ﴾) [محمد: ٣٧] وذلك بمقتضَىٰ الجِبِلِّية (بل الحق الذي لا كدورة فيه والعدل الذي لا ظلم فيه أن لا يأخذ أحد من عباد الله من مال الله إلا بقدر زاد الراكب) كما ورد ذلك في الخبر بلفظ: «ليكن زادُ أحدكم من الدنيا مثل زاد الراكب». أي فإن الراكب لا يحمل من الزاد إلا قدر كفايته فقط (فكل عِباد الله رُكَّاب لمَطايا الأبدان إلىٰ حضرة الملك الدَّيَّان) وسُنوهم منازلهم (فمَن أخذ زيادة عليه ومنعه عن راكب آخر محتاج إليه فهو ظالم تارك للعدل وخارج عن مقصود الحكمة وكافر نعمة الله تعالىٰ عليه بالقرآن والرسول والعقل وسائر الأسباب التي بها عرف أن ما سوىٰ زاد الراكب وبالٌ عليه في الدنيا والآخرة، فمَن فهم حكمة الله تعالىٰ في جميع أنواع الموجودات

قدرَ علىٰ القيام بوظيفة الشكر، واستقصاء ذلك يحتاج إلىٰ مجلَّدات ثم لا تفي إلا بالقليل) لكثرة أنواع الموجودات فتكثُر الحِكَمُ (وإنما أوردنا هذا القدر لتعلم علَّة الصدق في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبا: ١٣] و) تعلم (فرح إبليس لعنه الله بقوله: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف:١٧]، فلا يعرف معنىٰ هذه الآية مَن لم يعرف معنىٰ هذا) الذي أوردناه (كله وأمورًا أُخَر وراء هذا تنقضي الأعمارُ دون استقصاء مبادئها، فأما تفسير الآية ومعنىٰ لفظها فيعرفه كل مَن يعرف اللغة) وهي لسان العرب (وبهذا يتبيَّن لك الفرق بين المعنىٰ والتفسير) فإن التفسير بيان لظاهر اللفظ، والمعنىٰ هو ما يكون بيانًا لباطنه.

(فإن قلتَ: فقد رجع حاصل هذا الكلام إلىٰ أن لله تعالىٰ حكمة في كل شيء، وأنه جعل بعض أفعال العباد سببًا لتمام تلك الحكمة وبلوغها غاية المراد منها، وجعل بعض أفعالهم مانعًا من تمام الحكمة، فكل فعلٍ وافقَ مقتضَىٰ الحكمة حتىٰ انساقت الحكمة إلىٰ غايتها فهو شكرٌ، وكل ما خالفَ ومنع الأسبابَ من أن تنساق إلىٰ الغاية المرادة بها فهو كفران، وهذا كله مفهوم، ولكن الإشكال باقٍ وهو أن فِعل العبد ينقسم إلىٰ ما يتمِّم الحكمةَ وإلىٰ ما يدفعها وهو أيضًا من فعل الله تعالىٰ، فأين العبد في البين حتىٰ يكون شاكرًا مرةً وكافرًا أخرىٰ؟ فاعلمْ أن تمام التحقيق في هذا يُستمَدُّ من تيَّار بحر عظيم من علوم المكاشفات، وقد رمزنا فيما سبق إلىٰ تلويحات) أي إشارات (بمبادئها) أي أوائلها (ونحن الآن نعبِّر بعبارة وجيزة) مختصرة (عن آخرها وغايتها، يفهمها مَن عرف منطق الطير، ويجحدها مَن عجز عن الإيضاع) أي الإسراع (في السير فضلًا عن أن يجول في جو الملكوت جولان الطير، فنقول: إن لله تعالىٰ في جلاله وكبريائه صفة عنها يصدر الخلق والاختراع، وتلك الصفة أعلىٰ وأجلُّ من أن تلمحها عينُ واضع اللغة حتىٰ يعبِّر عنها بعبارة تدل علىٰ كُنْه جلالها وخصوص حقيقتها) التي هي هي من حيث هي هي (فلم تكن لها في العالَم عبارة لعلوِّ شأنها وانحطاط رتبة واضعي اللغات عن أن يمتدَّ طرفُ

فهمهم إلىٰ مبادئ إشراقها، فانخفضت عن ذروتها أبصارُهم كما تنخفض أبصار الخفافيش) جمع خُفَّاش: طائر معروف (عن نور الشمس، لا لغموض في نور الشمس ولكن لضعف في أبصار الخفافيش) فإنها لا تحتمل نورَها (فاضطرَّ الذين فُتحت أبصارهم لملاحظة جلالها إلىٰ أن يستعيروا من حضيض عالَم المتناطقين باللغات عبارةً توهِم من مبادئ حقائقها شيئًا ضعيفًا جدًّا، فاستعاروا لها اسم القدرة، فتجاسرنا بسبب استعارتهم علىٰ النطق فقلنا: لله تعالىٰ صفة هي القدرة، عنها يصدر الخلقُ والاختراع، ثم الخلق ينقسم في الوجود إلىٰ أقسام وخصوص صفات، ومصدر انقسام هذه الأقسام واختصاصها بخصوص صفاتها صفة أخرىٰ استُعيرت لها بمثل الضرورة التي سبقت عبارة المشيئة) وهي معنىٰ يكون الفعل مرادًا، وهي أعمُّ من وجه من الإرادة، وقد يُستعمل كلٌّ منهما مقام الآخَر (فهي توهِم منها أمرًا مجملاً) في إيجاد معدوم أو إعدام موجود[1] (عند المتناطقين باللغات التي هي حروف وأصوات للمتفاهمين بها، وقصور لفظ «المشيئة» عن الدلالة علىٰ كُنْه تلك الصفة وحقيقتها كقصور لفظ «القدرة»، ثم انقسمت الأفعال الصادرة من القدرة إلىٰ ما ينساق إلىٰ المنتهَىٰ الذي هو غاية حكمتها وإلىٰ ما يقف دون الغاية، وكان لكل واحد نسبة إلىٰ صفة المشيئة؛ لرجوعها إلىٰ الاختصاصات التي بها تتم القسمة والاختلافات، فاستُعيرت لنسبة البالغ غايته عبارة «المحبَّة»، واستُعيرت لنسبة الواقف دون غايته عبارة «الكراهة»، وقيل: إنهما جميعًا داخلان في وصف المشيئة، ولكن لكل واحد خاصِّية أخرىٰ في النسبة يوهِم) وفي نسخة: يُفهِم (لفظ «المحبة» و«الكراهة» منها أمرًا مجملاً عند طالبي الفهم من الألفاظ واللغات، ثم انقسم عباده الذين هم أيضًا من خلقه واختراعه إلىٰ مَن سبق له في المشيئة الأزلية أن

---

(١) عبارة الجرجاني في التعريفات ص ٢٣٠ - ٢٣١: «مشيئة الله عبارة عن تجلية الذات والعناية السابقة لإيجاد المعدوم أو إعدام الموجود، وإرادته عبارة عن تجليه لإيجاد المعدوم، فالمشيئة أعم من وجه من الإرادة، ومن تتبع مواضع استعمالات المشيئة والإرادة في القرآن يعلم ذلك، وإن كان بحسب اللغة يستعمل كل منهما مقام الآخر».

يستعمله لاستيعاب حكمته دون غايتها ويكون ذلك قهرًا في حقِّهم بتسليط الدواعي والبواعث عليهم، وإلىٰ مَن سبق لهم في الأزل أن يستعملهم لسياقة حكمته إلىٰ غايتها في بعض الأمور، فكان لكل واحد من الفريقين نسبة إلىٰ المشيئة خاصةً، فاستُعيرت لنسبة المستعمَلين في إتمام الحكمة بهم عبارة «الرضا»، واستُعيرت للذين استُوقِفت بهم أسباب الحكمة دون غايتها عبارة «الغضب»، فظهر علىٰ مَن غضب عليه في الأزل) بحكم مشيئته (فعلٌ وقفت الحكمة به دون غايتها فاستُعيرَ له الكفران، وأُردِف ذلك بنقمة اللعن والمَذَمَّة زيادةً في النَّكال) أي العذاب (وظهر علىٰ مَن ارتضاه في الأزل) بحكم مشيئته (فعلٌ انساقت بسببه الحكمةُ إلىٰ غايتها، فاستُعيرت له عبارة «الشكر»، وأردف ذلك بخلعة الثناء والإطراء زيادةً في الرضا والقبول والإقبال، فكان الحاصل أنه تعالىٰ أعطىٰ الجمال ثم أثنىٰ) عليه (وأعطىٰ النَّكال ثم قبَّح وأزرَىٰ) عليه (وكان مثاله أن ينظِّف الملك عبده الوسخ من أوساخه ثم يلبسه من محاسن ثيابه، فإذا تمَّم زينتَه قال) له: (يا جميل، ما أجملك وأجمل ثيابك وأنظف وجهك! فيكون بالحقيقة هو المجمِّل) أي معطي الجمال (وهو المثني علىٰ الجمال، فهو المثنَىٰ عليه بكل حال، وكأنَّه لم يُثْنِ من حيث المعنىٰ) إذ أثنىٰ (إلا علىٰ نفسه، وإنما العبد هدف الثناء من حيث الظاهر والصورة، فهكذا كانت الأمور في أزل الأزل، وهكذا تسلسلت الأسباب والمسبَّبات بتقدير رب الأرباب ومسبِّب الأسباب، ولم يكن ذلك عن اتفاق وبحث بل عن إرادة وحكمة وحكمِ حقٍّ وأمرٍ جزمٍ استُعير له لفظ «القضاء») وهو فصل الأمر قولاً أو فعلاً (وقيل: إنه كلمح البصر أو هو أقرب) وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس: ٨٢] (ففاضت بحار المقادير بحكم ذلك القضاء الجزم وبما سبق به التقديرُ، فاستُعير لترتُّب آحاد المقدورات بعضها علىٰ بعض لفظ «القَدَر») محرَّكة (فكان لفظ «القضاء» بإزاء الأمر الواحد الكلِّي) الإلهي[1] في أعيان الموجودات علىٰ ما هي عليه من الأحوال الجارية في الأزل إلىٰ

(١) التعريفات ص ١٨٥.

الأبد **(ولفظ «القدر» بإزاء التفصيل المتمادي إلىٰ غير نهاية)** فالقضاء أَخَصُّ من القدر **(وقيل: إن شيئًا من ذلك ليس خارجًا عن القضاء والقدر)** وقال المصنِّف في المقصد الأسنىٰ[1]: معنىٰ الحكمة: ترتيب الأسباب وتوجيهها إلىٰ المسبَّبات، وهو تعالىٰ الحَكم المطلَق؛ لأنه مسبِّب كل الأسباب جملتها وتفصيلها، ومن الحَكَم يتشعَّب القضاء والقدر، فتدبيره أصل وضعِ الأسباب ليتوجَّه إلىٰ المسبَّبات هو حكمُه، وإيجاده للأسباب الكلِّية الأصلية الثابتة المستقرة التي لا تحول ولا تزول إلىٰ وقت معلوم ووضعه إيَّاها ونصبه لها هو قضاؤه[2]، وتوجيه هذه الأسباب بحركاتها المتناسبة المحدودة المقدَّرة المحسوبة إلىٰ المسبَّبات الحادثة منها لحظة بعد لحظة هو قدرُه، فالحكم هو التدبير الأول الكلِّي والأمر الأزلي الذي هو كلمح البصر، والقضاء هو الوضع الكلي للأسباب الكلية الدائمة، والقدر هو توجيه الأسباب الكلية بحركاتها المقدَّره المحسوبة إلىٰ مسبَّباتها المعدودة المحدودة بقدر معلوم لا يزيد ولا ينقص، ولذلك لا يخرج شيء عن قضائه وقدره **(فخطرَ لبعض العباد أن القسمة لماذا اقتضتْ هذا التفصيلَ؟ وكيف انتظم العدل مع هذا التفاوت والتفضيل؟ وكان بعضهم لقصوره)** في العرفان **(لا يطيق ملاحظة كُنْه هذا الأمر والاحتواء)** أي الاشتمال. وفي نسخة: الاحتواز. من الحوز، والمعنىٰ واحد **(علىٰ مَجامِعه، فأُلجِموا عمَّا لم يطيقوا خوضَ غمرته)** وهي معظم الماء **(بلجام المنع، وقيل لهم)** بلسان الحال: **(اسكتوا، فما لهذا خُلِقتم)** فلا تخوضوا فيه، قال الله تعالىٰ: (﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾) [الأنبياء: ٢٣] ففيه إشارة إلىٰ هذا الإلجام **(وامتلأت مِشْكاة بعضهم نورًا مقتبَسًا من نور الله تعالىٰ)** المنتشر ضياؤه **(في السموات والأرض)** يشير إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

---

(١) المقصد الأسنىٰ ص ٩٨.

(٢) في المقصد: «ونصبه الأسباب الكلية الأصلية الثابتة المستقرة التي لا تزول ولا تحول كالأرض والسموات السبع والكواكب والأفلاك وحركاتها المتناسبة الدائمة التي لا تتغير ولا تنعدم إلىٰ أن يبلغ الكتاب أجله قضاؤه».

﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ الآية [النور: ٣٥] والمِشْكاة هي الكُوَّة في الحائط يوضَع فيها المصباح (**وكان زيتهم**) وهو الاستعداد (**أولاً صافيًا**) من كدورات الأوهام (**يكاد يضيء**) أي يشتعل لكمال صفائه (**ولو لم تمسسه نارٌ**) بعدُ (**فمسَّته نارٌ فاشتعل نورًا علىٰ نور فأشرقت أقطار الملكوت**) وهو عالَم الغيب المختصُّ (**بين أيديهم بنور ربها**) يشير إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩] (**فأدركوا الأمور كلَّها كما هي عليها**) بكُنْهها وحقيقتها (**فقيل لهم: تأدَّبوا بآداب الله واسكتوا، وإذا ذُكر القدَر فأمسِكوا**) وهو بعض حديث ابن مسعود، رواه الطبراني وأبو نعيم وابن صصرَىٰ في أماليه وحسَّنه بلفظ: «إذا ذُكر أصحابي فأمسِكوا، وإذا ذُكرت النجوم فأمسكوا، وإذا ذُكر القدَر فأمسكوا». ورواه الطبراني أيضًا من حديث ثوبان، وابن عدي من حديث عمر. ولم يصرِّح المصنِّف بكونه حديثًا. وقد تقدم في كتاب العلم (**فإنَّ للحيطان آذانًا**) وهو مَثَلٌ مشهور[1] (**وحواليكم ضعفاء الأبصار، فسيروا بسير أضعفِكم، ولا تكشفوا حجاب الشمس لأبصار الخفافيش**) فإنهم لا يطيقون (**فيكون ذلك سبب هلاكهم، فتخلَّقوا بأخلاق الله تعالىٰ**) وتحلَّوا بمعاني صفاته وأسمائه بقدر ما يُتصوَّر في حقكم (**وانزلوا إلىٰ سماء الدنيا من منتهَىٰ علوِّكم؛ ليأنس بكم الضعفاء ويقتبسوا من بقايا أنواركم المشرقة من وراء حجابكم كما تقتبس الخفافيش من بقايا نور الشمس والكواكب في جُنْح الليل**) وهو ظلامه واختلاطه (**فيحيا به حياة يحتملها شخصه وحالُه، وإن كان لا يحيا به حياة المتردِّدين في كمال نور الشمس، فكانوا**) وفي نسخة: وكانوا (**كما قيل:**

شربنا شرابًا طيبًا عند طيِّب كذلك شراب الطيِّبين يطيبُ
شربنا وأهرقنا علىٰ الأرض فضلةً وللأرض من كأس الكرام نصيب)[2]

---

(١) ذكره الميداني في مجمع الأمثال ١/ ٨٨ ضمن أمثال المولدين. وانظر: الأمثال العامية لأحمد تيمور باشا ص ٢٠٥ - ٢٠٦.

(٢) لم أقف علىٰ قائل هذين البيتين. وفي ربيع الأبرار للزمخشري ٣/ ٢٤٤: شرب أعرابي نبيذا =

أي سكبنا عليها ما فضلَ منها

(فهكذا كان أول الأمر وآخره، ولا تفهمه إلا إذا كنت أهلاً له، وإذا كنت أهلاً له) وساعدتك العنايةُ (فتحتَ العين وأبصرتَ) الطريق (فلا تحتاج إلىٰ قائد يقودك) وهو المرشد (والأعمىٰ يمكن أن يُقاد ولكن إلىٰ حدٍّ ما، فإذا ضاق الطريق وصار أحَدَّ من السيف وأدقَّ من الشَّعر قدر الطائرُ علىٰ أن يطير عليه، و) لكن (لم يقدر علىٰ أن يستجرَّ وراءه أعمىٰ) لضيق الطريق (وإذا دقَّ المجالُ ولطُفَ لُطْفَ الماءِ مثلاً ولم يمكن العبورُ إلا بالسباحة فقد يقدر الماهر بصنعة السباحة أن يعبر بنفسه، وربما لم يقدر علىٰ أن يستجرَّ وراءه) رجلاً (آخر) لعدم قوته، أو خوفه من الهلاك (فهذه أمورٌ نسبةُ السير عليها إلىٰ السير علىٰ ما هو مجال جماهير الخلق كنسبة المشي علىٰ الماء إلىٰ المشي علىٰ الأرض، والسباحة) علىٰ الماء (يمكن أن تُتعلَّم، فأما المشي علىٰ الماء فلا يُكتسَب بالتعلُّم، بل يُنال بقوة اليقين، ولذلك قيل للنبي ﷺ: إن عيسىٰ عليه السلام يقال إنه مشىٰ علىٰ الماء، فقال: لو ازداد يقينًا لمشىٰ علىٰ الهواء) قال العراقي[1]: هذا حديث منكر لا يُعرَف هكذا، والمعروف ما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين[2] من قول بكر بن عبد الله المزني قال: فقدَ الحَواريُّون نبيَّهم، فقيل لهم: توجَّهَ نحو البحر. فانطلقوا يطلبونه، فلما انتهوا إلىٰ البحر إذا هو قد أقبل يمشي علىٰ الماء ... فذكر حديثًا فيه أن عيسىٰ قال: لو أن لابن آدم من اليقين قدر شعيرة مشىٰ علىٰ الماء. وروىٰ الديلمي في مسند الفردوس[3] بسند ضعيف من حديث معاذ بن جبل: «لو عرفتم الله حق معرفته لمشيتم علىٰ البحور،

= عند إسحاق الموصلي، فقال: شربنا ... فذكر البيت الأول فقط. ولكن ذُكر البيتان في كتاب روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار لابن الخطيب الأماسي ص ٢٨٥ - ٢٨٦ (ط - دار القلم العربي).

(١) المغني ٢/ ١٠٢٢ - ١٠٢٣.

(٢) اليقين ص ٢٣.

(٣) الفردوس بمأثور الخطاب ٣/ ٣٧٠.

ولزالت بدعائكم الجبالُ». انتهىٰ.

قلت: روىٰ ابن أبي الدنيا[١] أيضًا وابن عساكر[٢] عن فضيل بن عياض قال: قيل لعيسىٰ ابن مريم: بأيِّ شيء تمشي علىٰ الماء؟ قال: بالإيمان واليقين. قالوا: فإنَّا آمنَّا كما آمنتَ وأيقنَّا كما أيقنتَ. قال: فامشوا إذًا. فمشوا معه، فجاء الموج فغرقوا، فقال لهم عيسىٰ: ما لكم؟ فقالوا: خِفنا الموج. فقال: ألا خِفتم ربَّ الموج؟ فأخرجهم، ثم ضرب بيده إلىٰ الأرض فقبض منها [ثم بسطها] فإذا في إحدىٰ يديه ذهب، وفي الأخرىٰ مَدَر [أو حصىٰ] فقال: أيُّهما أحلىٰ في قلوبكم؟ قالوا: الذهب. قال: فإنهما عندي سواء.

(فهذه رموز وإشارات إلىٰ معنىٰ الكراهة والمحبة والرضا والغضب والشكر والكفران لا يليق بعلم المعاملة أكثرُ منها، وقد ضرب الله تعالىٰ مثلاً لذلك تقريبًا إلىٰ أفهام الخلق؛ إذ عرَّف) علىٰ لسان رسوله ﷺ **(أنه ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه)** وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦] **(فكانت عبادتهم غاية الحكمة في حقهم. ثم أخبر تعالىٰ أنَّ له عبدين يحب أحدهما واسمه: جبريل، وروح القُدس، والأمين)** وقد ذُكر بهذه الأسماء في القرآن، فـ «جبريل» سُرْيانية معناه: عبد الله. وسُمِّي روح القُدس لأن الروح ما به حياة الأنفُس، وأضيفَ إلىٰ القدس لنزاهته وصفاء إشراقه. وسُمِّي الأمين لأمانته في تبليغ وحي الله تعالىٰ إلىٰ رسله **(وهو عنده محبوب مطاع أمين مكين)** قال تعالىٰ: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١﴾ [التكوير: ٢١] **(ويبغض الآخَر واسمه إبليس)** إفْعيل من البلس وهو التحيُّر[٣] **(وهو اللعين المُنظَر)** أي المطرود المُمْهَل **(إلىٰ يوم الدين، ثم أحال الإرشادَ إلىٰ جبريل فقال:** ﴿قُلْ﴾**)** يا محمد (﴿نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾

(١) اليقين ص ٣٦ - ٣٧.

(٢) تاريخ دمشق ٤٧/ ٤٠٩.

(٣) انظر: تاج العروس ١٥/ ٤٦٣.

[النحل: ١٠٢] **وقال تعالىٰ: ﴿يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾** [غافر: ١٥] وقال تعالىٰ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣] ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧، ٢٥٣] **(وأحال الإغواءَ إلىٰ إبليس فقال: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾** [الزمر: ٨] **والإغواء هو استيقاف العباد دون بلوغ غاية الحكمة، فانظر كيف نسبه إلىٰ العبد الذي أبغضه)** وفي نسخة: غضبَ عليه **(والإرشاد)** هو **(سياقه لهم إلىٰ الغاية، فانظر كيف نسبه إلىٰ العبد الذي أحبَّه، وعندك في العادة له مثال، فالملك إذا كان محتاجًا إلىٰ من يسقيه الشراب وإلىٰ مَن يحجمه وينظف فناء منزله عن القاذورات)** والأوساخ **(وكان له عبدان، فلا يعيِّن للحجامة والتنظيف إلا أقبحهما وأخسهما، ولا يفوِّض حمل الشراب الطيب إلا إلىٰ أحسنهما)** وجهًا **(وأكملهما)** عقلاً **(وأحبهما إليه، فلا ينبغي أن تقول: هذا فعلي، ولِمَ يكون فعله دون فعلي، فإنك أخطأتَ إذ أضفتَ ذلك إلىٰ نفسك)** جهلاً منك **(بل هو الذي صرف داعيتك لتخصيص الفعل المكروه بالشخص المكروه، والفعل المحبوب بالشخص المحبوب، إتمامًا للعدل، فإنَّ عدله تارةً يتم بأمور لا مَدخل لك فيها، وتارةً يتم بك، فإنك أيضًا من أفعاله)** بل كل ما في الوجود هو من أفعال الله تعالىٰ **(فداعيتك وقدرتك وعلمك وعملك وسائر أسباب حركاتك في التعبير هو فعله الذي رتَّبه بالعدل ترتيبًا تصدر منه الأفعال المعتدلة)** ولن(١) يعرف العادلَ مَن لم يعرف عدله، ولا يعرف عدله مَن لم يعرف فِعله، فمَن أراد فهم ذلك فليُحِطْ علمًا بأفعال الله تعالىٰ كلِّها، وليتك تفي بمعرفة عجائب نفسك فتتفرَّغ للتأمل فيها وفيما يكتنفها من الأجسام **(إلا أنك لا ترىٰ إلا نفسك فتظن أن ما يظهر عليك في عالَم الشهادة ليس له سبب من عالَم الغيب والملكوت فلذلك تضيفه إلىٰ نفسك)** وتنسىٰ ترتيب الأسباب وتوجُّهها إلىٰ المسبَّبات بأقصىٰ وجوه العدل **(وإنما أنت مثل الصبي الذي ينظر ليلاً إلىٰ لعب المشعبذ)** ويقال: المشعوذ، من الشعبذة والشعوذة، وهو أن يرىٰ الإنسان منه ما ليس

---

(١) المقصد الأسنىٰ ص ١٠٥، ١٠٧، ١٠٩.

له حقيقة، وقد بيَّنه بقوله: (الذي يُخرِج صورًا) مختلفة الأشكال (من وراء حجاب) رفيع (ترقص وتزعق وتقوم وتقعد) وتمشي وتقف (وهي مؤلَّفة من خِرَق لا تتحرك بأنفسها، وإنما تحرِّكها خيوط شَعْرية دقيقة لا تظهر في ظلام الليل، ورؤوسها في يد المشعبذ، وهو محتجب) وراء حجاب (عن أبصار الصبيان، فيفرحون ويتعجَّبون؛ لظنِّهم أن تلك الخِرَق ترقص وتلعب وتقوم وتقعد، وأما العقلاء) المميِّزون (فإنهم يعلمون أن ذلك تحريك وليس بتحرُّك، ولكنهم ربما لا يعلمون كيف تفصيله، والذي يعلم بعض تفصيله لا يعلمه كما يعلمه المشعبذ الذي الأمر إليه والجاذبة بيديه، فكذلك صبيان أهل الدنيا، والخلق كلهم صبيان إلا العلماء) وفي نسخة: بالنسبة إلىٰ العلماء (ينظرون إلىٰ هذه الأشخاص فيظنون أنها المتحركة فيحيلون عليها، والعلماء يعرفون أنهم محرَّكون، إلا أنهم لا يعلمون كيفية التحريك، وهم الأكثرون) فيكتفون بالعلم الإجماليِّ (إلا العارفون) منهم (والعلماء الراسخون فإنهم أدركوا بحدَّة أبصارهم خيوطًا دقيقة عنكبوتية - بل أدق منها بكثير - معلَّقة من السماء، متشبِّثة الأطراف بأشخاص أهل الأرض، لا تُدرَك تلك الخيوط لدقَّتها بهذه الأبصار الظاهرة، ثم شاهدوا رؤوس تلك الخيوط في مناطات لها هي معلَّقة بها، وشاهدوا لتلك المناطات مقابض هي في أيدي الملائكة المحرِّكين للسموات، وشاهدوا أيضًا أبصار ملائكة السموات مصروفة إلىٰ حَمَلة العرش ينتظرون منهم ما ينزل عليهم من الأمر من حضرة الربوبيَّة كيلا يعصوا الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمَرون) فهم مسخَّرون لذلك (وعبَّر عن هذه المشاهدات في القرآن فقال: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢﴾) [الذاريات: ٢٢] وقال: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢١﴾ [الحجر: ٢١] (وعبَّر عن انتظار ملائكة السموات لِما ينزل عليهم من الأمر والقدَر فقال: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ۝١٢﴾) [الطلاق: ١٢] وقال تعالىٰ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢] (وهذه أمور)

إلهيَّة (**لا يعلم تأويلَها إلا الله والراسخون في العلم**) بتعليم الله إيَّاهم، وتفهيم الأمور الإلهية بالأمور العُرفية عسير جدًّا، وإنما تُذكَر الأمثلة لأجل التنبيه عليها (**وعبَّر ابن عباس** رضي الله عنهما **عن اختصاص الراسخين في العلم بعلوم لا تحتملها أفهامُ الخلق، حيث قرأ قوله تعالىٰ:** ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] **فقال: لو ذكرتُ ما أعرفه**) وفي نسخة: ما عرفتُ فيه (**من معنىٰ هذه الآية لرجمتموني. وفي لفظ آخر: لقلتم إنه كافر**)[١] وذلك لأن أفهامهم قاصرة لا تحتمل المعاني الدقيقة من أسرار الربوبية، وإليه يشير ما ورد: إفشاء سر الربوبية كفرٌ.

(**ولنقتصر علىٰ هذا القدر، فقد خرج عنان الكلام عن قبضة الاختيار، وامتزج بعلم المعاملة ما ليس منه، فلنرجع إلىٰ مقاصد الشكر فنقول: إذا رجعت حقيقة الشكر إلىٰ كون العبد مستعمَلاً في إتمام حكمة الله تعالىٰ فأشكرُ العباد**) أي أكثرُهم شكرًا (**أحبهم إلىٰ الله تعالىٰ وأقربهم إليه، وأقربهم إلىٰ الله تعالىٰ الملائكة**) وذلك[٢] بالسعي في اكتساب الممكن من هذه الصفة، والمتخلِّق بها يصير رفيقًا للملأ الأعلىٰ من الملائكة، فإنهم علىٰ بساط القُرب، فمَن ضرب إلىٰ شبه من صفاتهم نال شيئًا من قربهم بقدر ما نال من أوصافهم المقرِّبة لهم إلىٰ الله تعالىٰ (**ولهم**) أي للملائكة (**أيضًا ترتيب، وما منهم إلا وله مقام معلوم**) في بساط القرب، وكلهم مقرَّبون، ودرجات قربهم متفاوتة (**وأعلاهم في رتبة القرب مَلَكٌ اسمه إسرافيل** عليه السلام) وهو صاحب الصور. وقال المصنِّف في مشكاة الأنوار[٣]: قد انكشف لأرباب البصائر أن الأنوار الملكوتية إنما وُجدت علىٰ الترتيب بحيث يقتبس بعضُها من بعض، وأن المقرَّب هو الأقرب إلىٰ النور الأقصىٰ، فلا يبعُد أن تكون رتبة إسرافيل فوق

---

(١) رواه الطبري في جامع البيان ٢٣/ ٧٨ وابن الضريس في فضائل القرآن ص ٢٦ بلفظ: «لو حدثتكم بتفسيرها لكفرتم، وكفركم تكذيبكم بها».

(٢) المقصد الأسنىٰ ص ٤٤.

(٣) مشكاة الأنوار ص ٥٥ – ٥٦.

رتبة جبريل[١]، فإنَّ فيهم الأقرب بقرب درجته من حضرة الربوبية التي هي منبع الأنوار كلها، وإن فيهم الأدنىٰ، وبينهما درجات تستعصي علىٰ الإحصاء، وإنما المعلوم كثرتهم وترتيبهم في مقاماتهم وفي صفوفهم، وأنهم كما وصفوا به أنفسهم إذ قالوا: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ ١٦٤ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ١٦٥ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ ١٦٦﴾ [الصافات: ١٦٤ - ١٦٦] (**وإنما علوُّ درجتهم لأنهم في أنفسهم كِرام بَرَرة، وقد أصلح الله بهم الأنبياء**) بإيصال الوحي إليهم (**وهم**) أي الأنبياء (**أشرف مخلوق علىٰ وجه الأرض، وتلي درجتُهم درجةَ الأنبياء، فإنهم في أنفسهم أخيار، وقد هدىٰ الله بهم سائرَ الخلق**) إلىٰ ما فيه نجاتهم وعصمتهم (**وتمَّمَ بهم حكمتَه**) في الخلق (**وأعلاهم رتبةً نبيُّنا**) محمد (ﷺ **وعليهم؛ إذ أكمل اللهُ به الدينَ**) الذي ارتضاه (**وختم به النبيِّين**) والمرسَلين، كما يشير إلىٰ كلٍّ منهما قولُه تعالىٰ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة: ٣] وقوله تعالىٰ: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾ [الأحزاب: ٤٠] (**ويليهم العلماءُ الذين هم وَرَثة الأنبياء**) ورثوا منهم علمًا وحكمة (**فإنهم في أنفسهم صالحون، وقد أصلح الله بهم سائرَ الخلق**) بإرشادهم إيَّاهم إلىٰ طريق الحق (**ودرجة كل واحد منهم بقدْر ما أصلح من نفسه ومن غيره. ثم يليهم**) أي يلي درجةَ الأنبياء (**السلاطينُ بالعدل؛ لأنهم أصلحوا دنيا الخلق كما أصلح العلماءُ دينَهم**) فكلٌّ من العلماء والسلاطين في درجة واحدة ولكن مع اعتبارين مختلفين[٢] (**ولأجل اجتماع الدين والمُلك والسلطنة لنبيِّنا محمد ﷺ كان أفضل من سائر الأنبياء**)

---

(١) في الحديث: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل...» الحديث، فالذي يظهر أن هذا الترتيب بحسب الفضل والقرب، وفي الحديث أيضا: «إن الله تبارك وتعالىٰ إذا أحب عبداً نادىٰ جبريل: إن الله قد أحب فلانـاً فأحبه، فيحبه جبريل ثم ينادي جبريل في السماء أن الله قد أحب فلانـاً فأحبوه فيحبه أهل السماء» وفضل جبريل فيه من الظهور بمكان، وأخرج الطبراني في الكبير ١١/ ١٦٠ من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل الملائكة؟ جبريل...»، قال الهيثمي في المجمع ٨/ ١٩٨: فيه نافع بن هرمز وهو متروك. ووجه ما قاله الإمام قد جاء في بعض الآثار، انظرها في الحبائك في أخبار الملائك للسيوطي ص١٩ - ٣٧.

(٢) كذا قال.

عليهم السلام (**فإنه أكمل اللهُ به صلاحَ دينهم ودنياهم**) ومعاشهم ومعادهم (**ولم يكن السيف والمُلك لغيره من الأنبياء**) فقد روىٰ أحمد[١] والحكيم[٢] وأبو يعلىٰ والطبراني[٣] والبيهقي[٤] من حديث ابن عمر: «بُعِثتُ بين يدي الساعة بالسيف حتىٰ يُعبَد الله وحده لا شريك له، وجُعل رزقي تحت ظل رمحي، وجُعل الذل والصَّغار علىٰ مَن خالف أمري ...» الحديث (**ثم يلي العلماءَ والسلاطين الصالحون الذين أصلحوا دينهم**) وفي نسخة: أنفسهم (**فقط، فلم تتم حكمةُ الله بهم بل فيهم**) فهؤلاء كذلك لهم درجةٌ ما في القرب (**ومَن عدا هؤلاء فهمج رِعاع**) لا يُعبأ بهم (**واعلمْ أن السلطان**) المتولِّي لأمور المملكة أعمُّ من أن يكون خليفة أو ملكًا، وإن كان في مصطلح أهل الفن فرقٌ بين الثلاثة تقدَّمت الإشارة إليه في كتاب العلم (**به قوام الدين**) ونظامه وملاكه (**فلا ينبغي أن يُستحقَر**) أو يُهان (**وإن كان ظالمًا**) غشومًا (**فاسقًا**) متعدِّيًا للحدود الشرعية (**قال عمرو بن العاص رحمه الله تعالىٰ: إمام غشوم خيرٌ من فتنة تدوم**)[٥] والغشوم هو الظالم.

(**وقال النبي ﷺ: سيكون عليكم أمراء يفسدون، وما يُصلِح الله بهم أكثرُ، فإن أحسنوا فلهم الأجر وعليكم الشكر، وإن أساؤوا فعليهم الوزر وعليكم الصبر**) قال العراقي[٦]: رواه مسلم[٧] من حديث أم سلمة: «يُستعمَل عليكم أمراء، فتعرفون وتنكرون». ورواه الترمذي[٨] بلفظ: «سيكون أمراء»، وقال: حسن صحيح.

---

(١) مسند أحمد ٩/ ١٢٣، ١٢٦، ٤٧٨.

(٢) نوادر الأصول ص ٤١٦.

(٣) المعجم الكبير ١٣/ ٣١٧.

(٤) شعب الإيمان ٢/ ٤١٨.

(٥) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٦/ ١٨٤.

(٦) المغني ٢/ ١٠٢٣.

(٧) صحيح مسلم ٢/ ٨٩٩، وتمامه: «فمن عرف برئ، ومن أنكر سلم، ولكن من رضي وتابع. قالوا: أفلا نقاتلهم؟ قال: لا، ما صلوا».

(٨) سنن الترمذي ٤/ ١١٣، وفيه: «سيكون عليكم أئمة».

وللبزَّار[١] بسند ضعيف من حديث ابن عمر: «السلطان ظلُّ الله في الأرض، يأوي إليه كل مظلوم من عباده، فإن عدلَ كان له الأجر وعلىٰ الرعية الشكر، وإن جارَ أو حافَ أو ظلمَ كان عليه الوِزر وعلىٰ الرعية الصبر». وأما قوله «وما يُصلِح اللهُ بهم أكثرُ» فلم أجده بهذا اللفظ، إلا أنه يؤخَذ من حديث ابن مسعود حين فزع إليه الناس لمَّا أنكروا سيرة الوليد بن عُقبة، فقال عبد الله: اصبروا، فإنَّ جور إمامكم خمسين سنة خير من هَرْج سنة، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول ... فذكر حديثًا فيه: «والإمارة الفاجرة خيرٌ من الهَرْج». رواه الطبراني في الكبير[٢] بإسناد لا بأس به. انتهىٰ.

قلت: بل هو في حديث الربيع بن عميلة عن ابن مسعود رفعه: «سيليكم أمراء يفسدون، وما يُصلِح اللهُ بهم أكثر، فمَن عملَ منهم بطاعة الله فلهم الأجر وعليكم الشكر، ومَن عمل منهم بمعصية الله فعليهم الوزر وعليكم الصبر». رواه هكذا البيهقي في الشعب[٣] وأبو نعيم في العادلين[٤] وابن النجار في التاريخ، وقد نبَّه علىٰ ذلك الحافظ السخاويُّ في هامش المغني مختصرًا[٥].

ووجدت بعض سياق المصنِّف في حديث أبي هريرة: «سيليكم بعدي ولاةٌ، فيليكم البرُّ ببرِّه، ويليكم الفاجرُ بفجوره، فاسمعوا لهم وأطيعوا في كل ما وافق الحقَّ، وصلُّوا وراءهم، فإن أحسنوا فلكم ولهم، وإن أساءوا فلكم وعليهم». رواه ابن جرير[٦] والدارقطني[٧] وابن النجار بإسناد ضعيف.

---

(١) مسند البزار ١٢/ ١٧.

(٢) المعجم الكبير ١٠/ ١٦٢، وفيه: (خير من هرج شهر)، بدل: خير من هرج سنة.

(٣) شعب الإيمان ٩/ ٤٧٥.

(٤) فضيلة العادلين من الولاة ص ١٦٢ (ط - دار الوطن بالرياض).

(٥) قال أبو حاتم الرازي كما في العلل لولده ٦/ ٥٥٤: هذا حديث منكر.

(٦) جامع البيان ٧/ ١٨٣.

(٧) سنن الدارقطني ٢/ ٤٠٠.

وفي خبر آخر: «سيكون من بعدي أمراء، فأدُّوا إليهم طاعتَهم، فإن الأمير مثل المجن يُتَّقَىٰ به، فإن صلحوا واتقوا وأمروكم بخير فلكم ولهم، وإن أساءوا وأمروكم فعليهم وأنتم منه بَراء، وإن الأمير إذا ابتغىٰ الريبة في الناس أفسدهم». رواه الطبراني في الكبير[1] عن شريح بن عبيد قال: أخبرني جبير بن نفير وكثير بن مُرَّة وعمرو بن الأسود والمقدام بن معدي كَرِب وأبو أمامة.

(**وقال سهل**) التستري رحمه الله تعالىٰ: (**مَن أنكر إمامة السلطان فهو زنديق، ومَن دعاه السلطان فلم يجبْه فهو مبتدع، ومَن أتاه من غير دعوة فهو جاهل.**

وسُئل) أيضًا: (**أيُّ الناس خير؟ فقال: السلطان. فقيل**) له: إنَّا (**كنا نرىٰ أن شر الناس السلطان. فقال: مهلاً، إن لله تعالىٰ كل يوم نظرتين: نظرة إلىٰ سلامة أموال المسلمين، ونظرة إلىٰ سلامة أبدانهم، فيطَّلع في صحيفته فيغفر له جميع ذنبه.**

وكان) أيضًا (**يقول: الخشبات السود المعلَّقة علىٰ أبوابهم خيرٌ من سبعين قاصًّا يقصُّ**) وفي نسخة: قاصًّا يقصُّون.

وروىٰ صاحب الحلية[2] في ترجمة عبد الله بن المبارك من قوله:

الله يدفع بالسلطان معضلةً عن ديننا رحمةً منه ورضوانا
لولا الأئمَّة لم تأمن لنا سبلٌ وكان أضعفُنا نهبًا لأقوانا

(الركن الثاني من أركان الشكر: ما عليه الشكر وهو النعمة

فلنذكر فيه حقيقة النعمة وأقسامها ودرجاتها وأصنافها ومَجامِعها فيما يخصُّ ويعمُّ، فإن إحصاء نِعم الله تعالىٰ) الموهوبة والمكتسَبة (**علىٰ عباده خارج عن مقدور البشر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾** [النحل: ١٨]

---

(١) المعجم الكبير ٨/ ١٢٨، ٢٠/ ٢٧٦.

(٢) حلية الأولياء ٨/ ١٦٤. والبيتان في ديوان ابن المبارك ص ١١٢ ضمن قصيدة في العقيدة.

فنقدِّم أمورًا كلِّية تجري مَجرىٰ القوانين في معرفة النعم، ثم نشتغل بذكر الآحاد. والله الموفِّق للصواب).

بيان حقيقة النعمة وأقسامها

(اعلمْ) وفَّقك الله تعالىٰ (أن كل خير ولذَّة وسعادة بل كل مطلوب ومؤثَر) أي مختار (فإنه يسمَّىٰ نعمة، ولكن النعمة في الحقيقة هي السعادة الأخروية) وإليها[1] الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ﴾ الآية [هود: ١٠٨] وذلك هو الخير المحض والفضيلة الصِّرف، وهو أربعة أشياء: بقاء بلا فناء، وقدرة بلا عجز، وعلم بلا جهل، وغنًىٰ بلا فقر (وتسمية ما سواها نعمة وسعادة إما غلط وإما مجاز) إمَّا لكونه معاونًا في بلوغ ذلك أو نافعًا فيه (كتسمية السعادة الدنيوية التي لا تعين علىٰ الآخرة نعمة، فإنَّ ذلك غلط محض، وقد يكون اسم النعمة للشيء صدقًا) في حدِّ ذاته (ولكن يكون إطلاقه علىٰ السعادة الأخروية أصدق، فكل سبب يوصل إلىٰ سعادة الآخرة ويعين عليها إمَّا بواسطة واحدة أو بوسائط) متعدِّدة (فإنَّ تسميته نعمة صحيح وصِدق لأجل أنه يفضي إلىٰ النعمة الحقيقية) وكل ما أفضَىٰ إلىٰ النعمة نعمةٌ، كما أن كل ما أعانَ علىٰ خير وسعادة فهو خير وسعادة (والأسباب المعينة) علىٰ الخير (واللذَّات التي نسمِّيها نعمة نشرحها بتقسيمات:

القسمة الأولىٰ: أن الأمور) التي هي معينة ونافعة في بلوغ السعادة الأخروية (كلها بالإضافة إلينا) متفاوتة الأحوال، وهي (تنقسم إلىٰ ما هو نافع) في جميع الأحوال وعلىٰ كل وجه (في الدنيا والآخرة جميعًا كالعلم وحُسن الخلق، وإلىٰ ما هو ضارٌّ فيهما جميعًا) في سائر الأحوال وعلىٰ كل وجه (كالجهل وسوء الخلق، وإلىٰ ما ينفع في الحال و) لكن (يضرُّ في المآل) فهو نفع في حال دون حال، وعلىٰ وجه دون وجه، وذلك (كالتلذُّذ باتِّباع الشهوات) والإخلاد إليها (وإلىٰ ما يضرُّ

---

(١) الذريعة للراغب ص ١٠٦ - ١٢١.

في الحال ويؤلم ولكن ينفع في المآل) فهو ضرر في حال دون حال، وعلىٰ وجه دون وجه، وذلك (كقمع الشهوات ومخالفة النفس) فالأقسام أربعة (فالنافع في الحال وفي المآل هو النعمة تحقيقًا كالعلم وحُسن الخلق، والضارُّ فيهما هو البلاء تحقيقًا، وهو ضدهما) كالجهل وسوء الخُلق (والنافع في الحال المضرُّ في المآل بلاءٌ محض عند ذوي الأبصار، ويظنه الجهَّال نعمة، ومثاله الجائع إذا وجد عسلاً فيه سم) ناقع (فإنه يعدُّه نعمة إن كان جاهلاً) به (وإذا علمه علمَ أن ذلك بلاءٌ سِيقَ إليه) فيجتنبه (والضارُّ في الحال النافع في المآل نعمة عند ذوي الألباب، بلاء عند الجهّال، ومثاله الدواء البشع) أي الكريه (في الحال، المر مذاقه) أي طعمه (إلا أنه شافٍ من الأمراض والأسقام وجالب للصحة والسلامة، فالصبي الجاهل إذا كُلِّف شربه ظنه بلاء) سِيقَ إليه (والعاقل) الكامل (يعدُّه نعمةً ويتقلَّد المنَّة ممَّن يهديه إليه ويقرِّبه منه ويهيِّئ له أسبابَه) ويمكِّنه منه (فلذلك تمنع الأم ولدها من الحجامة) في البلاد الحارة (والأب يدعوه إليها، فإن الأب لكمال عقله يلمح العاقبة) أي المآل (والأم لفرط حبِّها) له (وقصورها) في عقلها (تلحظ الحالَ) دون المآل (والصبي لجهله يتقلَّد منَّة أمه دون أبيه ويأنس إليها و) يميل (إلىٰ شفقتها، ويقدِّر الأبَ عدوًّا له، ولو عقلَ لعلمَ أن الأم عدو باطن في صورة صديق) فهي كما قال القائل[1]:

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشَّفت ... له عن عدوٍّ في ثياب صديق

(لأن منعها إيَّاه) أي ولدها (من الحجامة) في الوقت المحتاج [إليها] (يسوقه إلىٰ أمراض وآلام أشد من الحجامة) فيما بعد (ولكن الصديق الجاهل شرٌّ من العدو العاقل) فإنَّ عقل العدو ربما يصدُّه عن كثير ممَّا يعادي به (وكل إنسان فإنه صديق نفسه، ولكنه صديق جاهل، فلذلك يعمل به ما لا يعمل به العدوُّ) فحقُّ العاقل أن يعرف تلك الأمور بحقائقها حتىٰ لا يقع الخطأ عليه في اختياره الوضيع علىٰ الرفيع وتقديمه الخسيس علىٰ النفيس، والناس في متحرِّياتها [قسمان]: طالب

---

(١) هو أبو نواس، والبيت في ديوانه ٢/ ١٥٩.

خير، وهارب من شرٍّ، كما قال الشاعر[1]:

كل يحـاول حيلـةً يرجـو بهـا ... دفـع المضـرَّة واجتـلاب المنفعـة

والمـرء يغلـط في تصـرُّف حالـه ... فلربمـا اختـار العَنـاء علىٰ الدَّعـة

لكن قد يحسب الشحمَ فيمَن شحمُه ورمٌ، ويقدِّر في الشيء أنه رزق نافع وحشوه سم ناقع، فلذلك يحق علىٰ العاقل أن يجلي بصيرتَه ويعرف من كل ما يطلب حقيقته لئلاً يكون كمَن يريد حبلاً يتطق به فرأىٰ حيَّة فظنها مُبتغاه فأخذها فلدغته[2].

(**قسمة ثانية: اعلمْ أن الأسباب الدنيوية مختلطة، قد امتزج خيرُها بشرِّها، فقلَّما يصفو خيرُها**) لشدة الاختلاط، وذلك (**كالمال والأهل والولد والأقارب والجاه وسائر الأسباب، ولكن ينقسم**) ذلك (**إلىٰ ما نفعُه أكثر من ضرره كقدْر الكفاية من المال والجاه وسائر الأسباب، وإلىٰ ما ضررُه أكثر من نفعه في حق أكثر الأشخاص كالمال الكثير**) الزائد في الكفاية (**والجاه الواسع**) عند ذوي الأموال (**وإلىٰ ما يكافئ**) أي يقابل (**ضررُه نفعَه، وهذه أمور تختلف باختلاف الأشخاص، فرُب إنسان صالح ينتفع بالمال الصالح وإن كثُر، فينفقه في سبيل الله ويصرفه إلىٰ الخيرات، فهو مع هذا التوفيق نعمةٌ في حقه**) إذ لم يُطْغِه (**ورُب إنسان يستضرُّ بالقليل**) من المال (**أيضًا؛ إذ لا يزال مستصغرًا له**) أي مستحقرًا (**شاكيًا من ربِّه**) في خلوته وجلوته، غير راضٍ عنه فيما قسمه له (**طالبًا للزيادة عليه، فيكون ذلك مع هذا الخذلان**) وقلة التوفيق (**بلاءً في حقه**) فحقُّ العاقل أن يتحرَّىٰ في تلك الأمور ويعطي النعم استحقاقها.

(**قسمة ثالثة: اعلمْ أن الخيرات بإعتبار آخر تنقسم إلىٰ ما هو مؤثَر لذاته لا**

---

(١) هو أبو العتاهية، والبيتان في ديوانه ص ٢٧١ ولكن بتقديم البيت الثاني علىٰ الأول.

(٢) الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة ص١٢٩.

لغيره، وإلىٰ) ما هو (مؤثَر لغيره) لا لذاته (وإلىٰ) ما هو (مؤثَر لذاته ولغيره) معًا:

(فالأول) من الأقسام: (ما يؤثَر لذاته لا لغيره) وهو (كلذَّة النظر إلىٰ وجه الله تعالىٰ وسعادة لقائه) وكذلك السعادة النفسية (وبالجملة سعادة الآخرة التي لا انقضاء لها، فإنها لا تُطلَب ليُتوصل بها إلىٰ غاية أخرىٰ مقصودة وراءها، بل تُطلَب لذاتها.

الثاني) من الأقسام: (ما يُقصَد لغيره، ولا غرض أيضًا في ذاته) وهذا (كالدراهم والدنانير، فإن الحاجات) الضرورية (لو كانت لا تنقضي بها لكانت هي والحصباء بمثابة واحدة) أي بمنزلة سواء (ولكن لمَّا كانت وسيلة إلىٰ اللذَّات سريعة الإيصال إليها) كما قال القائل:

إذا كنت في حاجة مرسلاً فأرسِلْ رسولاً هو الدرهم[1]

(صارت عند الجهَّال محبوبة في أنفسها، حتىٰ) إنهم (يجمعونها ويكنزونها) ويتقاتلون عندها (ويتصارفون عليها بالربا، ويظنون أنها مقصودة) لذاتها (ومثال هؤلاء مثال مَن يحب شخصًا فيحب بسببه رسولَه الذي يجمع بينه وبينه، ثم ينسىٰ في محبة الرسول) الذي هو الواسطة (محبةَ الأصل) الذي هو المحبوب (فيُعرِض عنه طولَ عمره، ولا يزال مشغولاً بتعهُّد الرسول ومراعاته وتفقُّده، وهو غاية الجهل والضلال.

الثالث) من الأقسام: (ما يُقصَد لذاته ولغيره كالصحة والسلامة، فإنها تُقصَد ليُقدَر بسببها علىٰ الذِّكر والفكر الموصِّلين إلىٰ لقاء الله تعالىٰ) وهو قصدُ العارفين (أو ليُتوصل بها إلىٰ استيفاء لذَّات الدنيا) وهو قصدُ الجاهلين (وتُقصَد أيضًا لذاتها، فإن الإنسان وإن استغنىٰ عن الشيء الذي تُراد سلامة الرِّجل لأجله فيريد أيضًا سلامة الرِّجل) وصحتها (من حيث إنها سلامة. فإذًا المؤثَر لذاته فقط هو الخير

---

(١) تقدم هذا البيت في كتاب ذم البخل وحب المال.

والنعمة تحقيقًا، وما يؤثَر لذاته ولغيره أيضًا فهو نعمة ولكن دون الأول) في الرتبة (فأما ما لا يؤثَر إلا لغيره كالنقدين فلا يوصَفان في أنفسهما من حيث إنهما جوهران بأنهما نعمة بل من حيث هما وسيلتان، فيكونان نعمة في حق مَن يقصد أمرًا ليس يمكنه أن يتوصل إليه إلا بهما، فلو كان مقصده العلم والعبادة ومعه الكفاية التي هي ضرورة حياته استوىٰ عنده الذهب والمَدَر فكان وجودهما وعدمهما عنده بمثابة واحدة، بل ربما شغله وجودُهما) عنده (عن الفكر والعبادة، فيكونان بلاء في حقه ولا يكونان نعمة) فحقُّ العاقل أن يكتفي بالقدْر الضروري منهما.

(قسمة رابعة: اعلمْ أن الخيرات باعتبار آخَر تنقسم إلىٰ نافع ولذيذ وجميل، فاللذيذ هو الذي تُدرَك راحته في الحال، والنافع هو الذي يفيد في المآل، والجميل هو الذي يُستحسَن في سائر الأحوال. والشرور أيضًا تنقسم إلىٰ ضارٍّ وقبيح ومؤلم، وكل واحد من القسمين ضربان: مطلق ومقيَّد، والمطلَق هو الذي اجتمعت فيه الأوصاف الثلاثة، أما في الخير فكالعلم والحكمة، فإنها نافعة وجميلة ولذيذة عند أهل العلم والحكمة، وأما في الشر فكالجهل، فإنه ضارٌّ وقبيح ومؤلم، وإنما يحس الجاهل بألم جهله إذا عرف أنه جاهل، وذلك بأن يرىٰ غيرَه عالمًا ويرىٰ نفسه جاهلاً، فيدرك ألمَ النقص، فتنبعث منه شهوة العلم اللذيذة، ثم قد يمنعه الحسد والكبر و) إيثار الراحة والدعة وغيرها من (الشهوات البدنية من التعلُّم، فيتجاذبه متضادَّان، فيعظُم ألمُه، فإنه إن ترك التعلُّم تألَّم بالجهل ودرك النقصان، وإن اشتغل بالتعلُّم تألَّم بترك الشهوات أو بترك الكبر وذلِّ التعلُّم، ومثل هذا الشخص لا يزال في عذاب دائم لا محالة. والضرب الثاني: مقيَّد، وهو الذي جمع بعضَ هذه الأوصاف دون بعض) أي شيئًا من أوصاف الخيرات وشيئًا من أوصاف الشرور (فرُب نافع) مؤذٍ (مؤلم، كقطع الإصبع الزائدة) وفي نسخة: المتآكلة (والسلعة الخارجة من البدن) كجدع قصير أنفه[1]، فإنه وإن نفعه في إدراك الثأر فقد آذاه (ورُب نافع قبيح

(١) في مجمع الأمثال ٢/ ١٩٦: «لأمرٍ ما جدع قصير أنفه». وهذا المثل قالته الزباء ملكة تدمر لما =

كالحمق) وهو فساد جوهر العقل (**فإنه بالإضافة إلىٰ بعض الأحوال نافع، وقد قيل: استراح مَن لا عقل له**[١]**، فإنه لا يهتم بالعاقبة فيستريح في الحال إلىٰ أن يحين وقتُ هلاكه**) فهذا وإن نفعه باعتبار ذلك فهو جدُّ قبيحٍ (**ورُب نافع من وجه ضارٌّ من وجه**) آخر (**كإلقاء المال في البحر عند خوف الغرق**) أي كمَن في سفينة فخاف الغرقَ فألقىٰ متاعه في الماء فتخلَّصت السفينة (**فإنه ضارٌّ للمال، نافع للنفس في نجاتها**) والوجهان مختلفان، وكل ما نفعُه وجماله ولذَّته أطول مدةً وأعم عائدةً فهو أفضل.

فإن قيل: ما الفرق بين الخير والسعادة والفضيلة والنافع؟ فاعلمْ أن الخير المطلق هو المختار من أجل نفسه والمختار غيره لأجله، وهو الذي يتشوَّفه كلُّ عاقل، بل [قد قيل: هو الذي يتشوَّفه] الكل بلا مثنوية، ويضادُّه الشرُّ وهو المحترَز من أجل نفسه والمحترَز غيره من أجله. والسعادة المطلقة حُسن الحياة في الآخرة، وهي الأربع التي تقدَّم ذِكرُها، وقد يُقال لِما يُتوصل به إلىٰ هذه [السعادات] الأربع سعادة، ويضادُّها الشقاوةُ. وأما الفضيلة فاسم لِما يحصِّل به الإنسان مزيةً علىٰ الغير [وهي اسم لِما] يتوصَّل به إلىٰ السعادة، ويضادُّها الرذيلة. وأما النافع فهو ما يعين علىٰ بلوغ الفضيلة والسعادة والخير[٢].

(**و**) إذا علمتَ ذلك فاعلمْ أن (**النافع قسمان: ضروري**) وهو ما لا يمكن الوصول إلىٰ المطلوب إلا به (**كالإيمان وحُسن الخُلق في الإيصال إلىٰ سعادة الآخرة، وأعني بهما العلمَ والعمل**) الصالح للمكلَّفين (**إذ لا يقوم مقامَهما ألبتَّة**

= رأت قصير بن سعد اللخمي مجدوعا. وفي المعجم الوسيط (مادة – جدع): «يضرب للشيء يكون وسيلة لأمر مستور».

(١) قاله عمرو بن العاص رضي الله عنه، وهو جزء من الأثر الذي تقدم قريبا بلفظ: «سلطان غشوم خير من فتنة تدوم». وهو جارٍ مجرىٰ الأمثال، وقد أورده العسكري في جمهرة الأمثال ١/ ١٢١، والميداني في مجمع الأمثال ١/ ٢٩٨.

(٢) الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة ص١٣١، ١٣٢.

غيرُهما، وإلىٰ ما لا يكون ضروريًّا) وهو الذي قد يسد غيرُه مَسَدَّه (كالسكنجبين مثلاً في تسكين الصفراء، فإنه قد يمكن تسكينها أيضًا بما يقوم مقامَه) وكل نافع فقد يسمَّىٰ فضيلة وسعادة وخيرًا لكونه مبلِّغًا إلىٰ ذلك. والله أعلم.

(قسمة خامسة: اعلمْ أن النعمة يعبَّر بها عن كل لذيذ، واللذَّات بالإضافة إلىٰ الإنسان من حيث اختصاصه بها أو مشاركته لغيره ثلاثة أنواع): لذة (عقلية، و) لذة (بدنية) وهي علىٰ قسمين: إما (مشتركة مع بعض الحيوانات، و) إما (بدنية مشتركة مع جميع الحيوانات. أما) اللذة (العقلية فكلذَّة العلم والحكمة؛ إذ ليس يستلذُّها السمعُ والبصر والشم والذوق، ولا البطن ولا الفرج، وإنما يستلذُّها القلبُ؛ لاختصاصه بصفة يعبَّر عنها بـ «العقل»، وهذه أقلُّ اللذات وجودًا، وهي أشرُفها. أما قلَّتها فلأن العلم لا يستلذُّه إلا عالِم، والحكمة لا يستلذُّها إلا حكيم، وما أقل أهل العلم والحكمة! وما أكثر المتسمِّين باسمهم والمترسِّمين برسمهم. وأما شرفها فلأنها لازمة لا تزول أبدًا لا في الدنيا ولا في الآخرة، ودائمة لا تُمَلُّ، فالطعام يُشبَع منه فيُمَلُّ، وشهوة الوقاع يُفرَغ منها فتُستثقَل) ولو أنه لا يُمَلُّ منها (والعلم والحكمة قط لا يُتصور أن تُمَلَّ وتُستثقَل) فحقُّ العاقل أن يرغب إلىٰ الله في أن يعطيه ما فيه مصلحته ممَّا لا سبيل له بنفسه إلىٰ اكتسابه، وأن يبذل جهده مستعينًا بالله في اكتساب ما له كسبُه وبلوغ الأعلىٰ فالأعلىٰ منه علىٰ الترتيب، فبذلك يشرُف (ومَن قدر علىٰ الشريف الباقي أبد الآباد إذا رضي بالخسيس الفاني في أقرب الآماد فهو مصاب في عقله محروم لشقاوته وإدباره) ومَن ضيَّع أنفسَ المقتنيات مع التمكُّن من تحصيله فهو دنيء الهمَّة، راضٍ بخسيس الحال (وأقل أمرٍ فيه أن) كلاًّ من (العلم والعقل) إذا حُصِّل لا يغيب، و(لا يُحتاج) في حفظه (إلىٰ أعوان وحَفَظة، بخلاف المال) وغيره من المقتنيات الحالية (إذ العلم يحرسك، وأنت تحرس المال. والعلم يزيد بالإنفاق، والمال ينقُص بالإنفاق. والمال يُصرَف، والولاية يُعزَل عنها. والعلم لا تمتدُّ إليه أيدي السُّرَّاق بالأخذ ولا أيدي السلاطين

بالعزل، فيكون صاحبه في روح الأمن أبدًا، وصاحب المال والجاه في كرب الخوف أبدًا) وتقدم الكلام علىٰ ضده المجمَل تفصيلاً في كتاب العلم **(ثم العلم نافع ولذيذ وجميل)** عاجلاً وآجلاً ومطلقًا **(في كل حال أبدًا)** أي في كل زمان وكل مكان، ولذا كان أفضل الفضائل النفسية **(والمال)** وكذا الجاه، وهما من الخيرات المتوسطة **(تارةً يجذب إلىٰ الهلاك)** إذا كان مع الجهل **(وتارةً يجذب إلىٰ النجاة)** إذا كان مع العلم **(ولذلك ذمَّ الله تعالىٰ المالَ في القرآن في مواضع)** كثيرة، ونبَّه علىٰ كونه سببًا للشر فقال: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥] وقال تعالىٰ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ الآية [التوبة: ٥٥] ولذلك قيل: السعيد هو الخيِّر العاقل، غنيًّا كان أو فقيرًا، قويًّا كان أو ضعيفًا **(وإن سمَّاه خيرًا في مواضع)** كقوله تعالىٰ: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠] ولكنه قد يكون خيرًا لبعض الناس وشرًّا لبعضهم، فمعلوم أنه كان شرًّا لمَن قال تعالىٰ فيه: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾ [الهمزة: ٢ - ٣] **(وأما قصور أكثر الخلق عن إدراك لذة العلم)** والحكمة **(فإما لعدم الذوق)** وهو تناوُل الشيء بالفم لإدراك الطَّعم، هذا هو الأصل **(فمَن لم يذُقْ لم يعرف ولم يشتَقْ؛ إذ الشوق تبعٌ للذوق)** وإليه الإشارة بقول القائل:

ولو يذوق عاذلي صبابتي ... صَبا معي لكنه ما ذاقها(١)

(وإما لفساد أمزجتهم ومرض قلوبهم بسبب اتِّباع الشهوات) فإنَّ لها تأثيرًا ظاهرًا في تغيير الأمزجة **(كالمريض الذي لا يدرك حلاوة العسل ويراه مرًّا)** كما قال المتنبي:

ومَن يكُ ذا فم مرٍّ مريض ... يجد مرًّا به الماءَ الزُّلالا

(وإما لقصور فِطرتهم) التي فُطِروا عليها **(إذ لم تُخلَق لهم بعدُ الصفة التي بها يُستلَذُّ العلم، كالطفل الرضيع الذي لا يدرك لذة العسل والطيور السِّمان، ولا**

---

(١) تقدم هذا البيت في كتاب ذم الغضب والحقد والحسد.

يستلذُّ إلا اللبن، وذلك لا يدل على أنها ليست لذيذة، ولا استطابته اللبن تدل على أنه ألذ الأشياء. فالقاصرون عن درك لذة العلم والحكمة ثلاثة: إما مَن لم يحيا) بعدُ (باطنه كالطفل) فإنه غير متهيِّئ لذلك (وإمَّا مَن مات بعد الحياة باتِّباع الشهوات) فإنها تميت القلوبَ (وإما مَن مرضَ بسبب اتِّباع الشهوات) ولم يمُتْ بعدُ، فكل هؤلاء قاصرون عن درك اللذة المعنوية (وقوله تعالىٰ) في حق المنافقين: (﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠] إشارة إلىٰ مرض العقول، وقوله تعالىٰ: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠] إشارة إلىٰ مَن حييَ حياة باطنة[1]) وليس المراد به الحياة الظاهرة (وكل حيٍّ بالبدن ميت بالقلب فهو عند الله من الموتىٰ) أي يُعَدُّ منهم (وإن كان) هو (عند الجُهَّال) يُعَدُّ (من الأحياء، ولذلك كان الشهداء) في سبيل الله (أحياء عند ربِّهم يُرزَقون فَرِحين) كما أخبر بذلك عنهم اللهُ تعالىٰ (وإن كانوا موتىٰ بالأبدان.

الثانية: لذة يشارك الإنسان فيها بعض الحيوانات، كلذة الرياسة والغلبة والاستيلاء) والقهر (وذلك موجود في الأسد والنمر وبعض الحيوانات) من السباع والوحوش.

(الثالثة: ما يشارك بها سائر الحيوانات، كلذة البطن والفرج، وهذه أكثرها وجودًا، وهي أخسُّها) رتبةً (ولذلك اشترك فيها كل ما دبَّ) علىٰ الأرض (ودرجَ حتىٰ الديدان والحشرات، ومَن جاوز هذه الرتبةَ تشبَّثت به لذةُ الغلبة، وهي أشدُّها التصاقًا بالمتغافلين، فإن جاوز ذلك ارتقَىٰ إلىٰ الثالثة فصار أغلبُ اللذات عليه لذة العلم والحكمة لا سيَّما لذة معرفة الله تعالىٰ ومعرفة صفاته وأفعاله، وهذه رتبة الصِّدِّيقين) وخرج العارفون من الدنيا ولم يذوقوا أطيب من هذا (ولا يُنال تمامها إلا بخروج استيلاء حب الرياسة من القلب، وآخر ما يخرج من رؤوس

---

(١) في الجميع: إشارة إلىٰ من لم يحي حياة باطنة. وهو الصواب، ولعل حرف «لم» سقط من المطبوعة، والله أعلم.

الصِّدِّيقين حب الرياسة) كما قاله سهل رحمه الله تعالىٰ[1] (وأما شَرَهُ البطن والفرج فكسرُه) وقهره (ممَّا يقوَىٰ عليه الصالحون) من عباد الله تعالىٰ (وشهوة الرياسة لا يقوَىٰ علىٰ كسرها) وفي نسخة: قهرها (إلا الصِّدِّيقون، فأما قمعُها بالكلِّية حتىٰ لا يقع بها الإحساس علىٰ الدوام وفي اختلاف الأحوال فيشبه أن يكون خارجًا عن مقدور البشر) إذ لا بد من معاودة في بعض الأحوال بمقتضَىٰ ما جُبل عليه البشر (نعم، تغلب لذةُ معرفة الله تعالىٰ في أحوال لا يقع معها الإحساسُ بلذة الرياسة والغلبة، ولكن ذلك لا يدوم طولَ العمر، بل تعتريه الفترات فتعود إليه الصفات البشرية، فتكون موجودة ولكن تكون مقهورة) بالعقل (لا تقوَىٰ علىٰ حمل النفوس علىٰ العدول عن) منهج (العدل) المأمور به (وعند هذا تنقسم القلوب إلىٰ أربعة أقسام: قلب لا يحب إلا الله ولا يستريح إلا بزيادة المعرفة به والفكر فيه. وقلب لا يدري ما لذة المعرفة وما معنىٰ الأنس بالله، وإنما لذته بالجاه والرياسة والمال وسائر الشهوات البدنية. وقلب أغلبُ أحواله الأنس بالله والتلذُّذ بمعرفته والفكر فيه، ولكن قد يعتريه في بعض الأحوال الرجوعُ إلىٰ أوصاف البشرية. وقلبٌ أغلبُ أحواله التلذُّذُ بالصفات البشرية، ويعتريه في بعض الأحوال تلذُّذٌ بالعلم والمعرفة. أما الأول وإن كان ممكنًا في الوجود) لا يستحيله العقلُ (فهو في غاية البعد، وأما الثاني فالدنيا طافحة به) أي ممتلئة (وأما الثالث والرابع فموجودان ولكن علىٰ غاية الندور، ولا يُتصور أن يكون ذلك إلا نادرًا شاذًّا) قليل الوجود (وهو مع الندور يتفاوت في القلة والكثرة، وإنما تكون كثرته في الأعصار القريبة من أعصار الأنبياء عليهم السلام) لكثرة الأنوار فيها (فلا يزال يزداد العهد طولاً وتزداد مثل هذه القلوب قلة إلىٰ أن تقرُب الساعةُ ويقضي الله أمرًا كان مفعولاً، وإنما وجبَ أن يكون هذا نادرًا لأنه مبادئ مُلْك الآخرة، والمُلك عزيز، والملوك) يقلُّون و(لا يكثُرون، فكما لا يكون الفائق في المُلك والجمال) في الدنيا (إلا نادرًا وأكثرُ الناس مَن دونهم فكذا

---

(١) لم أر أحدا نسب هذا القول إلىٰ سهل فيما لدي من مصادر.

في مُلك الآخرة، فإن الدنيا مرآة الآخرة) بها يتراءىٰ ما في الآخرة (فإنها عبارة عن عالَم الشهادة، والآخرة عبارة عن عالَم الغيب) المختصّ (وعالم الشهادة تابع لعالَم الغيب، كما أن الصورة في المرآة تابعة لصورة الناظر في المرآة، والصورة في المرآة وإن كانت هي الثانية في رتبة الوجود فإنها أولىٰ في حق رؤيتك، فإنك لا ترىٰ نفسك وترىٰ صورتك في المرآة أولاً فتعرف بها صورتك التي هي قائمة بك ثانيًا علىٰ سبيل المحاكاة، فانقلب التابع في الوجود متبوعًا في حق المعرفة، وانقلب المتأخر متقدِّمًا، وهذا نوع من الانعكاس) غريب المعنىٰ (ولكن الانعكاس والانتكاس ضرورة هذا العالَم، فكذلك عالَم المُلك والشهادة مُحاكٍ لعالَم الغيب والملكوت) وفي[1] هذا العالَم عجائب يُستحقَر بالإضافة إليها عالمُ الشهادة، وهو بالإضافة إلىٰ عالم الملكوت كالقشرة بالإضافة إلىٰ اللُّب، وكالصورة والقالب بالإضافة إلىٰ الروح، وكالظلمة بالإضافة إلىٰ النور، وكالسُّفل بالإضافة إلىٰ العلو، ولذلك يسمَّىٰ: العالَم العلوي والروحاني والنوراني، وفي مقابلته العالَم السفلي والجسماني والظُّلماني، قال الله تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ [الأنعام: ٥٩] أي: من عنده تنزل أسباب الموجودات في عالم الشهادة؛ إذ عالم الشهادة أثر من آثار ذلك العالم، يجري منه مجرىٰ الظل بالإضافة إلىٰ الشخص، ومجرىٰ الثمر بالإضافة إلىٰ المثمر، والمسبَّب بالإضافة إلىٰ السبب، ومفاتيح معرفة المسبَّبات لا تؤثَر إلا من الأسباب، ولذلك كان عالم الشهادة مثالاً لعالم الملكوت، والمشبَّه لا يخلو من موازاة المشبَّه به ومحاكاته نوعًا من المُحاكاة علىٰ قرب أو علىٰ بُعد، فلو لم يكن بينهما مناسبة واتصال لَما تُصوِّر الترقِّي من أحدهما إلىٰ الآخر، فجعلت الرحمة الإلهية عالم الشهادة علىٰ موازنة عالم الملكوت، فما من شيء من هذا العالم إلا وهو مثال لشيء من ذلك العالم، وربما كان الشيء الواحد مثالاً لأشياء من [عالم] الملكوت، وربما كان للشيء الواحد من الملكوت أمثلة كثيرة من عالم الشهادة،

---

(١) مشكاة الأنوار ص ٥٢، ٥٣، ٧١.

وإنما يكون مثالاً إذا ماثلَه نوعًا من المماثلة وطابقَه نوعًا من المطابقة (**فمن الناس مَن يُسِّرَ له نظرُ الاعتبار، فلا ينظر في شيء من عالم المُلك**) والشهادة (**إلا ويعبر به إلىٰ عالم الملكوت، فيسمَّىٰ عبوره**) ذلك (**عِبرة**) وهو بالكسر، من الاعتبار (**وقد أمر الحقُّ به فقال:** ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢﴾ [الحشر: ٢] **ومنهم مَن عميتْ بصيرتُه فلم يعبر فاحتُبس في عالم المُلك والشهادة، وستُفتَح إلىٰ حبسه أبواب جهنم، وهذا الحبس ممتلئ نارًا**) أوقدها الله تعالىٰ (**من شأنها أن تطَّلع علىٰ الأفئدة**) أي تعلو أوساطَ القلوب وتشتمل عليها (**إلا أنَّ بينه وبين إدراك ألمها حجابًا، فإذا رُفع ذلك الحجاب بالموت أدرك الألم، وعن هذا أظهر اللهُ تعالىٰ الحقَّ علىٰ لسان قوم**) من أهل السنَّة والجماعة (**استنطقهم بالحق فقالوا: الجنة والنار مخلوقتان**) وهما موجودتان الآن، فالجنة فوق السموات، والنار تحت الأرضين (**ولكن الجحيم تُدرَك مرةً بإدراك يسمَّىٰ: علم اليقين**) وهو ما أعطاه الدليل بتصوُّر الأمر علىٰ ما هو عليه[١] (**ومرةً بإدراكٍ آخر يسمَّىٰ: عين اليقين**) وهو ما أعطته المشاهدةُ والكشف[٢] (**وعين اليقين لا يكون إلا في الآخرة**) لأنها محل الشهود والكشف[٣] (**وعلم اليقين قد يكون في الدنيا ولكن للذين قد وُفُّوا حظهم من نور اليقين**) وهو مشاهدة الغيوب بصفاء القلوب، وملاحظة الأسرار بمحافظة الأفكار[٤] (**فلذلك قال تعالىٰ:** ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۝٦﴾ **أي في الدنيا** ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ۝٧﴾ [التكاثر: ٥ - ٧] **أي في الآخرة. فإذًا قد ظهر أن القلب الصالح لمُلك الآخرة لا يكون إلا عزيزًا كالشخص الصالح لمُلك الدنيا.**

قسمة سادسة حاوية لجميع النعم) الموهوبة والمكتسَبة: (**اعلمْ أن النعم**)

---

(١) ذكره الجرجاني في التعريفات ص ١٦٢.

(٢) ذكره ابن عربي في الفتوحات المكية ٢/ ٦٣٤.

(٣) الشهود والكشف الحقيقي الذي لا فرق فيه بين مسلم وكافر.

(٤) ذكره الجرجاني في التعريفات ص ٢٨٠، وهو مأخوذ عن حقائق التفسير لأبي عبد الرحمن السلمي ٢/ ٤١٧.

وإن كانت لا تُحصَىٰ مفصَّلةً فإنها بالقول المجمَل خمسة أنواع، وبيان ذلك: أنها **(تنقسم إلىٰ ما هي غاية مطلوبة لذاتها، وإلىٰ ما هي مطلوبة لأجل الغاية. أما الغاية فإنها سعادة الآخرة)** وهي أعلاها وأشرُفها، وإيَّاها قصد بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ﴾ الآية [هود: ١٠٨] **(ويرجع حاصلها إلىٰ أربعة أمور: بقاء لا فناء له، وسرور لا غم فيه، وعلم لا جهل معه، وغِنىٰ لا فقر بعده)** ومنهم مَن ذكر بدل الجملة الثانية: وقدرة لا عجز عنها **(وهي)** الخير المحض والفضيلة الصِّرْف و**(النعمة الحقيقية، ولذلك قال رسول الله ﷺ)**: اللهم **(لا عيش إلا عيش الآخرة. وقال ذلك)** مرتين: **(مرة في)** حال **(الشدة تسليةً للنفس، وذلك في وقت حفر الخندق[١] في شدة الضر)** وهذا قد رواه الطيالسي[٢] وأحمد[٣] والشيخان[٤] والثلاثة[٥] من حديث أنس. ورواه أيضًا أحمد[٦] والشيخان[٧] من حديث سهل ابن سعد. وفي لفظ: «اللهم لا خير إلا خير الآخرة». وروىٰ الحاكم[٨] من حديث أنس: «اللهم لا خير إلا خير الآخرة، فبارِكْ في الأنصار والمهاجرة».

(وقال ذلك مرةً في) حال **(السرور منعًا للنفس من الركون إلىٰ سرور الدنيا،**

---

(١) اختلفت الروايات في ذلك، ففي بعضها أن ذلك كان عند حفر الخندق، وفي بعضها أنه كان عند بناء المسجد النبوي، والذي يظهر أن النبي ﷺ قال ذلك في كلتا الحالتين. وبعض الروايات مطلقة لا تذكر سبب الحديث.

(٢) مسند الطيالسي ٣/ ٥٥٨ - ٥٥٩.

(٣) مسند أحمد ١٩/ ٢١٧، وفي مواضع أخرىٰ كثيرة.

(٤) صحيح البخاري ١/ ١٥٦، ٢/ ٣١٥، ٣/ ٤١، ٧٨، ١١٥، ٤/ ١٧٥، ٣٤٣. صحيح مسلم ٢/ ٨٧١ - ٨٧٢.

(٥) سنن أبي داود ١/ ٣٦٩. سنن الترمذي ٦/ ١٦٦. سنن النسائي ص ١١٧ - ١١٨. ورواه أيضا ابن ماجه في سننه ٢/ ٦٢.

(٦) مسند أحمد ٣٧/ ٤٨٢.

(٧) صحيح البخاري ٣/ ٤٢، ١١٥. صحيح مسلم ٢/ ٨٧١.

(٨) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٢٢١.

وذلك عند إحداق الناس به في حجة الوداع) يُروَىٰ ذلك مرسلاً، ورواه الحاكم متصلاً وصحَّحه، وتقدم في كتاب الحج. وروىٰ الحاكم والبيهقي من حديث ابن عباس: «لبيك اللهم لبيك، إنما الخير خير الآخرة».

(وقال رجل: اللهم إني أسألك تمام النعمة. فقال النبي ﷺ: وهل تعلم ما تمام النعمة؟ قال: لا. قال: تمام النعمة دخول الجنة) قال العراقي[١]: رواه الترمذي[٢] من حديث معاذ بسند حسن. انتهىٰ.

قلت: ورواه الطبراني[٣] بلفظ: «أتدري ما تمام النعمة؟ تمام النعمة دخول الجنة والنجاة من النار».

(وأما الوسائل) التي يُتوصل بها إلىٰ الغاية **(فتنقسم إلىٰ الأقرب الأخصِّ كفضائل النفس)** وهو الأول **(وإلىٰ ما يليه في القرب كفضائل البدن)** وهو الثاني **(وإلىٰ ما يليه في القرب ويجاوز إلىٰ غير البدن كالأسباب المطيفة بالبدن من المال والأهل والعشيرة)** وهو الثالث **(وإلىٰ ما يجمع بين هذه الأسباب الخارجة عن النفس وبين الحاصلة للنفس كالتوفيق والهداية)** وهو الرابع **(فهي إذاً أربعة أنواع)**: النفسية والبدنية والخارجية والتوفيقية، وهي مع السعادة الأخروية خمسة أنواع:

(النوع الأول، وهو الأخصُّ) الأقرب: **(الفضائل النفسية)** ولا يمكن الوصول إلىٰ السعادة الأخروية إلا باكتسابها واستعمالها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ الآية [الإسراء: ١٩] وأصول ذلك أربعة أشياء: العقل وكماله العلم، والعفَّة وكمالها الورع، والشجاعة وكمالها المجاهدة، والعدالة وكمالها الإنصاف. وقد فصَّله المصنِّف بقوله: **(ويرجع حاصلها مع انشعاب أطرافها إلىٰ)** أصلين عظيمين: **(الإيمان وحُسن الخلق، وينقسم الإيمان إلىٰ علم المكاشفة وهو العلم**

---

(١) المغني ٢/ ١٠٢٤.

(٢) سنن الترمذي ٥/ ٤٩٩.

(٣) المعجم الكبير ٢٠/ ٥٥ - ٥٦.

بالله وصفاته وملائكته ورسله، وإلىٰ علم المعاملة) وهو مجاهدة البدن في الطاعات (وحُسن الخُلق ينقسم إلىٰ قسمين) أحدهما: (تركُ مقتضَىٰ الشهوة والغضب، واسمه: العفَّة. و) الثاني: (مراعاة العدل في الكف عن مقتضَىٰ الشهوات والإقدام حتىٰ لا يمتنع أصلاً ولا يُقدِم كيف شاء، بل يكون إقدامه وإحجامه بالميزان العدل الذي أنزله الله علىٰ لسان رسوله ﷺ؛ إذ قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝﴾) أي لا تعتدوا ولا تُجاوِزوا الإنصافَ (﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝﴾) [الرحمن: ٧-٩] أي لا تنقصوه (فمَن خصىٰ نفسَه ليزيل شهوة النكاح أو ترك النكاح مع القدرة والأمن من الآفات أو ترك الأكل حتىٰ ضعُفَ عن العبادة والذكر والفكر فقد أخسر الميزانَ) فإنَّ كل ذلك غير مناسب لميزان العدالة (ومَن انهمك في شهوة البطن والفرج فقد طغَىٰ في الميزان) واعتدىٰ (وإنما العدل) الحقيقي الذي به قامت السموات والأرض (أن يخلو وزنُه وتقديره عن الطغيان والخسران فتعتدل به كفَّتا الميزان) علىٰ السواء (فإذًا الفضائل الخاصة بالنفس المقرِّبة إلىٰ الله تعالىٰ أربعة: علم مكاشفة، وعلم معاملة، وعفَّة، وعدالة) فكمال علم المكاشفة العلم، وكمال علم المعاملة المجاهدة، وكمال العفَّة الورع، وكمال العدالة الإنصاف، وهي المعبَّر عنها بـ«الدين» (ولا يتم هذا في غالب الأمر إلا بالنوع الثاني وهو الفضائل البدنية، وهي أربعة) أشياء: (الصحة والقوة والجمال وطول العمر، ولا تتهيَّأ هذه الأمور الأربعة إلا بالنوع الثالث وهي النعم الخارجة المطيفة بالبدن، وهي أربعة) أشياء: (المال والأهل والجاه) ومنهم مَن ذكر العز بدله (وكرم العشيرة، ولا يُنتفَع بشيء من هذه الأسباب الخارجة والبدنية) ولا سبيل إلىٰ تحصيلها (إلا بالنوع الرابع) الذي هو توفيق الله عز وجل (وهي الأسباب التي تجمع بينها وبين ما يناسب الفضائلَ النفسية الداخلة، وهي أربعة) أشياء: (هداية الله ورشده وتسديده وتأييده، فمجموع هذه النعم ستة عشر؛ إذ قسمناها إلىٰ أربعة، وقسمنا كلَّ واحدة من الأربعة إلىٰ أربعة) فجميع ذلك خمسة أنواع

هي عشرون ضربًا ليس للإنسان مدخل في اكتسابها إلا فيما هو نفسيٌّ فقط. ثم أشار المصنف إلىٰ حاجة بعض هذه الفضائل إلىٰ بعض فقال: **(وهذه الجملة يحتاج البعض منها إلىٰ بعض إما حاجة ضرورية)** بحيث لو لم يوجَد ذلك لم يصحَّ وجودُ الآخَر **(أو)** حاجة **(نافعة)** بحيث لو لم توجَد لاختلَّ حالُ الآخَر **(أما الحاجة الضرورية فكحاجة سعادة الآخرة إلىٰ الإيمان وحُسن الخُلق)** وهي الفضائل النفسية **(إذ لا سبيل إلىٰ الوصول إلىٰ سعادة الآخرة)** الحقيقية **(ألبتَّة إلا بهما)** أي باكتسابهما **(فليس للإنسان إلا ما سعىٰ)** وأن سعيه سوف يُرَىٰ، ثم يُجزاه الجزاء الأوفىٰ **(وليس لأحد في الآخرة إلا ما تزوَّده من الدنيا)** ولذلك قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ الآية [الإسراء: ١٩] فبيَّن أن لا مَطمع لمَن أراد الوصولَ إليها إلا بالسعي **(فكذلك حاجة الفضائل النفسية تكسُّب[1] العلوم النافعة وتهذيب الأخلاق)** وتصفيتها من الرذائل **(إلىٰ صحة البدن)** وقوَّته **(ضروريٌّ)** لأنه لا سبيل إلىٰ تحصيلها إلا بها **(وأما الحاجة النافعة علىٰ الجملة فكحاجة هذه النعم)** والفضائل **(النفسية والبدنية إلىٰ النعم الخارجة)** المطيفة بالإنسان **(مثل المال والعز والأهل)** وكرم العشيرة، فإنها لا تغني عنها **(فإنَّ ذلك لو عدمَ)** وأمكنَ أن يُتصوَّر حصولها لمَن ليس له ذلك **(ربما تطرَّق الخللُ إلىٰ بعض النعم الداخلة.**

فإن قلتَ: فما وجه الحاجة لطريق الآخرة) وحصول سعادتها **(إلىٰ النعم الخارجة)** المطيفة بالبدن **(من المال والأهل والجاه والعشيرة)؟** وما نفعُها في بلوغها؟ **(فاعلمْ أن هذه الأسباب جارية مَجرىٰ الجناح)** للطائر **(المبلِّغ)** لحاجته **(و)** بمنزلة **(الآلة المسهِّلة للمقصود)** وإن لم تكن الحاجة إليها في بلوغ ذلك ضروريةً **(فأما المال فالفقير)** المعدم **(في طلب العلم والكمال)** وتحرِّي المكارم **(وليس له كفاية)** هو **(كساعٍ إلىٰ الهيجاء بغير سلاح)** والهيجاء: ميدان الحرب،

---

(١) في أ، وب، وط المنهاج ٧/ ٣٤٣: بكسب. بالباء، وهو الصواب.

فمَن سعىٰ إليها بغير سلاح فأحرىٰ به أن يخفق سعيُه. وهو مِصْراع بيت[(١)] **(وكبازٍ يروم الصيدَ بلا جناح)** فكيف يصطاد؟! وفضله مغطىٰ كماء تحت أرض ونار كامنة في صخر، وما أصدق ما قال الشاعر:

والمرء يرفعه الغِنىٰ والفقر مَنقصة وذل[(٢)]

وقال آخر:

فلا مجد في الدنيا لمَن قلَّ مالُه ولا مال في الدنيا لمَن قلَّ مجدُه

(ولذلك قال ﷺ: نِعم المال الصالح للرجل الصالح) رواه أحمد وأبو يعلىٰ والطبراني من حديث عمرو بن العاص بسند حسن، وقد تقدم[(٣)].

(وقال ﷺ: نِعم العون علىٰ تقوىٰ الله المال) قال العراقي[(٤)]: رواه الديلمي في مسند الفردوس[(٥)] من رواية محمد بن المنكدر عن جابر، ورواه أبو القاسم البغوي من رواية ابن المنكدر مرسلاً، ومن طريقه رواه القضاعي في مسند الشهاب[(٦)] هكذا مرسلاً. انتهىٰ.

قلت: ورواه أيضًا ابن لال في مكارم الأخلاق من حديث جابر.

(وكيف لا ومَن عدم المالَ صار مستغرق الأوقات في طلب القوت وفي تهيئة

---

(١) وهو:

أخاك أخاك إن من لا أخا له كساعٍ إلىٰ الهيجاء بغير سلاح

وهو لمسكين الدارمي في ديوانه ص ٢٩ (ط - دار البصري ببغداد).

(٢) تقدم هذا البيت والذي بعده في كتاب ذم البخل وحب المال.

(٣) في كتاب ذم البخل، واقتصر هناك علىٰ عزوه لأحمد والطبراني، وقد رواه أبو يعلىٰ في مسنده ١٣/ ٣٢٢.

(٤) المغني ٢/ ١٠٢٤.

(٥) الفردوس بمأثور الخطاب ٤/ ٢٥٦.

(٦) مسند الشهاب ٢/ ٢٦٠.

اللباس والمسكن وضرورات المعيشة، ثم يتعرَّض) بسبب قلة المال (**لأنواع من الأذىٰ تشغله عن الذكر والفكر**) والمراقبة (**ولا تندفع إلا بسلاح المال، ثم مع ذلك**) بفقدان المال يشكل بلوغُ الفضائل، فمن ذلك أنه (**يُحرَم فضيلة الحج والزكاة والصدقات وإفاضة الخيرات**) وكثيرًا من القُرَب.

(**وقال بعض الحكماء وقد قيل له: ما النعيم؟ فقال: الغِنىٰ، فإني رأيت الفقير لا عيش له. قيل: زِدْنا. قال: الأمن، فإني رأيت الخائف لا عيش له. قيل: زدنا. قال: العافية، فإني رأيت المريض لا عيش له. قيل: زدنا. قال: الشباب، فإني رأيت الهرم لا عيش له**)[1] نقله صاحب القوت، إلا أنه زاد بعد العافية: قيل: زدنا. قال: الأمن، فإني رأيت الخائف لا عيش له. وقال في آخره: قيل: زدنا. قال: لا أجد مزيدًا. ثم قال: وبعض ما ذكره هو أحد الوجوه في قوله تعالىٰ: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠] قيل: الشباب، وقيل: الفراغ، ويقال: الأمن والصحة (**وكأنَّ ما ذكره إشارة إلىٰ نعيم الدنيا، ولكنه من حيث إنه معين علىٰ الآخرة فهو نعمة، ولذلك قال ﷺ: مَن أصبح معافًىٰ في بدنه، آمنًا في سِرْبه، عنده قوت يومه، فكأنَّما حِيزت له الدنيا بحذافيرها**) هكذا أورده صاحب القوت، وقد رواه الطبراني في الكبير[2] من حديث أبي الدرداء بهذا السياق، ولم يقل: بحذافيرها، وفي آخره زيادة. ورواه البخاري في الأدب المفرد والترمذي - وقال: حسن غريب - وابن ماجه والطبراني من رواية سلمة بن عبيد الله بن محصن الخطمي عن أبيه رفعه: «مَن أصبح منكم آمنًا في سربه، معافًىٰ في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنَّما حِيزتْ له الدنيا». وقد تقدم في كتاب الكسب والمعاش[3].

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٦/ ٣٤٠ من طريق الأصمعي قال: بلغني أن الحجاج سأل خريم ابن عمرو الناعم: ما النعمة ... فذكره بنحوه. وأورده الزمخشري في ربيع الأبرار ٥/ ٦، والميداني في مجمع الأمثال ٢/ ٢٥٦، وابن عبد ربه في العقد الفريد ٧/ ٢٤٤.

(٢) ورواه أيضا في مسند الشاميين ١/ ٣٧.

(٣) بل في كتاب ذم الغضب والحقد والحسد.

(**وأما الأهل**) كالزوجة والأقارب (**والولد الصالح**) وتقييده به موافقةً لِما في الحديث (**فلا يخفىٰ وجهُ الحاجة إليهما**) فالمرأة مزرعة الرجل، قيَّضها الله له ليزرع فيها زرعه، كما قال تعالىٰ: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] (**إذ قال ﷺ: نِعم العون علىٰ الدين المرأة الصالحة**) قال العراقي[١]: لم أجد له إسنادا، ولمسلم[٢] من حديث عبد الله بن عمرو: «الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة».

قلت: ورواه كذلك أحمد[٣] وهنَّاد[٤] والنسائي[٥]. ورواه أبو نعيم[٦] وابن عساكر[٧] من حديث جابر. ورواه أيضًا أحمد ومسلم وأبو يعلىٰ والحارث بن أبي أسامة من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ: «وليس من متاع الدنيا شيء أفضل من المرأة الصالحة»[٨].

(**وقال ﷺ في الولد**) أي في نفعه: (**إذا مات ابن آدم انقطع عملُه إلا من ثلاث: ولدٌ صالح يدعو له ... الحديث**) رواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث أبي هريرة: «إذا مات الإنسان انقطع عملُه إلا من ثلاث: إلا من صدقة جارية، أو علم يُنتفَع به، أو ولد صالح يدعو له». وقد تقدم في كتاب النكاح.

---

(١) المغني ٢/ ١٠٢٥.

(٢) صحيح مسلم ١/ ٦٧٢.

(٣) مسند أحمد ١١/ ١٢٧.

(٤) الزهد ١/ ٢٩٥.

(٥) سنن النسائي ص ٥٠٠.

(٦) حلية الأولياء ٣/ ٣١٠.

(٧) تاريخ دمشق ٦٤/ ٣٦٨.

(٨) لم أقف عليه بهذا السياق عند هؤلاء الأئمة، وإنما هو عند ابن ماجه في سننه ٣/ ٣٠٤ والبزار في مسنده ٦/ ٤١٦ وهناد في الزهد.

(وقد ذكرنا فوائد الأهل والولد في كتاب النكاح) فلتراجَع هناك **(وأما الاقارب)** فنِعم العون علىٰ بلوغ السعادة **(فمهما كثُر أولادُ الرجل وأقاربه)** وخالِصوه **(كانوا له مثل الأعين)** والآذان **(والأيدي، فيتيسَّر له بسببهم من الأمور الدنيوية المهمَّة في دينه ما لو انفرد به لطال شغلُه)** وقد قال تعالىٰ حاكيًا عن لوط عليه السلام: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ۝٨٠﴾ [هود: ٨٠] وقال الشاعر:

ألـم تـرَ أن جمـع القـوم يُخشَـىٰ وأن حريـم واحدِهـم مبـاح[١]

(وكل ما يفرِّغ قلبَك عن ضرورات الدنيا فهو معين لك علىٰ الدين، فهو إذًا نعمة. وأما العز والجاه فبه يدفع الإنسان عن نفسه الذلَّ والضَّيم) ويتأبَّىٰ عن تحمُّلهما، ومَن لا عزَّ له لا يمكنه أن يذود عن حريمه **(ولا يستغني عنه مسلمٌ، فإنه لا ينفكُّ)** في دهره **(عن عدوٍّ يؤذيه، و)** إن لم يكن له عدوٌّ فلا يخلو عن **(ظالم)** غشوم **(يشوِّش عليه علمه وعمله وفراغه ويشغل قلبَه، و)** من المعلوم أن **(قلبه رأس ماله)** الذي يتَّجر به **(وإنما تندفع هذه الشواغل بالعز والجاه، ولذلك قيل: الدين والسلطان)** أخوان **(توأمان)** وقرينان مؤتلفان، ومؤدِّيان إلىٰ عمارة البلاد وصلاح العباد. وقيل أيضًا: الدين أُسٌّ، والسلطان حارس، وما لا أُسَّ له فمهدوم، وما لا حارس له فضائع، وسمَّىٰ الله تعالىٰ الحُجَّة سلطانًا لقهرها أولي البصائر **(قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾** [البقرة: ٢٥١] **ولا معنىٰ للجاه إلا مَلْك القلوب)** كما تقدم في كتاب ذم الجاه **(كما لا معنىٰ للغِنىٰ إلا مَلْك الدراهم، ومَن ملك الدراهمَ تسخَّرت له أرباب القلوب لدفع الأذىٰ عنه)** فإذًا الجاه تبعٌ للمال **(فكما يحتاج الإنسان)** في تعيُّشه **(إلىٰ سقف)** يظلُّه من حر الشمس و**(يدفع عنه المطرَ، و)** إلىٰ **(جُبَّة)** وهي المقطعة من الصوف **(تدفع عنه البرد)** إذا لبسها **(وكلب يدفع الذئب)** العادي **(عن ماشيته)** إن كان من أصحاب المواشي **(فيحتاج أيضًا إلىٰ مَن يدفع الشرَّ به عن نفسه)** ويُحكَىٰ أن الشافعي رحمه الله

(١) تقدم هذا البيت في كتاب ذم البخل وحب المال.

تعالىٰ لمَّا ودَّعه مالك رحمه الله تعالىٰ أوصاه بكلمات، منها: واتخِذْ لنفسك جاهًا لئلاَّ تطأك الأراذلُ (**وعلىٰ هذا القصد كان الأنبياء**) عليهم السلام (**الذين لا مُلْك لهم ولا سلطنة يراعون السلاطين ويطلبون عندهم الجاه**) لتمشية أمورهم الدينية (**وكذلك علماء الدين**) سلفًا وخلفًا (**لا علىٰ قصد التناول من خزائنهم أو الاستئثار والاستكثار في الدنيا بمتابعتهم**) حاشاهم الله عن ذلك (**ولا تظنن أن نعمة الله تعالىٰ علىٰ رسوله ﷺ حيث نصره وأكمل دينَه**) وأتمَّ عليه نعمتَه (**وأظهرَه علىٰ جميع أعدائه ومكَّن له في القلوب حتىٰ اتَّسع به عزُّه وجاهُه كانت**) تلك (**أقل من نعمته عليه حيث كان يؤذَىٰ ويُضرَب حتىٰ افتقر إلىٰ الهرب والهجرة**) من محل مولده.

قال العراقي[1]: رواه الشيخان[2] من حديث عائشة: أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتىٰ عليك يومٌ أشد من أُحُد؟ قال: «لقد لقيتُ من قومكِ، وكان أشد ما لقيت يوم العَقَبة إذ عرضتُ نفسي علىٰ ابن عبد ياليل ... الحديث. وللترمذي[3] وصحَّحه وابن ماجه[4] من حديث أنس: «لقد أُخِفْتُ في الله وما يُخاف أحد، ولقد أوذيتُ في الله وما يؤذَىٰ أحد، ولقد أتىٰ عليَّ ثلاثون ما بين يوم وليلة وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبطُ بلال». قال الترمذي: يعني هذا حين خرج النبي ﷺ [هاربًا] من مكة ومعه بلال. وللبخاري[5] عن عروة قال: سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ، قال: رأيت عُقْبة بن أبي مُعَيط جاء إلىٰ النبي ﷺ وهو يصلي، فوضع رِداءه في عنقه فخنقه خنقًا شديدًا، فجاء أبو بكر فدفعه عنه ... الحديث. وللبزار[6] وأبي يعلىٰ[7] من حديث أنس قال: «لقد ضربوا

---

(١) المغني ٢/ ١٠٢٥ - ١٠٢٦.

(٢) صحيح البخاري ٢/ ٤٢٨. صحيح مسلم ٢/ ٨٦٤.

(٣) سنن الترمذي ٤/ ٢٥٥.

(٤) سنن ابن ماجه ١/ ١٥٩.

(٥) صحيح البخاري ٣/ ١٤، ٥٥، ٢٨٦.

(٦) مسند البزار ١٤/ ٥٨ - ٥٩.

(٧) مسند أبي يعلىٰ ٦/ ٣٦٢.

رسول الله ﷺ حتىٰ غُشي عليه، فقام أبو بكر [فجعل] ينادي: ويلكم! أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله». وإسناده صحيح علىٰ شرط مسلم.

(فإن قلتَ: فكرم العشيرة وشرف الآباء هو من النعم أم لا؟ فأقول: نعم) والمراد بكرم العشيرة: الحسب والشرف، والشرف أخَصُّ بمآثر الآباء والعشيرة، ولذلك قيل للعَلَوية: أشراف **(ولذلك قال رسول الله ﷺ: الأئمَّة من قريش)** قال العراقي[١]: رواه النسائي[٢] والحاكم[٣] من حديث أنس بإسناد صحيح.

قلت: ورواه كذلك ابن أبي شيبة[٤] والبيهقي[٥]. وروياه أيضًا من حديث عليٍّ. ورواه أحمد[٦] وأبو يعلىٰ[٧] والطبراني من حديث أبي برزة بزيادة في آخره. ورواه الطيالسي[٨] وأحمد[٩] والنسائي والطبراني[١٠] وأبو نعيم[١١] والبيهقي والضياء[١٢] من حديث أنس أيضًا بزيادة في آخره. ورواه الحاكم[١٣] من حديث علي بزيادة في آخره.

(ولذلك كان ﷺ من أكرم الناس أرومة في نسب آدم) الأُرومة بالضم:

---

(١) المغني ٢/ ١٠٢٦.

(٢) السنن الكبرىٰ ٥/ ٤٠٥.

(٣) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٦٧١.

(٤) مصنف ابن أبي شيبة ١٠/ ٥٥٢.

(٥) السنن الكبرىٰ ٣/ ١٧٢، ٨/ ٢٤٧ - ٢٤٨.

(٦) مسند أحمد ٣٣/ ٢١، ٢٦، ٤٢.

(٧) مسند أبي يعلىٰ ٦/ ٣٢٣.

(٨) مسند الطيالسي ٣/ ٥٩٥.

(٩) مسند أحمد ١٩/ ٣١٨، ٢٠/ ٢٤٩.

(١٠) المعجم الكبير ١/ ٢٥٢.

(١١) حلية الأولياء ٣/ ١٧١، ٥/ ٨.

(١٢) الأحاديث المختارة ٤/ ٤٠٣، ٦/ ١٤٣.

(١٣) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ١٧٠.

الأصل، قال العراقي[١]: وهذا معلوم، فروىٰ مسلم[٢] من حديث واثلة بن الأسقع مرفوعًا: «إن الله اصطفىٰ كِنانة من ولد إسماعيل، واصطفىٰ قريشًا من كِنانة، واصطفىٰ من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم». وفي رواية الترمذي[٣]: «إن الله اصطفىٰ من ولد إبراهيم إسماعيلَ». وله[٤] من حديث العباس وحسَّنه وابن عباس والمطَّلب بن ربيعة وصحَّحه والمطلب بن أبي وداعة وحسَّنه: «إن الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم». وفي حديث ابن عباس: «إن الله خلق الخلق قسمين، فجعلني في خيرهم قسمًا»[٥]. وللبزار[٦] من حديث ابن عباس: «ما بال أقوام يبتذلون أصلي، فواللهِ لأنا أفضلهم أصلاً وخيرهم مرضعًا».

واعلمْ أن الأخلاق نتائج الأمزجة، ومزاج الأب كثيرًا ما يتأدَّىٰ إلىٰ الابن كالألوان والخلق والصور (و) لذلك (**قال ﷺ: تخيَّروا النُطَفكم**) وانكحوا (**الأكفاء**) وأنكِحوا إليهم. رواه ابن ماجه من حديث عائشة، وقد تقدم في كتاب النكاح. وفي لفظ: «اطلبوا مواضع الأكفاء لنُطَفكم، فإنَّ الرجل ربما أشبهَ أخوالَه»[٧].

(**وقال ﷺ: إيَّاكم وخضراء الدِّمَن. فقيل: وما خضراء الدمن؟ قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء**) رواه الدارقطني في الأفراد والرامهرمزي والعسكري في الأمثال وابن عدي والقضاعي والخطيب في إيضاح الملتبس والديلمي من حديث

---

(١) المغني ٢/ ١٠٢٦.

(٢) صحيح مسلم ٢/ ١٠٨٠.

(٣) سنن الترمذي ٦/ ٥.

(٤) السابق ٦/ ٦ - ٧.

(٥) لم أقف علىٰ حديث ابن عباس والمطلب بن ربيعة عند الترمذي. وحديث ابن عباس رواه الطبراني في المعجم الكبير ٣/ ٥١، والبيهقي في دلائل النبوة ١/ ١٧٠.

(٦) كشف الأستار عن زوائد البزار ٣/ ١١٢.

(٧) هذا اللفظ ذكره السخاوي في المقاصد الحسنة ص ٤٥٣، وعزاه للديلمي.

أبي سعيد. وقد تقدم أيضًا في كتاب النكاح[١].

(فهذا أيضًا من النعم، ولست أعني به الانتسابَ إلىٰ الظَّلمة وأرباب الدنيا، بل الانتساب إلىٰ شجرة رسول الله ﷺ وإلىٰ أئمَّة العلماء وإلىٰ الصالحين الأبرار المتوسِّمين بالعلم والعمل) ومن الناس مَن لا يعدّ شرف الأصل فضيلةً، وقال كما يأتي للمصنف: يُعَدُّ المرء بنفسه لا بأبيه. واستدلَّ بقول عليٍّ رضي الله عنه: الناس أبناء ما يُحسِنون. و: قيمة كل امرئ ما يحسنه[٢]. وقول الشاعر:

كن ابنَ مَن شئتَ واكتسِبْ أدبًا ... يغنيك محمودُه عن النسب

إن الفتىٰ مَن يقول ها أنا ذا ... ليس الفتىٰ مَن يقول كان أبي[٣]

وقول الآخَر:

بجِدٍّ لا بجدٍّ كل مجد ... وهل جدٌّ بلا جدٍّ بمجدِ[٤]

وقول الحكيم: الشرف بالهمم العالية لا بالرمم البالية. وليس كما ظن؛

---

(١) اقتصر الشارح هناك علىٰ عزوه للدارقطني والرامهرمزي. وقد رواه القضاعي في مسند الشهاب ٢/ ٩٦، والخطيب في تالي تلخيص المتشابه ٢/ ٥٠٩، والديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب ١/ ٣٨٢.

(٢) هذان القولان أوردهما ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ١/ ٤١٦، فقال: «روىٰ ابن عائشة وغيره أن عليا قال في خطبة خطبها: اعلموا أن الناس أبناء ما يحسنون، وقدر كل امرئ ما يحسن، فتكلموا في العلم تتبين أقداركم. ويقال: إن قول علي: قيمة كل امرئ ما يحسن، لم يسبقه إليه أحد، وقالوا: ليس كلمة أحض علىٰ طلب العلم منها، ولا كلمة أضر بالعلم وبالعلماء والمتعلمين من قول القائل: ما ترك الأول للآخر شيئا. وقول علي هذا من الكلام العجيب الخطير، وقد طار الناس به كل مطير، ونظمه جماعة من الشعراء إعجابا به وكلفا بحسنه». والقول الثاني رواه الخطيب في تاريخ بغداد ٦/ ١٧٨، ثم نقل عن الجاحظ قوله: لا أعلم في كلام الناس كلمة أحكم من هذه الكلمة.

(٣) البيتان لعلي رضي الله عنه، وهما في ديوانه ص ١٦.

(٤) لم أقف علىٰ قائل هذا البيت.

لأن كرم الأعمام والأخوال مخيلة لكرم المرء ومَظَنَّة له، فالفرع وإن كان قد يفسد أحيانًا فمعلوم أن أصله يورثه الفضيلةَ والرذيلة، فإنه لا يكون من النخل الحنظل، ولا من الحنظل النخل، ولذلك قال الشاعر[1]:

ومـا يـكُ مـن خيـر أتـوه فإنمـا ... توارثـه آبـاءُ آبائهـم قبـلُ
وهـل يُنبِـت الخَطِّـيَّ إلا وشـيجُه ... وتُغـرَس إلا في منابتهـا النخـلُ

وقيل:

إن السـريَّ إذا سـرَىٰ فبنفسـه ... وابن السريِّ إذا سرىٰ أسراهما[2]

وما ذُكر من نحو قول علي رضي الله عنه «الناس أبناء ما يحسنون، وقيمة كل امرئ ما يحسنه» فحثٌّ للناس علىٰ اقتباس العلم ونهيٌ عن الاقتصار علىٰ مآثر الآباء، فإن المآثر الموروثة قليلة الغناء ما لم تضامَّها فضيلةُ النفس؛ لأن ذلك إنما يُحمَد لكي يوجد الفرع مثله، ومتىٰ أخلف الفرع وتخلَّف فإنه يخبر بأحد شيئين: إمَّا بتكذيب مَن يدَّعي الشرفَ لعنصره، أو بتكذيبه في انتسابه إلىٰ ذلك العنصر، وما فيهما حظٌّ لمختار، فالمحمود أن يكون الأصل في الفضل راسخًا، والفرع به شامخًا، كما قال الشاعر[3]:

زانـوا قديمَهـم بحُسـن حديثهـم ... وكريـمِ أخـلاقٍ وحُسـن خصـال

ومَن لم يجتمع له الأمران فلأنْ يكون المرء شريف النفس دنيء الأصل أَولىٰ

---

(١) هو زهير بن أبي سلمىٰ، والبيتان في ديوانه ص ٨٧ من قصيدة يمدح بها سنان بن أبي حارثة المري.

(٢) تقدم هذا البيت في كتاب ذم البخل وحب المال.

(٣) هو الفرزدق، والبيت في ديوانه ص ٦٤٥ برواية:

زانـوا قديمهـم بحسـن فعالهـم ... وكريـم أخـلاق بحسـن وجـوه

وقبله:

إن المهالبـة الكـرام تحملـوا ... دفع المكاره عن ذوي المكـروه

من أن يكون دنيء النفس شريف الأصل، قال الشاعر[١]:

فما الشرف الموروث لا در دره بمحتسَب إلا بآخَر مكتسَبِ

إذا الغصن لم يثمر وإن كان شعبةً من المثمرات اعتدَّه الناس في الحطب

ومَن كان عنصره في الحقيقة سَنِيًّا وهو في نفسه دَنِيًّا فذلك آتٍ إما من إهماله نفسه وسومها، وإما لتعوُّده عادات قبيحة وصحبة أشرار وغير ذلك من العوارض المُفسِدة للعناصر الكريمة، فليس سبب الرذيلة شيئًا واحدًا.

(**فإن قلتَ: فما غَناء الفضائل البدنية**)؟ وهي الصحة والقوة والجمال وطول العمر، وقد ذكرتَ أنه لا سبيل إلىٰ تحصيل الفضائل النفسية إلا بها، وأنها لا تغني عنها، فما غناؤها؟ (**فأقول: لا خفاء بشدة الحاجة إلىٰ الصحة وإلىٰ القوة وإلىٰ طول العمر؛ إذ لا يتم علمٌ ولا عمل إلا بها**) أي بهذه الثلاثة، فأما الحاجة إلىٰ الأولين فواضح، وأما طول العمر فلولاه لقلَّ حظُّ الإنسان من السعادات الدنيوية التي لولاها لَما نيلت السعادات الأخروية (**ولذلك قال ﷺ: أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله**) وفي بعض النسخ: أفضل السعادة طول العمر في عبادة الله. قال العراقي[٢]: غريب بهذا اللفظ[٣]، وللترمذي من حديث أبي بكرة أن رجلاً قال: يا رسول الله، أيُّ الناس خير؟ قال: «مَن طال عمرُه وحسُنَ عملُه»، وقال: حسن صحيح.

قلت: ورواه كذلك أحمد وابن زنجويه والطبراني والحاكم والبيهقي، وفي آخره زيادة: «وشر الناس مَن طال عمرُه وساء عملُه». والجملة الأولىٰ فقط رواها أيضًا عبد الله بن بُسْر مرفوعًا، أخرجه أحمد وعبد بن حميد والترمذي - وقال:

---

(١) هو ابن الرومي، والبيتان في ديوانه ٢/ ٨٨. وفيه: الحسب الموروث. وفيه أيضا: إذا العود لم يثمر.

(٢) المغني ٢/ ١٠٢٧.

(٣) تقدم هذا الحديث بهذا اللفظ في كتاب رياضة النفس، وعزاه العراقي هناك للقضاعي والديلمي من حديث ابن عمر. وتقدم أيضا حديث أبي بكرة وحديث عبد الله بن بسر.

حسن غريب - والطبراني والبيهقي والضياء.

واعلمْ أنه قد استهان قومٌ بذلك وقالوا: كفىٰ بالمرء أن يكون صحيح البدن، بريئًا عن الأمراض الشاغلة عن تحرِّي الفضائل العقلية. وليس كذلك، فالبدن للنفس بمنزلة الآلة للصانع والسفينة للرُّبَّان اللتين بهما صار صانعًا ورُبَّانًا، وجميع أجزاء البدن بالقول المجمل أربعة: العظام التي تجري للبدن مجرىٰ الألواح للسفينة، والعصب الذي يجري مجرىٰ الرباط الذي تُشَد به الألواح، واللحم الذي يجري مجرىٰ الحشو للرباطات، والجلد الذي يجري مجرىٰ الغشاء لجميعها. فإذا اعتدلت هذه الأربعة بأن تعتدل فيها القوَىٰ الأربع - وهي الجاذبة والممسكة والهاضمة والدافعة - سُمِّي ذلك الصحة، ولولا صحة البدن لَما حصل انتفاع به، وأما القوة فهي جودة تركيب هذه الأركان الأربعة وهي العظام والعصب واللحم والجلد وما يتبعها، وبها يصلُح البدنُ للسعي والتصرُّف في أمور الدنيا والآخرة[1] **(وإنما يُستحقَر من جملته)** أي من جملة هذا النوع **(أمر الجمال، فيقال: يكفي أن يكون البدن)** صحيحًا قويًّا **(سليمًا من الأمراض الشاغلة عن تحرِّي الخيرات)** والفضائل النفسية **(ولعَمْري، الجمال قليل الغناء، ولكنه من الخيرات أيضًا، أما في الدنيا فلا يخفَىٰ نفعُه فيها، وأما في الآخرة فمن وجهين:**

أحدهما: أن القبيح مذموم، والطباع عنه نافرة، وحاجات الجميل إلىٰ الإجابة أقرب، وجاهُه في الصدور أوسع، فكأنَّه من هذا الوجه جناح مبلِّغ كالمال والجاه؛ إذ هو نوع قدرة؛ إذ يقدر الجميل الوجه علىٰ تنجيز حاجات) أي تيسيرها **(لا يقدر عليها القبيح، وكل معين علىٰ قضاء حاجات الدنيا فهو معين علىٰ الآخرة بواسطتها)** فبهذا الاعتبار صار الجمال يُنتفَع به في أمور الآخرة.

(والثاني: أن الجمال في الأكثر يدل علىٰ فضيلة النفس؛ لأن نور النفس إذا تم

---

(١) الذريعة ص١٣٩.

إشراقُه) بالإيمان **(تأدَّىٰ إلىٰ البدن)** إشراقها، وكل شخص فله حكمان، أحدهما من قِبَل جسمه وهو منظره، والآخَر من قِبَل نفسه وهو مَخبره **(فالمَخبر والمنظر كثيرًا ما يتلازمان، ولذلك عوَّل أصحاب الفراسة في معرفة مكارم النفس)** وأحوالها الباطنة **(علىٰ هيئات البدن)** وفزعوا إليها أولاً **(فقالوا: الوجه والعين مرآة الباطن)** أي تظهر فيهما آثار النفس، كالمرآة يُستدَل بها عليها **(ولذلك يظهر فيه)** أي في كلٍّ من الوجه والعين. والأَولىٰ: فيهما؛ ليرجع الضمير إليهما **(أثرُ الغضب والسرور والغم)** والرضا والسخط، ولذلك عُبِّر بالوجه عن الجملة وعن رئيس القوم فقيل: فلان وجه القوم وعينهم، وحتىٰ قال الله تعالىٰ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] وكون الوجه المقبول في دلالته علىٰ فضيلة النفس وإن لم يكن حكمًا لازمًا فهو علىٰ الأعم والأكثر **(ولذلك قيل: طلاقة الوجه عنوان ما في النفس)** وقلَّ صورةٌ حسنة تتبعها نفسٌ رديئة، فنقش الخواتيم يبدو من الطين **(وقيل: ما في الأرض قبيح إلا ووجهه أحسن ما فيه. و)** حُكي أنه **(استعرض المأمون)** هو عبد الله بن هارون العباسي **(جيشًا، فعُرض عليه رجل قبيح)** الوجه **(فاستنطقه فإذا هو ألكنُ، فأسقط اسمَه)** أي أمر بإسقاطه **(من الديوان)** أي من جريدة الخراج **(وقال)**: إن **(الروح إن أشرقت علىٰ الظاهر فصباحة، أو علىٰ الباطن ففصاحة، وهذا)** أراه **(ليس له ظاهر ولا باطن، وقد قال ﷺ: اطلبوا الخير عند حِسان الوجوه)** قال العراقي[1]: رواه أبو يعلىٰ[2] من رواية إسماعيل بن عيَّاش عن جبرة بنت محمد بن [ثابت بن] سباع عن أمِّها عن عائشة، وجبرة وأمها لا أعرف حالهما. ورواه ابن حبان من وجه آخر في الضعفاء[3] من حديثها. ورواه البزار والطبراني وابن عدي[4] وابن حبان في

(١) المغني ٢/ ١٠٢٧.

(٢) مسند أبي يعلىٰ ٨/ ١٩٩.

(٣) المجروحون من المحدثين ١/ ٣٠٢.

(٤) الكامل في الضعفاء ٦/ ٢١٩٧.

الضعفاء[١] والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر، وله طرق كلها ضعيفة[٢].

قلت: وجدت بخط تلميذه الحافظ ابن حجر في هامش الكتاب ما لفظه: جَبْرة بفتح الجيم وسكون الموحدة؛ قاله الذهبي، وقال: مشهورة، وهي من أتباع التابعين، والحديث المذكور أخرجه أبو يعلىٰ والدارقطني في المؤتلف[٣] في ترجمة جبرة في حرف الجيم من طريق إسماعيل بن عيَّاش عنها عن أبيها محمد ابن ثابت، وليس لأمها في هذا الحديث رواية، وكأنَّه وقع في النسخة التي نقل منها شيخُنا تصحيف «أبيها» فصار: عن أمها، وأمها غير معروفة كما قال شيخنا، وقول الذهبي «إن جبرة مشهورة» يريد برواية الحديث لا أنها معروفة بالتوثيق.

قلت: ورواه[٤] البخاري في التاريخ[٥] فقال: حدثني إبراهيم - هو ابن المنذر - حدثنا [معن، حدثنا] عبد الرحمن بن أبي بكر المليكي عن امرأته جبرة ابنة محمد بن ثابت بن سباع عن أبيها عن عائشة. والمليكي صدوق، لكنه ينفرد بما لا يتابَع عليه ممَّا لا يُحتمَل، حتىٰ قيل: إنه متروك، ولكنه لم يُتَّهم بالكذب، بل توبع، فرواه أبو يعلىٰ في مسنده فقال: حدثنا داود بن رُشَيد حدثنا إسماعيل عن جبرة به. ومن طرق هذا الحديث ما رواه تمام[٦] والطبراني والبيهقي والخطيب[٧] من طريق سفيان الثوري عن طلحة بن عمرو عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس رفعه: «اطلبوا الخير عند حِسان الوجوه». ولفظ تمام: «التمِسوا». وطلحة متروك

(١) المجروحون من المحدثين ٢/ ٣٣٣.

(٢) وقال الإمام أحمد: هذا الحديث كذب. انظر: المنتخب من علل الخلال ص٨٦ (ط مكتبة التوعية بالجيزة).

(٣) المؤتلف والمختلف ١/ ٣٨٣.

(٤) المقاصد الحسنة للسخاوي ص ٨٠ - ٨٢.

(٥) التاريخ الكبير ١/ ١٥٧.

(٦) فوائد تمام ٤/ ٧١.

(٧) تاريخ بغداد ٧/ ٤٦١، ١٢/ ٣١٠، ١٥/ ٢٠٥.

الحديث، إلا أنه لم يُتَّهَم بكذب. وقيل: عنه عن عطاء عن أبي هريرة، بدل: ابن عباس. إلا أن ذلك أثبتُ. وأخرج الطبراني[١] حديث ابن عباس من طريق مجاهد عنه، وقال: أراه رفعه. ورجاله موثَّقون، إلا عبد الله بن خراش بن حوشب، مع أن ابن حبان[٢] وثقَّه، ولكنه قال: ربما أخطأ. وضعَّفه غيرُه[٣]. وبما ذكرنا ظهر أنه لا يتهيَّأ الحكم علىٰ المتن بالوضع، كما أشار إليه الحافظ ابن حجر. ومن طرق هذا الحديث ما رواه الطبراني[٤] من طريق يزيد بن خُصَيفة عن أبيه عن جده مرفوعًا بلفظ «التمِسوا»، وكذا هو عند أبي يعلىٰ. وله طرق عن أنس وجابر وابن عمر ويزيد القسملي وأبي بكرة وأبي هريرة، ولفظ أكثرِهم: «اطلبوا الخير عند حِسان الوجوه». ولفظ القسملي: «إذا طلبتم الحاجات فاطلبوها إلىٰ الحسان الوجوه»[٥]. فحديث أنس أخرجه ابن عساكر[٦]، وحديث جابر أخرجه الطبراني في الأوسط[٧] وأبو نعيم في الحلية[٨] وابن عساكر[٩]، وحديث ابن عمر رواه ابن عدي، وحديث أبي بكرة رواه تمام في فوائده[١٠]، وحديث أبي هريرة رواه تمام[١١] والخطيب في «رُواة مالك». وفي لفظ: «اطلبوا الحوائج إلىٰ حسان الوجوه». رواه ابن أبي الدنيا[١٢] من

---

(١) المعجم الكبير ١١/ ٨١.

(٢) الثقات ٨/ ٣٤٠ - ٣٤١.

(٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٣٥٦.

(٤) المعجم الكبير ٢٢/ ٣٩٦.

(٥) رواه أبو الشيخ في أمثال الحديث ص ٦٦، وابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ١٦٢.

(٦) تاريخ دمشق ٥٧/ ٨.

(٧) المعجم الأوسط ٦/ ١٧٦.

(٨) حلية الأولياء ٣/ ١٥٦.

(٩) تاريخ دمشق ٥٧/ ٨.

(١٠) فوائد تمام ٤/ ٧٠.

(١١) السابق ٤/ ٧٣.

(١٢) اصطناع المعروف ص ٩٢.

حديث ابن عمر، ورواه الخرائطي في اعتلال القلوب[١] وتمام[٢] عن جابر، ورواه الطبراني في الأوسط[٣] من حديث أبي هريرة، ورواه الخرائطي[٤] من حديث عائشة. ويُروَىٰ من الزيادة علىٰ لفظ الباب: «وتسمُّوا بخياركم، وإذا أتاكم كريمُ قوم فأكرِموه». رواه ابن عساكر[٥] من حديث عائشة بسند ضعيف. وعند ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج[٦] عن عمرو بن دينار مرسلاً: «اطلبوا حوائجكم عند حِسان الوجوه، فإن قضىٰ حاجتك قضاها بوجه طليق، وإن ردَّك ردَّك بوجه طليق، فرُب حسن الوجه دميمه عند طلب الحاجة، ورُب دميم الوجه حسنه عند طلب الحاجة» ونحوه. قيل لابن عباس: كم من رجل قبيح الوجه قَضَّاء للحوائج. قال: إنما يعني حُسن الوجه عند الطلب.

(**وقال عمر** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: **إذا بعثتم رسولاً فاطلبوا حَسن الوجه حَسن الاسم**) وقد رُوي معنىٰ ذلك مرفوعًا، رواه البزار[٧] من حديث قتادة عن عبد الله بن بريدة عن أبيه رفعه: «إذا أبردتم إليَّ بريدًا فابعثوه حَسن الوجه حَسن الاسم». وقال: لا نعلم رواه بهذا الإسناد إلا قتادة. وله[٨] أيضًا من حديث عمر بن أبي خثعم عن يحيىٰ بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة رفعه: «إذا بعثتم إليَّ رجلاً فابعثوه حسن الوجه حسن الاسم».

ومن الأشعار القديمة في معنىٰ الحديث السابق ما يُروَىٰ عن ابن عباس أنه

(١) اعتلال القلوب ص ١٦٧.
(٢) فوائد تمام ٤/ ٧٢.
(٣) المعجم الأوسط ٤/ ١٢٩.
(٤) اعتلال القلوب ص ١٦٦.
(٥) تاريخ دمشق ٢٢/ ١٨٤.
(٦) قضاء الحوائج ص ٥١.
(٧) مسند البزار ١٠/ ٢٧٨.
(٨) السابق ١٥/ ٢١٧.

أنشد قول الشاعر:

ائتِ شرط النبي إذ قال يومًا … اطلبوا الخير في صِباح الوجوه[(١)]

ولابن رواحة أو حسان، كما رواه العسكري في الأمثال[(٢)]:

قد سمعنا نبيَّنا قال قولاً … هو لمَن يطلب الحوائج راحة

اغتدُوا واطلبوا الحوائج ممَّن … زيَّن الله وجهَه بصباحة

وأنشد ابن عائشة أبياتًا، منها:

دلَّ علىٰ معروفه وجهُه … بوركَ هذا هاديًا من دليل[(٣)]

ومنها[(٤)]:

يدل علىٰ معروفه حُسنُ وجهه … ومازال حُسنُ الوجه إحدىٰ الشواهد[(٥)]

(وقال الفقهاء: إذا تساوت درجات المصلِّين) في الأقرأ والأعلم والأصلح **(فأحسنهم وجهًا أَولاهم بالإمامة)** فكل[(٦)] مَن كان أكمل فهو أفضل؛ لأن المقصود كثرة الجماعة، ورغبة الناس فيه أكثر، واجتماعهم [عليه] أوفرُ، وفي سياق كتب

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط ٤/ ٣٨٧، والخرائطي في اعتلال القلوب ص ١٦٣، والبيهقي في شعب الإيمان ٥/ ١٧٧. وعند ابن عدي في الكامل ٣/ ١١٦٧ وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٨/ ٣٦٢ والراغب في محاضرات الأدباء ١/ ٥٤٣ أن هذا البيت من إنشاء ابن عباس.

(٢) وكذلك ابن أبي الدنيا في اصطناع المعروف ص ٩٦. ولم أقف علىٰ البيتين في ديوان حسان بن ثابت أو ديوان عبد الله بن رواحة.

(٣) البيت للخنساء تماضر بنت عمرو السلمية، وهو في ديوانها ص ٢٣١ (ط - مطبعة السعادة) من قصيدة ترثي بها أخاها صخرا.

(٤) في المقاصد الحسنة: وأنشد غيره.

(٥) لم أقف علىٰ قائل هذا البيت.

(٦) تبيين الحقائق للزيلعي ١/ ١٣٣ - ١٣٤، وانظر: الحاوي للماوردي ٢/ ٣٥٣ (ط دار الكتب العلمية)، والمجموع للنووي ٤/ ٢٨٣ (ط دار الفكر).

أصحابنا: الأحق بالإمامة الأعلم بالسنَّة، ثم الأقرأ، ثم الأورع، ثم الأسنُّ، فإن استووا في السن فأحسنهم خُلقًا، فإن استووا فأصبحهم وجهًا.

(وقال تعالىٰ ممتنًّا بذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾**)** [البقرة: ٢٤٧] وقال: ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩] فكفاك هذا من البيان في فضل كمال الجسم **(ولسنا نعني بالجمال)** ههنا **(ما يحرِّك الشهوةَ)** أي ما تتعلَّق به شهوة الرجال والنساء **(فإنَّ ذلك أنوثة)** وفي بعض النسخ: أنثويَّة **(وإنما نعني به)** معنيين أُخريين، أحدهما: **(ارتفاع القامة)** وامتدادها **(على الاستقامة)** الذي يكون من [اعتدال] الحرارة الغريزية، فإن الحرارة إذا حصلت رفعت أجزاء الجسم إلىٰ العلو، كالنبات إذا نجمَ كلَّما كان أطلب للعلو في منبته كان أشرف في جنسه، ولذلك كثُر المدحُ بطول القامة نحو قوله:

كأنَّ زُرُود القُبْطُرِية عُلِّقت علائقها منه بجذع مقوَّم[(١)]

وقول الآخَر[(٢)]:

أَشَمُّ طويل الساعدين كأنَّما يُناط نِجادًا سيفه بلواء

والثاني: أن يكون مقدودًا، قويَّ العصب، طويل الأطراف ممتدها، رحب الذراع **(مع الاعتدال في اللحم)** والشحم بأن لا يكون مثقَلاً بهما ولا فارغًا عنهما **(وتناسُب الأعضاء وتناسُق خلقة الوجه بحيث لا تنبو الطباعُ عن النظر إليه)** كما قال الشاعر:

فتىٰ قُدَّ قَدَّ السيفِ لا متضائل ولا رَهِلٌ لَبَّاته وبآدِلُه[(٣)]

---

(١) البيت لعدي بن الرقاع العاملي [المتوفي سنة ٩٥ هـ] وهو في ديوانه ص ٩٨ (ط - دار الكتب العلمية) من قصيدة يمدح بها عمر بن هبيرة. وفيه: بنادكها، بدل: علائقها.

(٢) هو أبو نواس، والبيت في ديوانه ١/ ١٢٤.

(٣) هذا البيت ينسب للعجير السلولي واسمه عمير بن عبد الله، وهو في ملحق ديوانه المنشور بمجلة المورد العراقية، المجلد الثامن ص ٢٣٧ [سنة ١٩٧٩]. وهو ينسب إلىٰ غيره أيضا، وقد =

(فإن قلتَ: فقد أدخلتَ المال والجاه والنسب والأهل والولد في حيِّز النعم) وجعلتَها من الخيرات والفضائل **(وقد ذمَّ الله تعالىٰ المال والجاه، وكذا رسوله ﷺ، وكذا العلماء، قال تعالىٰ:** ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤] **وقال تعالىٰ:** ﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾) [التغابن: ١٥] وقال ﷺ: «ما ذئبان جائعان أُرسِلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء علىٰ المال والشرف لدينه». رواه أحمد والترمذي - وقال: حسن صحيح - والدارمي والطبراني من حديث كعب بن مالك. وقد تقدم في كتاب ذم الجاه والبخل **(وقال علي** رضي الله عنه **في ذم النسب: الناس أبناء ما يحسنون. و)** قال أيضًا: **(قيمة كل امرئ ما يحسنه)** رواهما الشريف الموسوي في نهج البلاغة[1]، وهما من جوامع كلمه **(وقيل: المرء بنفسه لا بأبيه)** ومثله قول الآخَر: الشرف بالهمم العالية، لا بالرمم البالية. ومثله من أسجاع الحريري[2]: تبًّا لمفتخر بعظم نَخِر **(فما معنىٰ كونها نعمةً مع كونها مذمومة شرعًا؟ فاعلمْ أن مَن يأخذ العلوم من الألفاظ المنقولة المؤوَّلة والعمومات المخصَّصة كان الضلال عليه أغلب ما لم يهتدِ بنور الله تعالىٰ إلىٰ إدراك الأمور علىٰ ما هي عليه ثم تنزيل النقل علىٰ وفق ما ظهر له منها بالتأويل مرةً وبالتخصيص أخرىٰ، فهذه)** المذكورات **(نعم معينة علىٰ أمر الآخرة لا سبيل إلىٰ جحدها)** وإنكارها **(إلا أن فيها فتنًا ومخاوف، فمثال المال)** إذا نظرتَ إليه **(مثال الحية التي فيها ترياق نافع)** وذلك في لحمها ما عدا رأسها وذَنَبها **(وسم ناقع)** وذلك في أطرافها **(فإن أصابها المعزِّمُ)** أي صاحب العزيمة **(الذي يعرف وجه الاحتراز عن سمِّها)** ويتَّقيه **(و)** يعرف **(طريق استخراج ترياقها النافع)** بأن يمسكها من محل رقبتها فيجمع بينه وبين ذنبها فيقطعهما بسكين حادة في ضربة واحدة، ثم يستقطر ما بقي من لحمها، فهذا هو الذي يدخل في الترياق **(كانت**

= فصَّل ذلك محقق الديوان محمد نايف الدليمي، فانظره.

(١) وجدت القول الثاني فقط في شرح نهج البلاغة ١٨/ ٣١٤، أما القول الأول فلم أقف عليه فيه.

(٢) مقامات الحريري ص ٢١٤ [المقامة الكرجية].

نعمة) في حقه؛ لأنه يقاوم السمومات كلَّها **(وإن أصابها السواديُّ الغِرُّ)** بكسر الغين المعجمة، أي الغبي الجاهل بطرق عزائمها وإمساكها **(فهي عليه بلاء وهلاك)** فإنه لا يأمن أن تنطوي عليه فتنهشه **(وهو)** أيضًا **(مثل البحر الذي تحته أصناف الجواهر واللآلئ، فمَن ظفر بالبحر فإن كان عالمًا بالسباحة وطريق الغوص)** فيه **(وطريق الاحتراز عن مهلكات البحر)** من حيوان وغيره **(فقد ظفرَ بنعمه)** وهي حوز الجواهر واللآلئ **(وإن خاضه جاهلاً بذلك فقد هلك)** أي عرَّض نفسه للهلاك **(فلذلك مدح الله تعالىٰ المال)** في مواضع من كتابه العزيز **(وسمَّاه خيرًا)** وذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِن تَرَكَ خَيۡرًا﴾ [البقرة: ١٨٠] وقد ذكر المفسرون أن المراد به المال **(ومدحه رسول الله ﷺ وقال: نِعم العون علىٰ تقوىٰ الله المال)** وقد تقدم قريبًا **(وكذلك مدح الجاه والعز؛ إذ منَّ اللهُ تعالىٰ علىٰ رسوله ﷺ بأن أظهره علىٰ الدين كلِّه وحبَّبه في قلوب الخلق)** أجمعين **(و)** هذا **(هو المعنيُّ)** أي المقصود **(بالجاه، ولكن المنقول في مدحهما)** أي العز والجاه **(قليل، والمنقول في ذم الجاه والمال كثير، وحيث ذُم الرياء فهو ذمُّ الجاه؛ إذ الرياء مقصوده اجتلاب القلوب، ومعنىٰ الجاه مَلْكُ القلوب)** والاجتلاب والمُلك قريبان **(وإنما كثُر هذا)** يعني ذم المال والجاه **(وقلَّ ذاك)** يعني مدح العزِّ والجاه **(لأن الناس أكثرهم جهَّال بطريق الرقية لحيَّة المال وطريق الغوص في بحر الجاه، فوجب تحذيرُهم، فإنهم يَهلكون بسُم المال قبل الوصول إلىٰ ترياقه، ويهلكهم تمساح بحر الجاه قبل العثور علىٰ جواهره)** أي الاطلاع والأخذ **(ولو كانا في أعيانهما مذمومين بالإضافة إلىٰ كل أحد لَما تُصوِّر أن ينضاف إلىٰ النبوَّة المُلكُ)** الذي لا يتم إلا بالمال والجاه **(كما كان لرسولنا ﷺ، ولا أن ينضاف إليها)** أي إلىٰ النبوة **(الغِنىٰ)** فإنه كناية عن وفر المال **(كما كان لسليمان عليه السلام، فالناس كلهم)** في هذه الدار **(صبيان)** مغفَّلون **(والأموال حيَّات)** أي بمنزلتها **(والأنبياء)** عليهم السلام **(والعارفون)** من علماء الآخرة **(معزِّمون)** أي أصحاب عزائم ورُقىٰ **(فقد يضر الصبيَّ ما لا يضرُّ المعزِّمَ)**

لمعرفة ما له وعليه، فهؤلاء[١] إذا تناولوا المال جرىٰ مَجرىٰ راقٍ [حاذق] يتناول الحية قد عرف نفعها وضررها وأمنَ سُمَّها وشرَّها، فيتحرَّون [بتناولها] الوجه الذي ينتفعون به وينفع غيرَهم، وغيرهم ليس كذلك، فما أسرع الهلاك إليه، فكما لا يجوز للجاهل بالرُّقية غير العارف بنفع الحية أن يقتدي بالراقي في تناول الحية والتصرُّف فيها كذلك لا يجوز للجاهل أن يقتدي بالعارفين في تناول أعراض الدنيا (**نعم، المعزِّم لو كان له ولدٌ يريد بقاءه وصلاحه وقد وجد حية وعلمَ أنه لو أخذها لأجل ترياقها لاقتدىٰ به ولدُه وأخذ الحية إذا رآها ليلعب بها فيهلك، فله غرض في**) تحصيل (**الترياق، وله غرض في حفظ الولد، فواجب عليه أن يزن غرضه في الترياق بغرضه في حفظ الولد، فإذا كان يقدر علىٰ الصبر عن الترياق ولا يستضرُّ به** ضررًا كثيرًا **ولو أخذها لأخذها الصبي ويعظُم ضررُه بهلاكه فواجب عليه أن يهرب عن الحية إذا رآها**) ويُرِي ذلك للصبي (**ويشير علىٰ الصبي بالهرب**) من بين يديها (**ويقبِّح صورتَها في عينه، ويعرِّفه**) أنها عدوَّة ابن آدم و(**أن فيها سمًّا قاتلاً لا ينجو منه أحد**) ولا يقبل دواءً (**ولا يحدِّثه أصلاً بما فيها من نفع الترياق، فإنَّ ذلك ربما يغرُّه**) أي يوقعه في الغرور (**فيُقدِم عليه من غير تمام المعرفة، وكذلك الغوَّاص إذا علمَ أنه لو غاص في البحر بمَرأىٰ من ولده لاتَّبعه**) وسلك طريقه (**وهلك، فواجب عليه أن يحذِّر الصبيَّ ساحلَ البحر والنهر**) ويعرِّفه أن السلامة في الساحل (**فإن كان لا ينزجر الصبيُّ بمجرد الزجر مهما رأىٰ والده يحوم حول الساحل فواجب عليه أن يبعد عن الساحل مع الصبي فلا يقرُب منه بين يديه**) أصلاً، فيكون زجرًا له كلِّيًّا (**فكذلك الأمَّة في حِجر الأنبياء عليهم السلام كالصبيان والأغبياء، ولذلك قال ﷺ: إنما أنا لكم مثل الوالد لولده**) أي في الشفقة والرحمة وإرادة الخير. رواه مسلم من حديث أبي هريرة دون قوله «لولده»، وقد تقدم[٢].

---

(١) الذريعة للراغب ص ٢٨٣.

(٢) في الباب الخامس من كتاب العلم.

(**وقال ﷺ: إنكم تتهافتون علىٰ النار تهافُت الفَراش، وأنا آخذ بحُجزكم**) قال العراقي[(١)]: متفق عليه[(٢)] من حديث أبي هريرة بلفظ: «مَثلي ومثل الناس - ولفظ مسلم: ومثل أمَّتي - كمثل رجل استوقد نارًا، فجعلت الدوابُّ والفَراش يقعنَ فيه، فأنا آخذ بحُجزكم وأنتم تقحَّمون فيه». ولمسلم[(٣)] من حديث جابر: «وأنا آخذ بحُجزكم [عن النار] وأنتم تفلَّتون من يدي».

قلت: حديث أبي هريرة رواه أيضًا أحمد[(٤)] والترمذي[(٥)]، وفي لفظ بعضهم: «مَثلي كمثل رجل استوقد نارًا، فلما أضاءت ما حولها جعل الفَراش وهذه الدوابُّ التي يقعنَ في النار يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها». وحديث جابر رواه أيضًا الطيالسي[(٦)] وأحمد[(٧)]، وأوله: «مَثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد نارًا، فجعل الفَراش والجنادب يقعنَ فيها وهو يذبُّهن عنها».

(**وحظُّهم الأوفر في حفظ أولادهم من المَهالك، فإنهم لم يُبعثوا إلا لذلك، وليس لهم في المال حظٌّ إلا بقدر القوت، فلا جَرَم اقتصروا علىٰ قدر القوت، وما فضلَ**) عنه (**فلم يمسكوه بل أنفقوه**) في سبيله (**فإنَّ الإنفاق فيه**) هو (**الترياق**) وفيه الشفاء (**وفي الإمساك السمُّ**) وفيه الهلاك (**ولو فُتح للناس باب كسبِ المال ورُغِّبوا فيه لمالوا إلىٰ سم الإمساك، ورغبوا عن ترياق الإنفاق، ولذلك قُبِّحت الأموال، والمعنيُّ به تقبيح إمساكها والحرص عليها للاستكثار منها والتوسُّع في نعيمها بما يوجب الركونَ إلىٰ الدنيا**) والميل إلىٰ أعراضها (**ولذَّاتها**) الحاصلة (**فأما أخذُها**

---

(١) المغني ٢/ ١٠٢٨.

(٢) صحيح البخاري ٢/ ٤٨٤، ٤/ ١٨٨. صحيح مسلم ٢/ ١٠٨٤.

(٣) صحيح مسلم ٢/ ١٠٨٤.

(٤) مسند أحمد ١٢/ ٢٧٢، ١٣/ ٤٧٦، ١٦/ ٥٦٥.

(٥) سنن الترمذي ٤/ ٥٥٣.

(٦) مسند الطيالسي ٣/ ٣٣٣.

(٧) مسند أحمد ٢٣/ ١٦٦، ٣٨٣.

بقدر الكفاية وصرفُ الفاضل) منها (**إلىٰ الخيرات**) الدينية (**فليس بمذموم، وحق كل مسافر**) في طريق بعيدة (**أن لا يحمل إلا بقدر**) ما يكفيه من (**زاده في السفر إذا صمَّم العزمَ علىٰ أن يختصَّ بما يحمله**) لا يشاركه فيه غيرُه (**فأما إن سمحت نفسُه بالطعام يُطعمه**) الغيرَ (**وتوسيع الزاد علىٰ الرفقاء فلا بأس بالاستكثار**) منه (**وقوله ﷺ: ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب**) قال العراقي[١]: رواه ابن ماجه[٢] والحاكم[٣] من حديث سلمان، لفظ الحاكم وقال: بُلغة، وقال: مثل زاد الراكب. وقال: صحيح الإسناد. قلت: هو من رواية أبي سفيان عن أشياخه غير مسمَّينَ. وقال ابن ماجه: عهدَ إليَّ أن يكفي أحدَكم مثل زاد الراكب.

قلت: ورواه كذلك أحمد[٤] وابن سعد[٥] وهناد[٦] وأبو يعلىٰ وابن أبي الدنيا[٧] والروياني والبغوي[٨] والطبراني[٩] وابن حبان[١٠] والبيهقي[١١] وابن عساكر[١٢] والضياء، كلهم من حديث سلمان، زادوا: «حتىٰ يلقاني». ورواه ابن عساكر[١٣] من حديث عمر وأبي الدرداء. وفي لفظ لابن ماجه وابن حبان والطبراني

---

(١) المغني ٢/ ١٠٢٨.

(٢) سنن ابن ماجه ٥/ ٥٥٤.

(٣) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٤٦٠.

(٤) مسند أحمد ٣٩/ ١١٥.

(٥) الطبقات الكبرىٰ ٤/ ٨٤ - ٨٥.

(٦) الزهد ١/ ٣١٦.

(٧) الزهد ص ٥٨.

(٨) معجم الصحابة ٣/ ١٦٥.

(٩) المعجم الكبير ٦/ ٢٢٧، ٢٦١، ٢٦٨.

(١٠) صحيح ابن حبان ٢/ ٤٨١.

(١١) شعب الإيمان ١٣/ ٣٤ - ٣٦.

(١٢) تاريخ دمشق ٢١/ ٤٥٠ - ٤٥٧.

(١٣) السابق ٤٧/ ١٣٦.

من حديث سلمان: «ليكفِ الرجلَ منكم كزاد الراكب».

وقد أخرجه أبو نعيم في الحلية[1] ونوَّع طرقه، قال: حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر، حدثنا محمد بن شعيب التاجر، حدثنا محمد بن عيسىٰ الدامغاني، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر قال: دخل سعد علىٰ سلمان يعوده، فقال: أبشِرْ أبا عبد الله، توفي رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنك. قال: كيف يا سعد وقد سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لتكن بلغة أحدكم من الدنيا مثل زاد الراكب». كذا رواه الدامغاني عن جرير عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر، وقال أبو معاوية وغيره: عن الأعمش عن أبي سفيان عن أشياخه.

حدثنا محمد بن أحمد أبو أحمد، حدثنا عبد الله بن شيرويه، حدثنا إسحاق ابن راهويه، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن أشياخه أن سعد بن أبي وقاص دخل علىٰ سلمان يعوده، فبكىٰ سلمان، فقال له سعد: ما يبكيك؟ تلقَىٰ أصحابَك، وتَرِدُ علىٰ رسول الله ﷺ الحوضَ، وتوفي رسول الله ﷺ وهو عنك راضٍ. فقال: ما أبكي جزعًا من الموت ولا حرصًا علىٰ الدنيا، ولكن رسول الله ﷺ عهدَ إلينا فقال: «لتكن بلغة أحدكم من الدنيا مثل زاد الراكب»، وهذه الأساور حولي. وإنما حوله مَطهرة أو إجَّانة ونحوها، فقال له سعد: اعهدْ إلينا عهدًا نأخذ به بعدك. فقال له: اذكرْ ربَّك عند همِّك إذا هممتَ، وعند حكمك إذا حكمتَ، وعند يدك إذا قسمتَ. رواه مورق العِجلي والحسن البصري وسعيد بن المسيب وعامر بن عبد الله عن سلمان.

حدثنا أبي، حدثنا زكريا الساجي، حدثنا هُدبة بن خالد، حدثنا حماد بن سلمة، عن حبيب، عن الحسن وحميد، عن مورق العجلي أن سلمان لما حضرته الوفاةُ بكىٰ، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: عهدَ عهده إلينا رسولُ الله ﷺ فقال: «ليكنْ

---

(١) حلية الأولياء ١/ ١٩٥ – ١٩٧.

بلاغُ أحدكم كزاد الراكب». قالا: فلما مات نظروا في بيته فلم يروا في بيته إلا إكافًا ووِطاء ومتاعًا قُوِّمَ نحوًا من عشرين درهمًا. وممَّن رواه عن الحسن: السريُّ بن يحيىٰ، والربيع بن صبيح، والفضل بن دلهم، ومنصور بن زاذان، وغيرهم عن الحسن.

حدثنا أبو بحر محمد بن الحسن بن كوثر، حدثنا بِشر بن موسىٰ، حدثنا عبد الصمد بن حسان، حدثنا السريُّ بن يحيىٰ، عن الحسن قال: لما حضرت سلمانَ الوفاةُ جعل يبكي، فقيل له: يا أبا عبد الله، ما يبكيك؟ أليس فارقتَ رسولَ الله وهو عنك راضٍ؟ فقال: واللهِ ما بي جزعُ الموت، ولكن رسول الله عهد إلينا عهدًا فقال: «ليكن متاع أحدكم من الدنيا كزاد الراكب».

وحديث سعيد بن المسيب حدثناه أبي قال: حدثنا زكريا الساجي، حدثنا هُدبة بن خالد، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب أن سعد بن مالك وعبد الله بن مسعود دخلا علىٰ سلمان يعودانه، فبكىٰ، فقالا: ما يبكيك أبا عبد الله؟ فقال: عهدٌ عهده إلينا رسول الله ﷺ فلم يحفظه أحد منا، قال: «ليكن بلاغ أحدكم كزاد الراكب».

وحديث عامر بن عبد الله حدثناه أبو عمرو ابن حمدان، حدثنا الحسن بن سفيان، حدثنا حرملة بن يحيىٰ، حدثنا ابن وهب قال: أخبرني أبو هانئ، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلِّىٰ، عن عامر بن عبد الله، عن سلمان الخير: أنه حين حضره الموتُ عرفنا به بعضَ الجزع، فقالوا: ما يجزعك أبا عبد الله وقد كانت لك سابقة في الخير؟ شهدتَ مع رسول الله ﷺ مغازي حسنة وفتوحًا عظامًا. فقال: يحزنني أن حبيبي محمدًا ﷺ عهدَ إلينا حين فارقنا فقال: «ليكفِ المؤمنَ كزاد الراكب»، فهذا الذي أحزنني. قال: فجُمع مال سلمان فكانت قيمته خمسة عشر دينارًا. كذا قال عامر بن عبد الله: دينارًا، واتفق الباقون علىٰ: بضعة عشر درهمًا.

ورواه أنس بن مالك عن سلمان، حدثناه عبد الله بن محمد بن جعفر، حدثنا أحمد بن عمرو البزار، حدثنا الحسن بن أبي الربيع الجرجاني، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا جعفر بن سليمان، عن ثابت البُناني، عن أنس بن مالك قال: دخلت علىٰ سلمان، فقلت له: لِمَ تبكي؟ فقال: إن رسول الله ﷺ عهدَ إليَّ عهدًا: «أن يكون زادك في الدنيا كزاد الراكب».

حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي، حدثني محمد ابن عبيد بن ميمون الجدعاني، حدثنا عَتَّاب بن بشير، عن علي بن بذيمة قال: بِيعَ متاع سلمان فبلغ أربعة عشر درهمًا.

(معناه: لأنفسكم خاصةً، وإلا فقد كان فيمَن يروي هذا الحديث ويعمل به مَن يأخذ مائة ألف درهم في موضع واحد ويفرِّقها في موضعه ولا يمسك منها حبَّة) وكأنَّه يشير إلىٰ ما رواه أبو نعيم في الحلية[1] عن أبي بكر بن مالك، حدثنا عبد الله ابن أحمد بن حنبل، حدثني أبي، حدثنا سَيَّار، حدثنا جعفر، حدثنا هشام، حدثنا الحسن قال: كان عطاء سلمان خمسة آلاف درهم، وكان أميرًا علىٰ زهاء ثلاثين ألفًا من المسلمين، وكان يخطب الناسَ في عباءة يفترش بعضها ويلبس بعضها، وإذا خرج عطاؤه أمضاه، ويأكل من سفيف يده.

وروىٰ أحمد في الزهد[2] من طريق عبد الله بن بريدة قال: كان سلمان يعمل بيديه، فإذا أصاب شيئًا اشترىٰ به لحمًا أو سمكًا، ثم يدعو المجذومين فيأكلونه معه.

(ولما ذكر رسول الله ﷺ أن الأغنياء يدخلون الجنة بشدة استأذنه عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه**)** وكان من أغنياء الصحابة **(في أن يخرج من جميع ما يملكه، فأذنَ**

---

(١) السابق ١/ ١٩٧ - ١٩٨.

(٢) ومن طريقه رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ٢٠٠، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٢١/ ٤٤٠.

له، فنزل جبريل عليه السلام وقال: مُرْه بأن يُطعِم المسكينَ ويكسو العاري ويقري الضيف ... الحديث) قال العراقي[1]: رواه الحاكم[2] من حديث عبد الرحمن بن عوف، وقال: صحيح الإسناد. قلت: كلاَّ، فيه خالد بن أبي مالك، ضعيف جدًّا.

قلت: أخرجه أبو نعيم في الحلية[3] فقال: حدثنا محمد بن علي بن حبيش، حدثنا جعفر بن محمد الفِرْيابي، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي، حدثنا خالد بن يزيد بن أبي مالك، عن أبيه، عن عطاء بن أبي رباح، عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال له: «يا ابن عوف، إنك من الأغنياء، ولن تدخل الجنة إلا زحفًا، فأقرِض اللهَ يطلق قدميك». قال ابن عوف: وما الذي أُقرِضُ اللهَ؟ قال: «تتبرَّأ ممَّا أمسيتَ فيه». قال: من كله أجمع يا رسول الله؟ قال: «نعم». فخرج ابن عوف وهو يهمُّ بذلك، فأتاه جبريل فقال: مُرِ ابنَ عوف فليُضِف [الضيف] وليطعم المسكين وليعطِ السائل، فإذا فعل ذلك كانت كفَّارة لِما هو فيه.

(فإذًا النعم الدنيوية مشوبة، قد امتزج داؤها بدوائها، ومرجوُّها بمخوفها، ونفعُها بضرِّها، فمَن وثق ببصيرته وكمال معرفته فله أن يقرُب منها متَّقيًا داءها ومستخرِجًا دواءها، ومَن لا يثق بها فالبعد البعد والفرار الفرار عن مَظانِّ الأخطار، فلا تعدل بالسلامة شيئًا في حق هؤلاء وهم الخَلق كلهم إلا مَن عصمه الله تعالىٰ وهداه لطريقه.

فإن قلتَ: فما معنىٰ النعم التوفيقية) التي لا تتحصَّل الفضائل الخارجية إلا بها، وهي **(الراجعة إلىٰ)** أربعة أشياء: **(الهداية والرشد والتأييد والتسديد؟ فاعلمْ أن التوفيق لا يستغني عنه أحد، وهو عبارة عن التأليف والتلفيق بين إرادة العبد)** وفعلِه

---

(١) المغني ٢/ ١٠٢٩.

(٢) المستدرك علىٰ الصحيحين ٣/ ٣٨٢.

(٣) حلية الأولياء ١/ ٩٩.

(وبين قضاء الله وقدَره) والاتفاق مطاوعه التوفيق، يقال: وفَّقه فاتفق (و) لكن (هذا يشمل الخير والشرَّ) جميعًا (وما هو سعادة وما هو شقاوة) فيقال: اتفاق جيد واتفاق رديء، فالتوفيق وإن كان في الأصل موضوعًا على وجه يصلُح استعمالُه فيهما جميعًا (ولكن جرت العادةُ بتخصيص اسم «التوفيق» بما يوافق السعادةَ) فقط (من جملة قضاء الله وقدره، كما أن الإلحاد) في الأصل (عبارة عن المَيل) ومنه اللحد في القبر (فخُصِّص بمَن يميل إلى الباطل عن الحق، وكذا الارتداد) وأشباههما (ولا خفاء بالحاجة إلى التوفيق) كما قال الحكيم: الذي لا يستغني الإنسان عنه في كل حال التوفيقُ (ولذلك قيل:

إذا لـم يكـن عـونٌ مـن الله للفتـىٰ فأكثـرُ مـا يجنـي عليـه اجتهـادُه[1]

وأما الهداية فلا سبيل لأحد إلىٰ طلب السعادة) ولا إلىٰ شيء من الفضائل (إلا بها) أي بهداية الله ورحمته، ويجب علىٰ كل إنسان أن يعلم ذلك (لأن داعية الإنسان قد تكون مائلة إلىٰ ما فيه صلاح آخرته، ولكن إذا لم يعلم ما فيه صلاح آخرته حتىٰ يظن الفسادَ صلاحًا فمن أين ينفعه مجردُ الإرادة؟ فلا فائدة في الإرادة والقدرة والأسباب إلا بعد الهداية) فهي مبدأ الخيرات ومُنتهاها (كما قال الله تعالىٰ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: ٥٠] وقال تعالىٰ) مخاطبًا للناس: (﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ﴾ [النور: ٢١] وقال ﷺ: ما من أحد يدخل الجنة إلا برحمه الله تعالىٰ. أي بهدايته، فقيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا) تنبيهًا علىٰ أنه لو تُوهِّمت رحمته مرتفعةً ابتداءً وانتهاءً ما كان لنا سبيل إلىٰ ذلك. قال العراقي[2]: متفق عليه[3] من حديث أبي هريرة: «لن يُدخِل أحدَكم عملُه الجنةَ». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا

---

(١) البيت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو في ديوانه ص ٣٧.

(٢) المغني ٢/ ١٠٢٩.

(٣) صحيح البخاري ٤/ ٣٠، ١٨٤. صحيح مسلم ٢/ ١٢٩٥ - ١٢٩٦.

أنا، إلا أن يتغمَّدني الله منه بفضل ورحمة». وفي رواية لمسلم: «ما من أحد يُدخِله عملُه الجنة ... الحديث. واتفقا عليه[1] من حديث عائشة، وانفرد به مسلم[2] من حديث جابر، وقد تقدم. انتهىٰ.

قلت: وتمام حديث أبي هريرة عند الشيخين: «فسدِّدوا وقارِبوا، ولا يتمنَّ أحدُكم الموتَ، إما محسن فلعله يزداد خيرًا، وإما مسيء فلعله يُستعتَب». وفي لفظ لهما: «لن ينجي أحدًا منكم عملُه». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمَّدني الله برحمته، ولكن سدِّدوا وقارِبوا واغدوا وروحوا وشيء من الدُّلْجة، والقصدَ القصد تبلغوا».

وروىٰ ابن قانع[3] والطبراني[4] والضياء من حديث شريك بن طارق: «لن يدخل الجنة أحدٌ منكم بعمله». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمَّدني الله منه برحمة وفضل». وفي لفظ للطبراني: «ما من أحد يدخل الجنة بعمل - أو قال: إلا برحمة - منه».

وروىٰ أحمد[5] وعبد بن حميد[6] من حديث أبي سعيد: «لن يدخل أحد الجنة إلا برحمة الله». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمَّدني الله [برحمته]».

(**وللهداية ثلاث منازل**) في الدنيا (**الأولىٰ: معرفة طريق الخير والشر المشار إليهما بقوله تعالىٰ: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾**) [البلد: ١٠] **هذا هو المشهور**

---

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٨٥. صحيح مسلم ٢/ ١٢٩٦.
(٢) صحيح مسلم ٢/ ١٢٩٦.
(٣) معجم الصحابة ١/ ٣٣٨.
(٤) المعجم الكبير ٧/ ٣٦٩ - ٣٧٠.
(٥) مسند أحمد ١٨/ ٦٣.
(٦) المنتخب من مسند عبد بن حميد ٢/ ٧٨.

في التفسير[١]، وقيل: طريق الثواب والعقاب، وقيل: طريق العقل والشرع، وقال مجاهد: الثديين. وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣] وقوله تعالىٰ: ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾ [الصافات: ١١٨] **(وقد أنعم الله به علىٰ كافَّة عباده)** المكلَّفين **(بعضه بالعقل)** والفِطنة[٢] والمعارف الضرورية، فعمَّ به كلَّ مكلَّف، بل كل شيء حسب احتماله، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه: ٥٠] فهذا هو القسم الأول من المنزلة الأولىٰ، وأشار إلىٰ القسم الثاني بقوله: **(وبعضه علىٰ لسان الرسل)** أي الهداية التي جُعلت للناس بدعائه إيَّاهم علىٰ ألسنة الأنبياء والرسل وإنزال القرآن **(ولذلك قال الله تعالىٰ)**: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣] ولما كانت الهداية والتعليم يقتضي شيئين: تعريفًا من المعرِّف وتعرُّفًا من المعرَّف، وبهما تتم الهدايةُ والتعليم، فإنه متىٰ حصل البذلُ من الهادي والمعلِّم ولم يحصل القبولُ صحَّ أن يقال: لم يهدِ ولم يعلِّم، اعتبارًا بعدم القبول، وصح أن يقال: هدىٰ وعلَّم، اعتبارًا ببذله. وعلىٰ الاعتبار الثاني ينزَّل قوله تعالىٰ: (﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] **فأسباب الهدىٰ هي الكتب والرسل وبصائر العقول)** التي هي مبدأ الهداية **(وهي مبذولة** لهم **(ولا يمنع منها إلا الحسد والكبر وحب الدنيا والأسباب التي تعمي القلوبَ)** أي تغطي علىٰ بصيرتها **(وإن كانت لا تعمي الأبصار، قال تعالىٰ**: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾) [الحج: ٤٦] وعمىٰ عينِ القلب الباطنة أشد من عمىٰ العين الظاهرة، وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤] **(ومن جملة المعميات الإلف والعادة)** بالشيء **(وحب استصحابهما، وعنه العبارة بقوله تعالىٰ**: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ

---

(١) انظر: الدر المنثور للسيوطي ١٥/ ٤٤٢ - ٤٤٤. جامع البيان للطبري ٢٤/ ٤١٥ - ٤١٩. تفسير ابن كثير ٨/ ٤٠٤ - ٤٠٥. وتفسير النجدين بالثديين مروي عن ابن عباس والضحاك بن مزاحم، وليس عن مجاهد. وفي رواية أخرىٰ عن ابن عباس: طريق الهدىٰ والضلال.

(٢) المفردات للراغب ص ٥٣٨ - ٥٤١. بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي ٥/ ٣١٣ - ٣١٩.

ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾) [الزخرف: ٢٢، ٢٣] وكذا قوله ﷺ: «حبُّك للشيء يُعمِي ويُصِمُّ» **(وعن الكبر والحسد العبارة بقوله تعالىٰ:** ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾) [الزخرف: ٣١] وقد تقدم الكلام عليه **(وقوله تعالىٰ:** ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾) [القمر: ٢٤] فكل ذلك منشؤه التكبُّر علىٰ المؤمنين والتحاسُد علىٰ ما أعطاهم الله تعالىٰ **(فهذه هي المعميات التي منعت الاهتداءَ)** وأشدُّها حب الدنيا، فإنه رأس كل خطيئة **(والهداية الثانية وراء هذه الهداية العامة)** التي هي الأولىٰ **(وهي التي يمدُّ الله تعالىٰ بها العبدَ حالاً بعد حال)** بحسب استزادته من العلم والعمل الصالح، وهو التوفيق الذي يختصُّ به مَن اهتدىٰ **(وهي ثمرة المجاهدة، حيث قال تعالىٰ:** ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] **وهو المراد بقوله تعالىٰ:** ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾) [محمد: ١٧] وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١] **(والهداية الثالثة وراء الثانية، وهو النور الذي يشرق في عالَم النبوَّة والولاية بعد كمال المجاهدة، فيهتدي بها إلىٰ ما لا يهتدي إليه بالعقل الذي يحصل به التكليفُ وإمكان تعلُّم العلوم به)** وعبَّر بعضهم[1] عن هذه الهداية بـ: نور الولاية التي هي في أفق نور النبوة. ولعل هذا التعبير أوفق للمقام من تعبير المصنِّف **(وهو الهدىٰ المطلق، وما عداه حجاب له ومقدِّمات، وهو الذي شرَّفه الله تعالىٰ بتخصيص الإضافة إليه، وإن كان الكل من جهته تعالىٰ، فقال تعالىٰ:** ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾) [البقرة: ١٢٠، الأنعام: ٧١] فأضاف ذلك إلىٰ لفظ «الله» تعظيمًا له، كقوله: بيت الله، ثم قال: ﴿هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ فجعله الهدىٰ المطلق، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة: ٢] فالهدىٰ والهداية في موضوع اللغة واحد، ولكن قد خصَّ الله لفظ «الهدىٰ» بما تولَّاه وأعطاه واختصَّ هو به دون ما هو إلىٰ الإنسان **(وهو المسمَّىٰ حياةً في قوله تعالىٰ:** ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]

---

(١) هو الراغب في الذريعة ص ١١٩.

ونورًا بقوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢] وبقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩] أي نورًا تفرِّقون به بين الحق والباطل. وبتحرِّي هذه المنازل الثلاث يُتوصل إلىٰ الهداية للجنة في الآخرة، وهي المذكورة في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ الآية [الأعراف: ٤٣] وهذه الهدايات الأربع مرتَّبة، فمَن لم تحصل له الأولىٰ لا تحصل له الثانية، بل لا يصح تكليفُه، ومَن لم تحصل له الثانية لا تحصل له الثالثة والرابعة، والإنسان لا يقدر أن يهدي أحدًا إلا بالدعاء وتعريف الطرق دون سائر الهدايات، وإلىٰ سائر الهدايات أشار بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] وكل هداية ذكر الله فيها أنه منع الكافرين والظالمين فهي الهداية الثالثة التي هي التوفيق الذي يختصُّ به المهتدون، والرابعة التي هي الثواب في الآخرة وإدخال الجنة المشار إليها بقوله تعالىٰ: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [آل عمران: ٨٦] وكل هداية نفاها عن النبي ﷺ وعن البشر وذكر أنهم غير قادرين عليها فهي ما عدا المختص به من الدعاء وتعريف الطريق، وذلك كإعطاء العقل والتوفيق وإدخال الجنة، وإلىٰ هذا المعنىٰ أشار بقوله: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩] وقوله: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ [الإسراء: ٩٧] أي طالب الهدىٰ ومتحرِّيه هو الذي يوفِّقه ويهديه إلىٰ طريق الجنة لا مَن ضادَّه فتحرَّىٰ طريق الضلالة والكفر، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة: ٢٦٤، التوبة: ٣٧] وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزمر: ٣] الكاذب الكفَّار هو الذي لا يقبل هدايته، فإنَّ ذلك راجع إلىٰ هذا وإن لم يكن [لفظه] موضوعًا لذلك، ومَن لم يقبل هدايته لم يهتدِ، وأما قوله تعالىٰ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة: ٦] فقد قيل: عنىٰ به الهدايةَ العامة التي هي العقل وألسنة الأنبياء، وأمرنا بأن نقول ولكن بألسنتنا وإن كان قد فعل ليعطينا ثوابًا كما أمرنا أن نقول: اللهمَّ صلِّ علىٰ محمد، وإن كان قد

صلىٰ عليه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٦] وقيل: إن ذلك دعاء بحفظنا من استغواء الغُواة واستهواء الشهوات، وقيل: هو سؤال للتوفيق الموعود في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧] (**وأما الرشد فنعني به العناية الإلهية التي تعين الإنسان**) في أموره (**عند توجُّهه إلىٰ مقاصده، فتقوِّيه علىٰ ما فيه**) كذا في النسخ، ونص الذريعة: فتقرِّبه ممَّا فيه[1] (**صلاحه، وتفتره**) أي تكسله (**عمَّا فيه فساده، و**) أكثر ما (**يكون ذلك من الباطن، كما قال تعالىٰ:** ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١﴾) [الأنبياء: ٥١] وكثيرًا ما يكون ذلك بتقوية العزم أو فسخه، وإليه يوجَّه قوله تعالىٰ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤] (**فالرشد عبارة عن هداية باعثة إلىٰ جهة السعادة، محرِّكة إليها، فالصبي إذا بلغ خبيرًا بحفظ المال وطرق التجارة والاستنماء**) أي كيفية نمو المال (**ولكنه مع ذلك يبذِّر**) فيه تبذيرًا (**ولا يريد الاستنماء لا يسمَّىٰ رشيدًا، لا لعدم هدايته بل لقصور هدايته عن تحريك داعيته، فكم من شخص يُقدِم علىٰ ما يعلم أنه يضرُّه وأُعطي الهداية ومُيِّز بها عن الجاهل الذي لا يدري أنه يضرُّه ولكن ما أُعطيَ الرشد، فالرشد بهذا الاعتبار أكمل من مجرد الهداية إلىٰ وجوه الأعمال، وهي نعمة عظيمة**) من النعم التوفيقية (**وأما التسديد فهو توجيه حركاته إلىٰ صوب**) الغرض (**المطلوب وتيسُّرها عليه**) بأن يقوِّم إرادته وحركته نحوه (**ليستدَّ في صوب الصواب**) ويهجم عليه (**في أسرع وقت**) يمكن الوصول فيه إليه، وهو المراد بقوله تعالىٰ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦] في أحد الوجوه (**فإن الهداية بمجردها لا تكفي، بل لا بد من هداية محرِّكة للداعية وهي الرشد، والرشد لا يكفي، بل لا بد من تيسير الحركات بمساعدة الأعضاء والآلات حتىٰ يتم المرادُ ممَّا انبعثت الداعية إليه، فالهداية محض التعريف**) والدلالة بلطف (**والرشد هو**

---

(١) الذي في الذريعة كما هنا، فلعل ذلك في نسخة أخرىٰ وقعت للشارح، ونسخ الذريعة فيها من التصحيف والتحريف الكثير، وقد أشار إلىٰ ذلك العجمي في مقدمة تحقيقه، وسبقه إلىٰ ذلك محمد النجار محقق طبعة دار الوطن، ص ١٧٠.

تنبيه الداعية لتستيقظ وتتحرك. والتسديد إعانة ونصرة بتحريك الأعضاء في صوب السداد) والنصرة من الله تعالىٰ معونة الأنبياء والأولياء وصالحي العباد بما يؤدِّي إلىٰ صلاحهم عاجلاً وآجلاً، وذلك تارةً يكون من خارج كمَن يقيِّضه الله تعالىٰ فيعينه، وتارةً من داخل بأن يقوِّي قلوبَ الأولياء أو يلقي رعبًا في قلوب الأعداء، وعلىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ الآية [غافر: ٥١] وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ۝١٧٣﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣] وأما ما يختصُّ بسعادة الدنيا ولا تُعتبَر فيه العاقبة فيقال له: الدول والدولة، وعلىٰ هذا قوله تعالىٰ: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] وقوله في وصف الفيء: ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ﴾ [الحشر: ٧] **(وأما التأييد فكأنَّه جامع للكل، وهو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة من داخل، وتقوية البطش ومساعدة الأسباب من خارج، وهو المراد بقوله تعالىٰ: ﴿إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ﴾)** [المائدة: ١١٠] وهو مثال للأول **(وتقرُب منه العصمةُ، وهي عبارة عن جود إلهيٍّ)** أي فيض من فيوضاته **(يسنح في الباطن)** أي يَعرِض فيه **(يقوَىٰ به الإنسان علىٰ تحرِّي الخير وتجنُّب الشر حتىٰ يصير كمانع)** له **(من باطنه غير محسوس)** أي وإن لم يكن منعًا محسوسًا **(وإيَّاه عنىٰ بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾** [يوسف: ٢٤] وقد رُوي أن يوسف عليه السلام رأىٰ صورة يعقوب عليه السلام وهو عاضٌّ علىٰ إبهامه فأحجم، وليس ذلك بمانع ينافي التكليفَ كما توهَّمه بعض المتكلمين، فإنَّ ذلك كان تصوُّرًا منه وتذكُّرًا لما كان قد حذَّره منه، وعلىٰ هذا قال: ﴿لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ﴾ الآية. ومن عصمته تعالىٰ أن يكرِّر الوعيد علىٰ مَن يريد عصمتَه لئلاَّ يغفل ساعة عن مراعاة نفسه، كقوله تعالىٰ للنبي ﷺ: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ۝٤٦﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٦].

(فهذه هي مجامع النعم، ولن تستثبت إلا بما يخوِّله الله) أي بنعمه **(من الفهم**

الصافي الثاقب والسمع الواعي) لِما يحفظه (والقلب البصير المتواضع المراعي و) تقييض (المعلِّم الناصح) له والرفيق الموافق (و) إمداده من (المال الزائد على ما يقصر عن المهمَّات بقلَّته، القاصر عمَّا يشغل عن الدين بكثرته) هكذا في النسخ، ولفظ الذريعة: وإمداده من المال بما لا يقعد به عن مغزاه قلَّته، ولا يشغله عنه كثرته (و) من العشيرة و(العز الذي يصونه عن سفه السفهاء وظلم الأعداء) وعن الغض منه من جهة الأغنياء، وأن يخوِّله من كبر الهمَّة وقوة العزيمة ما يحفظه عن التشوُّق للمنازل الدنيَّة والتأخُّر عن بلوغ كل منزلة سَنيَّة (ويستدعي كلُّ واحد من هذه الأسباب الستة عشر أسبابًا، وتستدعي تلك الأسبابُ أسبابًا .. إلى أن تنتهي بالآخرة إلى دليل المتحيِّرين وملجأ المضطرين وذلك رب الأرباب ومسبِّب الأسباب) جلَّ جلالُه وعمَّ نوالُه (وإذا كانت تلك الأسباب طويلة لا يحتمل مثلُ هذا الكتاب استقصاءها) أي طلب نهايتها (فلنذكر منها أنموذجًا ليُعلَم به معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨] وبالله التوفيق) وهو حسبي ونِعم الوكيل.

بيان وجه الأنموذج في كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجها عن الحصر والإحصاء

(اعلمْ) هداك الله تعالىٰ (أنَّا جمعنا) فيما تقدم (النعم) الموهوبة والمكتسَبة (في ستة عشر ضربًا) من ضرب أربعة في أربعة، فالأربعة أصول، ولكل أصل أربعة (وجعلنا صحة البدن) وسلامته من الأسقام (نعمة من النعم الواقعة في الرتبة المتأخرة) لأنها من جملة الفضائل البدنية المكمِّلة للفضائل النفسية (فهذه النعمة الواحدة لو أردنا أن نستقصي الأسبابَ التي بها تمَّت هذه النعمةُ) أي نطلب نهايتها (لم نقدر عليها، ولكن الأكل أحد أسباب الصحة، فلنذكر نبذة من جملة الأسباب التي بها تتم نعمةُ الأكل، ولا يخفَىٰ أن الأكل فعلٌ) لأنه هيئة حاصلة للآكل بسبب كونه آكلاً (وكل فعل من هذا النوع فهو حركة) لأنه خروج من الفعل إلىٰ القوة بالتدريج (وكل حركة فلا بد لها من جسم متحرك) وتكون تلك الحركة عارضة لذاته، والجسم: ما له طول وعرض وعمق (هو) أي ذلك الجسم (آلتها، ولا بد لها) أي لتلك الحركة (من قدرة علىٰ الحركة، ولا بد لها من إرادة للحركة، ولا بد) مع ذلك (من علم بالمراد وإدراك له، ولا بد للآكل من مأكول، ولا بد للمأكول من أصل منه يحصل وجوده، ولا بد له من صانع يصلحه) ويهيِّئه للأكل (فلنذكر أسباب الإدراك) أولاً (ثم أسباب الإرادات، ثم أسباب القدرة، ثم أسباب المأكول، علىٰ سبيل التلويح) والإشارة (لا علىٰ سبيل الاستقصاء) والإحاطة.

(الطرف الأول: في) بيان (نعم الله تعالىٰ في خلق أسباب الإدراك: اعلمْ أن الله تعالىٰ خلق النبات) وهو[1] ما يخرج من الأرض من الناميات، سواء كان له ساق

(١) المفردات للراغب ص ٤٨٠.

كالشجر أم لا كالنجم، لكن خُصَّ عرفًا بما لا ساق له **(وهو أكمل وجودًا من الحجر والمَدَر والحديد والنُّحاس وسائر الجواهر التي لا تنمو)** نموًّا **(ولا تغذَّىٰ، فإنَّ النبات خُلقت فيه قوة بها يجتذب الغذاء إلىٰ نفسه من جهة أصله وعروقه التي)** هي **(في)** باطن **(الأرض، وهي له آلات بها يجتذب الغذاء، وهي العروق الدقيقة التي تراها في كل ورقة، ثم تغلظ أصولُها)** وهي منابت الأوراق **(ثم تتشعَّب)** وتتفرَّق **(ولا تزال تستدقُّ وتتشعَّب)** أي تنقسم **(إلىٰ عروق)** دقيقة **(شَعرية)** أي مثل الشعر في الدقة **(تنبسط في أجزاء الورقة حتىٰ تغيب عن البصر، إلا أن النبات مع هذا الكمال)** بالإضافة إلىٰ الجواهر المذكورة **(ناقص، فإنه لو أعوزه)** أي أحوجه **(غذاءٌ يُساق إليه ويماسُّ أصلَه جفَّ ويبس)** وذهبت نضارته **(ولم يمكنه طلب الغذاء من موضع آخر، فإنَّ الطلب إنما يكون بمعرفة المطلوب وبالانتقال إليه، والنبات عاجز عن ذلك)** أي لا قدرة له علىٰ الانتقال من موضعه **(فمن نعمة الله عليك أنْ خلق لك آلة الإحساس وآلة الحركة في طلب الغذاء، فانظر إلىٰ ترتيب حكمة الله تعالىٰ في خلق الحواس الخمس الظاهرة التي هي آلة الإدراك)** وتحقيق المقام: أن الأفعال الصادرة إنما تصدر عن القُوَىٰ لا عن الجسم، فإن الجسم لا يفعل من حيث الجسمية بل بالقوة التي فيه أو بقوة متعلقة به، فالقوة مبدأ الفعل، وكل فاعل إما قوة أو ذو قوة تفعل بقوته، فالفاعل هو القوة، والجسم آلة في الأفعال، فباستعماله علىٰ الوجه الأليق تُستكمَل. إذا عرفتَ هذا فاعلمْ أن النفس قد عُرف تجرُّدها وكونها في أول إنشائه ناقصة محتاجة إلىٰ الاستكمال بالأجسام، ولم يمكنها معرفة الجسم وما فيه من المعاني من غير آلة جزئية، فخلق الباري جلَّ جلاله حواسًّا ظاهرة تدرك بواسطتها الأجسام وعوارفها المكتسَبة من الفيض العقلي بحسب استعدادها من الألوان والأشكال والطعوم والروائح وغير ذلك، وحواسًّا باطنة تدرك بها أنواعًا أخرىٰ من المعارف، وهذه الحواس آلات للنفس تستخدمها في مهمَّاتها ومقاصدها، ويحصل لها شعور بالمحسوسات بواسطتها،

فالحواس الظاهرة خمسة (**فأولها حاسَّة اللمس**) وهي[1] قوة منبثَّة في جميع البدن تُدرَك بها الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ونحوها عند الاتصال به (**وإنما خُلقت لك**) هذه القوة (**حتىٰ إذا مسَّتك نارٌ محرقة أو سيف جارح تحس به فتهرب منه. وهذا أول حس يُخلَق للحيوان، ولا يُتصور حيوان إلا ويكون له هذا الحس؛ لأنه إن لم يحسَّ أصلاً فليس بحيوان**) ولذلك قالوا: الحيوان جسم نامٍ حسَّاس متحرك (**وأنقصُ درجات الحس أن يحس بما يلاصقه ويماسُّه**) ويتصل به (**فإن الإحساس بما يبعد منه إحساس أتمُّ لا محالة، وهذا الحس موجود لكل حيوان حتىٰ الدودة التي في الطين، فإنها إذا غُرزت فيها إبرة انقبضت للهرب، لا كالنبات، فإن النبات يُقطَع فلا ينقبض؛ إذ لا يحس بالقطع، إلا أنك لو لم يُخلَق لك إلا هذا الحس لكنتَ ناقصًا كالدود لا يقدر علىٰ طلب الغذاء من حيث يبعد عنك، بل ما يمس بدنَك فتحس به فتجذبه إلىٰ نفسك فقط، فافتقرتَ إلىٰ حس**) آخر (**تدرك به ما بعُدَ عنك، فخلق لك الشم**) وهي[2] قوة مودَعة في الزائدتين الناتئتين في مقدم الدماغ الشبيهتين بحلمتَي الثدي، بها تُدرَك الروائح بطريق وصول الهواء المتكيِّف بكيفية ذي الرائحة إلىٰ الخيشوم (**إلا أنك تدرك به الرائحة ولا تدري أنها جاءت من أيِّ ناحية، فتحتاج إلىٰ أن تطوف كثيرًا من الجوانب، فربما تعثر علىٰ الغذاء الذي شممتَ ريحه، وربما لم تعثر، فتكون في غاية النقصان لو لم يُخلَق لك إلا هذا، فخُلق لك البصر**) وهي[3] قوة مودَعة في العَصَبتين المجوَّفتين اللتين تلتقيان ثم تفترقان، تتأدَّىٰ إلىٰ العين بها الأضواء والألوان والأشكال (**لتدرك به ما بعُد عنك وتدرك جهته فتقصد تلك الجهةَ بعينها، إلا أنه لو لم يُخلَق لك إلا هذا لكنتَ ناقصًا؛ إذ لا تدرك بهذا ما وراء الجدران والحُجُب، فتبصر غذاء ليس بينك وبينه حجاب، وتبصر عدوًّا لا حجاب بينك وبينه، وأما ما بينك وبينه حجاب فلا تبصره،**)

(١) التعريفات للجرجاني ص ٢٠٤.

(٢) السابق ص ١٣٤.

(٣) السابق ص ٤٦.

وقد لا **ينكشف الحجاب إلا بعد قرب العدو** منك **(فتعجز عن الهرب)** من بين يديه **(فخُلق لك السمع)** وهو[1] قوة مودَعة في العصب المفروش في مقعَّر الصِّماخ به تُدرَك الأصوات بطريق وصول الهواء المتكيِّف بكيفية الصوت إلىٰ الصماخ **(حتىٰ تدرك به الأصوات)** والنغمات اللذيذة والبشعة الحاصلة من تصادم الأجسام **(من وراء الجدران والحُجُب عند جريان الحركات)** بواسطة الروح المودَع في العصب علىٰ حدٍّ مخصوص من القرب والبعد وشدة الصوت ورفعته **(لأنك لا تدرك بالبصر إلا شيئًا حاضرًا، وأما الغائب فلا يمكنك معرفته إلا بكلام ينتظم من حروف وأصوات تُدرَك بحس السمع، فاشتدَّت إليه حاجتك، فخُلق لك ذلك ومُيِّزت بفهم الكلام عن سائر الحيوانات)** وقاعدة[2] تشكُّل الهواء بمقاطع الحروف غير صحيحة؛ لكون الهواء غير حافظ للشكل؛ لأنه سريع الالتئام، ثم بتشوُّش ما عند أذنه من الهواء ينبغي أن لا يسمع شيئًا لتشوُّش التموُّجات واضطرابها، وقول القائل بأن الصوت يخرق الهواء وينفذ فيه [لشدته] غير سديد، فإنه إذا تشوَّش الهواءُ المجاور للأذن بالكلِّية لا تبقىٰ للبعض قوة النفوذ والامتياز عن الباقي، وأما ما قيل إن الصوت متعلق بقلع أو قرع لا كيف اتفق بل عند حركة من الهواء بعنف، فلا ينبغي أن تفهم كونهما داخلينِ في حقيقة الصوت؛ لبقاء الصوت بعد الفراغ عنهما، والصواب أن الصوت لا يُعرَّف بشيء أصلاً، وكذا بسائط جميع المحسوسات، فإن التعريفات لا بد وأن تنتهي إلىٰ معلومات مستغنية عن التعريف؛ لكون التسلسل باطلاً، وإذا وجبت النهاية فلا شيء أظهر من المحسوسات؛ لأن جميع علومنا منتزَعة منها، وهي المعلومات الأوَّلية، وبها تُعرَف مركَّباتها، فحقيقة الصوت لا تُعرَف لمَن لا سمع له، وكذلك الضوء لمَن لا بصر له، ومَن كان له فهو مستغنٍ عن التعريف، فالصوت أمر بسيط صورته في العقل كصورته في الحس

---

(١) السابق ص ١٢٧.

(٢) حكمة الإشراق لأبي الفتوح يحيىٰ بن حبش السهروردي ص ١٠٣ - ١٠٤ (ط - إيران) بتصرف.

وحقيقته أنه صوت فقط، وكذا اللون وسائر المحسوسات، و أما إن سبب الصوت قلع أو قرع وأن الهواء شرطٌ وإذا لم يكن علىٰ سبيل حصول المقاطع كان علىٰ وجه آخر شرطًا فهو بحث آخر لا مَدخل له في حقيقة الصوت. والله أعلم **(وكل ذلك ما كان يغنيك لو لم يكن لك حس الذوق)** وهي قوة منبثَّة في العصب المفروش علىٰ جِرم اللسان تُدرَك بها الطعوم بمخالطة الرطوبة اللعابية [في الفم بالمطعوم][(١)] وبسائط الطعوم هي: الحلاوة، والمرارة، والحموضة، والعفوصة، والقبض، والحرافة، والملوحة، والدسومة، وواحد لا طعم له ويسمَّىٰ: التَّفه **(إذ يصل الغذاء إليك فلا تدرك أنه موافق لك أو مخالف فتأكله فتَهلك، كالشجرة يُصَبُّ في أصلها كل مائع ولا ذوق لها فتجذبه، وربما يكون ذلك سبب جفافها)** أي يبسها. وليست النفس دَرَّاكة بمجرد هذه الآلات، بل هذه مَحالٌّ لها خواص واستعدادات مختلفة وأمزجة مخصوصة إذا وصل إليها الروح النفساني اللطيف وجالَ فيها استعدَّ بذلك لأن تفيض النفس عليه هيئةً مستعدَّة بتلك الهيئة لأن يكون مرآة للنفس تشاهد بواسطة استعماله علىٰ وجوه مخصوصة العالَم الحسيَّ وخواصَّه لمناسبة ما بين النفس وذلك الروح الذي حصل له بتردُّده في تلك الآلة هيئةٌ مخصوصة تقتضي أن تشاهد به النفس عند الاستعمال نوعًا من المعلومات **(ثم كل ذلك لا يكفيك لو لم يُخلَق في مقدمة دماغك إدراك آخر يسمَّىٰ حسًّا مشتركًا تتأدَّىٰ إليه هذه المحسوسات الخمس وتجتمع فيه)** وهذا علىٰ رأي المَشَّائين، فإنهم يزعمون أن الحواس الباطنة أيضًا خمسة، أولها: الحس المشترك، وهو الذي تجتمع عنده مثل جميع المحسوسات الظاهرة فيدركها مشاهدةً، والصور التي يراها النائمون والمحرورون فيه يتمثل علىٰ رأيهم، ومحله البطن المقدَّم من الدماغ. والثانية: الخيال، وهي خزانة الحس المشترك، ومحله البطن المقدَّم أيضًا، لكنه يميل إلىٰ اليسار قليلاً.

---

(١) ذكره الجرجاني في التعريفات ص ١١٢. وتعريف الحواس الخمس مأخوذ عن كتاب معارج القدس للغزالي ص ٤١ - ٤٤ بتصرف.

والثالثة: الوهم، ومحله البطن الأوسط من الدماغ. والرابعة: الحافظة، وهي خزانة الوهم، ومحلها البطن الأوسط منه أيضًا. وأما الإشراقيون فلا يُثبِتون إدراك شيء منها إلا المتخيِّلة فقط[1]. وقد تقدم الكلام عليه (**ولولاه لطال الأمر عليك، فإنك إذا أكلتَ شيئًا أصفر مثلاً فوجدتَه مرًّا مخالفًا لك فتركتَه فإذا رأيته مرة أخرىٰ فلا تعرف أنه مرٌّ مضرٌّ ما لم تذقْه ثانيًا لولا الحس المشترك؛ إذ العين تبصر الصفرة ولا تدرك المرارة فكيف تمتنع عنه؟ والذوق يدرك المرارة ولا يدرك الصفرة، فلا بد من حاكم تجتمع عنده الصفرة والمرارة جميعًا، حتىٰ إذا أدرك الصفرةَ حكم بأنه مر فيمتنع عن تناوُله ثانيًا**) وكل ذلك علىٰ رأي المَشَّائين، وأما أفلاطون وجماعة من الأقدمين فقد أقاموا دلائل أبطلوا بها الحافظة والخيال وانطباع الأشباح في العين، وهي بعينها تبطل الحسَّ المشترك أيضًا وكلَّ صورة في الدماغ، فلا تبقىٰ إلا المتخيِّلة، وهي بعينها المتوهِّمة التي حكمُها لا يخالف حكم المتوهِّمة (**وهذا كله تشاركك فيه الحيوانات؛ إذ للشاة هذه الحواس كلها، فلو لم يكن لك إلا هذا كنت ناقصًا، فإنَّ البهيمة يُحتال عليها فتؤخَذ فلا تدري كيف تدفع الحيلة عن نفسها وكيف تتخلَّص إذا قُيِّدت، وقد تلقي نفسها في بئر ولا تدري أن ذلك يهلكها، ولذلك قد تأكل البهيمة ما تستلذُّه في الحال ويضرُّها في ثاني الحال فتمرض وتموت؛ إذ ليس لها إلا الإحساس بالحاضر**) فقط (**فأما إدراك العواقب فلا، فميَّزك الله تعالىٰ وأكرمك بصفة أخرىٰ هي أشرف من الكل وهو العقل**) وهو[2] الاستعداد المحض لإدراك المعقولات، وهو قوة محضة خالية عن الفعل كما في الأطفال، ويقال له: العقل الهيولاني؛ لأن النفس في هذه المرتبة تشبه الهيولي الأولىٰ الخالية في حدِّ

---

(١) انظر: القانون في الطب لابن سينا ١/ ١٠٠ - ١٠١. الملل والنحل للشهرستاني ٢/ ٢١٩ - ٢٢٠ (ط - دار المعرفة ببيروت). التلويح شرح التوضيح للسعد التفتازاني ٢/ ١٥٨ - ١٥٩، وقال الشهرزوري في شرح حكمة الإشراق ٢/ ٣٠٩ بعد كلام له طويل: الصواب: أن الوهم والمتخيلة والخيال قوة واحدة وشيء واحد يعبر عنها بعبارات ثلاثة مختلفة وحقيقتها واحدة.

(٢) التعريفات ص ١٥٧.

ذاتها عن الصور كلِّها (فبه تُدرَك مَضَرَّة الأطعمة ومنفعتها) وما يضرُّه (في الحال والمآل، وبه تُدرَك كيفية طبخ الأطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها، فتنتفع بعقلك في الأكل الذي هو سبب صحتك، وهو أخسُّ فوائد العقل وأقل الحِكَم فيه، بل الحكمة الكبرىٰ فيه معرفة الله تعالىٰ) بطريق أسمائه وصفاته (ومعرفة أفعاله، ومعرفة الحكمة في عالَمه) الحسيِّ (وعند ذلك تنقلب فائدة الحواس في حقك فتكون الحواس الخمس كالجواسيس وأصحاب الأخبار الموكَّلين بنواحي المملكة، وقد وُكِّلت كل واحدة منها) أي من تلك الحواس (بأمر مختصٍّ بها) دون غيرها (فواحدة منها) موكَّلة (بأخبار الألوان) والأشكال والمقادير وغيرها، وهي حاسة البصر، فإن النفس تشعر بما ذُكر إذا وقعت العين في مقابلة الشيء (والأخرىٰ بأخبار الأصوات) الثقيلة والخفيفة الحاصلة عن تصادُم الأجسام، وهي حاسة السمع (والأخرىٰ بأخبار الروائح) الطيبة والكريهة بواسطة انتقال الهواء الواصل إلىٰ الأنف من الجسم ذي الرائحة، وهي حاسة الشم (والأخرىٰ بأخبار الطعوم) من الحلاوة والمرارة والحموضة والعفوصة والقبض والحرافة والملوحة والدسومة، وهي حاسة الذوق (والأخرىٰ بأخبار الحر والبرد) والرطوبة واليبوسة، ويعبرون عنها بـ: الكيفيات الأربع (والخشونة والملاسة واللِّين والصلابة وغيرها) من الثقل والخفة، وهي حاسة اللمس، وهي أدونُ هذه الإدراكات، ثم الذوق، ثم الشم (وهذه البُرُد) بضمَّتين جمع بريد: الرسول (والجواسيس يقتصُّون الأخبار) أي يتتبَّعونها (من أقطار المملكة) وأطرافها (ويسلِّمونها إلىٰ الحس المشترك، والحس المشترك قاعد في مقدمة الدماغ مثل صاحب القصص والكتب) الواردة (علىٰ باب الملك يجمع القصص والكتب الواردة من نواحي العالَم، فيأخذها) من يد الجواسيس (وهي مختومة ويسلِّمها) إلىٰ الملك (إذ ليس له إلا أخذها وجمعها وحفظها) إلىٰ وقت الحاجة (وأما معرفة حقائق ما فيها فلا، ولكن إذا صادف القلب العاقل الذي هو الأمير والملك سلَّم الإنهاءات) وهو رفع القصص؛ لأنه يُذكَر فيها دائمًا: وأنهىٰ إليه كذا وكذا (إليه مختومة، فيفضُّها الملك) وفي نسخة: فيفتِّشها

(ويطَّلع منها علىٰ أسرار المملكة ويحكم فيها بأحكام عجيبة لا يمكن استقصاؤها في هذا المقام) وقد[1] يفضُّ صاحب الأخبار عن تلك القصص فيُسقِط منها ما يراه حشوًا ويرفع الباقي صافيًا إلىٰ حضرة الملك فيميِّزه ويرفعه ويعرف مَضارَّه ومنافعه ويسلِّمه إلىٰ خادمه - وهي القوة الحافظة - إلىٰ وقت حاجته، فحينئذٍ يتقدم بإخراجه **(وبحسب ما يلوح له من الأحكام والمصالح يحرك الجنودَ وهي الأعضاء، مرة في الطلب، ومرة في الهرب، ومرة في إتمام تدبيرات تعنُّ له)** أي تَعرِض.

(فهذه سياقة نعمة الله تعالىٰ عليك في الإدراكات، ولا تظنن أننا استوفيناها، فإن الحواس الظاهرة) الخمس **(هي بعض الإدراكات، والبصر واحد من جملة الحواس، والعين آلة واحدة له، وقد رُكِّبت العين من عشر طبقات مختلفة، بعضها رطوبات، وبعضها أغشية، وبعض الأغشية كأنَّها نسج العنكبوت، وبعضها كالمشيمة، وبعض تلك الرطوبات كأنه بياض البيض، وبعضها كأنَّه الجمد، ولكل واحدة من الطبقات العشر صفة وصورة وشكل وهيئة وعرض وتدوير وتركيب، لو اختلَّت طبقة واحدة من جملة العشر أو صفة واحدة من صفات كل طبقة لاختلَّ البصر وعجز عنه الأطباء والكحَّالون كلهم)** وبيان ذلك: أن كلاًّ من العينين مركَّب من سبع طبقات وثلاث رطوبات وهي العصب والعضل والعروق، وقد سمَّىٰ المصنف الكلَّ طبقات، وفيه تسامح لا يضرُّ، وكيفية تركيبها: أن العصبة المجوَّفة التي هي أول العصب الخارج من الدماغ تخرج من القحف إلىٰ قعر العين، وعليها غشاءان هما غشاءا الدماغ، فإذا برزت عن العين وصارت في حومة عظم العين فارقها الغشاءُ الغليظ وصار غشاء ولباسًا علىٰ عظم العين [الأعلىٰ] ويسمَّىٰ هذا الغشاء: الطبقة الصلبية، ثم يفارقها الغشاء الرقيق فيصير غشاء ولباسًا بعد الصلبية، وتسمَّىٰ: الطبقة المشيمية؛ لشبهها بالمشيمة؛ لأنها ذات عروق كثيرة، ثم تصير هذه العصبة نفسها إلىٰ المجوَّفة عريضة، ويصير فيها غشاء بعد الأولينِ، ويسمَّىٰ:

---

(١) ميزان العمل للغزالي ص ٢١٣ - ٢١٤.

الطبقة الشبكية، ثم يتكوَّن في وسط هذا الغشاء جسم رطب لين في لون الزجاج الذائب وقوامه، وتسمَّىٰ: الرطوبة الزجاجية، ويتكوَّن في وسط هذا الجسم جسمٌ آخر مستدير، إلا أن في جانبه الخارجي أدنىٰ تفرطح لتظهر فيه أشباح المرئيات، وفي جانب الداخل نتوء ليتوصل بالعصبة المجوَّفة كما ينبغي، وتسمَّىٰ: الرطوبة الجليدية، تشبيهًا بالجليد في صفائه، وتسمَّىٰ: البَرَدية أيضًا؛ لشبهها بالبَرَدة في شكلها وصفائها وشفيفها، وتحيط الزجاجية من الجليدية بمقدار النصف، ويعلو النصفَ الآخَر جسمٌ شبيه بنسيج العنكبوت شديد الصقال والصفاء يسمَّىٰ: الطبقة العنكبوتية، ثم يعلو هذه الطبقةَ جسمٌ سائل في لون بياض البيض وقوامه يسمَّىٰ: الرطوبة البيضية، ويعلو البيضيةَ جسمٌ رقيق، مخمل الداخل، أملس الخارج، ويختلف لونه في الأبدان، فربما كان شديد السواد، وربما كان دون ذلك في وسطه حيث يحاذي الجليديةَ ثقبٌ يتسع ويضيق في حال دون حال بمقدار حاجة الجليدية إلىٰ الضوء، فيضيق عند الضوء الشديد، ويتسع في الظلمة، ويسمَّىٰ هذا الثقب: الحدقة، وهذا الغشاء: الطبقة العنبية، في خمل باطنها وملاسة ظاهرها والثقب الذي في وسطها، وبعضهم يقول: إن لون هذه الطبقة هو الإسمانجوني؛ ليكون نور الباصرة فيها معتدلاً؛ إذ لا لون أنسب وأوفق لنور الباصرة من هذا؛ لأن لون السواد يقبض النور المذكور، والبياض يفرِّقه، وهذا اللون متوسط بين السواد والبياض، ولا نجد في الألوان ما هو في حاق الوسط بينهما مثل هذا اللون. ويعلو هذه الطبقةَ جسمٌ كثيف صلب صافٍ شفَّاف يشبه صحيفة رقيقة من قرن أبيض، ويسمَّىٰ: الطبقة القَرَنية، غير أنها تتلوَّن بلون الطبقة التي تحتها المسمَّاة بالعنبية، كما إذا أُلصِق وراء جام من زجاج شيء ذو لون، فيخيَّل ذلك المكان من الزجاج بلون ذلك الشيء، ولونها مختلف في الناس، ففي بعض تكون زرقاء، وفي بعض تكون شهلاء، وفي بعض تكون سوداء. ويعلو هذه الطبقة ويغشاها [لكن] لا كلها بل إلىٰ موضع سواد العين جسم أبيض اللون صلب يسمَّىٰ: الطبقة الملتحمة، وهي التي تلي الهواءَ وهو بياض العين، ونباته من الجلد الذي علىٰ القحف من خارج،

وجوهره من لحم أبيض دسم، وقد امتزج بعضلة العين وأُحكِم علىٰ القرنية، فلهذا يسمَّىٰ بالملتحمة. ونبات القرنية من الصلبية، ونبات العنبية من المشيمية، ونبات العنكبوتية من الشبكية. هكذا رتَّب بعضهم هذه الطبقات والرطوبات، أعني جعل الأول الطبقة الصلبية، ثم الطبقة المشيمية، ثم الطبقة الشبكية، ثم الرطوبة الجليدية، ثم الطبقة العنكبوتية، ثم الرطوبة البيضية، ثم باقي الطبقات، وبعضهم جعل الرطوبة البيضية تالية للرطوبة الجليدية بين الزجاجية والبيضية؛ ليأخذ الغذاء من الزجاجية وتدفع البيضية عنها أشعَّة الشمس ونحوها، وجعل الطبقات الأربع - أعني العنكبوتية والعنبية والقرنية والملتحمة - تالية للرطوبات الثلاث المتتالية، وأشرف أجزاء العين إنما هي الرطوبة الجليدية، وسائر الطبقات والرطوبات لأجل مصلحتها، فالزجاجية والطبقات الثلاث المتصلة بها قد أحاطت بنصف الجليدية من جانب الرطوبة البيضية، والطبقات الأربع المتصلة بها محيطة بنصفها الآخر من جانب، وهي موضوعة في الوسط صيانة لها وحِرزًا.

(**فهذا في حسٍّ واحد، فقِسْ به حاسة السمع وسائر الحواس**) ومن أعجب ما في حاسة السمع أن في داخلها فضاء موضوعًا مجوَّفًا ذا تقعير يؤدي إليه ثقبه، وقد انبسط غشاء منتسَج من ليف عصب الحس المتكوِّر علىٰ محيط ذلك الفضاء كانبساط الجلد علىٰ الطبل، وبهذا الغشاء يكون السمع عندما يقرعه الصوت؛ لأن في ذلك الفضاء هواء راكدًا، فكلَّما وصل الهواء الخارجي المتموِّج إلىٰ العصب حرَّك الهواء الداخل فيتصادمان في العصب معًا فيدرك الصوت (**بل لا يمكن أن تُستوفَىٰ حِكَم الله تعالىٰ وأنواع نعمه في جسم البصر وطبقاته**) المذكورة (**في مجلَّدات كثيرة**) قد تكفَّل ببيان بعضها أهلُ التشريح (**مع أن جملته لا تزيد علىٰ جوزة صغيرة**) أي في المقدار (**فكيف ظنُّك بجميع البدن وسائر أعضائه وعجائبه**) التي ركَّبها الله تعالىٰ فيه.

(**فهذه مرامز**) أي إشارات (**إلىٰ نعم الله تعالىٰ بخلق الإدراكات**) والله أعلم.

(الطرف الثاني: في) بيان (أصناف النعم) التي (في خلق الإرادات: اعلمْ أنه لو خُلق لك البصر حتىٰ تدرك به الغذاء من بُعد ولم يُخلَق لك ميل في الطبع وشوق إليه وشهوة له تستحثُّك علىٰ الحركة لكان البصر معطَّلاً) مهمَلاً (فكم من مريض يرىٰ الطعام - وهو أنفع الأشياء له - وقد سقطت شهوته فلا يتناوله، فيبقىٰ البصر والإدراك معطَّلاً في حقه، فاضطررتَ إلىٰ أن يكون لك مَيل إلىٰ ما يوافقك) ويلائم مزاجَك (يسمَّىٰ شهوة، و) أن تكون لك (نفرة عمَّا يخالفك تسمَّىٰ كراهة؛ لتطلب بالشهوة وتهرب بالكراهة، فخلق الله تعالىٰ فيك شهوة الطعام وسلَّطها عليك ووكَّلها بك، كالمتقاضي) أي المُطالِب (الذي يضطرُّك) أي يلجئك (إلىٰ التناول) منه (حتىٰ تتناول وتغتذي فتبقىٰ بالغذاء، وهذا) القدْر (ممَّا يشاركك فيه الحيوان دون النبات. ثم هذه الشهوة لو لم تسكن إذا أخذتَ مقدار الحاجة) منها (أسرفت) وتجاوزت (وأهلكت نفسك، فخلق الله سبحانه لك الكراهة عند الشبع لتترك بها الأكل، لا كالزرع فإنه لا يزال يجتذب الماء إذا انصبَّ في أسافله حتىٰ يَفسد، فيحتاج إلىٰ آدمي يقدِّر غذاءه بقدر الحاجة، فيسقيه مرة ويقطع عنه الماء أخرىٰ) حتىٰ يصلُح (وكما خلق لك هذه الشهوة حتىٰ تأكل فيبقىٰ به بدنُك خلق لك شهوة الوقاع حتىٰ تجامع فيبقىٰ به نسلُك) وهاتان هما الشهوتان، وإحداهما تحدث عن الأخرىٰ (ولو قصصنا عليك عجائب صنع الله في خلق الرحم وخلق دم الحيض وتأليف الجنين من النطفة ودم الحيض) في الرحم الذي هو من المرأة بمنزلة الذكَر من الرجل (وكيفية خلق الأُنثيين) وهما رُكِّبا من لحم أبيض غُدِّي دسم ومن عروق وشريانات، وهما آلتا المنيِّ ومعدناه؛ إذ المني ينزل إليهما من جميع الأعضاء، من كل عضو جزء (والعروق السالكة إليها من الفقار الذي هو مستقَرُّ النطفة) وهي فقرات الظهر (وكيفية انصباب ماء المرأة من الترائب) وهي[1] ضلوع صدرها، أو ما وليَ الترقوتين، أو ما بين الثديين والترقوتين، أو أربع أضلاع

(١) المحكم لابن سيده ٩/ ١٧٢. بصائر ذوي التمييز ٢/ ٢٩٧.

من يَمْنة الصدر وأربع من يَسْرته (بواسطة العروق، وكيفية انقسام مقعَّر الرحم إلىٰ قوالب تقع النطفة في بعضها فتتشكَّل بشكل الذكور، وتقع في بعضها فتتشكَّل بشكل الإناث) وهو مربوط برباطات مسلسلة متصلة بخرز الظهر وبجانب السرة والمثانة تحفظه علىٰ وضعه، وله زائدتان تسمَّيان قرنَي الرحم، وخلف هاتين الزائدتين بيضتا المرأة، ينصبُّ منهما منيُّ المرأة إلىٰ تجويف الرحم (وكيفية إدارتها في أطوار خلقها مضغة وعلقة ثم عظمًا ولحمًا ودمًا وكيفية قسمة أجزائها إلىٰ رأس ورِجل وبطن وظهر ويد وسائر الأعضاء لقضيتَ من أنواع نعم الله عليك في مبدأ خلقك كل العجب فضلاً عمَّا تراه الآن، ولكنا لسنا نريد أن نتعرَّض إلا لنعم الله تعالىٰ في الأكل وحده كيلا يطول الكلام) ويتسع المجال ويخرج عن مقصود الكتاب (فإذًا شهوة الطعام أحد ضروب الإرادات، وذلك لا يكفيك، فإنه تأتيك المهلكات من الجوانب) الأربعة (فلو لم يُخلَق فيك الغضب الذي به تدفع كل ما يضادُّك ولا يوافقك لبقيتَ عُرضة للآفات) وهدفًا للمهلكات (ولأُخِذ منك كل ما حصَّلته من الغذاء، فإن كل أحد يشتهي ما في يدك، فتحتاج إلىٰ داعية في دفعه) عنك (ومقاتلته وهي داعية الغضب الذي به تدفع كل ما يضادُّك ولا يوافقك. ثم هذا لا يكفيك؛ إذ الشهوة والغضب لا يدعوان إلا إلىٰ ما يضرُّ وينفع في الحال، أما في المآل فلا تكفي هذه الإرادة، فخلق الله لك إرادة أخرىٰ مسخَّرة) أي منقادة (تحت إشارة العقل المعرِّف للعواقب، كما خلق الشهوة والغضب مسخَّرينِ تحت إدراك الحس المدرك للحالة الحاضرة، فتم بها انتفاعُك بالعقل؛ إذ كان مجرد المعرفة بأن هذه الشهوة مثلاً تضرُّك لا يغنيك في الاحتراز عنها ما لم يكن لك مَيل إلىٰ العمل بموجِب المعرفة، وهذه الإرادة) قد (أُفرِدتَ بها عن البهائم) ومُيِّزت بها عنها (إكرامًا لبني آدم، كما أُفرِدتَ بمعرفة العواقب) التي هي من خواصِّ العقل (وقد سمَّينا هذه الإرادة باعثًا دينيًّا وفصَّلناه في كتاب الصبر تفصيلاً أوفىٰ من هذا) فراجعْه، والله أعلم.

(الطرف الثالث: في) بيان (نعم الله تعالىٰ في خلق القدرة وآلات الحركة. اعلمْ) وفَّقك الله تعالىٰ (أن الحس لا يفيد إلا الإدراك) وقد تقدم أن كل حاسة لها إدراك خاص (والإرادة لا معنىٰ لها إلا الميل إلىٰ الطلب أو) إلىٰ (الهرب، وهذا لا كفاية فيه ما لم تكن فيك آلة الطلب والهرب، فكم من زَمِن) وهو المريض الذي يطول به المرض زمانًا طويلاً (مشتاق إلىٰ شيء بعيد عنه مدرك له ولكنه لا يمكنه أن يمشي إليه لفقد رِجله، أو لا يمكنه أن يتناوله لفقد يده أو لفلج وخدر فيهما) خاصةً مع صحة الجسم (فلا بد من آلات للحركة وقدرة في تلك الآلات علىٰ الحركة؛ لتكون حركتها بمقتضَىٰ الشهوة طلبًا، وبمقتضَىٰ الكراهة هربًا، فلذلك خلق الله تعالىٰ لك الأعضاء التي تنظر إلىٰ ظاهرها ولا تعرف أسرارها) وما خُلقتْ له (فمنها ما هو للطلب والهرب كالرِّجل للإنسان) فإنه بها يطلب ما يريد ويهرب عمَّا لا يريد (والجناح للطير والقوائم للدوابِّ، ومنها ما هو للدفع) عنه (كالأسلحة للإنسان والقرون للحيوانات، وفي هذا تختلف الحيوانات اختلافًا كثيرًا، فمنها ما يكثُر أعداؤه ويبعُد غذاؤه فيحتاج إلىٰ سرعة الحركة، فخلق له الجناح ليطير بسرعة) لتحصيل غذائه، ولئلاَّ يدركه الطالب (ومنها ما) خُلق (له أربع قوائم) ولا زيادة عليها، وما وُجد في بعضها من زيادات الأرجل فهي بمنزلة الزائدة أو المعينة (ومنها ما له رِجلان) كبني آدم والطيور (ومنها ما يدبُّ) علىٰ بطنه كالحيَّات وما أشبهها (وذِكرُ ذلك يطول) ولم يخلق للحيَّات ما يكون بمنزلة السلاح لها، فعوَّض عنها بالهيبة، فلا تخرج علىٰ جماعة إلا ويتفرَّقون من هيبتها (فلنذكر الأعضاء التي بها يتم الأكلُ فقط ليُقاس عليها غيرها، فنقول: رؤيتك الطعام من بُعد وحركتك إليه لا تكفي ما لم تأخذه) وفي نسخة: ما لم تتمكَّن من أخذِه (فافتقرتَ) لا محالة (إلىٰ آلة باطشة، فأنعم الله عليك بخلق اليدين، وهما طويلتان ممتدَّتان إلىٰ الأشياء ومشتملتان علىٰ مفاصل كثيرة لتتحرك في الجهات، فتمتد وتنثني إليك) بسهولة (فلا تكون كخشبة منصوبة) تمتد ولا تنثني (ثم جعل رأس اليد عريضًا بخلق الكف، ثم قسم رأس الكف بخمسة أقسام هي الأصابع وجعلها في صفَّين بحيث يكون الإبهام

في جانب ويدور على الأربعة الباقية، ولو كانت مجتمعة أو متراكمة لم يحصل بها تمامُ غرضك، فوضعها) الحكيم تعالىٰ شأنُه **(وضعًا إن بسطتَها كانت لك مجرفة، وإن ضممتها كانت لك مغرفة، وإن جمعتها كانت لك آلة للضرب، وإن نشرتها ثم قبضتها كانت لك آلة في القبض)** وبيان ذلك: أن للساعدينِ أربعة عظام، لكلٍّ اثنان هما الزندان، طولهما من المرفق إلىٰ الرُّسْغ، أحدهما كبير موضوع في الأسفل يلي الخِنصرَ، ويقال له: الزند الأسفل، ويسمَّىٰ باسم جملة الساعد ذراعًا، وثانيهما صغير موضوع فوق ما يلي الإبهام، ويقال له: الزند الأعلىٰ، وإنما جُعلَ كذلك لأن الحامل يجب أن يكون أقوىٰ من المحمول، وقولنا «فوق» و«أسفل» إنما هو عندما يكون الساعد منصوبًا بحيث يقبل باطنه وباطن الكف علىٰ البدن، وإنما أُلِّف الساعد من عظمين لاحتياجه إلىٰ مفصلين ينبسط وينقبض بأحدهما وهو المفصل الملتئم بين الزند الأسفل والعضد وذلك لأن الزند الأسفل له في أعلاه رأسان فيما بينهما حز شبيه بسني اليونان هكذا (<) فينبسط الساعد به انبساطًا يصيِّر جملةَ اليد ممدودة، وتنقبض بحيث يلحق الكف الكتف، فإذا أريدَ البسط دخل رأس الزند الأسفل الذي هو من خلف في نقرة له مهيَّأة في طرف الحز من العضد من خلف واستقرَّ فيها فيمنع الساعدَ أن ينثني إلىٰ خلف. وإذا أريدَ القبض دخل رأس الزند الأسفل من قدَّام في نقرة أخرىٰ في طرف ذلك الحز من قدَّام فاستقرَّ فيها فلا تنقبض اليد ولا تنثني أكثر من ذلك، وينكبُّ بالمفصل الآخر علىٰ وجهه وينقلب علىٰ قفاه، وهو المفصل الملتئم بين الزند الأعلىٰ والعضد؛ إذ الطرف الوحشي من طرف العضد ممَّا يلي الساعدَ يدخل في نقرة فيها طرف الزند الأعلىٰ، فيدور الزند عليه. وأما عظام رسغ اليدين فهي ستة عشر، لكلٍّ ثمانية، وهي عظام صلبة صلدة، عديمة المخ، سبعة منها نُضِّدت صفين، فالصف الأعلىٰ من ثلاثة، والأسفل من أربعة، وذلك لأن أعلىٰ الرسغ موصول بعضو ضيق الطرف ليس بين عظميه في هذا الجانب فرجة، أعني الساعد، وأسفله بعضو عريض، أعني مشط الكف، وأما الثامن فإنما خُلق لحفظ عصبة هناك تأتي الكف لا للرسغ خاصةً. وللرسغ

مفصلان، أحدهما كبير يلتئم بدخول الثلاثة العليا في حفرة في طرف الساعد محفورة في رأس الزندين جميعًا، وبهذا المفصل يكون انقباض الرسغ وانبساطه. والثاني صغير يلتئم بدخول زائدة في طرف الزند الأسفل ممَّا يلي الخنصرَ في نقرة العظم الذي في هذا الموضع من عظام الرسغ، فيدور الرسغ علىٰ تلك الزائدة، وبهذا المفصل ينكبُّ الرسغ وينقلب. وأما عظام الكفَّين فهي ثمانية، لكلٍّ أربعةٌ، وهي كالمتوسط بين أربعة الرسغ والأصابع الأربع سوىٰ الإبهام، وطرفها الذي يلي الرُّسغَ متصل به اتصالاً محكمًا بما ربطته، وتبقىٰ بحيث لا تظهر فيه حركة، ورؤوس العظام في هذا الطرف متصل بعضها ببعض أيضًا اتصالاً شديدًا بعظام الرسغ، حتىٰ لو كُشطت جلدة الكف وُجدت هذه العظام متصلة بعد وصولها عن الحس، وأما رؤوس [العظام] التي في الطرف الآخر فبينها فُرَج ما دامت الأصابع منفرجة، وهي تنضمُّ بانضمام الأصابع. وأما عظام أصابع اليدين فهي ثلاثون، لكلٍّ خمسة عشر، وكل أصبع مؤلَّف من ثلاثة عظام تسمَّىٰ الأنامل والسلاميات، يتصل بعضها ببعض بمفاصل موثقة برُبَط، وكذا الإبهام، إلا أن العظم الأول منه مربوط بالرسغ لا بالمشط كالأربع الأُخَر، وقيل: هو متصل بطرف الزند الأعلىٰ بمفصل واسع سلس؛ لأنه يحتاج إلىٰ حركة واسعة ليلقىٰ به الأصابع الأربع (**ثم خلق لها أظفارًا**) وهىٰ إما من العظام وإما أجسام عظمية موصولة بالسلاميات الأخيرة من الأصابع مربوطة مع اللحم والجلد برباطات من جنس الأوتار، وقد يصير إليها عصب ووريد وشريانيات تؤدي إليها الحياة والغذاء (**وأسند إليها رؤوس الأصابع حتىٰ لا تتفتَّت**) ولا تهُن عند الشد علىٰ الشيء، هذا أحد منافع الأظفار (**و**) الثانية من منافعها: (**حتىٰ تلتقط بها الأشياء الدقيقة**) الصغيرة (**التي لا تحويها الأصابع، فتأخذها برؤوس أظفارك**) والمنفعة الثالثة: أن تتمكَّن من الحك والتنقية، والرابعة: أن تكون سلاحًا لك في بعض الأوقات. وإليه يشير ما ورد في الخبر: «وأما الظفر فمُدَىٰ الحبشة». والثلاثة الأولىٰ أَولىٰ بنوع الإنسان، والرابعة ببعض الحيوانات، ولذا وردت السنَّة في تقليمها متىٰ طالت. وخُلقت مستديرة الأطراف من عظام ليِّنة

لتتطامن تحت ما يصاكُّها فلا تنصدع، وخُلقت ناتئة دائمًا، وفي كل ذلك حِكَم خفية لا يعلم بها إلا الراسخون في العلم.

(ثم هَبْ أنك أخذت الطعام باليدين فمن أين يكفيك هذا ما لم يصل إلىٰ المعدة، وهي في الباطن، فلا بد وأن يكون من الظاهر دهليز إليها حتىٰ يدخل الطعام منه، فجعل الفم منفذ الطعام إلىٰ المعدة، مع ما فيه) أي في الفم **(من الحِكَم الكثيرة)** ما بين ظاهرة وخفيَّة **(سوىٰ كونه منفذًا للطعام إلىٰ المعدة)** وأجلُّها النطق الذي هو سبب السعادات كلها.

(ثم إن وضعتَ الطعام في الفم وهو) أي الطعام **(قطعة واحدة فلا يتيسَّر ابتلاعه)** لضيق المدخل **(فتحتاج إلىٰ طاحونة تطحن بها الطعام، فخلق لك اللحيين من عظمين)** هذا علىٰ الإجمال، وبالتفصيل فعظام اللحي الأعلىٰ أربعة عشر، ستة في العينين، لكلٍّ ثلاثة، واثنان في الوجنتين، وهما كبيران **(ورُكِّب فيهما)** أكثر **(الأسنان)** سوىٰ الثنايا والرباعيات العليا، واثنان صغيران وفيهما ثقبان من المنخرين إلىٰ الفم، واثنان في طرف اللحي وفيهما بقية الأسنان، واثنان في الأنف، وأما عظام اللحي الأسفل فطرف كلٍّ منها من أسفل في موضع الذقن يلتحم بصاحبه، والآخر من فوق له شعبتان **(وطُبِّقت الأضراس من العليا علىٰ السفلىٰ لتطحن بها الطعام طحنًا. ثم الطعام تارةً يحتاج إلىٰ الكسر وتارةً إلىٰ القطع، ثم يحتاج إلىٰ الطحن بعد ذلك، فقسم الأسنان إلىٰ عريضة طواحين كالأضراس، وإلىٰ حادة قواطع كالرباعيات، وإلىٰ ما يصلُح للكسر كالأنياب)** اعلمْ أن الأسنان اثنتان وثلاثون، وفي كل لحي ستة عشر، أربعة من قدَّام وهي الثنيتان والرباعيتان، ويقال لها: القطَّاعة؛ إذ يُقطَع بها ما يؤكل من الطعام اللين، وهي عِراض حادة الرؤوس، واثنتان من جانبَي الأربع، ويقال لهما: النابان، وهما حادَّتا الرؤوس، عريضتا الأصول، يُكسَر بهما ما صلبَ من الطعام، ولكلٍّ من هذه الست أصل واحد وخمس في كلٍّ من الجانبين، وهي عِراض خشنة الرؤوس، وتسمَّىٰ الأضراس والطواحين؛

لأنها تطحن الطعام وتسحقه، ولكلٍّ منها إذا كان من فوق ثلاثة أصول، وقد يكون لأقصاها أربعة، وإن كان من أسفل أصلان، وقد يكون لأقصاها ثلاثة أصول، وإنما جُعلت أصول الأضراس أكثر لشدة عملها ودوامه، وإنما جُعلت أصول الفوقانية منها أكثر من أصول التحتانية لتعلُّقها، وربما عدمت النواجذ منها في بعض الناس وهي الأربعة الطرفانية، فتكون أسنانه ثمانية وعشرين، والنواجذ تنبت في الأكثر في وسط زمان النمو وهو بعد البلوغ إلىٰ الوقوف، وذلك الوقوف قريب من ثلاثين سنة، ولذلك تسمَّىٰ: أسنان الحلم (**ثم جعل مفصل اللحيين متخلخلاً بحيث يتقدَّم الفك الأسفل ويتأخر حتىٰ يدور علىٰ الفك الأعلىٰ دوران الرحىٰ، ولولا ذلك لَما تيسَّر إلا ضرب أحدهما علىٰ الآخر مثل تصفيق اليدين مثلاً، وبذلك لا يتم الطحنُ، فجعل اللحي الأسفل متحركًا حركة دورية، واللحي الأعلىٰ ثابتًا لا يتحرك**) أي إن الثنايا والرباعيات تتماسُّ وتتلاقىٰ في حالة العض، ولو لم يكن كذلك لم يتم العضُّ علىٰ الأشياء، وذلك يكون بجذب الفك إلىٰ قدَّام حتىٰ يلاقي بعضها بعضًا، وعند المضغ والطحن يرجع الفك إلىٰ مكانه، فتدخل الثنايا والرباعيات السفلانيات إلىٰ داخل وتحيد عن موازاة العالية، فيتم بذلك للأضراس وقوعُ بعضها علىٰ بعض، وذلك لأنه لا يمكن مع تلاقي الثنايا والرباعيات التي في اللحي الأعلىٰ وفي اللحي الأسفل أن تتلاقىٰ الأضراس (**فانظر إلىٰ عجيب صنع الله تعالىٰ**) وبديع حكمته (**فإن كل رحىٰ صنعه الخلقُ فيثبت منه الحجرُ الأسفل ويدور الأعلىٰ**) ولو تحرك الأسفل لفسد (**إلا هذا الرحىٰ الذي صنعه الله تعالىٰ؛ إذ يدور منه الأسفل علىٰ الأعلىٰ**) وسر ذلك أن الله تعالىٰ قد وضع خزائن الحواس في اللحي الأعلىٰ، فلو دار الفك الأعلىٰ لخيفَ من تطرُّق الخلل والفساد إلىٰ تلك الخزائن، وقد استُثني ممَّا ذُكر التمساح، فقد قالوا: كل حيوان يتحرك فكُّه الأسفل عند المضغ إلا التمساح (**فسبحانه! ما أعظم شانه وأعز سلطانه وأتم برهانه وأوسع امتنانه!**

ثم هَبْ أنك وضعت الطعام في فضاء الفم فكيف يتحرك الطعام إلىٰ ما

تحت الأسنان؟ أو كيف تستجرُّه الأسنان إلىٰ نفسها؟ أو كيف يتصرَّف باليدين في داخل الفم؟ فانظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان) وركَّبه من لحم وعروق وشريانات وعصب حسَّاس وغشاء متصل بغشاء المريء **(فإنه يطوف في جوانب الفم ويردُّ الطعام من الوسط إلىٰ الأسنان بحسب الحاجة)** إلىٰ طحن أو كسر أو مضغ **(كالمجرفة التي تردُّ الطعام إلىٰ الرحىٰ)** وذلك أن جوهره لحم أبيض رخو مجلَّل بالغشاء المذكور، وقد التفَّت به عروق صغار كثيرة فيها دم هو سبب حمرة لونه، وتحته عروق وشريانات وأعصاب كثيرة فوق ما يستحقه قدْرُه من العظم **(هذا مع ما فيه من فائدة الذوق)** إذ موضع قوَّته العصب المفروش عليه **(وعجائب قوة النطق)** وهي القوة الإنسانية التي يكون بها الكلام **(والحِكَم التي لسنا نطنب بذكرها.**

ثم هَبْ أنك قطَّعت الطعام وطحنته وهو يابس فلا تقدر علىٰ الابتلاع) والازدراد **(إلا بأن يتزلق إلىٰ الحلق)** وهو الفضاء الذي في أقصىٰ الفم، وفيه مجريان، أحدهما قصبة الرئة، والثاني المرِّيء. ولا يكون التزلُّق إلا **(بنوع رطوبة، فانظر كيف خلق الله تعالىٰ تحت اللسان عينًا يفيض اللُّعاب منها)** وهما فُوَّهتان، وهما ساكبتا اللعاب، وبهما يبقىٰ في اللسان وما حوله النداوة الطبيعية (و) هذا اللعاب **(ينصبُّ بقدر الحاجة حتىٰ يتعجن به الطعام، فانظر كيف سخَّرها لهذا الأمر، فإنك ترىٰ الطعام من بُعد فيثور الحنكان للخدمة، وينصبُّ اللعاب حتىٰ تتحلَّب أشداقُك والطعام بعدُ بعيد عنك، ثم هذا الطعام المطحون المتعجِّن مَن يوصله إلىٰ المعدة وهو في الفم؟ ولا تقدر علىٰ أن تدفعه باليد، ولا في المعدة يدٌ حتىٰ تمتدَّ فتجتذب الطعام، فانظر كيف هيَّأ الله تعالىٰ المرئ والحنجرة)** فالمريء هو منفذ الطعام والشراب، متصل بالحلقوم الذي يجري فيه الطعام والشراب، وهو مؤلَّف من لحم وأغشية، والحنجرة مؤلَّفة من غضاريف ثلاثة **(وجُعل علىٰ رأسها طبقات)** منها داخلة وهي شبيهة بالأغشية، ومنها خارجة وهي أكثر حمية

(تنفتح لأخذ الطعام، ثم تنطبق وتنضغط حتىٰ ينقلب الطعام بضغطته فيهوي إلىٰ المعدة في دهليز المريء) واعلمْ أن في الحنجرة رطوبة دسمة لزجة كائنة في تضاعيف غضاريف الحنجرة بها يكون الصوت صافيًا، فإذا عرضت لأحد حمىٰ محرقة تحترق تلك الرطوبة فلا يقدر علىٰ إخراج الصوت، وكذا مَن تكلم كثيرًا أو سافر في هواء حار يابس، فإنهما لا يقدران علىٰ التكلم إلا إذا بلاَّ حلقهما بالماء أو بشيء آخر رطْب **(فإذا ورد طعامٌ علىٰ المعدة - وهو خبز وفاكهة مقطَّعة - فلا يصلُح لأنْ يصير لحمًا وعظمًا ودمًا علىٰ هذه الهيئة، بل لا بد وأن يُطبَخ طبخًا تامًّا حتىٰ تتشابه أجزاؤه، فخلق الله تعالىٰ المعدة علىٰ هيئة قِدر فيقع فيها الطعام فتحتوي عليه وتنغلق عليه الأبواب فلا يزال لابثًا فيها حتىٰ يتم الهضم والنضج)** اعلمْ أن المعدة جسم مستدير الهيئة، مركَّب من اللحم والعصب والعروق والشرايين والغشائين، وهي مؤلَّفة من طبقتين، والطبقة الظاهرة لحمية، وكلما بعدت المعدة عن المريء اتسعت وصار المريء كالعنق، ولها من أسفل ثقب أضيق من فمها يسمَّىٰ: البوَّاب، وعند اشتمال المعدة علىٰ الغذاء وانضمامها ينغلق البوَّاب بحيث لا يخرج عنه أصلاً حتىٰ الماء إلىٰ أن يتم الهضم، ثم ينفتح ليصير ما في المعدة إلىٰ الأمعاء الاثنىٰ عشر، ويبقىٰ مفتوحًا إلىٰ أن يتم فعلُ الدافعة، ومبدأ الاتساع يسمَّىٰ: فم المعدة، وهو عندما ينقطع عظام القص، وهو عارٍ عن اللحم، وباقيه هو العضو المسمَّىٰ بالمعدة، وموضعها فوق السرة، وهي مربوطة مع الفقار ومع غيرها من الأحشاء بأربطة وثيقة تمسكها، وكذا جميع الأحشاء قد أُحكِم ربطها ودعائمها بقدْر شرفها وشدة الحاجة إليها والخوف عليها، فإذا ورد الغذاء في البدن تهضمه الطبيعة هضومًا أربعة، أي تعدُّه لأنْ يصير جزءًا من البدن، وابتداء الهضم الأول عند المضغ بسبب أن سطح الفم متصل بسطح المعدة، بل كأنَّهما سطح واحد، وفيه منه قوة هاضمة، فإذا لاقىٰ الممضوغَ أحاله إحالةً ما، ويعينه علىٰ ذلك الريقُ المستفيد بالنضج الواقع فيه حرارة غريزية، ثم إذا ورد علىٰ المعدة انهضم الهضم التام الأول لا بحرارة المعدة وحدها، بل **(وبالحرارة التي تحيط بالمعدة من**

الأعضاء الباطنة) أيضًا **(إذ من جانبها الأيمن الكبد، ومن الأيسر الطحال)** فإن الطحال قد يسخن لا بجوهره بل بالشرايين والأوردة الكثيرة التي فيه **(ومن قُدَّام الثرب)** الشحمي القابل للحرارة المؤديها إلىٰ المعدة **(ومن خلف لحم الصلب)** أي العِرق العظيم الممتد علىٰ الصلب من خلف المعدة، ومن فوق القلب يتوسط تسخينه للحجاب؛ لأنه حاجز بين القلب والمعدة، فهو يسخِّن الحجابَ، ثم يسخِّن الحجابُ المعدةَ، ومن تحت المرارةُ بما فيها من الصفراء **(فتتعدَّىٰ الحرارة إليها من تسخين هذه الأعضاء من الجوانب حتىٰ ينطبخ الطعام ويصير)** بذاته في كثير من الحيوان كجوارح الصيد والجمل والحية من غير شرب ماء وبمعونة ما يخالطه من المشروب في أكثره **(مائعًا متشابهًا)** أي كيلوسًا، وهو جوهر سيَّال **(يصلُح للنفوذ في تجاويف العروق، وعند ذلك يشبه ماءَ الشعير)** وهو الكشك الثخين **(في تشابُه أجزائه ورقَّته، وهو بعدُ لا يصلُح للتغذية)** اعلمْ أن جسم المعدة مؤلَّف من ثلاث طبقات، إحداها يأخذ ليفه طولاً، والثانية يأخذ ليفه عرضًا، والثالثة يأخذ ليفه ورابًا، وليس في المريء ليف مورَب؛ لعدم الاحتياج إلىٰ الماسكة هناك، ويوجد اللحم في الطبقة الخارجة عند قعر المعدة أكثر ليكون أسخن فيجود الهضمُ، وذلك أن قعرها بعيد عن القلب والكبد المسخَّنين بالمجاورة، فاحتيجَ إلىٰ فضل تسخين، وقد وصلت إلىٰ فم المعدة شعبة من عصب الحس وانبسطت فيه، وبواسطته يُدرَىٰ ألم الجوع والحاجة إلىٰ الغذاء، ولهذا لا يُحَس بألم الجوع إلا في فم المعدة، والشريان والأجوف قد أتيا من القلب والكبد إلىٰ محدَّب المعدة ونُسجت شُعَبهما بعضها ببعض، وأصل الثَّرب وهو عضو مؤلَّف من طبقتين غشائيتين تراكب إحداهما علىٰ الأخرىٰ ويتخلَّل بينهما شحم كثير وشُعَب دِقاق من العروق والشرايين؛ إذ هو يبتدئ من فم المعدة، ويمر منتهيًا إلىٰ معي قولون، وإنه كجراب لو أوعىٰ شيئًا سيَّالاً لأمسكه، وتنتسج طبقاته من الصفاق ومن شظايا العروق والشريان، ثم تترشَّح إليها رطوبة لزجة دهنية هي الشحم، وهو كبطانة للصفاق وظهارة للمعدة، ومنفعته تقوية الأحشاء وتسخينها، وفوق الثرب غشاء

قوي يسمَّىٰ: الصفاق، يحفظ الأمعاء علىٰ أوضاعها، وفوق الصفاق تكون عضلات البطن المسمَّاة بالمَراق، والصفاق والمراق يحفظان حرارة الأحشاء، وقد نبت أصل الصفاق من فوق الحجاب، ثم انبسط إلىٰ الأضلاع من داخل البطن، ثم نزل إلىٰ أسفل المَثانة، وهناك يوجد فيه منفذان ضيقان تنفذ فيهما العروق والرباطات النازلة إلىٰ الأنثيين، وقد ظن بعض الناس أن المعدة تغتذي من الكيلوس، وهو خطأ؛ لأن الكيلوس لا يصلُح للغذاء دون أن يصير إلىٰ الكبد وينهضم فيها ويستحيل إلىٰ الدم وباقي الأخلاط، ثم يمتاز الدم عنها كمًّا فيكون غذاء للأعضاء، وإليه أشار المصنِّف بقوله: (**فخلق الله بينها وبين الكبد مجاري من العروق وجعل لها فُوَّهات كثيرة حتىٰ ينصبَّ الطعام فيها فينتهي إلىٰ الكبد**) يشير إلىٰ أن ذلك الكيلوس بعد ذلك ينجذب لطيفُه بواسطة جاذبة الكبد ودافعة المعدة والأمعاء من أواخر المعدة ومن الأمعاء، فيندفع من طريق العروق المسمَّاة: ماساريقا، وهي عروق دِقاق صِلاب متصلة بالأمعاء كلها، ويأخذ المعدة إلىٰ العِرق المسمَّىٰ بباب الكبد، وينفذ في الكبد في أجزاء وفروع للباب داخلة متصغِّرة متضائلة كالشعر، ملاقية لفُوَّهات أجزاء أصل العِرق الطالع من حدبة الكبد (**والكبد**): جسم مركَّب من اللحم والعروق والشرايين والغشاء الذي يسترها ويحفظها علىٰ وضعها، وليس لها في نفسها حس، لكن لغشائها حس كثير، (**معجون من طينة الدم**) أي لونه ولحمه شبيه بالدم الجامد (**حتىٰ كأنَّه دم، وفيه عروق كثيرة شَعرية منتشرة في أجزاء الكبد**) ونباتها منه، وشكله هلاليٌّ، وموضعه الجانب الأيمن تحت الضلوع العالية من ضلوع الخلف، وظهره ملاصق لتلك الضلوع في بعض الناس دون بعض، وبطنه ملاصق للمعدة أعلاه فيما بين حجاب الصدر وأسفله، ينتهي إلىٰ الخاصرة، مربوط بأربطة تتصل بالغشاء الذي عليه، وله تقعير في الجانب الذي يلي المعدة، وله قوة مَصَّاصة بها يجذب الكيلوس من المعدة، وآلته لهذا العمل العروق المسمَّاة بالماساريقا، وفيها القوة المصَّاصة كما في الكبد (**فينصبُّ الطعام الرقيق النافذ فيها وينتشر في أجزائها**) أي يتفرَّق في ليف هذه العروق فتصير الكبد كأنَّها بكلِّيتها ملاقية

لكلِّية هذا الكيلوس **(حتىٰ تستولي عليه قوة الكبد فتصبغه بلون الدم فيستقر فيها ريثما يحصل له نضج آخر)** وهذا هو الهضم الثاني **(وتحصل له هيئة الدم الصافي الصالح لغذاء الأعضاء، إلا أن حرارة الكبد هي التي تُنضِج هذا الدمَ، فتتولَّد من هذا الدم فضلتان كما يتولَّد في جميع ما يُطبَخ، إحداهما شبيهة بالدُّرْدي والعكر)** وهو ما يتبقَّىٰ في أسفل الزيت **(وهو الخلط السوداوي)** والمراد بالخلط: الكيموس، وهو جسم رطْب [سيَّال] يستحيل إليه الغذاء أولاً **(والأخرىٰ شبيهة بالرغوة وهي الصفراء)** أي في كل انطباخ لمثل هذا الكيلوس يحصل شيء كالرغوة وشيء كالرسوب، وربما كان معهما إما شيء إلىٰ الاحتراق إن أفرط الطبخ، أو شيء كالفج إن قصَّر الطبخ، فالرغوة هي الصفراء، والرسوب هو السوداء، وهما طبيعيان، والمحترق لطيفة صفراء محترقة وكثيفة سوداء رديئة، وهما غير طبيعيين [والفج هو البلغم] وأما الشيء المتصفِّي من هذه الجملة نضيجًا فهو الدم. ثم الصفراء إما طبيعية وهي رغوة الدم حمراء اللون ناصعته بحيث تضرب إلىٰ الصفرة كشعر الزعفران، فإذا تولَّدت في الكبد انقسمت قسمان: قسم يذهب مع الدم ليخالط الدم في تغذية الأعضاء التي تستحق أن يكون في مزاجها جزء صالح من الصفراء مثل الرئة، ويلطُف الدمُ لينفذ في المسالك الضيقة. وقسم يتصفَّىٰ إلىٰ المرارة ليخلِّص البدن من الفُضَل ويغذِّي المرارةَ، وأن ينصبَّ منه قِسطٌ من المرارة إلىٰ الأمعاء ليغسلها من الثفل والبلغم اللزج، وإلىٰ عضل المقعدة ليحس بالحاجة إلىٰ التبرُّز. وإما غير طبيعية، إما لاختلاطها بالبلغم الغليظ وهي المُحِّيَّة، وإما لاحتراقها في نفسها، وهي الرمادية، وهذان الصنفان يُعرَفان بالصفراء المحترقة، والثاني منهما ينقسم إلىٰ كُرَّاثي وزنجاري، ولكلٍّ منهما أحكام، وهما إنما يتولَّدان في المعدة غالبًا، وقد ينصبَّان من العروق والكبد إلىٰ المعدة نادرًا **(ولو لم تفضُل عنها الفضلتان فسد مزاجُ الأعضاء، فخلق الله تعالىٰ المرارة والطحال، وجعل لكل واحد منهما عنقًا ممدودًا إلىٰ الكبد، داخلاً في تجويفه، فتجذب المرارةُ الفضلةَ الصفراوية، ويجلب الطحالُ العكرَ السوداويَّ، فيبقىٰ الدم صافيًا ليس فيه إلا زيادة**

رقَّة ورطوبة؛ لِما فيه من المائية، ولولاها لَما انتشر في تلك العروق الشَّعرية ولا خرج منها متصاعدًا إلىٰ الأعضاء) اعلمْ أن المرارة عضو عصباني ذو طبقة واحدة، وهي كخريطة منسوجة من الأنواع الثلاث من الليف المستقيم والعريض والمورَب، معلَّقة في الكبد من ناحية المعدة، وهي وعاء الصفراء وبالوعتها، وهي موضوعة علىٰ الزائدة الكبيرة من زوائد الكبد، ولها منفذان، أحدهما متصل إلىٰ تقعير الكبد، فبه تصير الصفراء إليها، والثاني متصل إلىٰ الأمعاء الاثنىٰ عشر ينفذ فيه ما فضلَ من الصفراء وينزل إلىٰ الأمعاء المذكورة، ثم يصير إلىٰ الأمعاء الأُخَر لدفع الثفل وتنظيف الأمعاء من الرطوبات الغليظة بواسطة الحدة. وأما الطحال فهو عضو مستطيل الشكل كاللسان، سخيف اللحم، كمد اللون، وهو وعاء السوداء وبالوعتها، وموضعه في الجانب الأيسر من ضلوع الخلف والمعدة، ويلزم المعدةَ من جانب، وضلوع الخلف من آخر، وأكثره تحت المعدة، وقد رُبط برُبَط متصلة بالغشاء الذي عليه، وجعل متخلخلاً لتستقرَّ السوداء المنجذبة إليه في تضاعيفه، وجُعل فيه الشرايين الكثيرة، وتنبت عنه قناتان، إحداهما من طرفه وتتصل بالكبد عند تقعيره، والثانية من داخله وتتصل بالمعدة، وبها يندفع شيء من السوداء إلىٰ المعدة لتنبيه شهوة الطعام. ثم إن الدم بعدما دام في الكبد يكون أرق ممَّا ينبغي لفضل المائية المحتاج إليها لترقيق الكيلوس وتنفيذه في المسالك الضيقة وتنفصل عنها كما تنفصل عن الكبد فينجذب منه في عِرق نازل إلىٰ الكِليتين، وإليه أشار المصنف بقوله: (**فخلق الله سبحانه الكليتين، وأخرج من كل واحدة منهما عنقًا طويلاً إلىٰ الكبد**) وكلٌّ منهما مركَّب من لحم مكتنز صلب قليل الحمرة وعروق وشريانات، وهما موضوعان علىٰ جنبتَي خرز الصلب بالقرب من الكبد اليمنىٰ، وشكلهما كنصف دائرة، ومحدَّبهما إلىٰ طرف خرز الظهر ليتمكَّن الإنسان من الانحناء بسهولة، وجوهرهما مندمج صلب لئلاً ينفذ فيهما إلا الماء الرقيق، ومزاجهما يميل إلىٰ البرودة والرطوبة بسبب الأوردة والشريانات فيهما، وتنكسر بذلك حدَّة الصفراء النازلة إليهما مع الماء، فلا تحرق المثانة إذا نزلت إليها، ولا

حس لهما لئلاً يحسَّا بحدَّة الصفراء الممزوجة بالماء النازل إليهما، فيُحفَظ الماء ريثما ينطبخ فينهضم قدرٌ من الدم المخالط لذلك أيضًا بحيث يصلُح لأنْ يكون غذاء لهما.

(ومن عجائب حكمة الله تعالىٰ أن عنقهما ليس داخلاً في تجويف الكبد، بل متصل بالعروق الطالعة من حدبة الكبد) وهو عِرق عظيم، أحدهما عن يمينه، والآخَر عن يساره **(حتىٰ يجذب مائيَّتها بعد الطلوع من العروق الدقيقة)** الشعرية **(التي في الكبد؛ إذ لو اجتذب قبل ذلك لغلُظَ ولم يخرج من العروق)** فيغذِّي الكليتين الدسومة والدموية من تلك المائية، ويندفع باقيها إلىٰ المثانة والإحليل **(فإذا انفصلت منه المائيَّةُ)** الفضلية عن الدم عند خروجه من الكبد **(فقد صار الدم صافيًا من الفضلات الثلاث، نقيًّا من كل ما يفسد الغذاء)** وصارت المائية إلىٰ هذين المنفذين، فتجذبهما الكليتان، فيكون الغذاء الواصل إلىٰ الأعضاء بلا مائية فضلية، والثاني من كلٍّ منهما يمر متسفِّلاً حتىٰ يصل إلىٰ المثانة، ويسمَّيان الحالبين، وهما مجرىٰ البول، وإنما جُعلت الكليتان ثنتين لأن أكثر أعضاء البدن زوج، والدماغ ينقسم قسمين، وكذا الأعصاب والعضلات والعروق والشرايين، فكأنَّ البدن بدنانِ وإن كان في الحقيقة واحدًا، فجُعلت الكليتان ثنتين ليعمل كلٌّ منهما عمله من جانب. ولما كان القلب أشرف الأعضاء وكذا الرئة لأنها خادمة للقلب وجب أن يكون غذاؤهما أصفىٰ وأنضج من غذاء جميع الأعضاء، فلهذا قدَّر الخالق تعالىٰ شأنه أن العِرق الذي يوصل غذاء هذين العضوين إليهما نزل من الكبد إلىٰ الكليتين ونفذ فيهما ثم خرج منهما ورجع إلىٰ فوق لتجذب الكليتان بقوَّتهما المصاصةِ المائيةَ المصاحبةَ للدم الذي فيهما لغذائية هذين العضوين الشريفين، ولينضج الدمُ المذكور في هذه المسافة الطويلة ويتصل غذاؤهما إليهما صافيًا نضيجًا **(ثم إن الله تعالىٰ أطلع من الكبد عروقًا، ثم قسَّمها بعد الطلوع أقسامًا، وشعَّبَ كلَّ قسم بشُعَب، وانتشر ذلك في البدن كلِّه من الفرق إلىٰ القدم ظاهرًا وباطنًا، فيجري**

الدم الصافي فيها) بعد اندفاعه في العِرق العظيم الطالع من حدبة الكبد المسمَّىٰ بالأجوف، فيسلك في الأوردة المتشعِّبة منه، ثم في جداول الأوردة، ثم في سواقي الجداول، ثم في رواضع السواقي، ثم في العروق الشعرية الكثيفة، فينهضم بالهضم الثالث **(ويصل إلىٰ سائر الأعضاء حتىٰ تصير العروق المنقسمة شَعرية)** أي كهيئة الشعر في الدقة **(كعروق الأوراق)** الظاهرة فيها **(والأشجار)** المستبطَنة في الأرض **(بحيث لا تُدرَك بالأبصار)** لدقَّتها وخفائها **(فيصل منها الغذاء بالرشح إلىٰ سائر الأعضاء)** فيحصل لنصيب كل عضو عنده هضمٌ رابع **(ولو حلَّت بالمرارة آفةٌ فلم تجذب الفضلةَ الصفراويةَ فسد الدمُ وحصلت منه الأمراض الصفراوية)** وذلك بأن يتفق قصور في جذبها الصفراء من الكبد بدم الكبد فترتفع الصفراء في الكبد فحدثت الحمِّيات الحادة، وإن اتفق دفعُها إلىٰ أعضاء البول قبل الوقت اللائق بذلك حدثت قرحة المثانة وحرقتها، وإن تفرَّقت في جميع البدن حدثت أمراض **(كاليَرَقان)** وهو محرَّكة: تغيُّر فاحش في اللون إلىٰ صفرة أو سواد أو هما معًا بجريان الخلط إلىٰ الجلد **(والبثور)** وهي من جنس الأورام، وهي أنواع، ومنها صفراوية كالنملة **(والجمرة)** والنار الفارسية، وإن نزلت إلىٰ الأمعاء تولَّد السحج والإسهال الصفراوي **(وإن حلَّت بالطحال آفةٌ فلم يجذب الخلط السوداويَّ)** الحامض العفص لضعفه **(حدثت الأمراض السوداوية)** في البدن **(كالبَهَق)** الأسود **(والجُذام والماليخوليا وغيرها)** كالقوباء والدوالي وداء الفيل، وإن قصَّر في الجذب فلم يستوفِ ما ينبغي جذبُه تولَّد ورمُ الكبد وسقوط شهوة الطعام، وإن اندفع إلىٰ المعدة أكثر ممَّا ينبغي تولَّدت الشهوة الكلبية، وإن كان فيما ينجذب إلىٰ المعدة حموضة من غير عفوصة تولَّد الغَثَيان، فإن كان كثيرًا تولَّد القيء، وإن نزل ذلك - أي الحامض - من المعدة إلىٰ الأمعاء تولَّد السحج السوداوي المهلك **(وإن لم تندفع المائية نحو الكِلىٰ حدث منه الاستسقاء وغيره)** من الأمراض؛ إذ الماء لا يصلُح للغذائية، بل هو مركب الغذاء، أعني الدم، فإذا انفصل عن الدم زالت الحاجة إليه، وكل شيء زالت الحاجة إليه إذا بقي في البدن يتولَّد منه مرضٌ **(ثم**

انظر إلىٰ حكمة الفاطر الحكيم) جلَّ شأنُه **(كيف رتَّب منافع علىٰ هذه الفضلات)** الثلاث **(الخسيسة)** وهي الصفراوية والسوداوية والبلغمية **(فأما المرارة)** التي هي وعاء الصفراء **(فإنها تجذب بأحد عنقيها وتقذف بعنق آخر إلىٰ الأمعاء)** قد تقدم أن المرارة عضو عصباني ذو طبقة واحدة، وله منفذان، أحدهما هو الجاذب للصفراء، والثاني تنفذ فيه الصفراء ثم يصير إلىٰ الأمعاء الاثنیٰ عشر ثم إلىٰ الأمعاء الأُخَر **(فتحصل له في نقل الطعام رطوبة مزلقة، ويحدث في الأمعاء لذعٌ يحركها للدفع فتنضغط حتىٰ يندفع الثقل وينزلق)** وتنظِّف الأمعاء من الرطوبات الغليظة بواسطة الحدة **(وتكون صفرته لذلك)** وقد سمَّىٰ المصنف هذين المنفذين عنقين، وهما عند الأطباء منفذان، قالوا: وفي بعض الناس يوجد منفذ آخر صغير منها إلىٰ قعر المعدة ينفذ فيه بعض من الصفراء فيدخل المعدة، وقد يكون هذا المنفذ في بعض الناس كبيرًا حتىٰ يكون أكبر من المنفذ المتصل بالمعي المذكور، فلهذا السبب ينصبُّ في المعدة صفراء كثيرة، وصاحبه يكون دائمًا مبتلًىٰ بمرارة الفم وسوء الهضم وفساد الغذاء في المعدة والدوار ويبوسة الطبع والغثيان **(وأما الطحال فإنه يحيل تلك الفضلةَ إحالة تحصل بها فيه حموضة وقبضٌ، ثم يرسل منها في كل يوم شيئًا إلىٰ فم المعدة فيحرك الشهوة بحموضته وينبِّهها ويثيرها)** أي يحركها **(ويُخرِجِ الباقي مع الثفل. وأما الكِلية فإنها تغتذي بما في تلك المائية من دم وترسل الباقي إلىٰ المثانة)** من الحالبين، ويسمِّيهما الأطباء: البرنجين. ثم في الغذاء جوهر صالح لأنْ يشبَّه بالمغتذىٰ، وجوهر غير صالح له وهو الفضلة، ففي كل هضم تحصل فضلة، ففضلة الهضم الأول تندفع إلىٰ طريق الأمعاء وهي البخر، وفضلة الهضم الثاني يندفع أكثرها بالبول، وباقيها من الطحال والمرارة، وفضلة الهضمين الآخَرين تندفع بالتحلُّل الذي لا يُحَس وبالعرق والوسخ الخارج من منافذ طبيعية محسوسة كالأنف والأذن وغير محسوسة كالمسامِّ، أو خارجة عن الطبع كما في الأورام المتفجرة والبثرات والجدري وبما ينبُت من زوائد البدن كالشعر والظفر.

(ولنقتصر علىٰ هذا القدْر من بيان نعم الله تعالىٰ في الأسباب التي أُعِدَّت للأكل، ولو ذكرنا كيفية احتياج الكبد إلىٰ القلب والدماغ واحتياج كل واحد من هذه الأعضاء الرئيسة إلىٰ صاحبه وكيفية انشعاب العروق الضوارب من القلب إلىٰ سائر البدن وبواسطتها يصل الحس، وكيفية انشعاب العروق السواكن من الكبد إلىٰ سائر البدن وبواسطتها يصل الغذاء، ثم كيفية تركُّب الأعضاء وعدد عظامها وعضلاتها وعروقها وأوتارها ورباطاتها وغضاريفها ورطوباتها لطال الكلام، وكل ذلك محتاج إليه للأكل ولأمور أُخَر سواه) ومُجمَل القول في العروق أن الكبد مقعَّر الباطن، محدَّب الظاهر، ويطلع من محدَّبه عِرقٌ عظيم يسمَّىٰ: الأجوف؛ لسعة تجويفه بالنسبة إلىٰ تجاويف ماساريقا، وذلك يسهِّل نفوذَ الدم فيه، وأصله يتشعَّب شُعَبًا كثيرة دقيقة جدًّا كالشعر مستقر، فإذا طلع ليس يمر كبير شيء حتىٰ ينقسم قسمين، الأول - وهو الأعظم - يأخذ نحو أعالي البدن ليسقي الأعضاء العالية، فيمر حتىٰ يلاصق الحجابَ، وينقسم من هناك عِرقان يتفرَّقان، ثم ينفذ الحجابَ، فإذا نفذه انقسمت منه عروق دقيقة واتصلت بالغشاء الذي يقسم الصدر بقسمين وبغلاف القلب وبالغدَّة المسمَّاة بالتوثة وتفرَّقت فيها، ثم تتشعَّب منها شعبة عظيمة تتصل بالأذن اليمنىٰ من أذنَي القلب، وتنقسم هذه الشعبة ثلاثة أقسام، وإذا جاوز القلبَ مر علىٰ استقامته إلىٰ أن يحاذي الترقوتين، وينقسم حينئذٍ في مسلكه هذا شُعَب صغار في كل واحد من الجانبين تسقي ما يحاذيهما، وتخرج منها شُعَبٌ إلىٰ خارج فيسقي العضل، وعند محاذاته للإبط يخرج منه إلىٰ خارج شعبة عظيمة تأتي اليدَ من ناحية الإبط، وهو المسمَّىٰ بالباسليق، فإذا حاذىٰ من الترقوتين الوسطَ منهما موضع اللبَّة انقسم قسمين، قسم آخِذ إلىٰ ناحية اليمين، وقسم آخِذ إلىٰ ناحية اليسار، وانقسم كلٌّ منهما إلىٰ قسمين، أحدهما ركب الكتف وجاء إلىٰ اليد من الجانب الوحشي، وهو العرق المسمَّىٰ بالقيفال، والثاني انقسم إلىٰ قسمين في كل جانب وهما الوداج الغائر والوداج الظاهر، ولا يتم ذبحُ الحيوان إلا بقطع هذين، ويتشعَّب من العرق الكتفي في مروره بالعضد شعب صغار تسقي ظاهر العضد،

ومن الإبطي شعب صغار تسقي باطنه. فإذا قاربا مفصلَ المرفق انقسما فيكون منهما العرق المسمَّىٰ بالأكحل، ومن الإبطي العرق الذي بين البنصر والخنصر المسمَّىٰ بالأُسَيلم. والقسم الثاني من الأجوف يأخذ نحو أسافل البدن فيركب خرز الظهر آخذًا إلىٰ الأسفل، وتتشعَّب منه شعب تأتي لفائف الكلىٰ وأغشيتها، ثم شعبتان [تدخلان تجويف الكلىٰ، ثم شعبتان] تصيران إلىٰ الأنثيين، فإذا بلغ آخرَ الخرز انقسم قسمين، أحدهما آخِذ نحو الرجل اليمنىٰ، والثاني نحو اليسرىٰ، حتىٰ إذا بلغ مشاش [مثنىٰ] الركبة انقسم ثلاثة أقسام منها: المأبض والصافن وعرق النسا، ويتشعَّب من كلٍّ منها شعب كثيرة. فهذه معرفة العروق السواكن المسمَّاة بالأوردة، وأما الضوارب المسمَّاة بالشرايين فمنبتها التجويف الأيسر من القلب، ويخرج من هذا التجويف شريانان، أحدهما صغير غير متضاعف يسمَّىٰ: الشريان الوريدي، والثاني كبير جدًّا يسمَّىٰ: الأبهر. وفي الأوردة عرق متضاعف يسمَّىٰ: الوريد الشرياني، وهو شعبة من الأجوف متصلة بالأذن اليمنىٰ من أذنَي القلب، كما تقدم ذكرها، وهي أعظم عروق القلب؛ لأن سائر عروقه يوصل إليه نسيم الهواء، وهذا يوصل إليه الغذاء. والأبهر عند طلوعه تتشعَّب منه شعبتان، إحداهما تأخذ نحو أعالىٰ البدن وتتشعَّب منها شعب صغار في العضد، والثانية تصعد إلىٰ ظاهر الوجه والرأس، وتتفرَّق فيهما هنالك من الأعضاء الظاهرة، وقد يظهر نبض هذا القسم خلف الأذن وفي الصدغ. وأما الأعضاء فهي أجسام كثيفة متكوِّنة من الرطوبات المحمودة، وهي إما مفردة أو مركَّبة، فالمفردة هي التي أيَّ جزء محسوس أخذ منها كان مشاركًا للكل في الطبع والمزاج، ولذلك يسمَّىٰ: متشابه الأعضاء، وهي العظم، ثم الغضروف، ثم الوتر، ثم العصب، ثم الوتر، ثم الرباط، ثم الأوردة وهي العروق السواكن، ثم الأغشية، ثم اللحم، ثم الشحم، ثم المخ، ثم الجلد، ثم الشعر. والمركَّبة هي التي تكون فيها أجزاء محسوسة متخالفة بالطبع والمزاج، وتركُّبها إما أن يكون أوليًّا كالعضل؛ لأنه مركَّب من الأعضاء المفردة التي هي العصب والرباط واللحم والغشاء. أو ثانيًا كالعين؛ لأنها مركَّبة

من الأعضاء المركَّبة التي هي الطبقات. أو ثالثًا كالوجه؛ لأنه مركَّب من الأنف والخد وغيرهما. وكل واحد منهما مركَّب [تركيبًا] ثانيًا أو رابعًا كالرأس، فإنه مركَّب من الدماغ والوجه والأذن. ومن الأعضاء المركَّبة الأعضاء الرئيسة وهي القلب والدماغ والكبد والأنثيان. وأما العظام فجملتها مائتان وثمانية وأربعون سوىٰ السمسمانيات وسوىٰ العظم الشبيه باللام[1] وسوىٰ العظم الذي في القلب فإنهما عند بعض الناس من جنس الغضروف.

(بل في الآدمي آلاف من العضلات والعروق والأعصاب مختلفة بالصغر والكبر والدقة والغلظة وكثرة الانقسام وقلته) علىٰ ما هو مودَع في كتب التشريح **(ولا شيء منها إلا وفيه حكمة)** واحدة **(أو اثنتان أو ثلاث أو أربع إلىٰ عشرة وزيادة)** علىٰ ذلك **(وكل ذلك نعم من الله تعالىٰ عليك لو سكن من جملتها عرقٌ متحرك أو تحرك عرق ساكن لهلكتَ يا مسكين، فانظر إلىٰ نعمة الله تعالىٰ عليك أولاً لتقوَىٰ بعدها علىٰ الشكر)** عليها **(فإنك لا تعرف من نعمة الله سبحانه إلا الأكل، وهو أخسُّها)** أي أقلُّها مقدارًا **(ثم لا تعرف منها إلا أنك تجوع فتأكل، والحمار يعلم أيضًا أنه يجوع فيأكل، ويتعب فينام، ويشتهي فيجامع، ويستريح فينهض ويرمح، فإذا لم تعرف أنت من نفسك إلا ما يعرفه الحمار فكيف تقوم بشكر نعمة الله عليك؟ وهذا الذي رمزنا إليه بالإيجاز)** أي الاختصار **(قطرة من بحر واحد من بحار نعم الله فقط، فقِسْ علىٰ الإجمال ما أهملناه)** أي تركنا ذِكره **(من جملة ما عرفناه حذرًا من التطويل)** الذي يُمِلُّ الخواطرَ **(وجملة ما عرفناه وعرفه الخلق كلُّهم بالإضافة إلىٰ ما لم يعرفوه من نعم الله تعالىٰ أقل من قطرة في بحر، إلا أنَّ مَن علمَ شيئًا من هذا)** بقوة عرفانه **(أدرك شمَّة من معاني قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾** [النحل: ١٨] **ثم انظر كيف ربط الله تعالىٰ قوام هذه الأعضاء وقوام منافعها وإدراكاتها وقواها ببخار لطيف يتصاعد من الأخلاط**

---

(١) يعني في اللغة اليونانية، وينطق: لامدا، ويكتب هكذا (λ).

الأربعة، ومستقرُّه القلب، ويسري في جميع البدن بواسطة العروق الضوارب، فلا ينتهي إلىٰ جزء من أجزاء البدن إلا ويحدث عند وصوله في تلك الأجزاء ما يحتاج إليه من قوة حسٍّ وإدراك وقوة حركة وغيرها) اعلمْ أن[1] الروح عند الأطباء: جسم لطيف بخاري يتولَّد من الدم الوارد علىٰ القلب في البطن الأيسر منه، وفائدة وجوده في البدن أن يكون حاملاً للقُوَىٰ حتىٰ تنتقل وتجري في البدن بتوسُّطه؛ لأن القُوَىٰ لكونها من الأعراض لا تنتقل بدون المجال، ولذلك صارت أصنافها كأصنافها، فإن الروح إذا تولَّد في القلب يسمَّىٰ روحًا حيوانيًّا؛ لكونه حاملاً للقوة الحيوانية، فينفذ في الشرايين إلىٰ الأعضاء فيفيدها الحياةَ، وجزء صالح من هذا الروح يصعد إلىٰ الدماغ فيغيِّره إلىٰ مزاج آخر يصير به روحًا نفسانيًّا، أي روحًا صالحًا لأن يكون مَركبًا للقوىٰ النفسانية فتصدر أفعالُها عنه، وجزء ليس بكبير في المقدار من هذا الروح - أي الحيواني - يصير إلىٰ جانب الكبد فيغيِّره تغييرًا يصير به روحًا طبيعيًّا، أي روحًا يستعد لقبول القوىٰ الطبيعية فتصدر أفعالُها عنه. وأما القوىٰ فهي هيئات في الجسم الحيواني بها يمكن أن يفعل أفعاله بالذات، وهي ثلاثة أجناس، أحدها: القوىٰ الطبيعية، والثانية: القوىٰ النفسانية، والثالثة: القوىٰ الحيوانية. ومن القوىٰ الطبيعية ما هي متصرِّفة لأجل الشخص وهي الغاذية والنامية، ومنها ما هي متصرِّفة لأجل النوع، وهي قوتان: المولِّدة والمصوِّرة. والغاذية تخدمها قوىٰ أربع: الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة. وأما القوىٰ النفسانية فمنها محرِّكة وهي الشوقية والغضبية والفاعلة والمدركة. وأما القوىٰ الحيوانية فهي مبدأ لحركة القلب والشرايين ولحركة الجوهر الروحي اللطيف إلىٰ الأعضاء، فهي **(كالسراج الذي يُدار في أطراف البيت فلا يصل إلىٰ جزء إلا ويحصل بسبب وصوله ضوءٌ علىٰ أجزاء البيت من خلق الله تعالىٰ واختراعه، ولكنه جعل السراج سببًا له بحكمته،**

---

(١) من هنا إلىٰ قوله (لقبول القوىٰ الطبيعية فتصدر أفعالها عنه) تقدم في كتاب عجائب القلب. ومن قوله (وأما القوىٰ) إلىٰ قوله (اللطيف إلىٰ الأعضاء) تقدم بعضه في كتاب آداب الأكل.

وهذا البخار اللطيف هو الذي يسميه الأطباء: الروح، ومحله القلب) ثم يجول في البدن بتوسُّطه، وهذا هو المسمَّىٰ بالروح الحيواني عندهم، كما تقدم (ومثاله جِرم نار السراج، والقلب له كالمسرجة) وهو موضع السراج (والدم الأسود الذي في باطن القلب له كالفتيلة، والغذاء له كالزيت، والحياة الظاهرة له في سائر أعضاء البدن بسببه كالضوء للسراج في جملة البيت، وكما أن السراج إذا انقطع زيته انطفأ) وذهب نوره (فسراج الروح أيضًا ينطفئ مهما انقطع غذاؤه، وكما أن الفتيلة قد تحترق فتصير رمادًا بحيث لا تقبل الزيت فينطفئ السراج مع كثرة الزيت فكذلك الدم الذي تشبَّث به هذا البخارُ في القلب قد يحترق بفرط حرارة القلب فينطفئ مع وجود الغذاء، فإنه لا يقبل الغذاءَ الذي يبقىٰ به الروح كما لا يقبل الرماد الزيت قبولاً تتشبَّث النار به، وكما أن السراج تارةً ينطفئ بسبب من داخل كما ذكرناه وتارةً) ينطفئ (بسبب من خارج كريح عاصف) أو إطفاء إنسان (فكذلك الروح تارةً تنطفئ بسبب من داخل وتارةً بسبب من خارج وهو القتل، وكما أن انطفاء السراج بفَناء الزيت أو بفساد الفتيلة أو بريح عاصف أو بإطفاء إنسان لا يكون إلا بأسباب مقدَّرة مرتَّبة في علم الله تعالىٰ، ويكون كل ذلك بقدر فكذلك انطفاء الروح، وكما أن انطفاء السراج هو منتهَىٰ وقت وجوده فيكون ذلك أجله الذي أُجِّل له في أم الكتاب فكذلك انطفاء الروح، وكما أن السراج إذا انطفأ أظلم البيت كلُّه فالروح إذا انطفأ أظلم البدن كلُّه وفارقت أنوارُه التي كان يستفيدها من الروح وهي أنوار الإحساسات) الظاهرة والباطنة (والقُدَر) وهي القُوَىٰ (والإرادات وسائر ما يجمعه معنىٰ لفظ «الحياة». فهذا أيضًا رمز وجيز إلىٰ عالَم آخر من عوالم نعم الله تعالىٰ وعجائب صنعه و) بدائع (حكمته؛ ليُعلَم أنه لو كان البحر) مع سعته (مِدادًا) والشجر أقلامًا والبحر يمدُّها (لكلمات ربه) أي لإحصائها (لنفد البحر) أي فرغ وفني (قبل أن تنفذ كلماته) وفي بعض النسخ: قبل أن تنفد كلمات ربي ... الآية (فتعسًا لمَن كفر بالله تعسًا، وسحقًا لمَن كفر نعمتَه سحقًا) يقال[1]: تَعَس تعسًا،

(١) المصباح المنير ص ٧٥، ٢٦٨. مشارق الأنوار ١/ ١٢٣.

من حدِّ نفع: أكبَّ علىٰ وجهه وعثر، وقيل: هلك، وقيل: لزمه الشرُّ، فهو تاعس، وتَعِسٌ من حدِّ تعب لغة فيه، فهو تعيس، ويتعدَّىٰ هذا بالحركة وبالهمزة فيقال: تعسه اللهُ وأتعسه. والسُّحْق بالضم: البُعد، يقال في الدعاء: سحقًا له وبعدًا.

(**فإن قلتَ: فقد وصفتَ الروح ومثَّلتَه، ورسول الله ﷺ سُئل عن الروح**) وكان السائل له عنه طائفة من اليهود (**فلم يزدْ علىٰ أن قال: قُل الروح من أمر ربي. فلم [لم]**[1] **يصفْه لهم علىٰ هذا الوجه؟**) وهو[2] متفق عليه من حديث ابن مسعود، وقد تقدم في شرح عجائب القلب (**فاعلمْ أن هذه غفلة عن الاشتراك الواقع في لفظ الروح، فإن الروح تطلق لمعانٍ كثيرة لا نطيل بذكرها**) وقد ذكرنا شيئًا منها في شرح عجائب القلب (**ونحن إنما وصفنا من جملتها جسمًا لطيفًا**) بخاريًّا يتولَّد من الدم الوارد علىٰ القلب في البطن الأيسر منه (**تسميه الأطباء روحًا، وقد عرفوا صفته ووجوده وكيفية سريانه في الأعضاء وكيفية حصول الإحساس والقُوَىٰ في الأعضاء به**) وقسَّموه إلىٰ حيواني ونفساني وطبيعي (**حتىٰ إذا خدرَ بعضُ الأعضاء علموا أن ذلك لوقوع سدَّة في مَجرىٰ هذا الروح، فلا يعالجون موضع الخدر، بل**) ينظرون (**منابت الأعصاب ومواقع السدة فيها ويعالجونها بما يفتح السدة**) فيزول الخدر (**فإن هذا الجسم بلطفه ينفذ في شباك العصب، وبواسطته يتأدَّىٰ من القلب إلىٰ سائر الأعضاء**) علىٰ الوجه الذي تقدم ذِكرُه (**وما ترتقي إليه معرفةُ الأطباء فأمره سهل نازل**) الدرجة (**وأما الروح التي هي الأصل وهي التي إذا فسدت فسد لها سائرُ البدن فذلك سرٌّ من أسرار الله تعالىٰ**) المكتومة التي لا يطَّلع عليها إلا هو (**لم نصفْه، ولا رخصة في وصفه إلا بأن يقال: هو أمر ربانيٌّ، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾** [الإسراء: ٨٥] **والأمور الربَّانية لا تحتمل العقولُ وصفها**) ولا تمثيلها (**بل تتحيَّر فيها عقول أكثر الخلق، وأما الأوهام والخيالات فقاصرة عنها بالضرورة قصورَ البصر**

---

(١) من أ، وط المنهاج.

(٢) المغني للعراقي ٢/ ١٠٢٩.

عن إدراك الأصوات) فإنه من إدراكات السمع، والبصر قاصر عنه (وتتزلزل في ذكر مبادئ وصفِها معاقدُ العقول المقيَّدة بالجوهر والعَرَض، المحبوسة في مضيقهما، فلا يُدرَك بالعقل شيء من وصفه، بل بنور آخر أعلىٰ وأشرف من العقل، يشرق ذلك في عالَم النبوة والولاية) به تنكشف حقائقه (ونسبته إلىٰ العقل نسبة العقل إلىٰ الوهم والخيال، وقد خلق الله تعالىٰ الخلق أطوارًا) مختلفة (فكما يدرك الصبي المحسوسات ولا يدرك المعقولات لأن ذلك طور لم يبلغه بعدُ فكذلك يدرك البالغُ المعقولات ولا يدرك ما وراءها؛ لأن ذلك طور لم يبلغه، وإنه لَمقامٌ شريف ومَشرب عذب ورتبة عالية، فيها يلحظ جنابَ الحق تعالىٰ بنور الإيمان واليقين) ثم يختلف إدراك ذلك بحسب قوة الإيمان وضعفها (وذلك المشرب أعز من أن يكون شريعة لكل وارد، بل لا يطَّلع عليه إلا واحد بعد واحد) وفي نسخة: إلا واحدًا بعد واحد (ولجناب الحق تعالىٰ صدرٌ، وفي مقدمة الصدر مجال وميدان رحب) أي واسع (وعلىٰ أول الميدان عتبة هي مستقَر ذلك الأمر الرباني، فمَن لم يكن له علىٰ هذه العتبة جواز ولا لحافظ العتبة مشاهدة استحال أن يصل إلىٰ الميدان) وأن يكون من رجاله (فكيف بالانتهاء إلىٰ ما وراءه من المشاهدات العالية، ولذلك قيل: مَن لم يعرف نفسه) معرفة كلِّيةً (لم يعرف ربَّه) وهو المفهوم من قولهم: مَن عرف نفسه عرف ربه (وأنَّىٰ يصادَف هذا في خزانة الأطباء؟ ومن أين للطبيب أن يلاحظه؟ بل المعنىٰ الذي يسمَّىٰ روحًا عند الطبيب بالإضافة إلىٰ هذا الأمر الرباني كالكرة) في الميدان (التي يحركها صولجان الملك بالإضافة إلىٰ الملك، فمَن عرف الروح الطبيبي فظن أنه أدرك الأمر الرباني كان كمَن رأىٰ الكرة التي يحركها صولجان الملك فظن أنه رأىٰ الملك، ولا يُشك في أنه خطأ فاحش، وهذا الخطأ أفحش منه جدًّا، ولما كانت العقول التي بها يحصل التكليف وبها تُدرَك مصالح الدنيا عقولاً قاصرة عن ملاحظة كُنْه هذا الأمر لم يأذن الله تعالىٰ لرسوله ﷺ أن يتحدث عنه، بل أمره أن يكلم الناس علىٰ قدر عقولهم) كما ورد ذلك في الخبر (ولم يذكر الله تعالىٰ في كتابه من حقيقة هذا الأمر شيئًا، لكن ذكر نسبته وفِعله، ولم يذكر ذاته. أما

نسبته ففي قوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] وأما فعلُه فقد ذكره في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرۡضِيَّةً ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠].

ولنرجع الآن إلىٰ الغرض، فإن المقصود ذِكرُ نعم الله تعالىٰ في الأكل، فقد ذكرنا بعض نعم الله تعالىٰ في آلات الأكل) وبالله التوفيق.

(الطرف الرابع: في) بيان (نعم الله تعالىٰ في الأصول التي منها تحصل الأطعمة وتصير صالحة لأنْ يصلحها الآدميُّ بعد ذلك بصنعته) ومعالجته (اعلمْ) وفَّقك الله تعالىٰ (أن الأطعمة كثيرة، ولله تعالىٰ في خلقها عجائب كثيرة لا تُحصَىٰ وأسباب متوالية) أي متتابعة (لا تتناهَىٰ، وذِكرُ ذلك في كل طعام ممَّا يطول) بيانه (فإن الأطعمة) لا تخلو (إما أدوية وإما فواكه وإما أغذية، فلنأخذ الأغذية، فإنها الأصل) في قوام الأبدان (ولنأخذ من جملتها حبةَ من البُر) وهو أشرف الحبوب (ولندَع سائر الأغذية، فنقول: إذا وجدتَ حبة أو حبات فلو أكلتَها فنيتْ وبقيتَ جائعًا، فما أحوجك إلىٰ أن تنمو الحبة في نفسها وتزيد وتتضاعف حتىٰ تفي بتمام حاجتك، فخلق الله تعالىٰ في حبة الحنطة من القوىٰ ما تغتذي به كما خلق فيك) من تلك القوىٰ (فإن النبات إنما يفارقك في الحس والحركة، ولا يخالفك في الاغتذاء؛ لأنه يغتذي بالماء ويجتذبه إلىٰ باطنه بواسطة العروق) المستبطنة في الأرض (كما تغتذي أنت وتجتذب. ولسنا نطنب في ذِكر آلات النبات في اجتذاب الغذاء إلىٰ نفسه ولكن نشير إلىٰ غذائه فنقول: كما أن الخشب والتراب لا يغذيك بل تحتاج إلىٰ طعام مخصوص فكذلك الحبة لا تغتذي بكل شيء، بل تحتاج إلىٰ شيء مخصوص، بدليل أنك لو تركتَها في البيت لم تزد؛ لأنه ليس يحيط بها إلا هواء، ومجرد الهواء لا يصلُح لغذائها، ولو تركتَها في الماء لم تزد، ولو تركتَها في أرض لا ماء فيها لم تزد) أيضًا (بل لا بد من أرض فيها ماء يمتزج ماؤها بالأرض فيصير طينًا) رخوًا (وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ) في جملة تعدُّد النعم: (﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ

طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾) أي من السحاب (﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾) ونسبة الشق إليه مجاز (﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾ [عبس: ٢٤ - ٣١] ثم لا يكفي الماء والتراب؛ إذ لو تُركت في أرض نديَّة) بالماء لكنها (صلبة متراكمة لم تنبُت لفقدِ الهواء، فيُحتاج إلىٰ تركها في أرض رخوة متخلخلة يتغلغل الهواء إليها، ثم الهواء لا يتحرك إليها بنفسه، فيُحتاج إلىٰ ريح تحرك الهواء وتضربه بقهر وعنف علىٰ الأرض حتىٰ ينفذ فيها، وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾) [الحجر: ٢٢] أي ذات لقاح، وقد ألقحت الريحُ السحابَ (وإنما إلقاحها في إيقاع الازدواج بين الهواء والماء والأرض. ثم كل ذلك لا يغنيك لو كان في برد مفرط أو شتاء شاتٍ، فتحتاج إلىٰ حرارة الربيع والصيف.

فقد بان احتياجُ غذائه إلىٰ هذه الأربعة، فانظر إلىٰ ماذا يحتاج كل واحد؛ إذ يحتاج الماءَ لينساق إلىٰ أرض الزراعة من البحار والعيون والأنهار والسواقي، فانظر كيف خلق الله البحار وفجَّر العيون وأجرىٰ منها الأنهارَ. ثم الأرض ربما تكون مرتفعة والمياه لا ترتفع إليها) لغور العيون والأنهار في الأرض (فانظر كيف خلق الله تعالىٰ الغيوم، وكيف سلَّط الرياح عليها لتسوقها بإذنه إلىٰ أقطار العالَم، وهي سحب ثقال حوامل بالماء، ثم انظر كيف يرسله مِدرارًا علىٰ الأراضي في وقت الربيع والخريف علىٰ حسب الحاجة) إليه (وانظر كيف خلق الجبال حافظة للمياه تتفجَّر منها العيون تدريجًا، فلو خرجتْ دفعةً لغرقت البلاد وهلك الزرع والمواشي. ونعم الله في الجبال والسحاب والبحار والأمطار لا يمكن إحصاؤها، وأما الحرارة فإنها لا تحصل بين الماء والأرض، وكلاهما باردان) طبعًا (فانظر كيف سخَّر الشمس، وكيف خلقها مع بُعدها عن الأرض) إذ هي في الفلك الرابع (مسخِّنة للأرض في وقت دون وقت؛ ليحصل البرد عند الحاجة إلىٰ البرد، و) يحصل (الحر عند الحاجة إلىٰ الحر. فهذه إحدىٰ حِكَم الشمس، والحِكَم فيها أكثر من أن تُحصَىٰ. ثم النبات إذا ارتفع عن الأرض كان في الفواكه انعقادٌ وصلابة فتفتقر إلىٰ رطوبة تنضجها، فانظر كيف خلق القمر وجعل من خاصِّيته الترطيب كما جعل من خاصية الشمس

التسخين، فهو يُنضِج الفواكهَ ويصبغها) أي يلوِّنها ألوانًا مختلفة (بتقدير الفاطر الحكيم) جلَّ جلاله، فالشمس طبَّاخ، والقمر صبَّاغ (ولذلك لو كانت الأشجار في ظل يمنع شروق الشمس والقمر وسائر الكواكب عليها لكانت فاسدة ناقصة) لا يُنتفَع بها (حتىٰ إن الشجرة الصغيرة تَفسد إذا أظلَّتها شجرةٌ كبيرة) حتىٰ إن بعض أغصانها البارزة إلىٰ السماء أحسن وأنور من التي تحت الظلال (وتعرف ترطيب القمر بأن تكشف له رأسك بالليل) عند نومك (فتغلب علىٰ رأسك الرطوبةُ التي يعبَّر عنها بالزُّكام) وهو عندهم عبارة عن تحلُّب فضول رطْبة من بطنَي الدماغ المقدَّمين إلىٰ المنخرين[1] (فكما يرطِّب رأسَك يرطِّب الفاكهة أيضًا، ولا نطوِّل فيما لا مَطمع في استقصائه بل نقول: كل كوكب في السماء فقد سُخِّر لنوع فائدةٍ كما سُخِّرت الشمس للتسخين والقمر للترطيب، فلا يخلو واحد منها عن حِكَم كثيرة لا تفي قوة البشر بإحصائها، ولو لم يكن كذلك لكان خلقُها عبثًا وباطلاً ولم يصحَّ قوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا﴾ [آل عمران: ١٩١] و) كذا (قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الدخان: ٣٨] وكما أنه ليس في أعضاء بدنك عضو إلا لفائدة) خاصة (فليس في أعضاء بدن العالَم عضو إلا لفائدة) وحكمة (والعالَم كله) إذا تصوَّرتَه (كشخص واحد، وآحاد أجسامه كالأعضاء له، وهي متعاونة تعاون أعضاء بدنك في جملة بدنك، وشرح ذلك يطول.

ولا ينبغي أن تظن أن الإيمان بأن النجوم والشمس والقمر مسخَّرات بأمر الله) منقادات له (في أمور جُعلت أسبابًا لها بحكم الحكمة) الإلهية (مخالف للشرع لِما ورد فيه من النهي عن تصديق المنجِّمين) روىٰ أحمد[2] ومسلم[3] وأبو داود[4]

---

(١) ذكره الفيروزآبادي في القاموس المحيط. تاج العروس ٣٢/ ٣٢١.

(٢) مسند أحمد ٢٤/ ٤٣٢، ٣٩/ ١٧٥، ١٨٠، ١٨١، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦.

(٣) صحيح مسلم ١/ ٢٤٣، ٢/ ١٠٦١.

(٤) سنن أبي داود ٢/ ٣٣.

والنسائي[1] من حديث معاوية بن الحكم السلمي قال: قلت: يا رسول الله، أمورًا كنا نصنعها في الجاهلية، كنا نأتي الكهَّان. قال: «فلا تأتوا الكُهَّان ...» الحديث. قال ابن الأثير في النهاية[2]: إن منهم مَن كان يسمي الطبيب والمنجِّم كاهنًا. قلت: وبهذا يتم الاستدلالُ بالحديث **(وعن علم النجوم)** روىٰ أحمد[3] وأبو داود[4] وابن ماجه[5] بسند صحيح والبيهقي[6] من حديث ابن عباس: «مَن اقتبس علمًا من النجوم اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد». وللطبراني من حديث ابن مسعود وثوبان: «إذا ذُكرت النجوم فأمسِكوا». وإسنادهما ضعيف، وقد تقدم قريبًا وفي كتاب العلم **(بل المنهيُّ عنه في النجوم أمران، أحدهما: أن تصدِّق بأنها فاعلة لآثارها مستقلَّة بها، وأنها ليست مسخَّرة تحت تدبير مدبِّرٍ خلقها وقهرها، وهذا كفرٌ)** والعياذ بالله منه **(والثاني: تصديق المنجِّمين في تفصيل ما يخبرون عنه من الآثار التي لا يشترك كافة الخلق في دركها؛ لأنهم يقولون ذلك عن جهل، فإنَّ علم أحكام النجوم كانت معجزة لبعض الأنبياء)** قيل: هو إدريس، وقيل: هو دانيال **(عليهم السلام، ثم اندرس ذلك العلم)** وانمحىٰ بانقطاع نبوَّته، وقد ورد مثل ذلك في الخط، روىٰ أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي من حديث معاوية ابن الحكم السُّلَمي[7] قال: قلت: يا رسول الله، إنَّا حديث عهد بجاهلية، وقد جاء الله بالإسلام ... إلىٰ أن قال: ومنا رجال يخطُّون. فقال: «كان نبي من الأنبياء يخط، فمَن وافق خطَّه فذاك» **(فلم يبقَ إلا ما هو مختلط لا يتميَّز فيه الصواب عن الخطأ،**

---

(١) سنن النسائي ص ١٩٨.

(٢) النهاية ٤/ ٢١٥.

(٣) مسند أحمد ٣/ ٤٥٤، ٥/ ٤١.

(٤) سنن أبي داود ٤/ ٣٣٩.

(٥) سنن ابن ماجه ٥/ ٢٩٤.

(٦) السنن الكبرىٰ ٨/ ٢٣٩.

(٧) وهو جزء من حديثه الذي مر قريبا في إتيان الكهان.

فاعتقاد كون الكواكب أسبابًا لآثار تحصل بخلق الله تعالىٰ في الأرض وفي النبات والحيوان ليس بقادح في الدين، بل هو الحق) عند أهل الحق **(ولكن دعوىٰ العلم بتلك الآثار علىٰ التفصيل مع الجهل قادحٌ في الدين)** إذ قد سُدَّ بابه بموت ذلك النبي الذي كان ذلك عَلَمًا علىٰ نبوَّته **(وكذلك إذا كان معك ثوب غسلتَه وتريد تجفيفه فقال لك غيرك: أخرِج الثوب وابسطْه فإن الشمس قد طلعت وحميَ النهارُ والهواء، لا يلزمك تكذيبُه، ولا يلزمك الإنكارُ عليه بحوالته حموَّ الهواءِ علىٰ طلوع الشمس. وإذا سألتَ عن تغيُّر وجه الإنسان)** أي عن انقلاب لونه **(فقال: قرعتني الشمس)** أي ضربتني بحرِّها وأنا سالك **(في الطريق)** فأثَّرت **(فاسودَّ وجهي)** وفيه يقول الشاعر:

جاء الحبيب الذي أهوىٰ من السفر والشمس قد أثَّرت في وجهه أثرًا[1]

(لم يلزمك تكذيبُه بذلك، وقِسْ بهذا سائرَ الآثار، إلا أن الآثار بعضها معلوم، وبعضها مجهول، فالمجهول لا تجوز دعوىٰ العلم فيه) ولا القول بحدس وتخمين **(والمعلوم بعضه معلوم للناس كافةً كحصول الضياء والحرارة بطلوع الشمس، وبعضه)** معلوم **(لبعض الناس كحصول الزكام بشروق القمر)** عند تعرية الرأس **(فإذًا الكواكب ما خُلقت عبثًا، بل فيها حِكَم كثيرة لا تُحصَىٰ، ولهذا نظر رسول الله ﷺ إلىٰ السماء وقرأ قوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ الآية** [آل عمران: ١٩١]

---

(١) لم أقف علىٰ قائل هذا البيت، وبعض المراجع الشيعية تنسبه إلىٰ خديجة أم المؤمنين ﵂ في مدح النبي ﷺ، وبعده بيت آخر:

عجبت للشمس من تقبيل وجنته والشمس لا ينبغي أن تدرك القمرا

انظر: بحار الأنوار للمجلسي ١٦/ ٤٩. وفي كتاب نفح الطيب للتلمساني ٤/ ١٦٢: قال أبو الحسين البلنسي الصوفي: كان لي صديق أمي لا يقرأ ولا يكتب، فعلق فتىٰ، وكان خرج لنزهة فأثرت الشمس في وجهه، فأعجبه ذلك وأنشد:

رأيت أحمد لما جاء من سفر والشمس قد أثرت في وجهه أثرا
فانظر لما أثرته الشمس في قمر والشمس لا ينبغي أن تدرك القمرا

ثم قال: ويلٌ لمَن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سَبَلته) محرَّكة، وهو ما أُسبِل من اللحية (ومعناه: أن يقرأ ويترك التأمُّل) فيها (ويقتصر من فهم ملكوت السموات علىٰ أن يعرف لون السماء وضوء الكواكب، وذلك ممَّا تعرفه البهائم أيضًا، فمن قنع منه بمعرفة ذلك فهو الذي مسح بها سَبَلته) قال العراقي[١]: رواه الثعلبي من حديث ابن عباس[٢] بلفظ: ولم يتفكَّر فيها. وفيه أبو جناب يحيىٰ بن أبي حية، ضعيف.

قلت: ورواه عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه وابن أبي الدنيا في التفكُّر وابن حبان في صحيحه وابن عساكر من رواية عطاء قال: قلت لعائشة: أخبريني بأعجب ما رأيتِ من رسول الله ﷺ ... الحديث بطوله، وقد تقدم ذِكرُه قريبًا في بيان فضيلة الشكر، وفي آخره: «ولِمَ لا أفعل وقد أنزل الله عليَّ هذه الليلة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية ثم قال: «ويلٌ لمَن قرأها ولم يتفكَّر فيها». وقد أشار العراقي هناك أنه أخرجه أبو الشيخ في كتاب أخلاق رسول الله ﷺ، ومن طريقه ابن الجوزي. وروىٰ الديلمي[٣] من حديث عائشة: «ويلٌ لمَن قرأ هذه الآية ثم لم يتفكَّر فيها». يعني ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية.

وروىٰ[٤] ابن أبي الدنيا في التفكُّر عن سفيان رفعه: «مَن قرأ آخر سورة آل عمران فلم يتفكَّر فيها ويله». فعدَّ بأصابعه عشرًا. قيل للأوزاعي: ما غاية التفكُّر فيهن؟ قال: يقرؤهن وهو يعقلهن.

(فلله تعالىٰ في ملكوت السماء والآفاق والأنفُس والحيوانات عجائب يطلب معرفتها المحبُّون لله تعالىٰ، فإنَّ مَن أحب عالمًا فلا يزال مشغولاً بطلب تصانيفه؛ ليزداد بمزيد الوقوف علىٰ عجائب علمه) وغرائبه (حبًّا له، فكذلك الأمر

---

(١) المغني ٢/ ١٠٣٠.

(٢) بل رواه من حديث عائشة. الكشف والبيان للثعلبي ٩/ ٥٤٣ - ٥٤٤ (ط - دار التفسير بجدة).

(٣) الفردوس بمأثور الخطاب ٤/ ٤٠٠.

(٤) الدر المنثور ٤/ ١٨١ - ١٨٢.

في عجائب صنع الله تعالىٰ، فإن العالَم كله من تصنيفه) وتركيبه علىٰ أبدع نظام (بل تصنيف المصنِّفين) من عِباده (من تصنيفه الذي صنَّفه بواسطة قلوب عباده) فإنه الذي ألهم ذلك وأرشد إليه (فإن تعجَّبتَ من تصنيف فلا تتعجب من المصنِّف بل من الذي سخَّر المصنِّف لتأليفه بما أنعم عليه من هدايته وتسديده) وتوفيقه (وتعريفه) إيَّاه، ولولا ذلك لَما تم له التصنيف (كما إذا رأيت لُعَب) بضم ففتح، جمع لعبة (المشعوذ) وهي التي تُعمَل من خِرَق علىٰ هيئة بني آدم (ترقص وتتحرك) وتقوم وتقعد (حركات موزونة متناسبة فلا تعجب من اللُّعَب، فإنها خِرَق محرَّكة) يحركها غيرُها (لا متحركة) بأنفسها (ولكن تعجَّب من حِذق المشعوذ المحرِّك لها بروابط) شَعرية (دقيقة خفيَّة عن الأبصار.

فإذًا المقصود أن غذاء النبات لا يتم إلا بالماء والهواء والشمس والقمر والكواكب، ولا يتم ذلك إلا بالأفلاك التي هي مركوزة فيها، ولا تتم الأفلاكُ إلا بحركاتها، ولا تتم حركاتُها إلا بملائكة سماوية يحركونها) بأمر الله سبحانه (وكذلك يتمادىٰ ذلك إلىٰ أسباب) أُخَر (بعيدة) يتوقَّف عليها (تركنا ذِكرها تنبيهًا بما ذكرناه علىٰ ما أهملناه) أي تركناه (ولنقتصر علىٰ هذا) القدْر (من ذكر أسباب غذاء النبات) وبالله التوفيق.

(الطرف الخامس: في) بيان (نعم الله تعالىٰ في الأسباب الموصلة للأطعمة إليك. اعلمْ) أرشدك الله تعالىٰ (أن هذه الأطعمة كلها لا توجد في كل مكان، بل لها شروط مخصوصة لأجلها توجد في بعض الأماكن دون بعض، والناس منتشرون علىٰ وجه الأرض) شرقها وغربها وشَمالها وجنوبها (وقد تبعُد عنهم الأطعمةُ) ولا يمكنهم تحصيلها (وتحول بينهم وبينها البحار والبَراري، فانظر كيف سخَّر الله التجار وسلَّط عليهم حرص حب المال وشَرَه الربح، مع أنهم لا يغنيهم في غالب الأمر شيئًا، بل يجمعون، فإما أن تغرق بها) أي بتلك الأطعمة (السفن) إن كانوا في البحر (أو ينهبها قُطَّاع الطريق) إن كانوا في البر (أو يموتون في بعض البلاد فيأخذها

السلاطين) ظلمًا وعدوانًا (وأحسن أحوالهم أن يأخذها ورثتهم، وهم أشد أعدائهم لو عرفوا) فإنهم يتمنَّون موته لأجل المال (فانظر كيف سلَّط الله الجهل والغفلة عليهم حتىٰ يقاسوا الشدائد في طلب الربح ويركبوا الأخطار) أي الأمور الصعبة (ويغرروا بالأرواح في ركوب البحر فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من أقصىٰ الشرق والغرب إليك، فانظر كيف علَّمهم الله تعالىٰ صناعة السفن) وهي عِلم مستقلٌّ (وكيفية الركوب فيها) وتمشيتها فوق الماء بالمجاديف (وانظر كيف خلق الحيوانات) بأنواعها (وسخَّرها للركوب والحمل في البراري) كما أشار إليه قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًاۚ﴾ [الأنعام: ١٤٢] وقوله تعالىٰ: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِۚ﴾ [النحل: ٧] (فانظر إلىٰ الإبل كيف خُلقت، وإلىٰ الفرس كيف أُمدَّتْ بسرعة الحركة) في الركض (وإلىٰ الحمار كيف جُعل صبورًا علىٰ التعب، وإلىٰ الجمال كيف تقطع البراري وتطوي المراحل تحت الأعباء) أي الأحمال (الثقيلة علىٰ الجوع والعطش، وانظر كيف سيَّرهم الله تعالىٰ بواسطة السفن والحيوانات في البر والبحر ليحملوا إليك الأطعمة وسائر الحوائج) ولولا ذلك وكُلِّفت أنت ذلك لتعبتَ تعبًا شديدًا (وتأمَّل ما تحتاج إليه الحيوانات من أسبابها وأدواتها وعلفها، وما تحتاج إليه السفن، فقد خلق الله جميع ذلك إلىٰ حدِّ الحاجة وفوق الحاجة، وإحصاء ذلك غير ممكن، ويتمادىٰ ذلك إلىٰ أمور خارجة عن الحصر نرىٰ تركها) الآن (طلبًا للإيجاز) وبالله التوفيق.

(الطرف السادس: في) بيان (إصلاح الأطعمة. اعلمْ) أرشدك الله تعالىٰ (أن الذي ينبُت في الأرض من النبات وما يُخلَق من الحيوانات لا يمكن أن يُقضَم ويؤكل وهو كذلك، بل لا بد في كل واحد من إصلاح وطبخ وتركيب وتنظيف بإلقاء البعض وإبقاء البعض .. إلىٰ أمور أُخَر لا تُحصَىٰ، واستقصاء ذلك في كل طعام يطول، فلنعيِّن رغيفًا واحدًا، ولننظر إلىٰ ما يحتاج إليه الرغيف الواحد حتىٰ يستدير ويصلُح للأكل من بعد إلقاء البذر في الأرض، فأول ما يحتاج إليه الحَرَّاث

ليزرع ويُصلِح الأرضَ، ثم الثور الذي به يثير الأرض، والفدَّان) وهو الخشب الذي يوضَع علىٰ عنقَي الثورين **(وجميع أسبابه)** وآلاته **(ثم بعد ذلك التعهُّدُ بسقي الماء مدةً)** معلومة **(ثم تنقية الأرض من الحشيش)** الذي ينبُت في أصول الزرع، فإنَّ تركه ممَّا يُضعِف قوةَ الزرع وقوة الأرض **(ثم الحصاد)** بالمناجل **(ثم الفرك)** حتىٰ تخلُص الحبةُ من قشرها **(والتنقية)** ممَّا يجاوره **(ثم الطحن)** بين الحجرين **(ثم العجن)** بالماء **(ثم الخَبْز)** في التنُّور **(فتأملْ عدد هذه الأفعال التي ذكرناها وما لم نذكره وعدد الأشخاص القائمين بها وعدد الآلات التي يُحتاج إليها من الحديد والخشب والحجر وغيرها، وانظر إلىٰ أعمال الصُّنَّاع في إصلاح آلات الحراثة والطحن والخَبْز من نجار وحدَّاد وغيرهما، وانظر إلىٰ حاجة الحداد إلىٰ الحديد والرَّصاص والنحاس)** منفردًا ومجموعًا **(وانظر كيف خلق الله تعالىٰ الجبال والأحجار والمعادن)** التي يُستخرَج منها كل ما ذُكر **(وكيف جعل الأرض قِطَعًا متجاورات مختلفة، فإن فتَّشتَ علمت أن رغيفًا واحدًا لا يستدير بحيث)** يُحصَر بين يديك و**(يصلُح لأكلك يا مسكين ما لم يعمل عليه أكثر من ألف صانع، فابتدأ من الملَك الذي يزجي)** أي يسوق **(السحاب لينزل الماء)** علىٰ الأرض التي أُمِر بها **(إلىٰ آخر الأعمال من جهة الملائكة حتىٰ تنتهي النوبة إلىٰ عمل الإنسان، فإذا استدار طلبه قريبٌ من سبعة آلاف صانع، كل صانع أصلٌ من أصول الصنائع التي بها تتم مصلحةُ الخلق)** ويكمُل نظامُهم، وقد تقدم أن أصول الصناعات التي لا قوام للعالَم دونها أربعة: الزراعة والحياكة والبناية والسياسة، ومنها ما هي مرشحة لكل واحد [من هذه] وخادمة له، كالحِدادة للزراعة، والقصارة والخياطة للحياكة، ويدخل تحت كل قسم من ذلك أنواع لا تُحصَىٰ. وفي القوت: يقال إن الرغيف لا يستدير حتىٰ يعمل فيه ثلاثمائة وستون صنعة من السماء والأرض وما بينهما من الأجسام والأعراض والأفلاك والرياح والليل والنهار وبني آدم وصنائعهم والبهائم ومعادن الأرض، أولها ميكائيل الذي يكيل الماء من الخزائن فيفرغه علىٰ السحاب، ثم السحاب التي تحمله وترسله، ثم الرياح التي تحمل السحاب،

والرعد والبرق، والملَكان اللذان يسوقان السحاب، وآخرها الخبَّاز، فإذا استدار رغيف طلبه سبعة آلاف صانع، كل صانع أصلٌ من أصول الصنائع، فهذه كلها نعم في حضور رغيف فكيف بما زاد عليه ممَّا وراءه **(ثم تأملْ كثرة أعمال الإنسان في تلك الآلات، حتىٰ إن الإبرة التي هي آلة صغيرة فائدتها خياطة اللباس الذي يمنع البرد عنك)** في الوقت الشاتي **(لا تكمُل صورتُها من حديدة تصلُح للإبرة إلا بعد أن تمر علىٰ يد الإبَريِّ)** بكسر الهمزة ففتح، منسوب إلىٰ الإبَر جمع الإبرة **(خمسًا وعشرين مرة، ويتعاطَىٰ في كل مرة منها عملاً)** مستقلاً **(فلو لم يجمع الله تعالىٰ البلاد)** وفي نسخة: العِباد **(ولم يسخِّر العباد وافتقرتَ إلىٰ عمل المِنجل)** بكسر الميم **(الذي تحصد به البُر مثلاً بعد نباته)** وتهيئته لأنْ يُحصَد **(لنفد عمرُك)** أي فنيَ وذهب **(وعجزتَ عنه، أفلا ترىٰ كيف هدىٰ الله عبده الذي خلقه من نطفة قذرة)** أي متغيِّرة **(لأنْ يعمل هذه الأعمال العجيبة والصنائع الغريبة)** وهذا يدل علىٰ أن أصول الصناعات والمكاسب مأخوذة من وحي إما بسماع من الملأ الأعلىٰ، وهذا هو الحق، أو بإلهام من الله تعالىٰ في قلبه **(فانظر إلىٰ المِقراض مثلا وهما جُلَّمان متطابقان ينطبق أحدهما علىٰ الآخر فيتناولان الشيء معًا ويقطعانه بسرعة)** وأصل[1] الجَلْم: القطع، ومنه: الجَلَم محرَّكة: المِقراض، ويقال له أيضًا: الجَلَمان، بالتثنية، كما يقال فيه: المقراض والمقراضان، والقَلَم والقَلَمان، ويجوز أن يُجعَل الجلمان والقلمان اسمًا واحدًا علىٰ فَعَلان كالسرطان والدَّبَران وتُجعَل النون حرف إعراب، ويجوز أن يبقيا علىٰ بابهما في إعراب المثنَّىٰ **(ولو لم يكشف الله تعالىٰ طريق اتخاذه بفضله وكرمه لمَن قبلنا)** من أهل الحكمة **(وافتقرنا إلىٰ استنباط الطريق فيه بفكرنا ثم إلىٰ استخراج الحديد من الحجر)** بالإذابة **(وإلىٰ تحصيل الآلات التي بها يُعمَل المِقراض وعُمِّرَ الواحد منا)** دهرًا طويلاً مثل **(عمر نوح)** عليه السلام **(وأوتي أكمل العقول لقصر عمرُه عن استنباط الطريق في إصلاح هذه الآلة وحدها فضلاً عن**

---

(١) المصباح المنير ص ١٠٦.

غيرها) ويقال: إن الحكيم الذي استنبط طريق عمل المِقراض لمَّا أتمَّ عمله مات فرحًا (فسبحان مَن ألحق ذوي الأبصار بالعميان، وسبحان مَن منع التبيين مع هذا البيان، فانظر الآن لو خلا بلدُك عن الطحَّان مثلاً أو عن الحدَّاد أو عن الحَجَّام الذي هو أخسُّ الأعمال أو عن الحائك أو عن واحد من جملة الصُّنَّاع ماذا يصيبك من الأذىٰ) والتعب (وكيف تضطرب عليك أمورُك كلُّها) ولا ينتظم حالك (فسبحان مَن سخَّر بعض العباد لبعض حتىٰ نفذت به مشيئته وتمَّت به حكمتُه.

ولنوجز القول في هذه الطبقة أيضًا، فإن الغرض التنبيه علىٰ النعم دون الاستقصاء) وبالله التوفيق.

(الطرف السابع: في) بيان (إصلاح المصلحين. اعلمْ) هداك الله تعالىٰ (أن هؤلاء الصُّنَّاع المصلحين للأطعمة) خصوصًا (وغيرها) عمومًا (لو تفرَّقت آراؤهم وتنافرت طباعهم تنافُرَ طباع الوحش لتبدَّدوا وتباعدوا ولم ينتفع بعضهم ببعض، بل كانوا كالوحوش لا يحويهم مكانٌ واحد، ولا يجمعهم غرض واحد، فانظر كيف ألَّف الله تعالىٰ بين قلوبهم) مع اختلاف أشكالهم وأجناسهم (وسلَّط الأنس والمحبة عليهم، ولو أنفقتَ ما في الأرض) من الأموال (جميعًا ما ألَّفتَ بين قلوبهم ولكن الله ألَّف بينهم، فلأجل) هذا (الإلف وتعارُف الأرواح اجتمعوا وائتلفوا) وتعاونوا (وبنوا المدن والبلاد) والقرىٰ (ورتَّبوا المساكن والدُّور متقاربة متجاورة) بعضها بقرب بعض (ورتَّبوا الأسواق) لمعاملاتهم (والخانات) لسكنىٰ مَن يَرِدُ عليهم (وسائر أصناف البقاع) كالحمَّامات وغيرها (ممَّا يطول إحصاؤه. ثم هذه المحبة) قد (تزول بأغراض يتزاحمون عليها ويتنافسون فيها، ففي جِبِلَّة الإنسان الغيظ والحسد) والأَنَفة (والمنافسة، وذلك ممَّا يؤدي إلىٰ التقاتل والتنافر، فانظر كيف سلَّط الله تعالىٰ السلاطين) والملوك والأمراء (وأمدَّهم بالقوة) الظاهرة (والعُدَّة) من السلاح وغيره (والأسباب) والآلات (وألقىٰ رعبهم في قلوب الرعايا حتىٰ أذعنوا لهم طوعًا وكرهًا) ولم يخالفوهم فيما يأمرونهم (و) انظر (كيف هدىٰ

السلاطين إلىٰ طريق إصلاح البلاد حتىٰ رتَّبوا أجزاء البلد كأنَّها أجزاء شخص واحد تتعاون علىٰ غرض واحد ينتفع البعض منها بالبعض، فرتَّبوا الرؤساء) وهم الأمراء (والقضاة والشِّحَن) جمع شِحْنة بالكسر، وهو الحاكم علىٰ البلد[1] (وزعماء الأسواق) والمحلاَّت، وهم رؤساؤها (واضطروا الخلقَ) أي ألجأوهم (إلىٰ قانون العدل، وألزموهم التساعُدَ والتعاون حتىٰ صار الحداد ينتفع بالقَصَّاب والخبَّاز وسائر أهل البلد، وكلهم ينتفعون بالحداد، وصار الحَجَّام ينتفع بالحَرَّاث، والحَرَّاث بالحَجَّام، وينتفع كل واحد بكل واحد بسبب ترتيبهم واجتماعهم وانضباطهم تحت ترتيب السلطان وجمعِه كما يتعاون جميع أعضاء البدن وينتفع بعضها ببعض. وانظر كيف بعث الأنبياء) والرسل (عليهم السلام حتىٰ أصلحوا السلاطين المصلحين للرَّعايا، وعرَّفوهم قوانين الشرع في حفظ العدل بين الخلق وقوانين السياسة في ضبطهم) وترتيبهم (وكشفوا من أحكام الإمامة والسلطنة وأحكام الفقه ما اهتدوا به إلىٰ إصلاح الدنيا فضلاً عمَّا أرشدوهم إليه من إصلاح الدين، وانظر كيف أصلح الله الأنبياء بالملائكة) عليهم السلام (وكيف أصلح الملائكة بعضهم ببعض إلىٰ أن ينتهي إلىٰ الملَك المقرَّب الذي لا واسطة بينه وبين الله تعالىٰ) وهو إسرافيل عليه السلام (فالخبَّاز يخبز العجين، والطحَّان يُصلِح الحبَّ بالطحن، والحَرَّاث يصلحه بالحصاد، والحداد يُصلِح آلات الحراثة، والنجار يُصلِح آلات الحداد، وكذا جميع أرباب الصناعات المصلحين لآلات الأطعمة، والسلطان يُصلِح الصُّنَّاع) بعدله فيهم (والأنبياء يصلحون العلماءَ الذين هم ورثتهم) لِما ورد: «العلماء ورثة الأنبياء» (والعلماء يصلحون السلاطين) كما قال القائل:

إن الملوك لَيحكمون علىٰ الورىٰ وعلىٰ الملوك لتحكم العلماءُ[2]

---

(١) هو من فيه الكفاية للضبط من جهة السلطان، وقال ابن بري: قول العامة في الشحنة إنه الأمير غلط. وانظر: تاج العروس ٣٥/ ٢٦٥، ٢٦٦، التنبيه لابن بري ٥/ ٢٦٩.

(٢) تقدم هذا البيت في آخر كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن برواية:

ومجمل القول فيه: أن(١) السياسة أربعة أضرُب، الأول: سياسة الأنبياء، وحكمهم على العامة والخاصة ظاهرهم وباطنهم. والثاني: سياسة الولاة، وحكمهم على ظاهر الخاصة والعامة دون باطنهم. والثالث: الحكماء، وحكمهم على باطن الخواص. والرابع: الفقهاء والوُعَّاظ، وحكمهم على بواطن العامة **(والملائكة يصلحون الأنبياءَ)** عليهم السلام، وهكذا الأمر **(إلى أن ينتهي إلى حضرة الربوبية التي هي ينبوع كل نظام ومَطلع كل حُسن وجمال ومنشأ كل ترتيب وتأليف، وكل ذلك نعم من رب الأرباب ومسبِّب الأسباب)** جلَّ شأنه **(ولولا فضله وكرمه إذ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾)** أي لأجلنا (﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩] **لَما اهتدينا إلى معرفة هذه النبذة اليسيرة من نعم الله تعالى، ولولا عزله إيَّانا عن أن نطمح بعين الطمع إلى الإحاطة بكُنْه نعمه لتشوّفنا إلى طلب الإحاطة والاستقصاء)** وطلبِ الغايات **(ولكنه تعالى عزلنا بحكم القهر والقدرة فقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [النحل: ١٨] فإن تكلمنا فبإذنه انبسطنا، وإن سكتنا فبقهره انقبضنا؛ إذ لا معطي لِما منع، ولا مانع لِما أعطى؛ لأنَّا في كل لحظة من لحظات العمر قبل الموت نسمع بسمع القلوب نداء الملك الجبَّار: لمَن المُلك اليوم؟ لله الواحد القهَّار)** وهو(٢) إشارة إلى مقام العارفين الذين ترقَّوا من حضيض المجاز إلى ارتفاع الحقيقة واستكملوا معراجهم فرأوا بالمشاهدة العيانية أن ليس في الوجود إلا الله، وأن كل شيء هالك إلا وجهه، ولم يفتقر هؤلاء إلى قيام القيامة ليسمعوا النداء المذكور، بل هذا النداء لا يفارق سمعَهم أبدًا **(فالحمد لله الذي ميَّزنا عن الكفار وأسمعنا هذا النداءَ قبل انقضاء الأعمار)** وبالله التوفيق.

(الطرف الثامن: في بيان نعمة الله تعالى في خلق الملائكة عليهم السلام) اعلمْ

إن الأكابر يحكمون على الورى   وعلى الأكابر تحكم العلماء

(١) الذريعة للراغب ص ١٨٢، ٢٧١.

(٢) مشكاة الأنوار ص ٥٨.

أنه (**ليس يخفىٰ عليك ما سبق من نعمة الله في خلق الملائكة بإصلاح الأنبياء عليهم السلام وهدايتهم وتبليغ الوحي إليهم**) بالأمانة (**ولا تظنن أنهم مقتصرون في أفعالهم علىٰ ذلك القدر**) يقال: أقصر واقتصر، بمعنًىٰ واحد (**بل طبقات الملائكة مع كثرتها وترتيب مراتبها تنحصر بالجملة في ثلاث طبقات: الملائكة الأرضية، والسماوية، وحَمَلة العرش**) قال المصنِّف في مشكاة الأنوار[1]: قد انكشف لأرباب البصائر أن الأنوار الملكوتية وُجدت علىٰ ترتيب بعضها أعلىٰ من بعض، وأن المقرَّب هو الأقرب إلىٰ النور الأقصىٰ، فلا يبعُد أن تكون رتبة إسرافيل فوق رتبة جبريل عليهما السلام، وأن فيهم الأقرب بقرب درجته من حضرة الربوبية التي هي منبع الأنوار كلها، وأن فيهم الأدنىٰ، وبينهما درجات تستعصي علىٰ الإحصاء، وإنما المعلوم كثرتهم وترتيبهم في مقاماتهم وصفوفهم (**فانظر كيف وكَّلهم الله تعالىٰ بك فيما يرجع إلىٰ الأكل والغذاء الذي ذكرناه دون ما يجاوز ذلك من الهداية والإرشاد وغيرهما.**

واعلمْ أن كل جزء من أجزاء بدنك - بل من أجزاء النبات - لا يغتذي إلا بأن يوكَّل به سبعة من الملائكة هو أقلُّه إلىٰ عشرة إلىٰ مائة إلىٰ ما وراء ذلك) ممَّا لا نهاية له (**وبيانه: أن معنىٰ الغذاء أن يقوم جزء من الغذاء مقام جزء قد تلف**) وهلك (**وذلك الغذاء يصير دمًا**) صالحًا (**في آخر الأمر**) وذلك بعد الهُضوم الأربعة علىٰ الترتيب الذي ذكرناه آنفًا (**ثم يصير**) ذلك الدم الحاصل من الغذاء (**لحمًا وعظمًا، وإذا صار لحمًا وعظمًا تمَّ اغتذاؤك، واللحم والدم أجسام ليست لها قدرة ومعرفة واختيار، فهي لا تتحرك بأنفُسها، ولا تتغير بأنفسها، ومجرد الطبع لا يكفي في تردُّدها في أطوارها**) السبعة (**كما أن البُر بنفسه لا يصير دقيقًا ثم عجينًا ثم خبزًا مستديرًا مخبوزًا إلا بصُنَّاع، فكذلك الدم بنفسه لا يصير لحمًا وعظمًا وعِرقًا وعصبًا ومخًّا إلا بصنَّاع، والصناع في الباطن هم الملائكة، كما أن الصناع في الظاهر**

---

(١) السابق ص ٥٥.

هم أهل البلد، وقد أسبغ الله عليك نعمه ظاهرة وباطنة، فلا ينبغي أن تغفل عن نعمه الباطنة) وقد اختُلف في تفسير النعم الظاهرة والباطنة على أقوال، وأشار إليها التاج السبكي في معيد النعم، وألَّف فيها الجلال السيوطي رسالة[1] ذكر فيها ما أورده السبكيُّ وزاد (**فأقول: لا بد من ملَك يجذب الغذاء إلىٰ جوار اللحم والعظم، فإن الغذاء لا يتحرك بنفسه، بل لا بد من ملَك آخر يمسك الغذاء في جواره، ولا بد من ثالث يخلع عنه صورة الدم، ولا بد من رابع يكسوه صورة اللحم والعروق والعظم)** والعصب (**ولا بد من خامس يدفع الفضل الفاضل عن حاجة الغذاء)** إلىٰ مخارج البراز (**ولا بد من سادس يلصق ما اكتسب صفة العظم بالعظم وما اكتسب صفة اللحم باللحم حتىٰ لا يكون منفصلاً، ولا بد من سابع يرعىٰ المقادير في الإلصاق فيُلحِق بالمستدير ما لا يُبطِل استدارتَه، وبالعريض ما لا يزيل عرضه، وبالمجوَّف ما لا يطيل تجويفَه، ويحفظ علىٰ كل واحد قدر حاجته، فإنه لو جمع مثلاً من الغذاء علىٰ أنف الصبي ما يجمع علىٰ فخذه لكبر أنفُه وبطل تجويفُه)** اللائق به (**وتشوَّهت)** لذلك (**صورته وخلقته)** الظاهرة، فإن الجمال في الأنف (**بل ينبغي أن يسوق إلىٰ الأجفان مع رقَّتها وإلىٰ الحَدَقة مع صفائها وإلىٰ الفخذ مع غلظها وإلىٰ العظم مع صلابته ما يليق بكل واحد منها من حيث القدر والشكل وإلا لبطلت الصورة)** المعهودة (**وربا)** أي كبُرَ وعظُمَ (**بعضُ المواضع وضعُفَ بعضُ المواضع، بل لو لم يراعِ هذا الملَك)** الموكَّل (**العدلَ في القسمة والتقسيط)** بأن يعطي كل جزء قسطه الحقيق به (**فساق إلىٰ رأس الصبي وسائر بدنه من الغذاء ما ينمو به إلا إحدىٰ الرِّجلين مثلاً لبقيتْ تلك الرِّجل كما كانت في حد الصغر وكبُرَ جميعُ البدن فكنت ترىٰ شخصًا في ضخامة رَجل وله رِجل واحدة كأنَّها رِجل صبي فلا ينتفع بها البتَّة، فمراعاة هذه الهندسة في)** بيان (**هذه القسمة مفوَّضة إلىٰ ملك من الملائكة، ولا تظنن أن الدم بطبعه يهندس شكلَ نفسه)** كما ذهب إليه الطبائعيون

---

(١) اسم هذه الرسالة: الفوائد البارزة والكامنة في النعم الظاهرة والباطنة.

(فإن مُحيل هذه الأمور علىٰ الطبع جاهل لا يدري ما يقول) فالقول به باطل كالقول بالتولُّد **(فهذه هي الملائكة الأرضية وقد شُغلوا بك وأنت في النوم تستريح، وفي الغفلة تتردَّد، وهم يصلحون الغذاء في باطنك، ولا خبر لك عنهم، وذلك في كل جزء من أجزائك التي لا تتجزَّأ حتىٰ يفتقر بعض الأجزاء كالعين والقلب إلىٰ أكثر من مائة ملَك، تركنا تفصيل ذلك للإيجاز. والملائكة الأرضية مددُهم من الملائكة السماوية علىٰ ترتيب معلوم لا يحيط بكُنْهه إلا الله تعالىٰ، ومددُ الملائكة السماوية من حَمَلة العرش)** فإنهم المقرَّبون؛ لقربهم من النور الأقصىٰ، وهم علىٰ ترتيب كذلك **(والمنعم علىٰ جملتهم بالتأييد والهداية والتسديد)** الملِك **(المهيمن، القدُّوس، المتفرِّد بالمُلك والملكوت والعزة والجبروت، جبَّار السموات والأرض، مالك المُلك، ذو الجلال والإكرام)** جلَّ شأنُه **(والأخبار الواردة في الملائكة الموكَّلين بالسموات والأرض وأجزاء النبات والحيوانات حتىٰ كل قطرة من المطر وكل سحاب ينجرُّ من جانب إلىٰ جانب أكثر من أن تُحصَىٰ، فلذلك تركنا الاستشهاد به)** قال العراقي[1]: ففي الصحيحين[2] من حديث أبي ذر في قصة الإسراء: «قال جبريل لخازن السماء الدنيا: افتح». وفيه: «حتىٰ أتىٰ السماءَ الثانية فقال لخازنها: افتح ...» الحديث. ولهما[3] من حديث أبي هريرة: «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق». وللنسائي[4] من حديث ابن مسعود: «إن لله ملائكة سيَّاحين [في الأرض] يبلِّغوني من أمَّتي السلامَ». وفي الصحيحين[5] من حديث عائشة في قصة عرضه نفسه علىٰ ابن عبد ياليل: «فناداني ملَكُ الجبال: إن شئتَ أن أطبق عليهم

---

(١) المغني ٢/ ١٠٣٠ - ١٠٣١.

(٢) صحيح البخاري ١/ ١٣٢، ٢٠٥٠، ٢/ ٤٥٤. صحيح مسلم ١/ ٨٨.

(٣) صحيح البخاري ٤/ ١٧٣. صحيح مسلم ٢/ ١٢٣٩. وهذا لفظ البخاري، ولفظ مسلم: «إن لله تعالىٰ ملائكة سيارة فضلا يتبعون مجالس الذكر».

(٤) سنن النسائي ص ٢٠٨.

(٥) صحيح البخاري ٢/ ٤٢٨. صحيح مسلم ٢/ ٨٦٤.

الأخشبين ...» الحديث. ولهما[١] من حديث أنس: «إن الله وكَّل بالرحم ملَكًا ...» الحديث. وروىٰ الديلمي في مسند الفردوس[٢] من حديث بُرَيدة الأسلمي: «ما من نبت ينبُت إلا وتحته ملَك موكَّل به حتىٰ يُحصَد ...» الحديث، وفيه محمد بن صالح الطبري وأبو بحر البكراوي واسمه عثمان بن عبد الرحمن[٣]، وكلاهما ضعيف. وللطبراني من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف: «إن لله ملائكة ينزلون في كل ليلة يحبسون الكِلال عن دوابِّ الغُزاة، إلا دابَّة في عنقها جرس». وللترمذي[٤] وحسَّنه من حديث ابن عباس: قالت اليهود: يا أبا القاسم، أخبِرْنا عن الرعد. قال: «ملَك موكَّل بالسحاب». ولمسلم[٥] من حديث أبي هريرة: «بينما رجل بفَلاة من الأرض سمع [صوتًا] من سحابة: اسْقِ حديقة فلان. فتنحَّىٰ ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حَرَّة ...» الحديث. انتهىٰ.

قلت: حديث ابن مسعود رواه كذلك عبد الرزاق[٦] وأحمد[٧] وابن حبان[٨] والطبراني[٩] وأبو الشيخ في العظمة[١٠] وأبو نعيم في الحلية[١١]

---

(١) صحيح البخاري ١/ ١١٩، ٢/ ٤٥١، ٤/ ٢٠٨. صحيح مسلم ٢/ ١٢٢٢.

(٢) الفردوس بمأثور الخطاب ٤/ ٤٥.

(٣) الصواب في اسمه: عبد الرحمن بن عثمان. والبكراوي نسبة إلىٰ جده الأعلىٰ أبي بكرة الثقفي الصحابي. انظر: تهذيب الكمال ١٧/ ٢٧١ - ٢٧٤.

(٤) سنن الترمذي ٥/ ١٩٣.

(٥) صحيح مسلم ٢/ ١٣٦١.

(٦) مصنف عبد الرزاق ٢/ ٢١٥.

(٧) مسند أحمد ٦/ ١٨٣، ٧/ ٢٦٠، ٣٤٣.

(٨) صحيح ابن حبان ٣/ ١٩٥.

(٩) المعجم الكبير ١٠/ ٢٧١.

(١٠) العظمة ٣/ ٩٩١.

(١١) حلية الأولياء ٤/ ٢٠١، ٨/ ١٣٠.

والحاكم[١] والبيهقي[٢].

وحديث بريدة الأسلمي تمامه: «فأيُّما امرئ وطِئَ ذلك النبتَ لعنه ذلك الملَكُ».

وحديث ابن عباس في الرعد لفظه عند الترمذي: «الرعد ملَك موكَّل بالسحاب، معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله، والصوت الذي تسمعون زجرُه بالسحاب إذا زجرَه حتىٰ ينتهي إلىٰ حيث أُمِر».

وحديث أبي هريرة عند مسلم لفظه عنده وعند أحمد[٣]: «بينا رجل بفَلاة من الأرض فسمع صوتًا في سحابة: اسْقِ حديقة فلان. فتنحَّىٰ ذلك السحابُ فأفرغ ماءه في حَرَّة، فإذا شَرْجة من تلك الشِّراج قد استوعبت ذلك الماء كلَّه، فتتبع الماء، فإذا رجل قائم في حديقته يحوِّل الماء بمِسْحاته، فقال له: يا عبد الله، ما اسمك؟ قال: فلان. للاسم الذي سمع في السحابة، فقال له: يا عبد الله، لِمَ تسألني عن اسمي؟ قال: إني سمعت صوتًا في السحابة التي هذا ماؤها يقول: اسْقِ حديقة فلان، لاسمك، فما تصنع فيها؟ قال: أما إذ قلتَ هذا فإني أنظر إلىٰ ما يخرج منها، فأتصدَّق بثلثه، وآكُل أنا وعيالي ثلثًا، وأردُّ فيها ثلثًا».

(فإن قلتَ: فهلاَّ فُوِّضت هذه الأفعال) كلها **(إلىٰ ملَك واحد ولم أفتقر إلىٰ سبعة أملاك، والحنطة أيضًا تحتاج إلىٰ مَن يطحن أولاً، ثم إلىٰ مَن يميِّز عنه النخالةَ ويدفع الفضلة ثانيًا، ثم إلىٰ مَن يصب الماء عليه ثالثًا، ثم إلىٰ مَن يعجن رابعًا، ثم إلىٰ مَن يقطِّعه كرات مدوَّرة خامسًا، ثم إلىٰ مَن يرقِّقها رغفانًا عريضة سادسًا، ثم إلىٰ من يلصقها بالتنُّور سابعًا. ولكن قد يتولَّىٰ جميعَ ذلك رجلٌ واحد ويستقلُّ به،**

(١) المستدرك علىٰ الصحيحين ٢/ ٤٩٥.

(٢) شعب الإيمان ٣/ ١٤٠.

(٣) مسند أحمد ١٣/ ٣٢٣.

فهلاَّ كانت أعمال الملائكة باطنًا كأعمال الإنس ظاهرًا؟ فاعلمْ أن خلقة الملائكة تخالف خلقة الإنس، وما من واحد منهم إلا وهو وحداني الصفة، ليس فيه خلط وتركيب البتَّة، فلا يكون لكل واحد منهم إلا فعل واحد، وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ) حكايةً عنهم إذ وصفوا به أنفسهم إذ قالوا: (﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾) [الصافات: ١٦٤] أي فلا نتعدَّاه (فلذلك ليس بينهم تنافس وتقاتُل، بل مثالهم في تعيين مرتبة كل واحد منهم وفِعله مثال الحواس الخمس، فإن البصر لا يزاحم السمعَ في إدراك الأصوات) فإنه ليس من إدراكاته (ولا الشم يزاحمهما) فيما خُصَّا به (ولا هما ينازعان الشمَّ) فيما خُصَّ به (وليس كاليد والرِّجل، فإنك قد تبطش بأصابع الرِّجل بطشًا ضعيفًا فتزاحم به اليدَ) فإن الرِّجل إنما وُضعت ليُمشَىٰ بها، وليس من خواصِّها البطش، وإنما هو لليد (وقد تضرب غيرك برأسك فتزاحم اليدَ التي هي آلة الضرب) كما هو عادة المغاربة (ولا كالإنسان الواحد الذي يتولَّىٰ بنفسه الطحن والعجن والخَبْز، فإن هذا نوع من الاعوجاج والعدول) أي الصرف (عن) طريق (العدل سببه اختلاف صفات الإنسان واختلاف دواعيه، فإنه ليس وحداني الصفة فلم يكن وحداني الفعل، ولذلك ترىٰ الإنسان يطيع الله مرة ويعصيه أخرىٰ؛ لاختلاف دواعيه وصفاته، وذلك غير ممكن في طباع الملائكة، بل هم مجبولون علىٰ الطاعة، لا مجال للمعصية في حقِّهم، فلا جَرَمَ) هم كما وصفهم الله تعالىٰ في كتابه العزيز: (﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾) [التحريم: ٦] كما قال تعالىٰ: (﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ٢٠] والراكع منهم راكع أبدًا، والساجد منهم ساجد أبدًا، والقائم منهم قائم أبدًا، لا اختلاف في أفعالهم ولا فتور، ولكل واحد مقام معلوم لا يتعدَّاه) وقد روىٰ أبو الشيخ في العظمة[١] والبيهقي[٢]

---

(١) العظمة ٣/ ٩٩٤.

(٢) شعب الإيمان ١/ ٣٢٥ من حديث عبد الله بن عمر.

والخطيب[١] وابن عساكر[٢] من حديث رجل من الصحابة: «إن لله ملائكة ترعد فرائصهم من مخافته، ما منهم ملَك تقطر من عينه دمعة إلا وقعت ملكًا قائمًا يسبِّح وملائكة سجودًا منذ خلق الله السموات والأرض لم يرفعوا رؤوسهم ولا يرفعونها إلىٰ يوم القيامة [وملائكة ركوعًا لم يرفعوا رؤوسهم ولا يرفعونها إلىٰ يوم القيامة] وصفوفًا لم ينصرفوا عن مَصافِّهم ولا ينصرفون [عنها] إلىٰ يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة تجلَّىٰ لهم ربُّهم فنظروا إليه وقالوا: سبحانك! ما عبدناك كما ينبغي لك».

وروىٰ[٣] الديلمي من حديث ابن عمر: «إن لله ملائكة في السماء الدنيا خشوعًا منذ خُلقت السموات والأرض إلىٰ أن تقوم الساعة يقولون: سبحان ذي [المُلك و] الملكوت، فإذا كان يوم القيامة يقولون: سبحانك! ما عبدناك حق عبادتك. ولله ملائكة في السماء الثانية ركوعًا منذ خُلقت السموات والأرض إلىٰ أن تقوم الساعة [يقولون: سبحان ذي العزَّة] فإذا كان يوم القيامة يقولون: سبحانك! ما عبدناك حق عبادتك. ولله ملائكة في السماء الثالثة سجودًا منذ خُلقت السموات والأرض إلىٰ أن تقوم الساعة يقولون: [سبحان الحي الذي لا يموت، فإذا كان يوم القيامة يقولون]: سبحانك! ما عبدناك حق عبادتك».

(وطاعتهم لله تعالىٰ من حيث لا مجال للمخالفة فيهم يمكن أن تشبَّه بطاعة أطرافك لك، فإنك مهما جزمتَ الإرادة بفتح الأجفان لم يكن للجفن الصحيح تردُّد واختلاف في طاعتك مرةً ومعصيتك أخرىٰ، بل كان منتظرًا لأمرك ونهيك، ينفتح وينطبق متصلاً بإشارتك، فهذا يشبهه من وجه، لكن يخالفه من وجه) آخر **(إذ الجفن لا علم له بما يصدر منه من الحركة فتحًا وإطباقًا، والملائكة أحياء، عالِمون بما يفعلون)** ولا يلزم من التشبيه أن يكون المشبَّه عين المشبَّه به من سائر الوجوه،

(١) تاريخ بغداد ١٤/ ٢٥٣.

(٢) تاريخ دمشق ٤٠/ ٦١.

(٣) كنز العمال ١٠/ ٣٦٦ - ٣٦٧.

كما هو المقرَّر (فإذًا هذه نعمة الله عليك في الملائكة الأرضية والسمائية، وحاجتك إليهما في غرض الأكل فقط دون ما عداها من الحركات والحاجات كلها، فإنَّا لم نطوِّل بذكرها، فهذه طبقة أخرىٰ من طبقات النعم، ومَجامِع الطبقات لا يمكن إحصاؤها فكيف آحاد ما يدخل تحت مجامع الطبقات. فإذًا قد أسبغ الله تعالىٰ نعمه عليك ظاهرة وباطنة ثم قال تعالىٰ: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ﴾) [الأنعام: ١٢٠] ففيه تنبيه لأولىٰ الألباب الذين وصل لهم القول ليتذكَّروا أن يذروا ظاهر الإثم شكرًا لظاهر النعم، ويذروا باطن الإثم شكرًا لباطن النعم (فتركُ باطن الإثم ممَّا لا يعرفه الخلق من الحسد وسوء الظن والبدعة) المخالفة (وإضمار الشر للناس .. إلىٰ غير ذلك من آثام القلوب) ممَّا تقدَّم ذِكرها (هو الشكر للنعم الباطنة) مثل معافاة القلوب وسلامة العقود (وتركُ الإثم الظاهر بالجوارح) من معاني حظوظ النفوس (شكرٌ للنعمة الظاهرة) مثل عوافي الأجسام ووجود الكفايات من الأموال (بل أقول: كل مَن عصىٰ الله تعالىٰ ولو في تطريفة واحدة بأن فتح جفنه مثلاً حيث يجب غضُّ البصر فقد كفر كل نعمة لله تعالىٰ عليه في السموات والأرض وما بينهما، فإنَّ كل ما خلقه الله تعالىٰ حتىٰ الملائكة والسموات والأرض والحيوان والنبات بجملته نعمة علىٰ كل واحد من العباد قد تمَّ به انتفاعُه وإن انتفع غيره أيضًا به، فإن لله تعالىٰ في كل تطريفة بالجفن نعمتين في نفس الجفن؛ إذ خلق تحت كل جفن عضلات، ولها أوتار ورباطات متصلة بأعصاب الدماغ، بها يتم انخفاض الجفن الأعلىٰ وارتفاع الجفن الأسفل) اعلمْ أن منفعة العضل أن الإنسان إذا أراد أن يقرِّب عضوًا من آخَر حرك العضل فتشنَّجت وزاد في عرضها ونقص من طولها، وإذا أراد التبعيد حرَّكها فاسترخت وزاد في طولها ونقص من عرضها فحصل المقصود، والعضل الذي يحرك عضوًا كبيرًا يكون كبيرًا كالذي في الفخذ، والذي يحرك عضوًا صغيرًا يكون صغيرًا كالعضلات المحرِّكة للأجفان العليا فإنها صغار جدًّا وليس لها أوتار. فإذا علمتَ ذلك، فللعين أربع وعشرون عضلة، ثلاثة لتحريك الجفن [إحداها] رأسها

معلَّق في العظم الحاوي للعين، ووترها يمر في وسط طيِّ الغشاء الذي يكون منه الجفن، ويتصل بوسط حافَّة الجفن وهو يفتحه، والثانية والثالثة موضوعتان في موق العين، مدفونتان في حفرتها، ووتراهما يأتيان حافة الجفن ويتصلان به من جانبيه، وهما يغمضان العين بإطباقهما الجفن وذلك إذا فعل كلٌّ منهما فعله، فإن نالت إحداهما آفةٌ انطبق بعض الجفن وبقي باقيه مفتوحًا، وواحدة - وقيل: ثنتان، وقيل: ثلاثة - تدعم العصبة المجوَّفة التي يكون بها البصر وتثبِّتها حتىٰ لا ينالها بسبب لينها عند التحديق الشديد أيُّ تقطُّع. وست عضلات تحرك العين، أربعة إلىٰ الاستقامة، الواحدة تميلها إلىٰ فوق، والثانية تحركها إلىٰ أسفل، والثالثة تحركها يَمْنَةً، والرابعة تحركها يَسْرةً، واثنتان علىٰ الاستدارة. فهذه عشرة أو إحدىٰ عشرة أو اثنتا عشرة لعين، وللأخرىٰ مثلها (**وعلىٰ كل جفن شعور سود، ونعمة الله في سوادها أنه**) أي الشعر الأسود (**يجمع ضوء العين؛ إذ البياض يفرِّق الضوء، والسواد يجمعه**) فلا لون أنسب وأوفق لنور الباصرة من السواد (**ونعمة الله في ترتيبها صفًّا واحدًا أن يكون مانعًا للهوامِّ من الدبيب إلىٰ باطن العين ومتشبِّثًا للأقذاء التي تتناثر في الهواء**) فتتعلق به ولا تصل إلىٰ الداخل (**وله في كل شعرة منها نعمتان من حيث لين أصلها، ومع اللِّين قوام نصبها**) وله في منابت الشعر نعمة أخرىٰ وهي أنه جعل بين كل شعرة فاصلاً لئلاَّ يلتزق مع بعضه (**وله في اشتباك الأهداب نعمة أعظم من الكل وهي أن غبار الهواء قد يمنع من فتح العين ولو طبق لم يبصر، فيجمع الأجفان مقدار ما تتشابك الأهداب، فينظر من وراء شباك الشعر، فيكون شباك الشعر مانعًا من وصول القَذَىٰ من خارج، وغير مانع من امتداد البصر من داخل. ثم إن أصاب الحدقةَ غبارٌ فقد خُلق أطراف الأجفان حادة منطبقة علىٰ الحدقة كالمصقلة للمرآة، فيطبقهما مرة أو مرتين وقد انصقلت الحدقة عن الغبار وخرجت الأقذاء إلىٰ زوايا العين والأجفان**) وبقيت الحدقة صافية (**والذباب لمَّا لم يكن لحدقتَيْه جفن خُلق له يدين**) زائدتين (**فتراه علىٰ الدوام يمسح بهما حدقتيه ليصقلهما عن الغبار**) وهذا

أحسن الوجوه، وقيل: إنما يفعل ذلك لكونه لم يقع علىٰ جسد النبي ﷺ، فهو أبدًا يلطم وجهه. وفيه نظرٌ (**وإذ تركنا الاستقصاء لتفاصيل النعم لافتقاره إلىٰ تطويل يزيد علىٰ أصل هذا الكتاب، ولعلنا نستأنف له كتابًا مقصودًا فيه إن أمهل الزمانُ وساعد التوفيقُ نسمِّيه: عجائب صنع الله تعالىٰ**) وقد حقَّق الله تعالىٰ مأموله ويسَّر له تأليفه، وقد عدَّه ابن السبكي في جملة مؤلَّفاته، كما تقدم ذلك في مقدمة كتاب العلم (**فلنرجع إلىٰ غرضنا فنقول: مَن نظر إلىٰ غير مَحرم فقد كفر بفتح العين**) في حيث لا يحلُّ (**نعمةَ الله تعالىٰ في الأجفان، ولا تقوم الأجفان إلا بعين، ولا العين إلا برأس، ولا الرأس إلا بجميع البدن، ولا البدن إلا بالغذاء، ولا الغذاء إلا بالماء والأرض والهواء والمطر والغيم والشمس والقمر، ولا يقوم شيء من ذلك إلا بالسموات، ولا السموات إلا بالملائكة، فإن الكل كالشيء الواحد يرتبط البعض منه بالبعض ارتباط أعضاء البدن بعضها ببعض، فإذًا قد كفر كلَّ نعمة لله في الوجود من منتهَىٰ الثريَّا إلىٰ منتهىٰ الثَّرَىٰ، فلم يبقَ فلك ولا ملَك ولا حيوان ولا نبات ولا جماد إلا ويلعنه**) بكفران النعمة (**ولذلك ورد في الأخبار: أن البقعة التي يجتمع فيها الناس إما أن تلعنهم إذا تفرَّقوا أو تستغفر لهم**) قال العراقي[١]: لم أجد له أصلاً (**وكذلك ورد: أن العالِم يستغفر له كل شيء حتىٰ الحوت في البحر**) تقدم في كتاب العلم (**وأن الملائكة يلعنون العصاة**) قال العراقي[٢]: رواه مسلم[٣] من حديث أبي هريرة: «إن الملائكة لَتلعنُ أحدَكم إذا أشار إلىٰ أخيه بحديدة وإن كان أخاه لأبيه وأمه». ا.هـ. قلت: وكذلك رواه أحمد[٤] وأبو نعيم في الحلية[٥] (**في ألفاظ كثيرة**

---

(١) المغني ٢/ ١٠٣١.

(٢) السابق ٢/ ١٠٣٢.

(٣) صحيح مسلم ٢/ ١٢١١، ولفظه: «من أشار إلىٰ أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه حتىٰ يدعه وإن كان أخاه لأبيه وأمه».

(٤) مسند أحمد ١٢/ ٤٤٣، ١٦/ ٣٢٩.

(٥) حلية الأولياء ٦/ ١٣٤.

لا يمكن إحصاؤها، وكل ذلك إشارة إلىٰ أن العاصي) ولو **(بتطريفة واحدة جنىٰ علىٰ جميع ما في المُلك والملكوت، وقد أهلك نفسه، إلا أن يُتْبِع السيئةَ بحسنة تمحوها)** كما ورد ذلك في حديث أبي ذر: «وأتْبع السيئة الحسنة تمحُها» **(فيتبدَّل اللعن بالاستغفار، فعسىٰ الله أن يتوب عليه ويتجاوز عنه)** بفضله وكرمه.

(و) ورد في بعض الأخبار: **(أوحىٰ الله إلىٰ أيوب ﷺ: يا أيوب، ما من عبد لي من الآدميين إلا ومعه ملَكان، فإذا شكرني علىٰ نعمائي قال الملَكان: اللهم زدْه نعمًا علىٰ نعم، فإنك أهل الحمد والشكر، فكنْ من الشاكرين قريبًا)** وزدْهم شكرًا، وزدْهم من النعماء **(فكفىٰ بالشاكرين)** يا أيوب **(علو رتبة عندي أني أشكر شكرهم، وملائكتي يدعون لهم، والبقاع تحبهم، والآثار تبكي عليهم)** فكنْ لي يا أيوب شاكرًا، ولآلائي ذاكرًا، ولا تذكرني حتىٰ أذكرك، ولا تشكر لي حتىٰ أشكر أعمالك، أنا أوفِّق أوليائي لصالح الأعمال، وأشكرهم علىٰ ما وفَّقتهم واقتضيتهم الشكر ورضيتُ به مكافأةً فرضيت بالقليل عن الكثير وتقبَّلت القليلَ وجازيتُ عليه بالجزيل، وشر العبيد عندي مَن لم يشكرني إلا في وقت حاجته، ولم يتضرَّع بين يديَّ إلا في وقت عقوبته. كذا أورده بكماله صاحب القوت.

(وكما عرفتَ أن في كل طرفة عين نعمًا كثيرة فاعلمْ أن في كل نفَس ينبسط وينقبض نعمتين؛ إذ بانبساطه يخرج الدخان المحترق من القلب، ولو لم يخرج لهلك، وبانقباضه يُجمَع روح الهواء إلىٰ القلب، ولو سُدَّ متنفَّسه لاحترق قلبه بانقطاع روح الهواء وبرودته عنه وهلك، بل اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة) لكلٍّ منهما اثنتا عشرة ساعة **(وفي كل ساعة قريبٌ من ألف نفَس، وكل نفَس قريبٌ من عشر لحظات، فعليك في كل لحظة آلاف آلاف نعمة في كل جزء من أجزاء بدنك، بل في كل جزء من أجزاء العالَم، فانظر هل يُتصوَّر إحصاء ذلك أم لا)** ولفظ القوت: ويقال إن تحت كل شعرة في جسم العبد نعمة، وفي جسم الإنسان ثلاثمائة

وستون مفصلاً، وكذلك العظام، وفي كل طرفة نعمتان، وفي كل نفَس نعمتان، وفي كل دقيقة تأتي عليه من عمره نِعم لا تُحصَىٰ، والدقيقة جزء من اثني عشر جزءًا من شعيرة، والشعيرة جزء من اثني عشر جزءًا من ساعة، والأنفاس أربعة وعشرون ألف نفَس في اليوم والليلة.

(**ولمَّا انكشف لموسىٰ عليه السلام حقيقة قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾** [النحل: ١٨] **قال: إلهي، كيف أشكرك ولك في كل شعرة من جسدي نعمتان: أنْ ليَّنت أصلَها، وأن طمست رأسها**) نقله صاحب القوت.

(**وكذلك ورد في الأثر: إن مَن لم يعرف نعم الله**) عليه (**إلا في مَطعمه ومشربه فقد قلَّ علمُه وحضر عذابه**) نقله صاحب القوت. وهو في الحلية(١) من قول أبي الدرداء، رواه من طريق أحمد بن حنبل، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا يونس بن عبيد، عن الحسن [قال]: قال أبو الدرداء: مَن لم يعرف نعمة الله عليه إلا في مطعمه ومشربه فقد قلَّ علمُه وحضر عذابه، ومَن لم يكن غنيًّا في الدنيا فلا دنيا له.

قال صاحب القوت: ويقال إن في باطن الجسم من النعم سبعة أضعاف النعم التي في ظاهره، وأن في القلب من النعم أضعاف ما في الجسم كلِّه من النعم، وأن نعم الإيمان بالله والعلم واليقين أضعاف نعم الأجسام والقلوب، فهذه كلها نعم مضاعَفة علىٰ نعم مترادفة لا يحصيها إلا مَن أنعم بها، ولا يعلمها إلا مَن خلقها ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤] سوىٰ نعم المطعم والمشرب والملبس والمَنكح من دخول ذلك وخروجه وكثرة تكرُّره وتزايده بأن أدخل مَهناه وأخرج أذاه وبقي في الجسم قُواه، وبأن طيَّب مدخله ويسَّر مخرجه وبقَّىٰ منفعتَه، وما أحال من صورته وغيَّر من صفته للتزهيد والذلة والاعتبار والتذكرة، وتلك

---

(١) حلية الأولياء ١/ ٢١٠.

أيضًا نعم.

(وجميع ما ذكرناه يرجع إلىٰ المطعم والمشرب، فاعتبِرْ ما سواه من النعم به، فإن البصير لا تقع عينه في العالم علىٰ شيء ولا يلمُّ خاطرُه بموجود إلا ويتحقَّق أن لله فيه نعمة عليه، فلنترك الاستقصاء والتفصيل، فإنه طمعٌ في غير مَطمع) وبالله التوفيق.

بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر

(اعلمْ) هداك الله تعالىٰ (أنه لم يقصُر بالخلق عن شكر النعمة إلا الجهل والغفلة، فإنهم مُنعوا بالجهل والغفلة عن معرفة النعم، ولا يُتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها) إذ مَن لم يعرفها كيف يقوم بشكرها؟ فالشكر فرع المعرفة، فإذا جهلَ النعمةَ لم يعرفها، وإذا لم يعرفها لم يشكر عليها، وإذا لم يشكر [عليها] انقطع مزيدُه، ومَن انقطع عنه المزيد فهو في نقصان ما ادَّعىٰ. وأيضًا، فإن لم يشكر النعم لجهله بها [لم يؤمَن عليه] كفرُها، فإن كفرَها أدركه العذابُ الشديد، إلا أن تَداركَه نعمةٌ من ربِّه (ثم إنهم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها) مجرد (أن يقول بلسانه: الحمد لله، الشكر لله) من غير فهمِ معنىٰ ما يقول (ولم يعرفوا أن معنىٰ الشكر: أن يستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها وهي طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين) الأولىٰ: معرفة النعمة، والثانية: معرفة معنىٰ الشكر عليها (إلا غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان) عليه (أما الغفلة عن النعم فلها أسباب، وأحد أسبابها أن الناس بجهلهم لا يعدُّون ما يعمُّ الخلقَ ويَسلم لهم في جميع أحوالهم نعمةً، فلذلك لا يشكرون علىٰ جملة ما ذكرناه من النعم؛ لأنها عامة للخلق، مبذولة لهم في جميع أحوالهم، فلا يرىٰ كل واحد منهم لنفسه اختصاصًا به، فلا يعدُّه نعمةً، ولا نراهم يشكرون الله علىٰ روح الهواء) هو برودته (ولو أُخِذ بمختنقهم) هو محل القِلادة من العنق (لحظةً حتىٰ انقطع الهواء عنهم ماتوا، ولو حُبِسوا في بيت حمَّام فيه هواء حار) ولا مَنفذ له (أو في بئر فيه هواء ثُقِّل برطوبة الماء ماتوا غمًّا، فإن ابتُلي واحد منهم بشيء من ذلك ثم نجا ربما قدَّر ذلك نعمةً وشكر الله عليها، وهذا غاية الجهل؛ إذ صار شكرهم موقوفًا علىٰ أن تُسلَب عنهم النعمة) بُرهةً (ثم تُردُّ عليهم في بعض الأحوال، والنعمة في جميع الأحوال أَولىٰ بأن

تُشكَر) من النعمة (في بعضها، فلا يُرَىٰ البصير يشكر صحة بصره إلا أن تعمىٰ عينُه، فعند ذلك لو أعيدَ عليه نوره أحسَّ به وشكره وعدَّه نعمةً، ولما كانت رحمة الله واسعة عمَّمَ الخلقَ) وكل من السعة والعموم من مقتضيات هذه الصفة (وبذل لهم في جميع الأحوال، فلم يعدَّه الجاهلون نعمة) فغفلوا عن الشكر عليها (وهذا الجاهل مثل العبد السوء حقه أن يُضرَب دائمًا) لمخالفة سيره في أوامره ونواهيه (حتىٰ إذا تُرك ضربه ساعةً تقلَّد به منَّةً، فإن تُرك ضربه علىٰ الدوام غلبه البَطَرُ وترك الشكر، فصار الناس لا يشكرون إلا المال الذي يتطرَّق الاختصاص إليه من حيث الكثرة والقلة، وينسون جميع نعم الله تعالىٰ عليهم) في سائر أحوالهم (كما شكا بعضهم فقره إلىٰ بعض أرباب البصائر وأظهر شدة اغتمامه به) ولفظ القوت: وحُدِّثت عن رجل شكا إلىٰ بعض أهل المدينة فقره وأظهر لذلك غمَّه (فقال له) الرجل: (أيسرُّك أنك أعمىٰ ولك عشرة آلاف درهم؟ فقال: لا. فقال: أيسرُّك أنك أخرس ولك عشرة آلاف درهم؟ قال: لا. فقال: أيسرُّك أنك أقطع اليدين والرِّجلين ولك عشرون ألفًا؟ قال: لا. قال: أيسرُّك أنك مجنون ولك عشرة آلاف درهم؟ قال: لا. فقال: أما تستحي أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفًا)؟! قال صاحب القوت: وهذا كما قال؛ لأن في الإنسان قيم هذه الأشياء من الجوارح وزيادة من المال؛ لأنها ديات جوارحه لو قُطعت.

(وحُكي أن بعض القرَّاء) أي العلماء، ولفظ القوت: وحدثني بعض الشيوخ في معناه أن بعض القرَّاء المقرَّبين (اشتد به الفقر حتىٰ) أحزنه و(ضاق به ذرعًا) قال: (فرأىٰ في المنام كأنَّ قائلاً يقول له: تودُّ أنَّا أنسيناك من القرآن سورة الأنعام وأن لك ألف دينار؟ قال: لا. قال: فسورة هود؟ قال: لا. قال: فسورة يوسف؟ قال: لا. فعدَّد عليه سورًا، ثم قال: فمعك قيمة مائة ألف دينار) هكذا في القوت، وفي بعض نسخ الكتاب: قيمة ما يبلغ آلافًا (وإنك تشكو) الفقر (فأصبح وقد سُرِّي عنه) همه. أي انكشف وزال.

(ودخل) محمد بن صبيح (ابن السَّمَّاك) الواعظ البغدادي، تقدمت ترجمته مرارًا (علىٰ بعض الخلفاء[1]) العباسية (وبيده كوز ماء يشربه، فقال له: عِظني. فقال: لو لم تعطَ هذه الشربة إلا ببذل جميع أموالك وإلا بقيتَ عطشانًا فهل كنت تعطيه؟ قال: نعم. فقال: لو لم تعطَ إلا بمُلكك كلِّه فهل كنت تتركه؟ قال: نعم. قال: فلا تفرح بمُلك لا يسوىٰ شربةَ ماء.

فبهذا تبيَّنَ أن نعمة الله تعالىٰ علىٰ العبد في شربة) ماء (عند العطش أعظم من مُلك الأرض كلها، وإذا كانت الطباع مائلة إلىٰ اعتداد النعمة الخاصة نعمةً دون العامة. وقد ذكرنا النعم العامة) المبذولة للخلق كلهم (فلنذكر إشارة وجيزة إلىٰ النعم الخاصة فنقول: ما من عبدٍ إلا ولو أمعن النظر في أحواله) وتأمل بصافي بصيرته (رأىٰ من الله تعالىٰ نعمة أو نعمًا كثيرة تخصُّه لا يشاركه فيها الناس كافةً، بل يشاركه عدد يسير من الناس، وربما) يتفق أنه (لا يشاركه فيها أحد، وذلك يعترف به كل عبد في ثلاثة أمور: في العقل والخُلق والعلم. أما العقل فما من عبد لله تعالىٰ إلا وهو راضٍ عن الله تعالىٰ في عقله، يعتقد أنه أعقل الناس و) لذا (قلَّما يسأل الله العقل، و) من المعلوم (أنَّ من شرف العقل أن يفرح به الخالي عنه كما يفرح به المتَّصف به، فإذا كان اعتقاده أنه أعقل الناس فواجب عليه أن يشكره؛ لأنه إذا كان كذلك) في حقيقة الأمر (فالشكر واجب عليه، وإن لم يكن) كذلك (ولكنه يعتقد أنه كذلك فهو نعمة في حقه، فمَن وضع كنزًا تحت الأرض فهو يفرح به ويشكر عليه، فإن أخذ الكنز من حيث لا يدري فيبقىٰ فرحُه بحسب اعتقاده، ويبقىٰ شكره؛ لأنه في حقه كالباقي) فكذلك العقل، فإنه بمنزلة الكنز المدفون.

(وأما الخُلق، فما من عبد إلا ويرىٰ من غيره عيوبًا يكرهها وأخلاقًا يذمُّها،

---

(١) هو هارون الرشيد، والقصة بمعناها ذكرها الخطيب في تاريخ بغداد ٣/ ٣٥٢ - ٣٥٣، والطبري في تاريخ الرسل والملوك ٨/ ٣٥٧، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٧٣/ ٢٩٢، وابن الأثير في الكامل في التاريخ ٥/ ٣٩٤، والرافعي في التدوين ٢/ ٤٥٦.

وإنما يذمُّها من حيث يرىٰ نفسه بريئًا عنها) خالصًا منها (فإن لم يشتغل بذم الغير فينبغي أن يشتغل بشكر الله تعالىٰ إذ حسَّن خلقه وابتلىٰ غيره بالخلق السيئ) ففيه نعمتان عليهما شكران، فتحسب كل ما وجَّهَ إلىٰ غيرك من المَذامِّ نعمًا عليك بمثل ما وجَّه إليك من المحاسن؛ لأن النفوس كنفس واحدة، والمشيئة والقدرة واحدة، فقد رحمك بأنك من أحسن الخلق، فذلك من فضل الله عليك.

(وأما العلم، فما من أحد إلا ويعرف من بواطن أمور نفسه وخفايا أفكاره ما هو منفرد به، ولو انكشف الغطاء) وزال الحجاب (حتىٰ اطَّلع عليه أحد من الخلق لافتضح) حاله عنده (فكيف لو اطَّلع الناسُ كافةً. فإذًا لكل عبدٍ علمٌ بأمر خاص لا يشاركه فيه أحد من عباد الله، فلِمَ لا يشكر ستر الله الجميل الذي أرسله علىٰ وجه مساويه فأظهر الجميل وستر القبيح وأخفىٰ ذلك عن أعين الناس وخصَّص علمه به حتىٰ لا يطَّلع عليه أحد) فلا تدري أيَّ النعمتين أعظم: إظهار الجميل أو ستر القبيح، وقد مُدح الله سبحانه بهما في الدعاء المأثور: يا مَن أظهر الجميل وستر القبيح.

(فهذه ثلاث من النعم خاصة يعترف بها كل عبد إما مطلقًا وإما في بعض الأمور، فلننزل عن هذه الطبقة إلىٰ طبقة أخرىٰ أعم منها قليلاً فنقول: ما من عبد إلا وقد رزقه الله تعالىٰ في صورته أو شخصه أو أخلاقه أو صفاته أو أهله أو ولده أو مسكنه أو بلده أو رقيقه(١) أو أقاربه أو عزه أو جاهه أو في سائر مَحابِّه) الدنيوية (أمورًا لو سُلب ذلك منه وأُعطيَ ما خُصِّص به غيره لكان لا يرضىٰ به، وذلك مثل أن جعله مؤمنًا لا كافرًا، وحيًّا لا جمادًا، وإنسانًا لا بهيمة، وذكرًا لا أنثىٰ، وصحيحًا لا مريضًا، وسليمًا لا معيبًا، فإن كل هذه خصائص وإن كان فيها عموم أيضًا، فإنَّ هذه الأحوال لو بُدِّلت بأضداها لم يرضَ بها) وفي القوت: وأول نعمة عقلناها أن جعلنا موجودين دون سائر المعدومات، ثم جعلنا حيوانًا دون سائر الموات، ثم

(١) في الجميع: رفيقه.

جعلنا بشرًا دون سائر الحيوان، ثم أن جعلنا ذكورًا دون الإناث، ثم تصويرنا في أحسن تقويم، ثم عوافي القلب من الزيغ عن السنَّة ومن الميل إلىٰ دواعي النفس الأمَّارة بالسوء، ثم صحة الأجسام، ثم كثيف الستر، ثم حُسن الكفاية للحاجات، ثم صنوف ما أظهر من الأزواج للأقوات (**بل له أمور لا يبدلها بأحوال الآدميين أيضًا، وذلك إما أن يكون بحيث لا يبدله بما خُصَّ به أحد من الخلق أو لا يبدله بما خُصَّ به الأكثر، فإذا كان لا يبدل حال نفسه بحال غيره فإذًا حاله أحسن من حال غيره، فإن كان لا يعرف شخصًا يرتضي لنفسه حاله بدلاً عن حال نفسه إما علىٰ الجملة وإما في أمر خاص فإذًا لله تعالىٰ عليه نعم ليست له علىٰ أحد من عباده سواه، وإن كان يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون البعض فلينظر إلىٰ عدد المغبوطين عنده فإنه لا محالة يراهم أقل بالإضافة إلىٰ غيرهم، فيكون مَن دونه في الحال أكثر بكثير ممَّن هو فوقه، فما باله ينظر إلىٰ مَن هو فوقه ليزدري**) أي يحتقر (**نعم الله علىٰ نفسه ولا ينظر إلىٰ مَن هو دونه ليستعظم نعم الله عليه؟ وما باله لا يسوِّي دنياه بدينه؟ أليس**) هو (**إذا لامته نفسُه**) وعاتبته (**علىٰ سيئة يقارفها يعتذر إليها بأن في الفُسَّاق كثرة؟ فينظر أبدًا في الدين إلىٰ مَن دونه لا إلىٰ مَن فوقه، فلِمَ لا يكون نظرُه في الدنيا كذلك؟ فإذا كان حال أكثر الخلق في الدين خيرًا منه وحاله في الدنيا خيرًا من حال أكثر الخلق فكيف لا يلزمه الشكرُ**) وفي القوت: وفي الشكر مقامان عن مشاهدتين، أعلاهما [مقام] الذي يشكر علىٰ المكاره والبلاء والشدائد واللأواء، والمقام الثاني أن ينظر إلىٰ مَن هو دونه ممَّن فُضِّل هو عليه في أمور الدنيا وفي أحوال الدين، فيعظِّم نعمة الله عليه بسلامة قلبه [ودينه] وعافيته ممَّا ابتُلي الآخر به، ويعظِّم نعمة الدنيا عليه لما أغناه الله وكفاه فيما أحوج [الآخر] إليه وألجاه، فليشكر علىٰ ذلك، ثم ينظر إلىٰ مَن هو فوقه في الدين ممَّن فُضِّل عليه بعلم الإيمان وبحُسن اليقين، فيمقت نفسه ويزري عليها وينافس في مثل ما رأىٰ من أحوال مَن هو فوقه فيرغب فيها، فإذا كان كذلك كان من الشاكرين، ودخل تحت اسم الممدوحين (**ولهذا قال**

ﷺ: **مَن نظر في الدنيا إلىٰ مَن هو دونه ونظر في الدين إلىٰ مَن هو فوقه كتبه الله صابرًا شاكرًا، ومَن نظر في الدنيا إلىٰ مَن هو فوقه وفي الدين إلىٰ مَن هو دونه لم يكتبه الله لا صابرًا ولا شاكرًا)** قال العراقي[١]: رواه الترمذي[٢] من حديث عبد الله بن عمرو، وقال: غريب، وفيه المثنَّىٰ بن الصبَّاح، ضعيف. انتهىٰ.

قلت: ورواه أبو نعيم في الحلية[٣] والبيهقي في الشعب[٤] من حديث أنس لكن بتقديم الجملة الثانية علىٰ الأولىٰ. وروىٰ أحمد[٥] والبخاري[٦] ومسلم[٧] والترمذي[٨] وابن ماجه[٩] من حديث أبي هريرة: «انظروا إلىٰ مَن هو أسفل منكم ولا تنظروا إلىٰ مَن هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم». أما البخاري فرواه من طريق الأعرج، والباقون من طريق همام وأبي صالح، ثلاثتهم عن أبي هريرة. وفي لفظ لمسلم: «إذا نظر أحدكم إلىٰ مَن فضَّله الله عليه في المال والخَلق فلينظر إلىٰ مَن هو أسفل ممَّن فُضِّلَ عليه». ولأحمد[١٠] وابن حبان[١١] في أثناء حديث عن أبي ذر: أوصاني خليلي ﷺ أن أنظر إلىٰ مَن هو دوني، ولا أنظر إلىٰ

---

(١) المغني ٢/ ١٠٣٢.

(٢) سنن الترمذي ٤/ ٢٨١، ولفظه: «خصلتان من كانتا فيه كتبه الله شاكرا صابرا، ومن لم تكونا فيه لم يكتبه الله شاكرا ولا صابرا، من نظر في دينه إلىٰ من هو فوقه فاقتدىٰ به ونظر في دنياه إلىٰ من هو دونه فحمد الله علىٰ ما فضله به عليه كتبه الله شاكرا وصابرا، ومن نظر في دينه إلىٰ من هو دونه ونظر في دنياه إلىٰ من هو فوقه فأسف علىٰ ما فاته منه لم يكتبه الله شاكرا ولا صابرا».

(٣) حلية الأولياء ٨/ ٢٨٦.

(٤) شعب الإيمان ٦/ ٣١٨.

(٥) مسند أحمد ١٢/ ٢٧١، ٤١٨ - ٤١٩، ١٣/ ٤٩١، ١٧٦.

(٦) صحيح البخاري ٤/ ١٨٩.

(٧) صحيح مسلم ٢/ ١٣٥٣.

(٨) سنن الترمذي ٤/ ٢٨٢.

(٩) سنن ابن ماجه ٥/ ٥٧٨.

(١٠) مسند أحمد ٣٥/ ٣٢٧، ٤٠٧.

(١١) صحيح ابن حبان ٢/ ١٩٤.

مَن هو فوقي. وعند هناد[١] والبيهقي[٢]: «إذا نظر أحدكم إلىٰ مَن فُضِّل عليه في المال والجسم فلينظر إلىٰ مَن هو دونه في المال والجسم».

(فإذًا كل مَن اعتبر حال نفسه وفتَّش عمَّا خُصَّ به وجد لله تعالىٰ علىٰ نفسه نعمًا كثيرة لا سيَّما مَن خُصَّ بالسنَّة والإيمان والعلم والقرآن) ولفظ القوت: ومن أفضل النعم وأجلِّها نعمة الإيمان بالله تعالىٰ، ثم نعمة الرسول، ثم نعمة القرآن **(ثم الفراغ والصحة والأمن)** وبكلٍّ من هذه الثلاثة الأخيرة فُسِّر قوله تعالىٰ: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠] **(وغير ذلك)** كنعمة الغِنىٰ والشباب **(ولذلك قيل:**

مَن شاء عيشًا رحيًا يستطيب به ... في دينه ثم في دنياه إقبالا
فلينظرن إلىٰ مَن فوقه ورعًا ... ولينظرن إلىٰ مَن دونه مالا[٣]

وقال ﷺ: مَن لم يستغنِ بآيات الله فلا أغناه الله) هكذا في القوت. وقال العراقي[٤]: لم أجده بهذا اللفظ **(وهذا)** إن صح فهو **(إشارة إلىٰ نعمة العلم.**

وقال ﷺ: إن القرآن هو الغِنىٰ الذي لا غِنىٰ بعده ولا فقر بعده) قال العراقي[٥]: رواه أبو يعلىٰ[٦] والطبراني[٧] من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ:

---

(١) الزهد ٢/ ٤١٨.

(٢) شعب الإيمان ٦/ ٣١٧.

(٣) البيتان لأبي الفتح البستي، وهما في ديوانه ص ١٤٨ برواية:

من شاء عيشا رخيا يستفيد به ... في دينه ثم في دنياه إقبالا
فلينظرن إلىٰ من فوقه أدبا ... ولينظرن إلىٰ من دونه مالا

(٤) المغني ٢/ ١٠٣٢.

(٥) المغني ٢/ ١٠٣٢.

(٦) مسند أبي يعلىٰ ٥/ ١٦٠.

(٧) المعجم الكبير ١/ ٢٥٥.

«إن القرآن غِنىٰ لا فقر بعده، ولا غِنىٰ دونه». قال الدارقطني[١]: رواه أبو معاوية عن الأعمش عن يزيد الرقاشي عن الحسن مرسلاً، وهو أشبهُ بالصواب. انتهىٰ.

قلت: ورواه محمد بن نصر[٢] والبيهقي[٣] والخطيب[٤] بلفظ «القرآن»، بدون «إن»، وسنده ضعيف.

(وقال ﷺ: مَن آتاه الله القرآن فظن أن أحدًا أغنىٰ منه فقد استهزأ بآيات الله) قال العراقي[٥]: رواه البخاري في التاريخ[٦] من حديث رجاء الغَنَوي بلفظ: «مَن آتاه الله حِفظ كتابه وظن أن أحدًا أُولىٰ منه فقد صغَّر أعظم النعم». ورجاء مختلَف في صحبته. وورد من حديث عبد الله بن عمرو وجابر والبراء نحوه، وكلها ضعيفة، وقد تقدم في فضل القرآن. انتهىٰ.

قلت: ورواه البيهقي[٧] كذلك، ولفظه: «مَن أعطاه الله». ورواه ابن حبان، وقال[٨]: رجاء تابعي ثقة، يروي المراسيل. وأورده صاحب القوت وقال: وفي لفظ آخر: «فقد استخفَّ بما أنزل اللهُ».

(وقال ﷺ: ليس منا مَن لم يتغنَّ بالقرآن[٩]).

---

(١) العلل ١٢/ ٧٥ - ٧٦.

(٢) مختصر قيام الليل ص ١٧٥.

(٣) شعب الإيمان ٤/ ١٩٠.

(٤) تاريخ بغداد ١٤/ ٥٤٢.

(٥) المغني ٢/ ١٠٣٣.

(٦) التاريخ الكبير ٣/ ٣١١، ولفظه: «من أعطاه الله حفظ كتابه لو ظن أن أحدا أوتي أفضل مما أوتي فقد غمط أعظم النعم».

(٧) شعب الإيمان ٤/ ١٧٩.

(٨) الثقات ٤/ ٢٣٧.

(٩) لم يتعرض الشارح لهذا الحديث، وكأنه سقط من نسخته، وقد ذكره العراقي في المغني ٢/ ١٠٣٣، وقال: تقدم في آداب التلاوة.

وقال ﷺ: كفىٰ باليقين غِنىٰ) قال العراقي[(١)]: رواه الطبراني من حديث عمار بن ياسر، ورواه ابن أبي الدنيا في القناعة[(٢)] موقوفًا عليه، وقد تقدم. انتهىٰ.

وأورده صاحب القوت وقال: والقرآن هو حق اليقين.

(وقال بعض السلف: يقول الله تعالىٰ في بعض الكتب المنزلة: إن عبدًا أغنيته عن ثلاث لقد أتممت عليه نعمتي: أغنيته عن سلطان يأتيه) أي جعلته غنيًّا **(و)** أغنيته **(عن طبيب يداويه)** أي جعلته صحيحًا سليمًا **(و)** أغنيته **(عمَّا في يد أخيه)**[(٣)] أي جعلته قانعًا بما في يده. نقله صاحب القوت.

(وعبَّر الشاعر عن هذا فقال:

إذا القوت تأتَّىٰ لك والصحة والأمن
وأصبحتَ أخا حزن فلا فارقك الحزنُ[(٤)])

كذا هو في القوت، وفي بعض نسخ الكتاب: إذا ما القوت يأتي لك. وفي أخرىٰ: إذا القوت يأتيك كذا الصحة **(بل أرشق العبارات وأفصح الكلمات كلام أفصح مَن نطق بالضاد)** يشير إلىٰ ما اشتهر علىٰ الألسنة: «أنا أفصح مَن نطق بالضاد»، قال ابن كثير: معناه صحيح، ولكن لا أصل له[(٥)] **(حيث عبَّر ﷺ عن هذا المعنىٰ فقال: مَن أصبح آمنًا في سِربه، معافًىٰ في بدنه، عنده قوت يومه فكأنَّما حيزتْ**

---

(١) المغني ٢/ ١٠٣٣.

(٢) ورواه أيضا في كتاب اليقين ص ٣٣.

(٣) رواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب ١/ ١٤٦ مرفوعا من حديث جابر بن عبد الله بلفظ: «أوحىٰ الله عَزَّوَجَلَّ إليَّ أن نبئ عبادي أن من أغنيته عن سلطان يستعيذ به وعن طبيب يشفيه وعن جار يؤذيه وعما في يدي أخيه فقد أتممت نعمتي فيه».

(٤) تقدم هذان البيتان في كتاب ذم الغضب والحقد والحسد.

(٥) الذي قال «معناه صحيح» هو السخاوي، ثم نقل قول ابن كثير «لا أصل له»، فظن الزبيدي أن الجميع لابن كثير، وليس كذلك، وانظر: تفسير القرآن العظيم ١/ ١٤٣، والمقاصد ص١٦٧.

له الدنيا بحذافيرها) تقدم الكلام عليه غير مرة.

(ومهما تأمّلتَ الناس كلَّهم وجدتهم يشكون ويتألَّمون من أمور وراء هذه الثلاث) وهي الأمن والصحة والقوت (مع أنها وبال عليهم، ولا يشكرون نعمة الله في هذه الثلاث، ولا يشكرون نعمة الله عليهم في الإيمان الذي به وصولهم إلىٰ النعيم المقيم والمُلك العظيم) الذي لا يفنَىٰ (فإن البصير) أي صاحب البصيرة (ينبغي أن لا يفرح إلا بالمعرفة واليقين والإيمان) فإنها من أفضل النعم الباطنة (بل نحن نعلم من العلماء مَن لو سُلِّم إليه جميع ما دخل تحت قدرة ملوك الأرض من المشرق إلىٰ المغرب من أموال) وأعراض (وأتباع وأنصار وقيل له: خذها عوضًا عن علمك) ومعرفتك (بل عن عُشر عشير علمك، لم يأخذه) ولم يقبله (وذلك لرجائه أن نعمة العلم تفضي به إلىٰ قرب الله سبحانه وتعالىٰ في الآخرة) وما ذُكر في عوضه فكلُّه فانٍ ولا يقرِّبه إلىٰ جوار الله تعالىٰ (بل لو قيل له: لك في الآخرة ما ترجوه بكماله، فخذْ هذه اللذات في الدنيا بدلاً عن التذاذك بالعلم في الدنيا وفرحك به لكان لا يأخذه؛ لعلمه بأن لذة العلم دائمة لا تنقطع، وباقية لا تُسرَق ولا تُغصَب ولا ينافَس فيها، وأنها صافية لا كدورة فيها، ولذات الدنيا كلها ناقصة ومكدَّرة ومشوَّشة، لا يفي مرجوُّها بمخوفها، ولا لذتها بألمها، ولا فرحها بغمِّها) فإنها إن حَلَتْ أوحلت، أو جَلَتْ أوجلت، أو كَسَتْ أوكست (هكذا رُؤيَ) من أول الزمان (إلىٰ الآن، وهكذا تكون ما بقي الزمان) ودار المَلَوان (إذ ما خُلقت لذَّات الدنيا إلا لتُجلَب بها العقول الناقصة وتُخدَع، حتىٰ إذا انخدعت وتقيَّدت بها أبت عليها) وامتنعت (واستعصت) فهي (كالمرأة الجميل ظاهرها تتزيَّن للشاب الشَّبِق): الكثير الشهوة (الغبي) الغافل عن العواقب (حتىٰ إذا تقيَّد بها قلبُه) وعلقَ بها باطنُه (استعصبت عليه) وجمحت (واحتجبت عنه) ولم تواصله (فلا يزال معها في تعب قائم وعناء دائم، وكل ذلك لاغتراره بلذَّة النظر إليها في لحظته، ولو عقلَ وغضَّ البصر واستهان بتلك اللذة سَلِمَ جميعَ عمره) في ماله وعِرضه وجسده (فهكذا

وقعت أرباب الدنيا في شباك الدنيا وحبائلها) وخِدَعها (ولا ينبغي أن تقول إن المُعرِض عن الدنيا متألِّم بالصبر عنها، فإن المقبل عليها أيضًا متألِّم بالصبر عليها و) علىٰ (حفظها وتحصيلها ودفع اللصوص عنها، وتألُّم المعرض) عنها (يفضي إلىٰ لذة في الآخرة) وهي القرب من جوار الله تعالىٰ (وتألُّم المقبل) عليها (يفضي إلىٰ ألم في الآخرة) وهو البعد عن جوار الله تعالىٰ (فليقرأ المعرض عن الدنيا علىٰ نفسه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟﴾) أي لا تضعُفوا (﴿فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ﴾) أي طلبهم ومقاتلتهم لإعلاء كلمة الحق (﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾) [النساء: ١٠٤] وهو إشارة إلىٰ تلك اللذة (فإذًا إنما انسدَّ طريق الشكر علىٰ الخلق لجهلهم بضروب النعم الظاهرة والباطنة والخاصة والعامة) وبانسداد طريق الشكر حُرموا طريق المزيد، وأورثهم ذلك النقصانَ أبدًا.

(فإن قلتَ: فما علاج هذه القلوب الغافلة حتىٰ تشعر بنعم الله تعالىٰ فعساها تشكر؟ فأقول: أما القلوب البصيرة فعلاجها التأمل فيما رمزنا إليه من أصناف نعم الله تعالىٰ العامة) المبذولة علىٰ الخلق (وأما القلوب) الجامدة (البليدة التي لا تعدُّ النعمة نعمةً إلا إذا خُصِّصتها أو شعرت بالبلاء معها فسبيله أن ينظر أبدًا إلىٰ مَن هو دونه) في أمور الدنيا (ويفعل ما كان يفعله بعض) السادة (الصوفية؛ إذ كان يحضر كل يوم دار المرضىٰ) وهي المارستان (والمقابر والمواضع التي تقام فيها الحدود) الشرعية (فكان يحضر دار المرضىٰ ليشاهد أنواع بلاء الله تعالىٰ عليهم، ثم يتأمل في صحته وسلامته) من تلك البلايا (فيُشعِر قلبَه بنعمة الصحة عند شعوره ببلاء الأمراض، و) كان يحضر المواضع التي تُقام فيها الحدود (يشاهد الجُناة) هم الجانون علىٰ أنفسهم (الذين يُقتَلون) قصاصًا (وتُقطَع أطرافهم) في السرقة (ويعذَّبون بأنواع العذاب) في حد الخمر والقذف وغير ذلك، أو من طريق السياسة (ليشكر الله تعالىٰ علىٰ عصمته) وحفظه (من الجنايات) الشرعية (ومن تلك العقوبات، ويشكر الله تعالىٰ علىٰ نعمة الأمن) حيث لا يطالبه أحد بدم أو ذمة

أو غير ذلك (و) كان (يحضر المقابر فيعلم أن أحب الأشياء إلىٰ الموتىٰ أن يُرَدُّوا إلىٰ الدنيا ولو يومًا واحدًا) كما ورد ذلك في الأخبار (أما مَن عصىٰ الله فليتدارك، وأما مَن أطاع الله فليزد في طاعته، فإنَّ يوم القيامة) هو (يوم التغابن) كما سمَّاه الله تعالىٰ في كتابه: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩] (فالمطيع مغبون؛ إذ يرىٰ جزاء طاعته فيقول: كنت أقدر علىٰ أكثر من هذه الطاعات، فما أعظم غُبني) وخسارتي (إذ ضيَّعتُ بعض الأوقات في المباحات! وأما العاصي فغبنُه ظاهر) يرىٰ غيره بحسن الجزاء علىٰ أعماله، وهذا قد ضيَّع عمره في الغفلة والعصيان، فلا أغبن منه (فإذا شاهد المقابر وعلم أن أحب الأشياء إليهم) أي إلىٰ أصحاب المقابر (أن يكون قد بقي لهم من العمر ما بقي له فيصرف بقية العمر إلىٰ ما يشتهي أهل القبور العودَ) إلىٰ الدنيا (لأجله؛ ليكون ذلك معرفته لنعم الله تعالىٰ في بقية العمر، بل في الإمهال في كل نفَس من الأنفاس، وإذا عرف تلك النعمة شكر بأن يصرف العمر إلىٰ ما خُلق لأجله وهو التزوُّد من الدنيا للآخرة) كما هو حقيقة الشكر عند العارفين (فهذا علاج هذه القلوب الغافلة لتشعر بنعم الله تعالىٰ فعساها تشكر، وقد كان الربيع بن خُثَيم) الثوري الكوفي الفقيه الزاهد (مع تمام استبصاره يستعين بهذه الطريق تأكيدًا للمعرفة) الحاصلة له (فكان قد حفر في داره قبرًا، فكان يضع غلاًّ في عنقه وينام في لحده ثم يقول) هذه الآية: (ربِّ ارجعونِ لعلي أعمل صالحًا. ثم يقوم ويقول) مخاطبًا لنفسه: (يا ربيع قد أُعطيتَ ما سألتَ، فاعملْ قبل أن تسأل الرجوع فلا تُرَدّ)[1].

وممَّا ينبغي أن تعالَج بها القلوب البعيدة عن الشكر أن تعرف أن النعمة إذا لم تُشكَر زالت ولم تعُدْ، ولذلك قال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالىٰ: عليكم بملازمة الشكر علىٰ النعم، فقلَّ نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم) نقله صاحب القوت.

---

(١) تقدم هذا الأثر في كتاب آداب الصحبة.

(وقال بعض السلف: **النعم وحشية، فقيِّدوها بالشكر**)[1] نقله صاحب القوت.

(وفي الخبر: **ما عظُمت نعمةُ الله علىٰ عبد إلا كثرت حوائج الناس إليه، فمَن تهاون بهم عرَّض تلك النعمة للزوال**) قال العراقي[2]: رواه ابن عدي وابن حبان في الضعفاء من حديث معاذ بن جبل بلفظ: «إلا عظُمت مؤنةُ الناس عليه، فمَن لم يحتمل تلك المؤنةَ ...» الحديث. ورواه ابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عباس وقال: إنه موضوع علىٰ حجاج الأعور. انتهىٰ.

قلت: حديث معاذ رواه أيضًا أبو سعد السَّمَّان في مشيخته وأبو إسحاق المستملي في معجمه والبيهقي وضعَّفه والخطيب وابن النجار، وفيه أحمد ابن مَعْدان العبدي، قال أبو حاتم: مجهول، والحديث الذي رواه باطل. ورواه الشيرازي في الألقاب عن عمر بن الخطاب موقوفًا. ورواه ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج من حديث عائشة بلفظ: «إلا اشتدَّت عليه مؤنة الناس». وتقدم في كتاب ذم البخل والمال بلفظ: «مَن عظُمت»، وتقدم الكلام عليه هناك، فراجعْه.

(**وقال الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾**) [الرعد: ١١] قيل: لا يغيِّر نعمه عليهم حتىٰ يغيِّروها بتضييع الشكر فيعاقبهم بالتغيير، والوجه الآخر: لا يغيِّر ما بهم من عقوبة حتىٰ يغيِّروا معاصيهم بالتوبة، فذكر بذلك السبب الأول من حكمه، ثم ذكر السبب الثاني من حكمته، وهو مسبِّب الأسباب بمشيئته وحكمته.

---

(١) هذا القول نسبه الزمخشري في ربيع الأبرار ٥/ ٢٨٣ إلىٰ جعفر بن محمد الصادق، وفيه: فأشكلوها، بدل: فقيدوها.

(٢) المغني ٢/ ١٠٣٣ - ١٠٣٤.

(فهذا تمام هذا الركن) الثاني، وبالله التوفيق.

(الركن الثالث من كتاب الصبر والشكر: فيما يشترك فيه الصبر والشكر ويرتبط أحدهما بالآخر).

بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد

اعلمْ أيها السالك (لعلك تقول: ما ذكرتَه في النعم إشارة إلىٰ أن الله تعالىٰ في كل موجود نعمة، وهذا يشير إلىٰ أن البلاء لا وجود له أصلاً، فما معنىٰ الصبر إذًا؟ وإن كان البلاء موجودًا فما معنىٰ الشكر علىٰ البلاء؟ وقد ادَّعىٰ مدَّعون أنَّا نشكر علىٰ البلاء فضلاً عن الشكر علىٰ النعمة، فكيف يُتصور الشكر علىٰ البلاء؟ وكيف يُشكَر علىٰ ما يُصبَر عليه؟ والصبر علىٰ البلاء يستدعي ألمًا، والشكر يستدعي فرحًا، وهما يتضادَّان) فكيف يجتمعان؟ (وما معنىٰ ما ذكرتموه من أن الله تعالىٰ في كل ما أوجده نعمة علىٰ عباده؟ فاعلمْ أن البلاء موجود، كما أن النعمة موجودة، والقول بإثبات النعمة يوجب القولَ بإثبات البلاء؛ لأنهما متضادَّان، ففقدُ البلاء نعمة، وفقدُ النعمة بلاء، ولكن قد سبق أن النعمة تنقسم إلىٰ نعمة مطلقة من كل وجه، أما في الآخرة فكسعادة العبد بالنزول) والقرب (في جوار الله تعالىٰ، وأما في الدنيا فكالإيمان وحُسن الخُلق وما يعين عليهما. وإلىٰ نعمة مقيَّدة من وجه دون وجه، كالمال الذي يُصلِح الدينَ من وجه ويفسده من وجه) آخر، ولذا عُدَّ من الخيرات المتوسطة (فكذلك البلاء ينقسم إلىٰ مطلق ومقيَّد، أما المطلق في الآخرة فالبعد من الله تعالىٰ إما مدة) من الزمن (وإما أبدًا، وأما في الدنيا فالكفر والمعصية وسوء الخلق، وهي التي تفضي إلىٰ البلاء المطلق. وأما) البلاء (المقيَّد فكالفقر والمرض والخوف وسائر أنواع البلاء التي لا تكون بلاء في الدين بل في الدنيا، فالشكر المطلق للنعمة المطلقة، أما البلاء المطلق في الدين[1] فقد لا يؤمَر بالصبر عليه، فإنَّ الكفر بلاء، ولا معنىٰ للصبر عليه، وكذلك المعصية، بل حق الكافر أن يترك كفره، وكذا حق العاصي. نعم، الكافر قد لا يعرف أنه كافر، فيكون كمَن به

(١) في ط الشعب ١٢/ ٢٢٨٢، وط المنهاج ٧/ ٤٢١: الدنيا. وكأنه الصواب، والله أعلم.

علة وهو لا يتألَّم بها بسبب غشية) أصابته (أو غيرها) مما يذهل العقلَ (فلا صبر عليه، والعاصي يعرف أنه عاصٍ، فعليه تركُ المعصية، بل كل بلاء يقدر الإنسان علىٰ دفعه فلا يؤمَر بالصبر عليه، فلو ترك الإنسان الماء مع طول العطش حتىٰ عظُم تألُّمه فإنه لا يؤمر بالصبر عليه، بل يؤمر بإزالة الألم، وإنما الصبر علىٰ ألم ليس إلىٰ العبد إزالته، فإذًا يرجع الصبر في الدنيا إلىٰ ما ليس ببلاء مطلق، بل يجوز أن يكون نعمة من وجه، فلذلك يُتصور أن تجتمع عليه وظيفة الصبر والشكر، فإن الغِنىٰ مثلاً يجوز أن يكون سبب هلاك الإنسان حتىٰ يُقصَد بسبب ماله فيُقتَل ويُقتَل أولاده) وأنصاره ويؤخذ منه ذلك المال (والصحة أيضًا كذلك، فما من نعمة من هذه النعم الدنيوية إلا ويجوز أن تصير بلاء ولكن بالإضافة إليه، فكذلك ما من بلاء) من البلايا التي تصيب العبد (إلا ويجوز أن يصير نعمة ولكن بالإضافة إلىٰ حاله، فرُب عبد تكون الخيرة له في الفقر والمرض ولو صح بدنُه وكثر مالُه لبطر وبغىٰ) وتجاوز الحدود (قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ [الشورىٰ: ٢٧] وقال تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾) [العلق: ٦] فجعل الطغيان ثمرة الاستغناء.

(وقال ﷺ: إن الله ليحمي عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما يحمي أحدكم مريضه) الطعام والشراب يخاف عليه. رواه أحمد وابن عساكر من حديث محمود بن لبيد بلفظ: «كما تحمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه». ورواه كذلك الحاكم من حديث أبي سعيد. وروىٰ الديلمي من حديث أنس: «إن الله لَيحمي المؤمن من الدنيا نظرًا وشفقة عليه كما يحمي المريضَ أهلُه الطعام». وروىٰ الروياني وأبو الشيخ في الثواب والحسن بن سفيان وابن عساكر وابن النجار من حديث حذيفة: «إن الله لَيحمي عبده المؤمن من الدنيا كما يحمي المريضَ أهلُه الطعام». وقد تقدم[1].

---

(١) في كتاب ذم الغرور.

(وكذلك الزوجة والولد والقريب وكل ما ذكرناه من الأقسام الستة عشر من النعم) من ضرب أربعة في أربعة (سوىٰ الإيمان وحُسن الخُلق فإنها تُتصور أن تكون بلاء في حق بعض الناس، فتكون أضدادها إذًا نعمًا في حقهم؛ إذ قد سبق أن المعرفة كمال ونعمة، فإنها صفة من صفات الله تعالىٰ) باعتبار كونها مرادفة للعلم (ولكن قد تكون علىٰ العبد في بعض الأمور بلاء، ويكون فقدُها نعمة، مثاله: جهلُ الإنسان بأجله، فإنه نعمة عليه؛ إذ لو عرفه ربما تنغَّص عليه العيش) أي تكدَّر (وطال بذلك غمُّه) ولم يتهَنَّ في أحواله، فإبهامه من النعم اللطيفة (وكذلك جهلُه بما يضمره الناسُ) أي يخفونه (عليه) في قلوبهم (من معارفه وأقاربه نعمة عليه؛ إذ لو رُفع الستر) وانكشف الحال (واطَّلع عليه لطال ألمُه وحقده وحسده واشتغاله بالانتقام) منهم ليشفِ غيظه منهم (وكذلك جهلُه بالصفات المذمومة من غيره نعمة عليه؛ إذ لو عرفها) بما فيه (أبغضه وآذاه، وكان ذلك وبالاً عليه في الدنيا والآخرة) أما في الدنيا فلاشتغاله بإبغاضه وتضييع أوقاته، وأما في الآخرة فلِما يترتَّب عليه من المؤاخذات (بل جهلُه بالخصال المحمودة في غيره قد يكون نعمة عليه، فإنه ربما يكون وليًّا لله تعالىٰ وهو يضطر إلىٰ إيذائه وإهانته، ولو عرف ذلك وآذىٰ كان إثمه لا محالة أعظم، فليس مَن آذىٰ نبيًّا أو وليًّا وهو يعرف كمَن آذىٰ وهو لا يعرف) ولفظ القوت: ومن كبائر النعم ثلاث، مَن جهلها أضاع الشكر عليها، ومعرفتها شكرُ العارفين، أولها: استتار الله عَزَّوَجَلَّ بقدرته وعزَّته عن الأبصار، ولو ظهر للعباد العيان لكانت معاصيهم كفرًا؛ لأنهم لم يكونوا ينقصون من المعاصي المكتوبة عليهم جناح بعوضة، ولأنه تعالىٰ كان يظهر بوصف لا يمتنعون معه عن المعاصي، ووراء هذا سرائر الغيوب، إلا أنهم كانوا يكفرون بالمواجهة لانتهاك حرمة المشاهدة. وأيضًا، لمَّا كان لهم في الإيمان به من عظيم الدرجات ما لهم الآن؛ لأنهم حينئذٍ يؤمنون بالشهادة، وهم اليوم يؤمنون بالغيب، فرُفعت لهم الدرجات بحسن اليقين، ولذلك مدحهم الله تعالىٰ ووصفهم. والنعمة الثانية: إخفاء القدَر والآيات عن عموم الخلق؛ لأنها من سر الغيب وصلاح العبيد واستقامة الدنيا والدين، ولو

ظهرت لهم لكانت خطاياهم الصغائر كبائر مع معاينة الآيات ولَما ضوعِفت لهم علىٰ أعمالهم الحسنات كمضاعفتها الآن للإيمان بالغيب. والنعمة الثالثة: تغييب الآجال عنهم؛ إذ لو علموا بها لَما كانوا يزدادون ولا ينقصون من أعمالهم الخير والشر ذرَّةً، فكان ذلك مع علمهم بالأجل أشد مطالبة لهم وأوقع للحُجَّة عليهم، فأخفىٰ ذلك عنهم معذرةً لهم من حيث لا يعلمون ولطفًا بهم ونظرًا إليهم من حيث لا يحتسبون. ثم بعد ذلك من لطائف النعم شمولُ ستره لهم وحجبُ بعضهم عن بعض وسترُهم عند العلماء والصالحين، ولولا ذلك لَما نظروا إليهم، ثم حجبُ الصالحين عنهم، ولو أظهر عليهم آيات يُعرَفون بها حتىٰ يكون الجاهلون علىٰ يقين من ولاية الله تعالىٰ لهم وقربهم منه لبطل ثوابُ المحسنين إليهم، ولحرُمَ قبولُ إحسانهم عليهم، ولحبطت أعمالُ المسيئين إليهم، ففي حجبِ ذلك وستره ما عمل العاملون لهم في الخير والشر علىٰ الرجاء وحُسن الظن بالغيب من وراء حجاب اليقين وتأخرت عقوبات المؤذينَ لهم عن المعالجة لما ستر عليهم من عظيم شأنهم عند الله وجليل قدْرهم، ففي ستر هذا نعمٌ عظيمة علىٰ الصالحين في نفوسهم من سلامة دينهم وقلة فتنتهم، ونعم جليلة علىٰ المنتهكين لحرمتهم المصغِّرين لشعائر الله من أجلهم؛ إذ كانوا أساؤوا إليهم من وراء حجاب، فهذا هو لطف خفيٌّ من لطف المنعم اللطيف الوهاب، كما جاء في الخبر: «يقول الله تعالىٰ: مَن آذىٰ وليًّا من أوليائي فقد بارزني بالمحاربة، ثم أنا الثائر لوليِّي [لا أَكِلُ نصرتَه إلىٰ غيري]». فيكون مَثلُ ذلك مَثل مَن آذىٰ نبيًّا وهو لا يعلم بنبوَّته قبل أن يخبره أنه رسول الله وأن الله تعالىٰ نبَّأه، فلا يكون وزره وزر مَن انتهك حرمة نبي قد كان أعلمه أنه نبي الله؛ لعظيم حرمة النبوة. وروينا عن جعفر الصادق وغيره من السلف في معنىٰ هذه النعم التي أوجبنا الشكرَ في إخفائها قال: إن الله تعالىٰ خبَّأ ثلاثًا في ثلاث: رضاه في طاعته، فلا تحقروا منها شيئًا لعل رضاه فيه. وخبأ سخطه في معصيته، فلا تحقروا منها شيئًا لعل غضبه فيها، وخبأ ولايته في عباده المؤمنين، فلا تحقروا منهم أحدًا لعله ولي لله عَزَّوَجَلَّ.

(ومنها إبهام الله تعالىٰ أمر القيامة) متىٰ تقوم (وإبهامه ليلة القدر) في أيِّ ليلة من ليالي شهر رمضان (وإبهامه ساعة يوم الجمعة) التي لا يوافقها عبدٌ مسلم ودعا الله بشيء إلا استُجيبَ له (وإبهامه بعض الكبائر) كما تقدم ذلك في كتاب التوبة (فكل ذلك نعمة؛ لأن هذا الجهل يوفِّر دواعيك علىٰ الطلب والاجتهاد) وقد زِيدَ علىٰ ما ذُكر الصلاة الوسطىٰ، فإن الله تعالىٰ أخفاها كذلك لطفًا منه ومنَّةً لتوفير الدواعي علىٰ الاجتهاد (فهذه وجوه نعم الله تعالىٰ في الجهل فكيف في العلم. وحيث قلنا إن لله تعالىٰ في كل موجود نعمة فهو حق) لا خطأ فيه (وذلك مطَّرد في حق كل أحد) اطِّرادًا شائعًا (ولا يُستثنَىٰ عنه بالظن إلا الآلام التي يخلقها في بعض الناس، وهي أيضًا قد تكون نعمة في حق المتألِّم بها، فإن لم تكن نعمة في حقه كالألم الحاصل من المعصية كقطعه يد نفسه ووسمه بشرته) بالنار أو النيلج (فإنه يتألم به وهو عاصٍ به، وألم الكفار في النار فهو أيضًا نعمة ولكن في حق غيرهم من العباد لا في حقهم؛ لأن مصائب قوم عند قوم فوائد) وهو نصف مصراع بيت[1] (ولولا أن الله خلق العذاب وعذَّب به طائفة) من العباد (لَما عرف المتنعِّمون قدر نعمه، ولا كثُر فرحُهم بها، ففرحُ أهل الجنة إنما يتضاعف إذا تفكَّروا في آلام أهل النار) وسمعوا تضاغيهم فيها، فيحمدون الله تعالىٰ علىٰ ما هم فيه من النعيم ويشتد فرحهم (أما ترىٰ أهل الدنيا ليس يشتد فرحهم بنور الشمس مع شدة حاجتهم إليها من حيث إنها عامة مبذولة) ولا بضوء القمر كذلك (ولا يشتد فرحُهم بالنظر إلىٰ زينة السماء) الدنيا (وهي أحسن من كل بستان لهم في الأرض يجتهدون في عمارته) وترتيبه (ولكن زينة السماء لمَّا عمَّت) علىٰ الخلق (لم يشعروا بها، ولم يفرحوا بسببها. فإذًا قد صح ما ذكرناه من أن الله تعالىٰ لم يخلق شيئًا إلا وفيه حكمة) إما ظاهرة وإما باطنة (ولا خلق شيئًا إلا وفيه نعمة إما علىٰ جميع عباده أو

---

(١) وهو:

بذا قضت الأيام ما بين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد

وهو للمتنبي في ديوانه ص ٣٢٠.

علىٰ بعضهم، فإذًا في خلق الله تعالىٰ البلاء نعمةٌ أيضًا إما علىٰ المبتلَىٰ) به (أو علىٰ غير المبتلَىٰ، فإذًا كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطلق ولا نعمة مطلقة فيجتمع فيها علىٰ العبد وظيفتان: الصبر والشكر جميعًا) فهذا وجه اجتماعهما في محل واحد.

(فإن قلتَ: فهما متضادَّان فكيف يجتمعان؟ إذ لا صبر إلا علىٰ غمٍّ، ولا شكر إلا علىٰ فرح. فاعلمْ أن الشيء الواحد قد يُغتَمُّ به من وجه ويُفرَح به من وجه آخر، فيكون الصبر من حيث الاغتمام، والشكر من حيث الفرح، وفي كل فقر ومرض وخوف وبلاء في الدنيا خمسة أمور) ولفظ القوت: ويقال: ما من مصيبة إلا ولله تعالىٰ فيها خمس نعم (ينبغي أن يفرح العاقل بها ويشكر عليها:

أحدها: أن كل مصيبة ومرض فيُتصور أن يكون أكبر منها؛ إذ مقدورات الله لا تتناهَىٰ، فلو ضعَّفها الله تعالىٰ وزادها ماذا كان يردُّه ويحجزه) عن ذلك (فليشكر إذ لم تكن أعظم منها في الدنيا.

الثاني: أنه كان يمكن أن تكون مصيبته في دينه) حُكي أنه (قال رجل لسهل) ابن عبد الله التستري رحمه الله تعالىٰ: (دخل اللص بيتي وأخذ متاعي. فقال) له علىٰ وجه التذكير بما فوق ذلك من البلايا: (اشكر الله، لو دخل) اللص الذي هو (الشيطان قلبَك فأفسد) عليك (التوحيد ماذا كنت تصنع)؟ عرَّفه بذلك نعمة الله عليه فيما صرفه عنه من البلاء الذي هو أعظم من بلائه، فإن بلاء الآخرة أشد من بلاء الدنيا. أورده القشيري في الرسالة.

(ولذلك استعاذ عيسىٰ عليه السلام في دعائه إذ قال: اللهم لا تجعل مصيبتي في ديني)[1] أي لأنها أعظم من مصيبة الدنيا.

(وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما ابتُليتُ ببلاء إلا وكان لله تعالىٰ عليَّ فيه أربع نعم) أولها: (إذ لم يكن) ذلك البلاء (في ديني، و) الثانية: (إذ لم يكن أعظم

---

(١) تقدم هذا الدعاء مطولا في كتاب الأذكار والدعوات.

منه، و) الثالثة: (إذ لم أُحرَم الرضا به، و) الرابعة: (إذ أرجو الثواب عليه.

و) قيل: (كان لبعض أرباب القلوب صديق) فابتُلي بكذب عليه أو بغيره (فحبسه السلطان، فأرسل إليه) أي إلىٰ صاحبه (يُعلِمه) بذلك (ويشكو إليه، فقال له) صاحبه، أي كتب إليه: (اشكر الله تعالىٰ. فضربه) السلطان (فكتب إليه يخبره ويشكو إليه، فقال) أي فكتب إليه: (اشكر الله تعالىٰ. فجيء) إليه في الحبس (بمجوسي فحُبس عنده، وكان مبطونًا، فقُيِّدَ، وجُعلت حلقة من قيده في رجله، وحلقة) من رِجل هذا (في رِجل المجوسي) بحيث لا يمشي أحدهما إلا بمشي الآخَر (فأرسل إليه) يخبره بخبره (فقال) أي فكتب إليه في الجواب: (اشكر الله تعالىٰ. فكان المجوسي يحتاج أن يقوم) بسبب بطنه لبيت الخلاء (مرَّات) عديدة بالليل (وهو) أي هذا الصديق (يحتاج أن يقوم معه ويقف علىٰ رأسه حتىٰ يقضي حاجته) ثم يرجعا إلىٰ مكانهما (فكتب إليه بذلك، فقال) أي فكتب إليه في الجواب: (اشكر الله تعالىٰ. فقال) أي فكتب إليه: (إلىٰ متىٰ تقول هذا)؟ يعني قولك: اشكر الله (وأيُّ بلاء أعظم من هذا) البلاء؟ (فقال) أي فكتب إليه يقول: (لو جُعل الزُّنَّار الذي في وسطه علىٰ وسطك) كما وُضع القيد الذي في رجله في رجلك. والزُّنَّار، كرمَّان: علامة الشرك (ماذا كنت تصنع)؟ نبَّهه بذلك علىٰ أنه ما من بلاء إلا وفوقه ما هو أعظم منه من بلايا الدين والدنيا، وعلىٰ أن كل ذلك بقضائه وقدره، وقد سلَّمك الله من بلاء الشرك، فاشكر الله تعالىٰ علىٰ ذلك. أورده القشيري في الرسالة.

وفي القوت: وكذلك إذا رأيتَ مبتلًىٰ في دينه بصفات المنافقين أو مبتلًىٰ بنفسه بأخلاق المتكبِّرين أو منهمكًا فيما عليه من أفعال الفاسقين عددتَ جميع ذلك نعمًا عليك من الله تعالىٰ؛ إذ لم يجعلك كذلك؛ لأنك قد كنت أنت ذاك لولا فضل الله عليك ورحمته، فتحسب كلَّ ما وجَّه إلىٰ غيرك من الشر أو صرف عنه من الخير نعمًا عليك بمثل ما وجَّهَ به من الخير إليك وصرف من الشر عنك؛ لأن النفوس كنفس واحدة في الأمر بالسوء، والمشيئة والقدرة واحدة، فقد رحمك بما

صرف من السوء عنك، فذلك من نعم الله عليك.

(فإذًا ما من إنسان قد أصيب ببلاء إلا ولو تأمل حق التأمل في سوء أدبه ظاهرًا وباطنًا في حق مولاه لكان يرىٰ أنه يستحق أكثر ممَّا أصيبَ به عاجلاً وآجلاً، ومَن استحقَّ عليك أن يضربك مائة سوط فاقتصر علىٰ عشرة) مثلاً (فهو مستحق للشكر، و) كذا (مَن استحقَّ عليك أن يقطع يديك) جميعًا (فترك إحداهما فهو مستحق للشكر) ولو ضربك مائة سوط كاملاً أو قطع يديك جميعًا ماذا كنت تصنع؟ (ولذلك مر بعض الشيوخ[1] في شارع، فصُبَّ علىٰ رأسه طست من رماد، فسجد لله تعالىٰ سجدة الشكر) ولم يتغيَّر حاله الذي كان عليه (فقيل له) أي قال له أصحابه الذين شاهدوا ذلك منه: (ما هذه السجدة) في هذه الحالة؟ (فقال: كنت أنتظر أن تُصَبَّ عليَّ النار، فالاقتصار علىٰ الرماد نعمة) هذا نظرُ العارفين بالله، حيث جعل صب الرماد عليه مصالحة عن النار التي كان يستحقُّها.

(وقيل لبعضهم: ألا تخرج إلىٰ الاستسقاء فقد احتُبِست الأمطار؟ فقال: أنتم تستبطئون المطر، وأنا أستبطئ الحجر) قال أبو نعيم في الحلية[2]: حدثنا أبو عمرو عثمان بن محمد العثماني، حدثنا إسماعيل بن علي، حدثنا هارون بن حميد، حدثنا سيَّار، حدثنا جعفر قال: قلنا لمالك بن دينار: ألا ندعو لك قارئًا يقرأ؟ قال: إن الثكلَىٰ لا تحتاج إلىٰ نائحة. فقلنا له: ألا تستسقي؟ قال: أنتم تستبطئون المطر، لكني أستبطئ الحجارةَ.

(فإن قلتَ: كيف أفرح وأرىٰ جماعة ممَّن زادت معصيتهم علىٰ معصيتي ولم يُصابوا بما أُصِبتُ به حتىٰ الكفار؟ فاعلمْ أن الكافر قد خُبِّئ له) من العذاب (ما هو أكثر، وإنما أُمهِل) وتُرِك (حتىٰ يستكثر من الإثم ويطول عليه العقابُ، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ﴾) [آل عمران: ١٧٨] وقال تعالىٰ: ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ

---

(١) هو أبو عثمان الحيري، وقد تقدمت هذه الحكاية بسياق آخر في كتاب رياضة النفس.

(٢) حلية الأولياء ٢/ ٣٧٣.

كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٨٣، القلم: ٤٥] (وأما المعاصي فمن أين تعلم أن في العالَم مَن هو أعصىٰ منه؟ ورُب خاطر) يخطر (بسوء أدب في حق الله تعالىٰ وفي صفاته) ما هو (أعظم وأطم من شرب الخمر والزنا وسائر المعاصي بالجوارح، ولذلك قال تعالىٰ في مثله: ﴿وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ ﴾ [النور: ١٥] فمن أين تعلم أن غيرك أعصىٰ منك؟ ثم لعله قد أُخِّرت عقوبته إلىٰ الآخرة وعُجِّلت عقوبتك في الدنيا، فلِمَ لا تشكر الله تعالىٰ علىٰ ذلك؟ وهذا هو الوجه الثالث في الشكر) علىٰ المصيبة من الوجوه الخمسة (وهو أنه ما من عقوبة إلا وكان يُتصور أن تؤخَّر إلىٰ الآخرة) فيعظُم عذابُها (ومصائب الدنيا يُتسلَّىٰ عنها بأسباب أُخَر تهوِّن المصيبةَ فيخفُّ وَقْعُها) أي أثرُها (ومصيبة الآخرة تدوم، وإن لم تدُمْ فلا سبيل إلىٰ تخفيفها بالتسلِّي) عنها بأسباب أُخَر (إذ أسباب التسلِّي مقطوعة بالكلية في الآخرة عن المعذَّبين) لانقطاع الأحساب والأنساب (ومَن عُجِّلت عقوبته في الدنيا فلا يعاقَب ثانيًا) إذ الجمع بين العقوبتين ممَّا يخالف الكرمَ (إذ قال رسول الله ﷺ: إن العبد إذا أذنب ذنبًا فأصابته شدة أو بلاء في الدنيا فالله أكرم من أن يعذِّبه ثانيًا) قال العراقي[١]: رواه الترمذي[٢] وابن ماجه[٣] من حديث علي: «مَن أصاب في الدنيا ذنبًا فعوقِب به فالله أعدلُ من أن يثني عقوبتَه علىٰ عبده ...» الحديث. لفظ ابن ماجه، وقال الترمذي: «مَن أصاب حدًّا فعُجِّلت عقوبته في الدنيا»، وقال: حسن. وللشيخين[٤] من حديث عُبادة بن الصامت: «ومَن أصاب من ذلك شيئًا فعوقِب به فهو كفَّارة له ...» الحديث.

قلت: وتمام الحديث عند الترمذي: «ومَن أصاب حدًّا فستره الله عليه [وعفا

---

(١) المغني ٢/ ١٠٣٤.

(٢) سنن الترمذي ٤/ ٣٧٠.

(٣) سنن ابن ماجه ٤/ ٢٠٢.

(٤) صحيح البخاري ١/ ٢٢، ٣/ ٦٥، ٣٠٨، ٤/ ٢٤٧، ٢٥٠، ٤/ ٣٤٥، ٣٩٨. صحيح مسلم ٢/ ٨١٧.

عنه] فالله أكرمُ من أن يعود في شيء قد عفا عنه». وقال: حسن غريب. ورواه كذلك ابن أبي الدنيا في حسن الظن[١] والحاكم[٢] والبيهقي[٣]. وقد رُوي ذلك أيضًا من حديث خزيمة بن ثابت، ولفظه: «مَن أصاب منكم ذنبًا ممَّا نهىٰ الله تعالىٰ عنه فأقيمَ عليه حدُّه فهو كفَّارة ذنبه». رواه الحسن بن سفيان وأبو نعيم[٤]. وفي لفظ: «مَن أصاب ذنبًا فأقيمَ عليه حدُّ ذلك الذنب فهو كفَّارته». رواه أحمد[٥] والدارمي[٦] وابن جرير والدارقطني[٧] والطبراني[٨] وأبو نعيم والبيهقي[٩] والضياء. ورواه ابن النجار بلفظ: «مَن أذنب ذنبًا». ورواه أحمد[١٠] وابن جرير وصحَّحه من حديث علي بلفظ: «مَن أذنب في الدنيا ذنبًا فعوقِب به فالله أعدل من أن يثنِّي عقوبته علىٰ عبده ...» الحديث.

(**الرابع: أن هذه المصيبة والبلية كانت مكتوبة عليه في أم الكتاب**) لا محالة (**وكان لا بد من وصولها إليه، وقد وصلت، ووقع الفراغ، واستراح من بعضها أو من جميعها، فهذه نعمة**) إن تأمَّلتَ فيها.

(**الخامس: أن ثوابها أكثر منها، فإن مصائب الدنيا طرق إلىٰ الآخرة**) نقله صاحب القوت. وذلك (**من وجهين، أحدهما: الوجه الذي يكون به الدواء الكريه**

---

(١) حسن الظن بالله ص ٤٠.

(٢) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ٤٦، ٢/ ٥٢٣، ٤/ ٣٩٥، ٥٤٢.

(٣) السنن الكبرىٰ ٨/ ٥٧٠.

(٤) معرفة الصحابة ٢/ ٩١٧ - ٩١٨.

(٥) مسند أحمد ٣٦/ ١٩١، ٢٠١.

(٦) سنن الدارمي ٢/ ٢٣٧.

(٧) سنن الدارقطني ٤/ ٣٠١.

(٨) المعجم الكبير ٤/ ٨٧ - ٨٨.

(٩) السنن الكبرىٰ ٨/ ٥٧٠.

(١٠) مسند أحمد ٢/ ٧٨، ١٦٥، ٤٦٢.

نعمة في حق المريض ويكون المنع من أسباب اللعب نعمة في حق الصبي، فإنه لو خُلِّي واللعب كان يمنعه ذلك عن العلم والأدب) أي عن تحصيلهما (فكان يخسر جميع عمره) ويندم علىٰ جهله (فكذلك المال والأهل والأقارب) ففي الخبر: «سيأتي زمان يكون هلاك أحدكم علىٰ يدي زوجته وولده» (والأعضاء حتىٰ العين التي هي أعزُّ الأشياء قد تكون سببًا لهلاك الإنسان في بعض الأحوال) إذا لم يغضُّها عن الحرام (بل العقل الذي هو أعزُّ الأمور قد يكون سببًا لهلاكه، فالملحدة) الخارجون عن عقائد الجماعة (غدًا يتمنَّون أنْ لو كانوا مجانين أو صبيانًا ولم يتصرَّفوا بعقولهم في دين الله عَزَّوَجَلَّ) فإنَّ الذي أصابهم من زيغ عقائدهم إنما هو من تغليبهم جهة العقل علىٰ النقل (فما من شيء من هذه الأسباب يوجد من العبد إلا ويُتصور أن يكون له فيه خيرة دينية، فعليه أن يُحسِن الظن بالله تعالىٰ ويقدِّر فيه الخيرة ويشكره عليه، فإن حكمة الله واسعة، وهو بمصالح العباد أعلم من العباد، وغدًا يشكره العباد علىٰ البلايا) والمصائب التي أصابتهم في الدنيا (إذا رأوا ثواب الله علىٰ البلاء) مضاعَفًا (كما يشكر الصبي بعد) زمان (العقل والبلوغ) إلىٰ مراتب الرجال (أستاذَه وأباه علىٰ ضربه وتأديبه؛ إذ يدرك ثمرة ما استفاده من التأديب) والضرب وهو العلم والمعرفة (والبلاء من الله تعالىٰ) علىٰ عباده (تأديب) لهم (وعنايته بعباده أتم وأوفر من عناية الآباء بالأولاد، فقد رُوي أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: أوصني. قال: لا تتَّهم الله في شيء قضاه عليك) قال العراقي[1]: رواه أحمد[2] والطبراني من حديث عبادة بزيادة في أوله، وفي إسناده ابن لهيعة.

(ونظر رسول الله ﷺ إلىٰ السماء فضحك، فسُئل) عن ضحكه (فقال: عجبتُ

---

(١) المغني ٢/ ١٠٣٤.

(٢) مسند أحمد ٣٧/ ٣٩٠، ولفظه: «أتىٰ رجل النبي ﷺ فقال: يا نبي الله، أي العمل أفضل؟ قال: الإيمان بالله وتصديق به وجهاد في سبيله. قال: أريد أهون من ذلك يا رسول الله. قال: السماحة والصبر. قال: أريد أهون من ذلك يا رسول الله. قال: لا تتهم الله في شيء قضىٰ لك به».

لقضاء الله تعالىٰ للمؤمن، إن قضىٰ له بالسَّرَّاء رضي وكان خيرًا له، وإن قضىٰ له بالضَّرَّاء رضي وكان خيرًا له) قال العراقي[١]: رواه مسلم[٢] من حديث صهيب دون نظره إلىٰ السماء وضحكه: «عجبًا لأمر المؤمن، إنَّ أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سَرَّاء شكرَ فكان خيرًا له، وإن أصابته ضَرَّاء صبرَ فكان خيرًا له». وللنسائي في اليوم والليلة من حديث سعد بن أبي وقاص: «عجبت من قضاء الله للمؤمن، إن أصابه خيرٌ حمدَ ربَّه وشكر ...»[٣] الحديث. انتهىٰ.

قلت: حديث صهيب رواه كذلك أحمد[٤] والدارمي[٥] وابن حبان[٦]. وعند الطبراني[٧]: «عجبتُ من قضاء الله للمسلم، كله خير، إن أصابته سَرَّاء فشكر آجره الله عَزَّوَجَلَّ، وإن أصابته ضَرَّاء فصبر آجرَه الله عَزَّوَجَلَّ، فكل قضاء قضاه الله للمسلم خيرٌ». وأما حديث سعد بن أبي وقاص فتمامه: «وإن أصابته مصيبةٌ حمدَ ربه وصبرَ، يؤجَر المؤمن في كل شيء حتىٰ في اللقمة يرفعها إلىٰ في امرأته». ورواه كذلك أحمد[٨] وعبد بن حميد[٩] والبيهقي[١٠] والضياء[١١]. وفي لفظ للطيالسي[١٢]: «عجبت

(١) المغني ٢/ ١٠٣٥.

(٢) صحيح مسلم ٢/ ١٣٦٥.

(٣) لفظ النسائي في السنن الكبرىٰ ٩/ ٣٩٢: «ألا أعجبكم، إن المؤمن إذا أصاب خيرا حمد الله وشكر، وإذا أصابته مصيبة حمد الله وصبر، فالمؤمن يؤجر علىٰ كل شيء حتىٰ الأكلة يرفعها إلىٰ فيه».

(٤) مسند أحمد ٣١/ ٢٦٤، ٢٦٨، ٣٩/ ٣٤٧، ٣٥١.

(٥) سنن الدارمي ٢/ ٤١٠.

(٦) صحيح ابن حبان ٧/ ١٥٥.

(٧) المعجم الكبير ٨/ ٤٧.

(٨) مسند أحمد ٣/ ٨٢، ٨٦، ١١٣، ١٤٢.

(٩) المنتخب من مسند عبد بن حميد ١/ ١٥٩، ١٦٢.

(١٠) السنن الكبرىٰ ٣/ ٥٢٦.

(١١) الأحاديث المختارة ٣/ ٢٢٢ - ٢٢٣.

(١٢) مسند الطيالسي ١/ ١٧١.

للمسلم، إذا أصابته مصيبة احتسب وصبر، وإذا أصابه خيرٌ حمد الله وشكرَ، إن المسلم يؤجر في كل شيء حتىٰ في اللقمة يرفعها إلىٰ فيه». ورواه كذلك عبد بن حميد والبيهقي.

وفي الباب عن أنس: «عجبًا للمؤمن، إن الله لا يقضي له قضاءً إلا كان خيرًا له». رواه كذلك ابن أبي شيبة وأبو يعلىٰ[1] وابن منيع.

وأما التبسُّم والنظر إلىٰ السماء فقد رُوي من وجه آخر من حديث ابن مسعود قال: كنت جالسًا عند رسول الله ﷺ، فتبسم، فقلنا: يا رسول الله، ممَّ تبسمتَ؟ قال: «عجبت للمؤمن وجزعه من السقم، ولو كان يعلم ما له من السقم لأحب أن يكون سقيمًا حتىٰ يلقىٰ ربَّه ﷻ». ثم تبسم الثانية ورفع رأسه إلىٰ السماء فنظر إليها، فقالوا: ممَّ تبسمتَ؟ قال: «عجبتُ لملَكين نزلا من السماء يلتمسان مؤمنًا في مُصلاَّه ...» الحديث[2].

(الوجه الثاني: أن رأس الخطايا المهلكة حب الدنيا) كما ورد معنىٰ ذلك في الخبر (ورأس أسباب النجاة التجافي بالقلب عن دار الغرور) بأن يبعد عنها وعن الأسباب التي تقرِّبه إليها (ومُواتاة النعم علىٰ وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة تورث طمأنينةَ القلب إلىٰ الدنيا وأسبابها وأنسه بها حتىٰ تصير كالجنة في حقِّه، فيعظُم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقته) لها؛ لتعلُّق قلبه بها (وإذا كثُرت عليه المصائب انزعج قلبه عن الدنيا، ولم يسكن إليها، ولم يأنس بها، وصارت سجنًا عليه، وكانتْ نجاته منها) بالموت (غاية اللذة كالخلاص من السجن) فيفرح كما يفرح الذي خرج من سجن (ولذلك قال ﷺ: الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر)

(١) مسند أبي يعلىٰ ٧/ ٨٦، ٢٢١، ٢٨٨.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات ص ٧٤ - ٧٥، والطبراني في المعجم الأوسط ٣/ ١٤، وأبو القاسم الأصبهاني في الترغيب والترهيب ١/ ٣٣٧ - ٣٣٨.

رواه مسلم من حديث أبي هريرة، وقد تقدم[١] (و) ليس المراد بالكافر هنا مَن أشرك بالله في توحيده ولم يصدِّق رسولَه، بل (الكافر: كل مَن أعرض عن الله تعالىٰ) بقلبه (ولم يُرِدْ إلا الحياة الدنيا ورضي بها واطمأنَّ إليها) وهذا المعنىٰ يُتصور في بعض مَن تحلَّىٰ بظاهر الإيمان (والمؤمن) هنا: (كل منقطع بقلبه عن الدنيا، شديد الحنين إلىٰ الخروج منها. والكفر بعضه ظاهر، وبعضه خفيٌّ، وبقدر حب الدنيا في القلب) وتمكُّنه منه (يسري فيه الشرك الخفي) أخفَىٰ من دبيب النمل (بل الموحِّد المطلق هو الذي لا يحب إلا الواحد الحق) ولا يريد سواه (فإذًا في البلاء نعمٌ من هذا الوجه، فيجب الفرح به، وأما التألُّم فهو ضروريٌّ، وذلك يضاهي فرحك عند الحاجة إلىٰ الحجامة، فمَن يتولَّىٰ حجامتك مجَّانًا) بلا عوض (أو يسقيك دواء نافعًا بشعًا) أي كريهًا (وهو مجَّان) من غير عوض (فإنك تتألَّم وتفرح، فتصبر علىٰ الألم، وتشكره علىٰ سبب الفرح، فكل بلاء في الأمور الدنيوية مثاله الدواء الذي يؤلم في الحال) ببشاعته (وينفع في المآل) فالصبر يتعلق بالأول، والشكر يتعلق بالثاني (بل مَن دخل دار ملك للنضارة) أي التفرُّج (وعلم أنه يخرج منها لا محالة فرأىٰ وجهًا حسنًا لا يخرج معه من الدار كان ذلك وبالاً وبلاء عليه؛ لأنه يورثه الأنس بمنزل لا يمكنه المقام فيه، ولو كان عليه في المقام خطرٌ من أن يطَّلع عليه الملك فيعذِّبه فأصابه ما يكره حتىٰ نفره عن المقام كان ذلك نعمة عليه) تجب مقابلتها بالشكر (والدنيا منزل، وقد دخلها الناس من باب الرحم، وهم خارجون منها من باب اللحد، فكل ما يحقق أنسهم بالمنزل فهو بلاء، وكل ما يزعج قلوبَهم عنها ويقطع أنسهم بها فهو نعمة، فمَن عرف هذا تُصوِّر منه أن يشكر علىٰ البلاء، ومَن لم يعرف هذه النعم في البلاء لم يُتصور منه الشكر؛ لأن الشكر يتبع معرفةَ النعمة بالضرورة، ومَن لا يؤمن بأن ثواب المصيبة أكبر من المصيبة لم يُتصوَّر منه الشكر علىٰ المصيبة) وبه اتَّضح معنىٰ الوجه الخامس.

---

(١) في كتاب ذم الدنيا مع شرحه وشواهده.

(وحُكيٰ أن أعرابيًّا عزَّىٰ ابنَ عباس علىٰ أبيه) ﷺ (فقال) ولفظ القوت: وحُدِّثتُ أن العباس لما توفي قعد [ابنه] عبد الله للتعزية، فدخل الناس أفواجًا يعزُّونه، فكان فيمن دخل أعرابي، فأنشا يقول:

(اصبر نكنْ بك صابرين فإنما   صبر الرعيَّة بعد صبر الراس

خير من العباس أجرُك بعده   والله خير منك للعباس

فقال ابن عباس) رضي الله عنه: (ما عزَّاني أحد أحسن من تعزيته) واستحسن ذلك. ثم قال صاحب القوت: وعندنا في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٤] قيل: ظلوم بالسخط، كفَّار بالنعم. وفي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾﴾ [العاديات: ٦] قيل: وهو الذي يشكو المصائب وينسىٰ النعم، ولو علم أن مع كل مصيبة عشر نعم بحذائها وزيادة، قلَّت شكواه وبدَّلها شكرًا. ثم إن المصائب لا تخلو من ثلاثة أقسام كلها نعم من الله تعالىٰ: إما أن تكون درجة، وهذا للمقرَّبين والمحسنين. أو تكون كفَّارة، وهذا لخصوص أصحاب اليمين وللأبرار. أو تكون عقوبة، وهذا للكافَّة من المسلمين. فتعجيل العقوبة في الدنيا رحمة ونعمة، ومعرفة هذه النعم طريق الشاكرين.

(والأخبار الواردة في الصبر علىٰ المصائب كثيرة) منها: (قال رسول الله ﷺ: مَن يُرِد الله به خيرًا يُصِبْ منه) أي ينال منه بالمصائب ويبتليه بها. قال العراقي[١]: رواه البخاري من حديث أبي هريرة. انتهىٰ.

قلت: ورواه كذلك أحمد والنسائي وابن حبان. وقد تقدم الكلام علىٰ هذا الحديث[٢].

(وقال ﷺ: قال الله تعالىٰ: إذا وجَّهت إلىٰ عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو

---

(١) المغني ٢/ ١٠٣٥.

(٢) في كتاب آداب الصحبة.

ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانًا أو أنشر له ديوانًا) رواه الحكيم في النوادر والديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس. وقد أغفله العراقي[١].

(وقال ﷺ: ما من عبد أصيبَ بمصيبة فقال كما أمره الله تعالىٰ: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، اللهم آجرني في مصيبتي وأعقِبْني خيرًا منها، إلا فعل الله به ذلك) رواه الطيالسي وأحمد وأبو نعيم في الحلية من رواية أم سلمة عن أبي سلمة بلفظ: «ما من عبد يُصاب بمصيبة فيقول: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، اللهم عندك أحتسب مصيبتي، فأجرني فيها وأعقِبْني منها خيرًا إلا أعطاه الله ذلك». ورواه ابن سعد في الطبقات بلفظ: «ما من عبد يُصاب بمصيبة فيفزع إلىٰ ما أمره الله به من قول: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي هذه وعوِّضني خيرًا منها، إلا آجره الله في مصيبته، وكان قمنًا أن يعوِّضه الله [عنها] خيرًا منها». وقد أغفله العراقي.

(وقال ﷺ: قال الله تعالىٰ: مَن سلبتُ كريميته فجزاؤه الخلود في داري والنظر إلىٰ وجهي) رواه الطبراني في الكبير والأوسط من حديث جرير بلفظ: «عوَّضتُه عنهما الجنة». ورواه أبو يعلىٰ وابن حبان والضياء من حديث ابن عباس: «قال الله تعالىٰ: «إذا أخذتُ كريمتَي عبد فصبر واحتسب لم أرضَ له ثوابًا دون الجنة». وقد تقدم الكلام عليه[٢]، وأغفله العراقي.

(ورُوي أن رجلاً قال: يا رسول الله، ذهب مالي وسقمَ جسمي. فقال ﷺ: لا خير في عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسمُه، إن الله إذا أحب عبدًا ابتلاه، وإذا ابتلاه صبَّره) قال العراقي[٣]: رواه ابن أبي الدنيا في كتاب المرض والكفَّارات[٤] من

(١) تقدم هذا الحديث واللذان بعده في: بيان مظان الحاجة إلىٰ الصبر.

(٢) في كتاب العزلة.

(٣) المغني ٢/ ١٠٣٥.

(٤) المرض والكفارات ص ١٩٦، ولفظه: «أتىٰ رجل إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، كبرت =

حديث أبي سعيد الخدري بإسناد فيه لين. انتهىٰ.

قلت: الجملة الأولىٰ قد رويت من حديث عبد الله بن عبيد بن عمير الليثي بلفظ: «لا خير في مال لا يُرزأ [منه] وجسد لا يُنال منه»(١). والجملة الثانية رُوي نحوها من حديث أبي عنبة الخَوْلاني بلفظ: «إن الله عَزَّوَجَلَّ إذا أراد بعبد خيرًا ابتلاه، فإذا ابتلاه اقتناه». قالوا: يا رسول الله، وما اقتناه؟ قال: «لم يترك له مالاً ولا ولدًا». رواه الطبراني وابن عساكر(٢).

وروىٰ البيهقي(٣) من حديث أبي هريرة: «إن الله إذا أحب عبدًا ابتلاه ليسمع صوته». وعند هنَّاد(٤): «ليسمع تضرُّعه».

وعن الحسن مرسلاً: «إن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم». رواه البيهقي(٥).

وروىٰ أحمد(٦) من حديث محمود بن لبيد: «إن الله تعالىٰ إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمَن صبر فله الصبرُ، ومَن جزع فله الجزع».

(وقال ﷺ: إن الرجل لَتكونُ له الدرجة عند الله تعالىٰ لا يبلغها بعمل حتىٰ

= سني، وسقم جسدي، وذهب مالي. فقال رسول الله ﷺ: لا خير في جسد لا يبتلىٰ، ولا خير في مال لا يرزأ منه، إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه، وإذا ابتلاه صبره».

(١) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرىٰ ١٠/ ١٤٤، ولفظه: «جاء رجل من بني سليم إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لي ابنة من جمالها وعقلها ما إني لأحسد الناس عليها غيرك. فهم النبي ﷺ أن يتزوجها، ثم قال: وأخرىٰ يا رسول الله لا والله ما أصابها عندي مرض قط. فقال له النبي ﷺ: لا حاجة لنا في ابنتك، تجيئنا تحمل خطاياها، لا خير في مال لا يرزأ منه، وجسد لا يُنال منه».

(٢) ورواه أيضا ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني ٤/ ٤٤٥، والدولابي في الكنىٰ والأسماء ص ١٣٦.

(٣) شعب الإيمان ١٢/ ٢٣٨.

(٤) الزهد ١/ ٢٣٧.

(٥) شعب الإيمان ١٢/ ٢٣٨.

(٦) مسند أحمد ٣٩/ ٣٥، ٤١، ٤٧.

يُبتلَىٰ ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك) قال العراقي(١): رواه أبو داود(٢) في رواية ابن داسة وابن العبد من حديث محمد بن خالد السلمي عن أبيه عن جده، وليس في رواية اللؤلؤي. ورواه أحمد(٣) وأبو يعلىٰ(٤) والطبراني(٥) من هذا الوجه. ومحمد بن خالد لم يروِ عنه إلا أبو المليح الحسن بن عمر الرقِّي، وكذلك لم يروِ عن خالد إلا ابنه محمد. وذكر أبو نعيم(٦) أن ابن منده سمَّىٰ جده: اللجلاج ابن حكيم، فالله أعلم، وعلىٰ هذا فابنه خالد بن اللجلاج هو غير خالد بن اللجلاج العامري، ذاك مشهور روىٰ عنه جماعة. ورواه ابن منده وأبو نعيم(٧) وابن عبد البر في الصحابة(٨) من رواية عبد الله بن أبي إياس بن أبي فاطمة عن أبيه عن جده، ورواه البيهقي(٩) من رواية إبراهيم السلمي عن أبيه عن جده، فالله أعلم. انتهىٰ.

ورواه كذلك هناد بن السري(١٠) من حديث ابن مسعود.

ورواه ابن حبان(١١) والحاكم(١٢) من حديث أبي هريرة، وصحَّحه الحاكم وتُعُقِّب.

---

(١) المغني ٢/ ١٠٣٦.

(٢) سنن أبي داود ٤/ ٧.

(٣) مسند أحمد ٣٧/ ٢٩.

(٤) مسند أبي يعلىٰ ٢/ ٢٢٤.

(٥) المعجم الكبير ٢٢/ ٣١٨.

(٦) معرفة الصحابة ٥/ ٢٤٢٦.

(٧) السابق ١/ ٢٩٦.

(٨) الاستيعاب ٢/ ٤٤٧.

(٩) السنن الكبرىٰ ٣/ ٥٢٤.

(١٠) الزهد ١/ ٢٣٧.

(١١) صحيح ابن حبان ٧/ ١٦٩.

(١٢) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ٤٨٨، وقال: صحيح الإسناد. وتعقبه الذهبي في التلخيص فقال: «يحيىٰ بن أيوب وأحمد بن عبد الجبار ضعيفان، ويونس بن بكير ليس بحجة».

وقال الحافظ في الإصابة[(١)]: روىٰ ابن شاهين من طريق الوليد بن صالح، عن أبي المليح الرقي، حدثنا محمد بن خالد بن زيد بن جارية - بالجيم - عن أبيه، عن جده: سمعت النبي ﷺ يقول: «إذا كان للعبد عند الله درجة لم يُنِلْه إيَّاها ابتلاه في الدنيا ثم صبَّره علىٰ البلاء لينيله تلك الدرجة». قال: وقد رواه ابن منده في ترجمة اللجلاج بن حكيم السلمي، وزعم أنه أخو الجُحاف بن حكيم، وأنه في أهل الجزيرة، وساق حديثه من طريق أبي المليح أيضًا، إلا أنه لم يسمِّ والد خالد، بل قال: عن محمد بن خالد عن أبيه عن جده. وهكذا أورده البخاري[(٢)] في ترجمة محمد بن خالد، وأخرجه أبو داود من رواية ابن داسة عنه في السنن، ولم أرَ والد خالد مسمًّىٰ إلا في رواية ابن شاهين.

وقال[(٣)] البغوي في الكنى: أبو خالد السلمي جد محمد بن خالد. ثم أورد له هذا الحديث من طريق أبي المليح عن محمد بن خالد السلمي عن جده، وكانت له صحبة.

وأما حديث أبي فاطمة، فقال الحافظ في الإصابة[(٤)] في ترجمة أبي فاطمة الضَّمْري: قال البخاري[(٥)]: قال ابن أبي أويس: حدثني أخي، عن حماد بن أبي حميد، عن مسلم بن عقيل مولىٰ الزُّرَقيين [قال]: دخلت علىٰ عبد الله بن أبي إياس بن أبي فاطمة الضمري، فقال: يا أبا عقيل، حدثني أبي، عن جدي قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: « أيُّكم يحب أن يصح فلا يسقم ...»؟ الحديث، وفيه: «إن الله لَيبتلي المؤمن، وما يبتليه إلا لكرامته عليه أو لأن له منزلة عنده، فلا يبلِّغه

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ٤/ ٤٥.

(٢) التاريخ الكبير ١/ ٧٣، ونصه: «محمد بن خالد، عن أبيه عن جده، سمع النبي ﷺ في الزيارة، قاله لي عبد الله بن جعفر عن أبي المليح الحسن».

(٣) الإصابة ١١/ ٩٨.

(٤) السابق ١١/ ٢٩٥.

(٥) التاريخ الكبير ٧/ ٢٦٦.

تلك المنزلة إلا ببلائه له»[١]. هكذا أورده في ترجمة أبي عقيل المذكور، ووقع لي بعلو في المعرفة لابن منده من طريق أبي عامر العقدي، عن محمد بن أبي حميد - وهو حماد - عن مسلم بن عقيل، عن عبد الله بن أبي إياس، عن أبيه، عن جده. قال ابن منده: رواه رِشْدين بن سعد عن زُهرة بن معبد عن عبد الله. قال الحافظ: إلا أنه سمَّىٰ أباه أنسًا بدل إياس، كذا قال، وقد ساقه الحاكم أبو أحمد من طريق رشدين فقال: إياس، فلعل الوهم من النسخة.

(وعن خَبَّاب بن الأَرَتِّ) بتشديد[٢] المثناة، بن جندلة بن سعد بن خزيمة التميمي، ويقال: الخزاعي، أبو عبد الله. أسلم سادس ستة، وكان من المستضعَفين، شهد بدرًا وما بعدها، ونزل الكوفة، ومات بها سنة سبع وثلاثين منصرَف عليٍّ من صِفين عن ثلاث وستين سنة **(قال: أتينا رسولَ الله ﷺ وهو متوسِّد بردائه في ظل الكعبة، فشكونا إليه فقلنا: يا رسول الله، ألا تدعو الله تستنصره لنا؟ فجلس محمرًّا لونه، ثم قال: إن مَن كان قبلكم لَيؤتَىٰ بالرجل فيُحفَر له في الأرض حفرة، ويُجاء بالمنشار فيوضع علىٰ رأسه فيجعله فرقتين، ما يصرفه ذلك عن دينه)** قال العراقي[٣]: رواه البخاري[٤].

قلت: ورواه كذلك أحمد[٥] وأبو داود[٦] والنسائي[٧].

(١) في التاريخ الكبير: «إن الله ليبتلي المؤمن، لا يبتليه إلا لكرامته وإلا أن له عنده منزلة لا يبلغها بشيء من عمله دون أن ينزل به من البلاء، ما يبلغه تلك المنزلة إلا ببلاء يبلغه».

(٢) الإصابة ٣/ ٧٦ - ٧٧.

(٣) المغني ٢/ ١٠٣٦.

(٤) صحيح البخاري ٢/ ٥٣١، ٣/ ٥٥، ٤/ ٢٨٥.

(٥) مسند أحمد ٣٤/ ٥٣٧، ٥٥١، ٤٥/ ١٩١.

(٦) سنن أبي داود ٣/ ٢٧٨.

(٧) السنن الكبرىٰ ٥/ ٣٨٥.

وقال أبو نعيم في الحلية[١]: حدثنا عبد الله بن جعفر بن إسحاق الموصلي، حدثنا محمد بن أحمد بن المثنَّىٰ، حدثنا جعفر بن عون، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس، عن خَبَّاب قال: شكونا إلىٰ رسول الله ﷺ وهو مضطجع في بُرْدة له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تدعو الله لنا؟ ألا تستنصر الله لنا؟ فجلس محمرًّا وجهه ثم قال: «واللهِ إن مَن كان قبلكم لَيؤخَذُ الرجل فيُشَق باثنين ما يصرفه عن دينه شيء، أو يمشَّط بأمشاط الحديد ما بين عصب ولحم ما يصرفه عن دينه شيء، وليتمَّنَّ الله هذا الأمر حتىٰ يسير الراكب منكم من صنعاء إلىٰ حضرموت لا يخشىٰ إلا الله والذئب علىٰ غنمه، ولكنكم قوم تَعجلون».

(**وعن علي كرَّم الله وجهه قال: أيُّما رجل حبسه السلطان ظلمًا فمات فهو شهيد، فإن ضربه فمات فهو شهيد**)[٢] هذا أثر أورده في خلال الأخبار.

(**وقال ﷺ: من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك، ولا تذكر مصيبتك**) تقدم الكلام عليه.

وروىٰ صاحب الحلية[٣] عن أبي الدرداء قال: ثلاث من ملاك أمر ابن آدم: لا تشكُ مصيبتك، ولا تحدِّث بوجعك، ولا تزكِّ نفسك بلسانك.

(**وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: تولَدون للموت، وتعمِّرون للخراب، وتحرصون علىٰ ما يفنَىٰ، وتذرون ما يبقىٰ، ألا حبَّذا المكروهات الثلاث: الفقر والمرض والموت**)[٤] وأخرج أبو نعيم في الحلية[٥] من طريق شعبة عن معاوية بن قرَّة قال: قال أبو الدرداء: ثلاث أحبهن ويكرههنَّ الناس: الفقر والمرض والموت.

(١) حلية الأولياء ١/ ١٤٤.

(٢) السمرقندي في تنبيه الغافلين ص٢٤٧ (ط دار ابن كثير).

(٣) حلية الأولياء ١/ ٢٢٤.

(٤) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ١١٢، ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٧/ ١٦٣.

(٥) حلية الأولياء ١/ ٢١٧.

ومن طريق شعبة، عن عمرو بن مرَّة، عن شيخ، عن أبي الدرداء قال: أحب الموت اشتياقًا إلىٰ ربي، وأحب الفقر تواضعًا لربي، وأحب المرض تكفيرًا لخطيئتي.

ومن طريق سعيد بن أبي هلال أن أبا الدرداء كان يقول: يا معشر أهل دمشق، ألا تستحيون؟ تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون، وتأملون ما لا تبلغون ... الحديث.

(وعن أنس) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **(قال: قال رسول الله ﷺ: إذا أراد الله بعبد خيرًا وأراد أن يصافيه صب عليه البلاء صبًّا وثجَّه عليه ثجًّا، فإذا دعاه قالت الملائكة: صوت معروف، فإن دعاه ثانيًا فقال: يا رب، قال الله تعالىٰ: لبَّيك عبدي وسعديك، لا تسألني شيئًا إلا أعطيتك أو دفعت عنك ما هو خير أو ادَّخرت لك عندي ما هو أفضل منه، فإذا كان يوم القيامة جيء بأهل الأعمال فوُفُّوا أعمالهم بالميزان أهل الصلاة والصيام والصدقة والحج، ثم يؤتَىٰ بأهل البلاء فلا يُنصَب لهم ميزان ولا يُنشَر لهم ديوان، يُصَبُّ عليهم الأجر صبًّا كما كانوا يُصَبُّ عليهم البلاء صبًّا، فيودُّ أهل العافية في الدنيا لو أنهم كانت تُقرَض أجسادهم بالمقاريض لِما يرون ما يذهب به أهل البلاء من الثواب، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾)** [الزمر: ١٠] قال العراقي[١]: رواه ابن أبي الدنيا في كتاب المرض والكفارات[٢] من رواية بكر بن خُنَيس عن يزيد الرقاشي عن أنس أخصر منه دون قوله: فإذا كان يوم القيامة ... الخ. وبكر بن خنيس والرقاشي ضعيفان. ورواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب[٣] بتمامه، وأدخل بين بكر وبين الرقاشي ضرارَ بن عمرو، وهو أيضًا ضعيف.

---

(١) المغني ٢/ ١٠٣٦.

(٢) المرض والكفارات ص ١٧٣.

(٣) الترغيب والترهيب ١/ ٣٣٣.

قلت: وروىٰ الطبراني في الكبير من حديث أنس: «إذا أحب الله عبدًا صبَّ عليه البلاء صبًّا وثجَّه ثجًّا».

وروىٰ البيهقي[١] عن سعيد بن المسيب مرسلاً: «إذا أحب الله عبدًا ألصق به البلاء، فإن الله يريد أن يصافيه».

وروىٰ الديلمي[٢] من حديث علي: «إذا رأيتم العبد ألمَّ به الفقر والمرض فإن الله يريد أن يصافيه».

وروىٰ[٣] ابن النجار في تاريخه من حديث عمر بن الخطاب: «إذا كان يوم القيامة جيء بأهل البلاء، فلا يُنشَر لهم ديوان، ولا يُنصَب لهم ميزان، ولا يوضَع لهم صراط، ويُصَب عليهم الأجر صبًّا».

وروىٰ الطبراني[٤] من حديث ابن عباس: «يؤتَىٰ بالشهيد يوم القيامة فيُنصَب للحساب، ويؤتَىٰ بالمتصدِّق فيُنصب للحساب، ثم يؤتَىٰ بأهل البلاء، فلا يُنصَب لهم ميزان، ولا يُنشَر لهم ديوان، فيُصَب عليهم الأجر صبًّا، حتىٰ إن أهل العافية في الدنيا لَيتمنون في الموقف أن أجسادهم قُرضت بالمقاريض من حُسن ثواب الله لهم».

(**وعن ابن عباس ﷺ قال: شكا نبيٌّ من الأنبياء**) يعني من بني إسرائيل (**إلىٰ ربه فقال: يا رب، المؤمن يطيعك ويجتنب معاصيك تزوي عنه الدنيا**) أي تصرفها عنه (**وتعرض له البلاء**) من الفقر والمرض (**ويكون العبد الكافر لا يطيعك ويجترئ عليك وعلىٰ معاصيك تزوي عنه البلاء**) أي تصرفه عنه (**وتبسط له الدنيا. فأوحىٰ الله إليه: إن العباد لي، والبلاء لي، وكلٌّ يسبِّح بحمدي**) كما قال تعالىٰ في

---

(١) شعب الإيمان ١٢/ ٢٣٨.

(٢) الفردوس بمأثور الخطاب ١/ ٢٦١.

(٣) كنز العمال ٣/ ٣٣٤.

(٤) المعجم الكبير ١٢/ ١٨٢.

كتابه العزيز: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] **(فيكون المؤمن عليه من الذنوب فأزوي عنه الدنيا وأعرض له البلاء فيكون)** ذلك **(كفَّارة لذنوبه حتىٰ يلقاني فأجزيه بحسناته، ويكون الكافر له الحسنات فأبسط له في الرزق وأزوي عنه البلاء فأجزيه بحسناته في الدنيا حتىٰ يلقاني)** في الآخرة **(فأجزيه بسيئاته)**[١] وهذا أيضًا أثر أورده في خلال الأخبار.

(ورُوي أنه لمَّا نزل قوله تعالىٰ: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] **قال أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه: كيف الفرح بعد هذه الآية؟ فقال رسول الله ﷺ: غفر الله لك يا أبا بكر، ألست تمرض؟ أليس يصيبك الأذىٰ؟ أليس تحزن؟ فهذا ما تُجزَون به. يعني أن جميع ما يصيبك)** من المرض والأذىٰ والحزن **(يكون كفَّارة لذنوبك)** قال العراقي[٢]: رواه أحمد[٣] من رواية مَن لم يُسَمَّ عن أبي بكر، ورواه الترمذي[٤] من وجه آخر بلفظ آخر وضعَّفه، قال: وليس له إسناد صحيح. وقال الدارقطني[٥]:

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير ١٢/ ١٥١ وأبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ١٢٣ مرفوعا من حديث ابن عباس.

(٢) المغني ٢/ ١٠٣٧.

(٣) مسند أحمد ١/ ٢٣٠ - ٢٣٢.

(٤) سنن الترمذي ٥/ ١٣٣ - ١٣٤، ولفظه: «عن أبي بكر الصديق قال: كنت عند رسول الله ﷺ فأنزلت عليه هذه الآية: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝١٢٣﴾ فقال رسول الله ﷺ: يا أبا بكر، ألا أقرئك آية أنزلت عليَّ؟ قلت: بلىٰ يا رسول الله. فأقرأنيها، فلا أعلم إلا أني وجدت اقتصاما في ظهري فتمطأت لها، فقال رسول الله ﷺ: ما شأنك يا أبا بكر؟ قلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، وأينا لم يعمل سوءا وإنا لمجزيون بما عملنا؟ فقال رسول الله ﷺ: أما أنت يا أبا بكر والمؤمنون فتجزون بذلك في الدنيا حتىٰ تلقوا الله وليس لكم ذنوب، وأما الآخرون فيُجمع ذلك لهم حتىٰ يجزوا به يوم القيامة». قال الترمذي: «هذا حديث غريب، وفي إسناده مقال، موسىٰ بن عبيدة يضعَّف في الحديث، ضعفه يحيىٰ بن سعيد وأحمد بن حنبل، ومولىٰ ابن سباع مجهول، وقد رُوي هذا الحديث من غير هذا الوجه عن أبي بكر، وليس له إسناد صحيح أيضا».

(٥) العلل ١/ ٢٢٤ - ٢٢٦، ٢٨٤ - ٢٨٥، ٤/ ٢٢٣ - ٢٢٤.

ورُوي أيضًا من حديث عمر ومن حديث الزبير، قال: وليس فيها شيء يثبُت.

(وعن عُقبة بن عامر) الجُهَني رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (عن النبي ﷺ أنه قال: إذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب وهو مقيم علىٰ معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج. ثم قرأ قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ يعني لمَّا تركوا ما أُمِروا به فتحنا عليهم أبواب الخير ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾ أي بما أُعطُوا من الخير ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾) [الأنعام: ٤٤] أي فجأة. قال العراقي[١]: رواه أحمد[٢] والطبراني[٣] والبيهقي في الشعب[٤] بسند حسن.

(وعن الحسن) بن يسار (البصري رحمه الله تعالىٰ أن رجلاً من الصحابة ﷺ رأىٰ امرأة كان يعرفها في الجاهلية، فكلَّمها، ثم تركها، فجعل الرجل يلتفت إليها وهو يمشي، فصدمه حائط فأثَّر في وجهه، فأتىٰ النبيَّ ﷺ فأخبره، فقال ﷺ: إذا أراد الله بعبد خيرًا عجَّل له عقوبة ذنبه في الدنيا) قال العراقي[٥]: رواه أحمد[٦] والطبراني بإسناد صحيح من رواية الحسن عن عبد الله بن مغفَّل مرفوعًا متصلاً، ووصله الطبراني أيضًا من رواية الحسن عن عمار بن ياسر، ورواه[٧] أيضًا من حديث ابن عباس. وقد روىٰ الترمذي[٨] وابن ماجه المرفوع منه من حديث أنس، وحسَّنه الترمذي.

---

(١) المغني ٢/ ١٠٣٧.

(٢) مسند أحمد ٢٨/ ٥٤٧.

(٣) المعجم الكبير ١٧/ ٣٣١.

(٤) شعب الإيمان ٦/ ٢٩٩.

(٥) المغني ٢/ ١٠٣٧ - ١٠٣٨.

(٦) مسند أحمد ٢٧/ ٣٦٠.

(٧) المعجم الكبير ١١/ ٣١٣.

(٨) سنن الترمذي ٤/ ٢٠٢.

قلت: ورواه هنَّاد بن السري[١] من مرسل الحسن: «إذا أراد الله بعبد خيرًا عجَّل له عقوبته في الدنيا، وإذا أراد الله بعبد شرًّا أخَّر عقوبتَه إلىٰ يوم القيامة حتىٰ يأتيه كأنَّه عير فيطرحه في النار». ورواه الحاكم[٢] من حديث أنس وابن عدي[٣] من حديث أبي هريرة بلفظ: «إذا أراد الله بعبده الخير عجَّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشرَّ أمسك عنه بذنبه حتىٰ يوافي به يوم القيامة». وحديث الحسن عن عبد الله بن مغفل قد رواه أيضًا الحاكم[٤] والبيهقي[٥].

(**وقال عليٌّ كرَّم الله وجهه: ألا أخبركم بأرجَىٰ آية في القرآن؟ قالوا: بلىٰ. فقرأ عليهم**) قوله تعالىٰ: (﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾) [الشورىٰ: ٣٠] قال: (**فالمصائب في الدنيا بكسب الأوزار**) أي بسبب ارتكابها (**فإذا عاقبه الله في الدنيا فالله أكرم من أن يعذِّبه ثانيًا، وإن عفا عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعذِّبه يوم القيامة**)[٦] تقدم قريبًا حديث علي من رواية الترمذي بلفظ: «مَن أصاب في الدنيا ذنبًا عوقِب به، والله أعدلُ من أن يثنِّي عقوبته علىٰ عبده، ومَن أصاب حدًّا فستره الله عليه وعفا عنه فالله أكرم من أن يعود في شيء قد عفا عنه». ومن رواية ابن ماجه، إلا أنه قال: «مَن أصاب حدًّا فعُجِّلت عقوبته في الدنيا فالله أعدل ...» الحديث. وقد رواه أيضًا ابن أبي الدنيا في حسن الظن والحاكم والبيهقي.

(**وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: ما تجرَّع عبدٌ قط جرعتين أحب إلىٰ الله من جرعة غيظ ردَّها بحِلم و**) من (**جرعة مصيبة يصبر الرجل لها، ولا قطرت قطرةٌ**

---

(١) الزهد ١/ ٢٥٠.

(٢) المستدرك علىٰ الصحيحين ٥/ ٧٤.

(٣) الكامل في الضعفاء ٥/ ١٨٣٤، وليس فيه قوله: وإذا أراد الله بعبده الشر ... الخ.

(٤) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ٤٩٤، ٤/ ٥٣٠.

(٥) شعب الإيمان ١٢/ ٢٥٥.

(٦) ذكره بهذا اللفظ: السمرقندي في تنبيه الغافلين ص٢٥٥.

أحب إلىٰ الله من قطرة دم أهريقت في سبيل الله وقطرة دمع في سواد الليل وهو ساجد ولا يراه إلا الله، وما خطا عبدٌ خطوتين أحب إلىٰ الله من خطوة إلىٰ صلاة الفريضة و) من (خطوة إلىٰ صلة الرحم)[١] قال العراقي[٢]: رواه أبو بكر ابن لال في مكارم الأخلاق من حديث علي بن أبي طالب دون ذكر القطرتين، وفيه محمد بن صدقة وهو الفَدَكي، منكر الحديث. وروىٰ ابن ماجه[٣] من حديث ابن عمر بإسناد جيد: «ما من جرعة أعظم أجرًا عند الله من جرعة غيظ كظمها عبدٌ ابتغاء وجه الله». وروىٰ الديلمي في مسند الفردوس[٤] من حديث أبي أمامة: «ما قُطر في الأرض قطرة أحب إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ من دم رجل مسلم في سبيل الله أو قطرة دمع في سواد الليل ...» الحديث، وفيه محمد بن صدقة وهو الفَدَكي، منكر الحديث.

قلت: وروىٰ ابن أبي الدنيا في ذم الغضب[٥] من حديث ابن عباس: «ما من جرعة أحب إلىٰ الله من جرعة غيظ يكظمها عبدٌ، ما كظمها عبد لله إلا ملأ الله جوفه إيمانًا».

ويُروَىٰ حديث ابن عمر بلفظ: «ما تجرَّع عبدٌ جرعة أفضل عند الله من جرعة غيظ كظمها ابتغاءَ وجه الله». هكذا رواه أحمد[٦] وابن أبي الدنيا في ذم الغضب والطبراني[٧] والبيهقي[٨].

---

(١) السابق ص٢٥٩.

(٢) المغني ٢/ ١٠٣٨.

(٣) سنن ابن ماجه ٥/ ٦٠٤، ورواه البخاري في الأدب المفرد (١٣١٨) موقوفًا علىٰ ابن عمر، وقال الدارقطني في العلل ١٣/ ١٥١: الموقوف أصح.

(٤) الفردوس بمأثور الخطاب ٤/ ٦٥.

(٥) ورواه أيضا أحمد في مسنده ٥/ ١٤٩.

(٦) مسند أحمد ١٠/ ٢٧٠.

(٧) المعجم الكبير ١٣/ ٢٥٠.

(٨) شعب الإيمان ١٠/ ٥٣٨.

وروىٰ ابن المبارك في الزهد[١] عن الحسن مرسلاً: «ما من جرعة أحب إلىٰ الله من جرعة غيظ كظمها رجل أو جرعة صبر علىٰ مصيبة، وما من قطرة أحب إلىٰ الله من قطرة دمع من خشية الله أو قطرة دم أهريقت في سبيل الله».

وروىٰ أبو الشيخ[٢] من حديث ابن عمر: «ما من خطوة أعظم أجرًا من خطوة مشاها رجل إلىٰ صف يسده».

وتمام حديث أبي أمامة عند الديلمي بعد قوله «سواد الليل»: «من خشية الله حيث لا يراه أحد إلا الله عز وجل».

(وعن أبي الدرداء) رضي الله عنه **(قال: توفي ابن لسليمان بن داود عليهما السلام، فوجد عليه وجدًا شديدًا، فأتاه ملكان فجثيا بين يديه في زي الخصوم، فقال أحدهما: بذرتُ بذرًا، فلما استحصد)** أي حانَ أن يُحصَد **(مر به هذا فأفسده. فقال)** سليمان **(للآخَر: ما تقول؟ فقال: أخذتُ الجادَّة)** أي شارع الطريق الذي يسلكه الناس **(فأتيت علىٰ زرع، فنظرت يمينًا وشمالاً فإذا الطريق عليه. فقال سليمان** عليه السلام**)** للرجل المدَّعي: **(ولِمَ بذرتَ علىٰ الطريق؟ أما علمتَ أن لا بد للناس من الطريق؟ قال)** الرجل: **(فلِمَ تحزن علىٰ ولدك؟ أما علمتَ أن الموت سبيل الآخرة)** لا بد للناس من المرور عليها **(فتاب سليمان** عليه السلام **إلىٰ ربه)** لما نبَّهه علىٰ ذلك **(ولم يجزع علىٰ ولد بعد ذلك)**[٣].

(ودخل عمر بن عبد العزيز) الأموي رحمه الله تعالىٰ **(علىٰ ابن له مريض)** قيل: هو عبد الملك **(فقال)** له: **(يا بني، لأنْ تكون في ميزاني أحب إليَّ من أن أكون في ميزانك. فقال: يا أبتِ، لأن يكون ما تحب أحب إليَّ من أن يكون ما أحب)**[٤]

---

(١) الزهد والرقائق ص ٢١٦.

(٢) وكذلك الطبراني في المعجم الأوسط ٥/ ٢٤٦.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ١٢/ ١٦، والسمرقندي في تنبيه الغافلين ص٢٥٩، وعنه ينقل الغزالي.

(٤) رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٢/ ٢٥٠، وابن أبي الدنيا في كتاب المحتضرين ص ١٢٥، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٧/ ٥٠.

أخرجه أبو نعيم في الحلية.

(و) يُروَىٰ (عن ابن عباس ﷺ أنه نُعيت إليه ابنة له) أي أُخبِر بموتها (فاسترجع) أي قال: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، وصبر (وقال: **عورة سترها الله تعالىٰ، ومؤنة كفاها الله تعالىٰ، وأجر ساقه الله تعالىٰ. ثم نزل**) عن سريره (**فصلىٰ ركعتين، ثم قال: قد صنعنا ما أمر الله تعالىٰ، قال الله تعالىٰ:** ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥][1]).

و) يُحكَىٰ (**عن ابن المبارك**) عبد الله رحمه الله تعالىٰ (**أنه مات ابن له، فعزَّاه مجوسيٌّ يعرفه فقال له: ينبغي للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام**) يعني الصبر (**فقال ابن المبارك**) لأصحابه: (**اكتبوا عنه هذه**) القولة، أي فإنها من الحِكَم.

(**وقال بعض العلماء: إن الله عَزَّوَجَلَّ لَيبتلي العبد بالبلاء بعد البلاء حتىٰ يمشي علىٰ الأرض وما له ذنب**) ومضىٰ هذا في الحديث المرفوع.

وروىٰ الطبراني[2] من رواية محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه رفعه: «إن الله يبتلي عبده بالسقم حتىٰ يكفِّر عنه كل ذنب».

وروىٰ الحاكم[3] وتمام[4] وابن عساكر[5] من حديث أبي هريرة: «إن الله

---

(١) رواه بنحوه سعيد بن منصور في تفسيره ٣/ ٥٥٩، ٦٣٤ عن زيد بن علي قال: كان ابن عباس في مسير له فنعي إليه ابن له، فنزل فصلىٰ ركعتين، ثم استرجع وقال: فعلنا كما أمرنا الله. وروىٰ ٣/ ٦٣٢ من طريق عبد الرحمن بن جوشن الغطفاني قال: نعي إلىٰ ابن عباس أخوه قثم وهو في مسير، فاسترجع ثم تنحىٰ عن الطريق فصلىٰ ركعتين أطال فيهما الجلوس، ثم قام يمشي إلىٰ راحلته وهو يقول: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝﴾.

(٢) المعجم الكبير ٢/ ١٢٩.

(٣) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ٤٩٢.

(٤) فوائد تمام ٢/ ٧٩.

(٥) تاريخ دمشق ٥٤/ ١٢٤.

لَيبتلي عبده المؤمن بالسقم حتىٰ يخفف ويكفِّر ذلك عنه كل ذنب».

(وقال الفضيل) بن عياض رحمه الله تعالىٰ: (**إن الله عَزَّوَجَلَّ لَيتعاهدُ عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالخير**) وقد رُوي نحو ذلك في المرفوع، روىٰ الروياني وأبو الشيخ والحسن بن سفيان وابن عساكر وابن النجار من حديث حذيفة: «إن الله لَيتعاهدُ عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الوالد ولده بالخير ...» الحديث[1].

(وقال حاتم الأصم) رحمه الله تعالىٰ: (**إن الله عَزَّوَجَلَّ يحتجُّ يوم القيامة علىٰ الخلق بأربعة أنفُس علىٰ أربعة أجناس: علىٰ الأغنياء بسليمان**) بن داود (**وعلىٰ الفقراء بالمسيح**) عيسىٰ ابن مريم (**وعلىٰ العبيد**) أي الأرقَّاء (**بيوسف**) بن يعقوب (**وعلىٰ المرضىٰ بأيوب**) صلوات الله عليهم أجمعين.

(**ورُوي أن زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ لمَّا هرب من الكفار من بني إسرائيل**) لما أحسَّ منهم الشر (**واختفىٰ في الشجرة**) فإنها انشقَّت بنصفين فدخل في بطنها، ثم التأمت (**فعرفوا ذلك**) وذلك أن إبليس أمسك طرفًا من ثوبه فبقي بارزًا، فلما جاء بنو إسرائيل يفتشون عليه فأخبرهم أنه في بطن الشجرة، فلم يصدِّقوه، فأراهم طرف ثوبه فعرفوه (**فجيء بالمنشار فنُشرت الشجرة حتىٰ بلغ المنشار إلىٰ رأس زكريا**) عَلَيْهِ السَّلَامُ (**فأَنَّ منه أَنَّة**) أي من ألم ما لقي من المنشار (**فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه**): أنْ (**يا زكريا، لئن صعدتْ منك أَنَّةٌ ثانية لأمحونَّك من ديوان النبوة. فعضَّ زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ علىٰ الصبر حتىٰ قُطع بشطرين**)[2] ولم يئنَّ، ويقال: إنه كان يذكر حين وصل المنشار إلىٰ حلقه الشريف، فما زال يذكر من حلقه حتىٰ نُشر، وسمَّوا هذا الذِّكر: ذِكر المنشار، وهو من أذكار أتباع القطب بابا أحمد الميسوي قُدِّس سره.

---

(١) تقدم هذا الحديث في كتاب ذم الغرور.

(٢) هذه القصة رواها ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٦/ ١٦٤ - ١٦٥ عن أبي الخير التيناتي أنه سمعها من قاص يقص علىٰ الناس في صحن الجامع بمصر. وانظر قصة مقتل زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ في: تاريخ دمشق ١٩/ ٥٥ - ٥٦، والبداية والنهاية لابن كثير ٢/ ٤٠٦ - ٤١٥.

(وقال أبو مسعود البلخي) رحمه الله تعالىٰ: **(مَن أصيبَ بمصيبة فمزَّق ثوبًا أو ضرب صدرًا فكأنَّما أخذ رمحًا يريد أن يقاتل به ربَّه عَزَّوَجَلَّ)** هكذا في النسخ، وأبو مسعود هذا لم أعرف من حاله شيئًا. وفي بعض النسخ: ابن مسعود[١]. فليحرَّر.

(وقال لقمان رحمه الله تعالىٰ لابنه: يا بني، إن الذهب يجرَّب بالنار، والعبد الصالح يجرَّب بالبلاء، وإذا أحب الله قومًا ابتلاهم، فمَن رضي فله الرضا، ومَن سخط فله السخط) يُستأنَس للشطر الأول بما رواه الطبراني[٢] والحاكم[٣] من حديث أبي أمامة: «إن الله ليجرِّب أحدَكم بالبلاء - وهو أعلم به - كما يجرِّب أحدكم ذهبه بالنار، فمنهم مَن يخرج كالذهب الأبريز، فذاك الذي حماه الله من الشبهات، ومنهم مَن يخرج كالذهب دون ذلك، فذاك الذي يشك بعض الشك، ومنهم مَن يخرج كالذهب الأسود، فذاك الذي قد افتتن». قال الحاكم: صحيح. وقد تُعُقِّب بعفير بن معدان، وهو ضعيف. وأما الشطر الثاني فقد رواه الطبراني في الأوسط[٤] والبيهقي[٥] والضياء[٦] من حديث أنس: «إذا أحب الله قومًا ابتلاهم». ورواه أحمد في الزهد[٧] عن وهب بن منبه مرسلاً. وروىٰ أحمد[٨] والبيهقي[٩] من حديث محمود بن لبيد: «إذا أحب الله قومًا ابتلاهم، فمَن صبر فله الصبر، ومَن جزع فله الجزع».

---

(١) الصواب: أبو سعيد البلخي، هكذا نقله عنه القرطبي في التذكرة ص ٣٣٩، والراغب في محاضرات الأدباء ٢/ ٥١٨. وهو أبو سعيد خلف بن أيوب العامري البلخي الحنفي المتوفى سنة ٢٠٥ هـ.

(٢) المعجم الكبير ٨/ ١٩٥.

(٣) المستدرك على الصحيحين ٤/ ٤٥٦.

(٤) المعجم الأوسط ٣/ ٣٠٢.

(٥) شعب الإيمان ١٢/ ٢٣٥ - ٢٣٦.

(٦) الأحاديث المختارة ٦/ ٣٢٨ - ٣٢٩.

(٧) الزهد ص ٤٧.

(٨) مسند أحمد ٣٩/ ٣٥، ٤١، ٤٧.

(٩) شعب الإيمان ١٢/ ٢٣٦.

(وقال) أبو[1] بحر (الأحنف بن قيس) بن معاوية التميمي السعدي البصري، وكان أحنف الرجلين جميعًا، واسمه: صخر، ثقة مأمون، قليل الحديث (أصبحت يومًا أشتكي ضرسي، فقلت لعمِّي) صعصعة بن معاوية بن حصين التميمي، له صحبة: (ما نمت البارحة من وجع الضرس. حتىٰ قلتُها ثلاثًا، فقال: لقد أكثرتَ من ضرسك في ليلة واحدة، وقد ذهبت عيني هذه منذ ثلاثين سنة ما علم بها أحدٌ) قال الزبير بن بكَّار: حدثني محمد بن سلام عن الأحنف بن قيس أنه قال لأصحابه: أتعجبون من حِلمي وخُلقي؟ وإنما هذا شيء استفدته من عمي صعصعة بن معاوية، شكوت إليه وجعًا في بطني، فأسكتني مرتين، ثم قال لي: يا ابن أخي، لا تشكُ الذي نزل بك إلىٰ أحد، فإن الناس رجلان: إما صديق فيسوءه، وإما عدوٌّ فيسرُّه، ولكن اشكُ الذي نزل بك إلىٰ الذي ابتلاك، ولا تشكُ قط إلىٰ مخلوق مثلك لا يستطيع أن يدفع عن نفسه مثل الذي نزل بك، يا ابن أخي، إن لي عشرين سنة لا أرىٰ بعيني هذه سهلاً ولا جبلاً، فما شكوت ذلك لزوجتي ولا غيرها[2]. وروىٰ المزي في تهذيب الكمال عن الأحنف قال: ذهبت عيني منذ أربعين سنة ما شكوتها لأحد[3].

(وأوحىٰ الله إلىٰ عُزَير عليه السلام): يا عزير (إذا نزلت بك بليَّة فلا تشكُني إلىٰ خلقي واشْكُ إليَّ كما لا أشكوك إلىٰ ملائكتي إذا صعدتْ بمساوئك وفضائحك) رواه الديلمي[4] من حديث أبي هريرة بلفظ: «أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ أخي العزير،

---

(١) تهذيب الكمال ٢/ ٢٨٢ - ٢٨٧.

(٢) هكذا نقله الشارح عن الإصابة لابن حجر ٥/ ١٤١ - ١٤٢ في ترجمة صعصعة بن معاوية، والقصة بسياق أطول في كتاب الموفقيات للزبير بن بكار ص ١٥١.

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان ١٢/ ٣٨١ وابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٤/ ٣٢٥ عن مغيرة بن مقسم الضبي قال: شكا ابن أخي الأحنف بن قيس وجعا بضرسه، فقال الأحنف: لقد ذهبت عيني منذ ثلاثين سنة فما ذكرتها لأحد.

(٤) الفردوس بمأثور الخطاب ١/ ١٤٤.

إن أصابتك مصيبةٌ فلا تشكُني إلىٰ خلقي، فقد أصابتني منك مصائب كثيرة ولم أشكك إلىٰ ملائكتي. يا عزير، اعصِني بقدْر طاقتك علىٰ عذابي، وسَلْني حوائجك علىٰ مقدار عملك لي، ولا تأمن مكري حتىٰ تدخل جنَّتي. فاهتزَّ عزير يبكي، فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه: لا تبكِ يا عزير، فإن عصيتني بجهلك غفرت لك بحلمي؛ لأني كريم، لا أعجل بالعقوبة علىٰ عبادي، وأنا أرحم الراحمين».

بيان فضل النعمة على البلاء

(لعلك تقول): إن (هذه الأخبار) التي سقتها بتمامها (تدل علىٰ أن البلاء خير في الدنيا من النعيم) لِما يترتَّب عليه من الثواب الجزيل (فهل لنا أن نسأل الله البلاء) لحوز ذلك الثواب الموعود؟ (فأقول: لا وجه لذلك؛ لِما رُوي عن رسول الله ﷺ أنه كان يستعيذ في دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة) قال العراقي[١]: رواه أحمد[٢] من حديث بُسْر بن أبي أرطاة بلفظ: «أجِرْنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة». وإسناده جيد. ولأبي داود[٣] من حديث عائشة: «اللهم إني أعوذ بك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة». وفيه بقية، وهو مدلِّس، ورواه بالعنعنة.

قلت: حديث بسر بن أبي أرطاة رواه أيضًا ابن حبان[٤] والباوَرْدي وابن قانع[٥] وابن أبي عاصم[٦] والطبراني[٧] والحاكم[٨] والضياء، ولفظه: «اللهم أحسِنْ عاقبتَنا في الأمور كلِّها، وأجِرْنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة». وفي لفظ للطبراني: «اللهم أحسِنْ عاقبتي في الأمور كلها، وأجِرْني من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، مَن كان ذلك دعاءه مات قبل أن يصيبه البلاء».

---

(١) المغني ٢/ ١٠٣٨ - ١٠٣٩.

(٢) مسند أحمد ٢٩/ ١٧١.

(٣) سنن أبي داود ٥/ ٣٩١.

(٤) صحيح ابن حبان ٣/ ٢٣٠.

(٥) معجم الصحابة ١/ ٨٤.

(٦) الآحاد والمثاني ٢/ ١٤٠.

(٧) المعجم الكبير ٢/ ٣٣.

(٨) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ١٧.

وروىٰ مسلم[١] وأبو داود[٢] والترمذي من حديث ابن عمرَ: «اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك وتحوُّل عافيتك وفجاءة نقمتك وجميع سخطك»[٣].

(وكان يقول هو والأنبياء عليهم السلام: ربنا آتِنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة) قال العراقي[٤]: رواه الشيخان[٥] من حديث أنس: كان أكثر دعوة يدعو بها النبي ﷺ يقول: اللهم آتِنا ... الحديث. ولأبي داود[٦] والنسائي[٧] من حديث عبد الله بن السائب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول ما بين الركنين: ربنا آتِنا ... الحديث.

قلت: عند الشيخين بزيادة: «وقِنا عذابَ النار». وكذلك رواه أحمد[٨] وأبو داود[٩]. وأما دعوة الأنبياء عليهم السلام كذلك فقد تقدم في كتاب الحج.

(وكانوا يستعيذون من شماتة الأعداء وغيرها) رواه أحمد والنسائي والطبراني والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو: «اللهم إني أعوذ بك من غلبة الدَّين، وغلبة العدو، وشماتة الأعداء». وقد تقدم في كتاب الدعوات.

---

(١) صحيح مسلم ٢/ ١٢٥٦.

(٢) سنن أبي داود ٢/ ٣٠٥.

(٣) وعند مسلم من حديث أنس «أن رسول الله ﷺ، عاد رجلًا من المسلمين قد خفت فصار مثل الفرخ، فقال له رسول الله ﷺ: «هل كنت تدعو بشيء أو تسأله إياه؟» قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة، فعجله لي في الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله لا تطيقه -أو لا تستطيعه- أفلا قلت: اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار»، قال: فدعا الله له، فشفاه». فهذا مما نحن فيه.

(٤) المغني ٢/ ١٠٣٩.

(٥) صحيح البخاري ٣/ ٢٠١، ٤/ ١٦٩. صحيح مسلم ٢/ ١٢٣٩ - ١٢٤٠.

(٦) سنن أبي داود ٢/ ٤٧٩.

(٧) السنن الكبرىٰ ٤/ ١٢٩.

(٨) مسند أحمد ١٩/ ٤٣، ١٠٥، ٢٠/ ٤٠٣، ٤١٤، ٢١/ ٢٠١، ٣٧٦، ٤٥٤.

(٩) سنن أبي داود ٢/ ٢٩٥.

(وقال علي كرَّم الله وجهه) في مرضه: **(اللهم إني أسألك الصبر. فقال ﷺ: لقد سألتَ الله البلاء، فاسأله العافية)** قال العراقي[١]: رواه الترمذي[٢] من حديث معاذ في أثناء حديث وحسَّنه، ولم يسمِّ عليًّا، وإنما قال: سمع رجلاً. وله[٣] وللنسائي في اليوم والليلة[٤] من حديث علي: كنت شاكيًا، فمر بي رسولُ الله ﷺ وأنا أقول ... الحديث، وفيه: وإن كان بلاء فصبِّرْني. فضربه برجله وقال: «اللهم عافِه واشفِه». وقال: حسن صحيح.

(وروىٰ) أبو بكر **(الصِّدِّيق** رضي الله عنه **عن رسول الله ﷺ أنه قال: سلوا الله العافية، فما أُعطيَ أحد أفضل من العافية إلا اليقين)** أورده صاحب القوت، إلا أنه قال: فما أُعطيَ عبدٌ. وقال العراقي[٥]: رواه ابن ماجه والنسائي في اليوم والليلة بإسناد جيد، وقد تقدم[٦].

قلت: ورواه أحمد والحميدي والعَدَني في مسانيدهم والترمذي وحسَّنه والضياء بلفظ: «سلوا الله العفو والعافية، فإنَّ أحدًا لم يُعطَ بعد اليقين خيرًا من العافية». ورواه ابن أبي شيبة وأحمد أيضًا والحاكم بلفظ: «سلوا الله العفو والعافية واليقين في الأولىٰ والآخرة، فإنه ما أوتيَ العبد بعد اليقين خيرًا من العافية». ورواه البيهقي في الشعب بلفظ: «سلوا الله اليقين والعافية».

(وأشار باليقين إلىٰ عافية القلب من مرض الجهل والشك، فعافية القلب أعلىٰ من عافية البدن) ولفظ القوت بعد إيراد حديث أبي بكر رضي الله عنه: ففضَّلَ العافية

---

(١) المغني ٢/ ١٠٣٩.

(٢) سنن الترمذي ٥/ ٤٩٩.

(٣) السابق ٥/ ٥٢٦.

(٤) السنن الكبرىٰ ٩/ ٣٨٩.

(٥) المغني ٢/ ١٠٤٠.

(٦) في كتاب الأذكار والدعوات.

علىٰ كل عطاء، ورفع اليقين فوق العافية؛ لأن بالعافية يتم نعيم الدنيا، واليقين معه وجود نعيم الآخرة، فلليقين فضلٌ علىٰ العافية كفضل الدوام علىٰ الانتقال، والعافية: سلامة الأبدان من العلل والأسقام، واليقين: سلامة الأديان من الزيغ والأهواء. فهاتان نعمتان تستوعبان عظيم الشكر من العبد كما استوعب القلبُ والجسم جسيمَ النعمة من الملك. ومن أقوىٰ المعاني في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء: ٨٩] أي سالم من الشك والشرك، والسالم: الصحيح المعافَىٰ، وبوجود عافية اليقين في القلوب عدم الشك والنفاق، وهي أمراض القلوب، كما قال: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠] قيل: شكٌّ ونفاق، وعافية القلب أيضًا من الكبائر، كما قال تعالىٰ: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢] يعني الزنا.

(**وقال الحسن**) البصري (**رحمه الله تعالىٰ: الخير الذي لا شر فيه العافية مع الشكر**) والصبر عند المصيبة (**فكم من منعَم عليه غير شاكر**) وكم من مبتلًىٰ غير صابر[1]. نقله صاحب القوت. ورُوي نحوه عن مطرف بن عبد الله أنه كان يقول: نظرت ما خير لا شر فيه ولا آفة، ولكل شيء آفةٌ، فما وجدته إلا أن يعافَىٰ عبدٌ فيشكر[2].

(**وقال مطرف بن عبد الله**) بن الشِّخِّير البصري رحمه الله تعالىٰ، من ثقات التابعين، تقدمت ترجمته (**لأنْ أعافَىٰ فأشكر أحب إليَّ من أن أُبتلَىٰ فأصبر**) أي لأن مقام العوافي أقرب إلىٰ السلامة، فلذلك اختار حال الشكر علىٰ الصبر؛ لأن الصبر حال أهل البلاء. كذا في القوت. وهذا القول رواه أبو نعيم في الحلية[3]:

---

(١) رواه قاسم بن ثابت السرقسطي في الدلائل في غريب الحديث ٣/ ١١٧٠ (ط - مكتبة العبيكان). ورواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٤/ ٢٥٤ من قول عون بن عبد الله. ورواه البيهقي في شعب الإيمان ٦/ ٢٥١ من قول مطرف بن عبد الله.

(٢) رواه أحمد في الزهد ص ١٩٤، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٢/ ٢٠٠، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٥٨/ ٣١٧، ويعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ ٢/ ٨٢.

(٣) حلية الأولياء ٢/ ٢٠٠.

حدثنا إبراهيم بن عبد الله، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا أبو عوانة، عن قتادة قال: قال مطرف: لأنْ أعافَىٰ ... فذكره.

(و) معنىٰ ذلك فيما (قال ﷺ في دعائه: **وعافيتك أحب إليَّ**) كذا في القوت. قال العراقي[١]: رواه ابن الجوزي[٢] في السيرة في دعائه يوم خرج إلىٰ الطائف بلفظ: «وعافيتك أوسع لي». وكذا رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الدعاء من رواية حسان بن عطية مرسلاً. ورواه أبو عبد الله ابن مَنده[٣] من حديث عبد الله بن جعفر مسندًا، وفيه من يُجهَل.

(وهذا أظهرُ من أن يُحتاج فيه إلىٰ) إقامة **(دليل واستشهاد، وهذا لأن البلاء صار نعمة باعتبارين، أحدهما بالإضافة إلىٰ ما هو أكثر منه إما في الدنيا أو في الدين،** و) الاعتبار **(الآخَر بالإضافة إلىٰ ما يُرجَىٰ من الثواب)** وقد يفترقان، وقد يجتمعان **(فينبغي أن يسأل الله تعالىٰ تمام النعمة في الدنيا ودفع ما فوقه من البلاء، ويسأله الثواب في الآخرة علىٰ الشكر علىٰ النعمة)** وروىٰ الطبراني[٤] من حديث [معاذ بن جبل] أن النبي ﷺ سمع رجلاً يقول: اللهم إني أسألك النعمة وتمامها. فقال: «أتدري ما تمام النعمة؟ تمام النعمة دخول الجنة والنجاة من النار» **(فإنه)** تعالىٰ **(قادر علىٰ أن يعطي علىٰ الشكر ما لا يعطيه علىٰ الصبر.**

فإن قلتَ: فقد قال بعضهم: أودُّ أن أكون جسرًا علىٰ النار يعبر عليه الخلق كلُّهم فينجون وأكون أنا في النار) فهل هذا القول صحيح أم لا؟ **(وقال سمنون)**

---

(١) المغني ٢/ ١٠٤٠.

(٢) في المغني: ابن إسحاق. والحديث في سيرة ابن هشام ٢/ ٦٨، وفي كتاب الوفا بأحوال المصطفىٰ لابن الجوزي ١/ ٣٣٩. وهو جزء من الدعاء المشهور: اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي ... الخ.

(٣) بل رواه أبو زكريا يحيىٰ بن عبد الوهاب ابن منده في كتاب ذكر الطبراني ص٥٠ (ط - مؤسسة الريان) من طريق الطبراني في المعجم الكبير ١٤/ ١٣٩ - ١٤١.

(٤) المعجم الكبير ٢٠/ ٥٥ - ٥٦.

ابن[١] حمزة البغدادي، أبو الحسن، وقيل: أبو القاسم، ويُعرَف بالمحب، صحب السريَّ وأبا أحمد القلانسي ومحمد بن علي القصَّار، وأكثر كلامه في المحبة، وكان كبير الشأن، مات قبل الجنيد، كما قيل، رحمه الله تعالىٰ:

(وليس لي في سواك حظٌّ   فكيفما شئتَ فاختبِرْني)
إن كان يرجو سواك قلبي   لا نِلتُ سؤلي ولا التمني

ومن هذا الوادي قوله أيضًا:

وكان فؤادي خاليًا قبل حبِّكم   وكان بذكر الخلق يلهو ويمرح
فلما دعا قلبي هواك أجابه   فلستُ أراه عن فِنائك يبرح
رُميتُ ببين منك إن كنتُ كاذبًا   وإن كنتُ في الدنيا بغيرك أفرح
وإن كان شيءٌ في البلاد بأسرها   إذا غبتَ عن عيني لعيني يملَح
فإن شئتَ واصِلْني وإن شئت لا تصل   فلستُ أرىٰ قلبي لغيرك يصلُح[٢]

(فهذا) وأمثال ذلك (من) كلام (هؤلاء) المحبِّين الهائمين (سؤال للبلاء) وتعرُّضٌ له (فاعلمْ أنه حُكي عن سمنون المحب) قائل هذا الكلام (أنه بُليَ بعد) إنشاده (هذا البيت بعلة الحصر) أي احتباس البول من ساعته، فمكث أربعة عشر يومًا يلتوي كما تلتوي الحية علىٰ الرمل يتقلَّب يمينًا وشمالاً، واعترف بالعجز من نفسه (فكان بعد ذلك يدور علىٰ أبواب المكاتب) التي فيها الصبيان يتعلَّمون القرآن (ويقول للصبيان) لكونهم لم يذنبوا، وهم مشتغلون بتعلُّم كتاب الله تعالىٰ، رجاءَ إجابة دعائهم (ادعوا لعمِّكم الكذَّاب) في دعواه. نقله القشيري في الرسالة،

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٨٨ - ٨٩. إحكام الدلالة ١/ ١٦٨ - ١٧١.

(٢) الأبيات في: تاريخ بغداد للخطيب ١٠/ ٣٢٧، وطبقات الصوفية للسلمي ص ١٦١، وصفة الصفوة لابن الجوزي ص ٤٧٠، ومصارع العشاق للسراج ٢/ ٥٠.

ثم قال: وقيل: بل أنشد هذه الأبيات، فقال بعض أصحابه لبعض: سمعت البارحة - وكنت بالرُّسْتاق - صوت أستاذنا سمنون يدعو الله ويتضرَّع إليه ويسأله الشفاء. فقال آخر: وأنا أيضًا كنت سمعت هذا البارحة وكنت بالموضع الفلاني. فقال ثالث ورابع مثل هذا، فأُخبِر سمنون، وكان قد امتُحِن بعلَّة الحصر، وكان يصبر ولا يجزع، فلما سمعهم يقولون هذا - ولم يكن هو دعا ولا نطق بشيء - علم أن المقصود منه إظهار الجزع تأدُّبًا بالعبودية وسترًا لحاله، فأخذ يطوف علىٰ المكاتب ويقول: ادعوا لعمِّكم الكذاب. ا.هـ. قال الشارح: يقال: إنه لما أُطلِق بوله قال: يا رب، تبتُ إليك. وأنشد:

أنا راضٍ بطول صدِّك عني ... ليس إلا لأن ذاك هواكا
فامتحِنْ بالجَفا ضميري علىٰ الود ... د ودعني معلَّقًا برَجاكا[1]

(وأما محبة الإنسان ليكون هو في النار دون سائر الخلق فغير ممكنة، ولكن قد تغلب المحبة علىٰ القلب حتىٰ يظن المحب بنفسه حبًّا لمثل ذلك، فمَن شرب كأس المحبة سكرَ، ومَن سكر توسَّع في الكلام، ولو زايلَه سكرُه) أي فارقه (علم أن ما غلب عليه كان حالة) عارضة (لا حقيقة لها، فما تسمعه من هذا الفن فهو من كلام العشَّاق) في حال الاستغراق (الذين أفرط) بهم (حبُّهم) وأشربوا قلوبهم إياه (وكلام العشَّاق) المهيمين (يُستلَذُّ سماعه ولا يعوَّل عليه) ولا يُستشهَد به علىٰ مقام (كما حُكي أن فاختة): طائر معروف (كان يراودها زوجها) للسفاد (فتمنعه) منه (فقال) لها: (ما الذي يمنعكِ عني ولو أردتُ أن أقلب لكِ مُلك سليمان ظهرًا لبطن لفعلتُ لأجلك؟ فسمعه سليمان ﷺ) لأنه كان قد أوتيَ منطق الطير (فاستدعاه وعاتبه، فقال: يا نبي الله، كلام العشَّاق لا يُحكَىٰ. وهو كما قال) ومن هذا القبيل: كلام الليل يمحوه النهارُ[2] (وقال الشاعر:

(١) البيتان في حلية الأولياء ١٠/ ٣١٠.

(٢) ذكره الميداني في مجمع الأمثال ٢/ ١٧٢ ضمن أمثال المولدين.

أريد وصاله ويريد هجري فأترك ما أريد لِما يريد[١]

وهو أيضًا مُحال، ومعناه: إني أريد ما لا أريد؛ لأن مَن أراد الوصال ما أراد الهجر، فكيف أراد الهجر الذي لم يُرِدْه) ولا[٢] يبعُد أنه أراد أن لا تكون له إرادة بدون إرادة الله، وأن تكون إرادته تابعة لإرادته وصلاً أو هجرًا، قربًا أو بعدًا، وفيه قال أبو يزيد قُدِّس سره لمَّا قيل له: ما تريد؟: أريد أن لا أريد. واعترضه صاحب منازل السالكين فقال: هذه أيضًا إرادة، ونوقِش بأنها إرادة مطلوبة، وبأنها داخلة في قوله: لا أريد، والحاصل أنه من باب كمال الرضا [بالقضاء] (بل لا يصدق في هذا الكلام إلا بتأويلين:

أحدهما: أن يكون ذلك في بعض الأحوال حتىٰ يكتسب به رضاه الذي يتوصل به إلىٰ مراد الوصال في الاستقبال، فيكون الهجران وسيلة الرضا، والرضا وسيلة الوصال إلىٰ المحبوب، والوسيلة إلىٰ المحبوب محبوبة، فيكون مثاله مثال محب المال إذا أسلم درهمًا في درهمين فهو يحب الدرهمين بترك الدرهم في الحال.

الثاني: أن يصير رضاه عنده مطلوبًا من حيث إنه رضاه فقط، وتكون له لذة في استشعاره رضا محبوبه منه، تزيد تلك اللذة علىٰ لذته في مشاهدته مع كراهته، فعند ذلك يُتصور أن يريد ما فيه الرضا، فلذلك قد انتهىٰ حال بعض المحبِّين إلىٰ أن صارت لذتهم في البلاء مع استشعارهم رضا الله تعالىٰ عنهم أكثر من لذتهم في العافية من غير شعور الرضا، فهؤلاء إذا قدَّروا رضاه في البلاء صار البلاء أحب إليهم من العافية، وهذه حالة لا يبعُد وقوعُها في غلبات الحب) وجذبات الشوق (ولكنها لا تثبُت) بل تزول وتنتقل، وهكذا شأن الأحوال (وإن ثبتت مثلاً فهل هي حالة صحيحة) مستقلة (أم حالة اقتضتها حالةٌ أخرىٰ وردت علىٰ القلب فمالت

(١) تقدم هذا البيت في كتاب آداب الصحبة.

(٢) شرح عين العلم لملا علي القاري ٢/ ٢٤٥.

به عن الاعتدال؟ **هذا فيه نظرٌ)** ومحل تأمُّل، والذي يظهر أن الحق القولُ الثاني وأنها تنشأ عن حالة أخرىٰ تَرِدُ علىٰ القلب **(وذِكرُ تحقيقه)** بالتفصيل **(لا يليق بما نحن فيه)** لأنه من علوم المكاشفة **(وقد ظهر بما سبق أن العافية خير من البلاء، فنسأل الله تعالىٰ المنَّان بفضله علىٰ جميع خلقه العفوَ والعافية في الدين والدنيا والآخرة لنا ولجميع المسلمين).**

بيان الأفضل من الصبر والشكر

(اعلمْ) وفَّقك الله تعالىٰ (أن الناس اختلفوا في ذلك، فقال قائلون: **الصبر أفضل من الشكر**) وهم الأكثرون، وظاهر الكتاب والسنَّة يدلاَّن عليه (وقال آخرون: **الشكر أفضل**) من الصبر، وقد ذهب إليه بعض العارفين ورجَّحوه بسبع ترجيحات، وسيأتي ذِكرُها في آخر الباب (وقال آخرون: **هما سيَّان**) أي مستويان في الدرجة والمقام، لا فضيلة لأحدهما علىٰ الآخر؛ إذ كلٌّ منهما مقام، وليس يمكن الترجيح بين مقامين؛ لأن في كل مقام طبقات متفاوتة، وهذا مذهب القدماء من العلماء؛ إذ سُئل بعضهم عن عبدين ابتُلي أحدهما فصبر وأُنعِم علىٰ الآخر فشكر، فقال: كلاهما سواء؛ لأن الله تعالىٰ أثنىٰ علىٰ عبدين أحدهما صابر والآخر شاكر بثناء واحد، فقال في وصف أيوب عليه السلام: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ۝٣٠﴾ [ص: ٤٤] وقال في وصف سليمان عليه السلام: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ۝٣٠﴾ [ص: ٣٠] وهذا المذهب مرجوح، كما سيأتي بيانه (وقال آخرون: **يختلف ذلك باختلاف الأحوال**) وهذا مذهب المحقِّقين من أهل المعرفة، يقولون: إنه لا يجتمع عبدان في مقام بالسواء، بل لا بد أن يكون أحدهما أعلىٰ بعمل أو علم أو وجد أو مشاهدة؛ لتفاوُت أوجه المشاهدات، وإن كان الصوب والقصد [والأصل] واحدًا، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ﴾ [البقرة: ١٤٨] وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ۝٨٤﴾ [الإسراء: ٨٤] قيل: أقصد وأقرب طريقًا (**واستدلَّ كل فريق بكلام شديد الاضطراب، بعيد عن التحصيل، فلا معنىٰ للتطويل بالنقل، بل المبادرة إلىٰ إظهار الحق أَولىٰ، فنقول: في بيان ذلك مقامان:**

المقام الأول: البيان علىٰ سبيل التساهل، وهو أن ينظر إلىٰ ظاهر الأمر، ولا

يُطلب بالتفتيش) والبحث (**تحقيقه**[1]**، وهو البيان الذي ينبغي أن يخاطَب به عوامُّ الخلق؛ لقصور أفهامهم عن درك الحقائق الغامضة**) أي الخفيَّة (**وهذا الفن**) أي النوع (**من الكلام هو الذي ينبغي أن يعتمده الوُعَّاظ**) في وعظهم (**إذ**) هم حكَّام العامة، و(**مقصود كلامهم من مخاطبة العوامِّ إصلاحهم**) بحسب حالهم (**والظِّئْر المشفقة**) وهي بالكسر وسكون الهمزة: المرأة تحضن ولد غيرها (**لا ينبغي أن تُصلِح الصبيَّ الطفل**) الرضيع (**بالطيور السمان وضروب الحلاوات**) فإنها تضرُّ بمعدته (**بل باللبن اللطيف، وعليها أن تؤخِّر عنه أطايب الأطعمة**) ولذائذ الأغذية (**إلىٰ أن يصير محتملاً لها بقوته**) التي تنمو فيه علىٰ التدريج (**ويفارق الضعفَ الذي هو عليه في بِنيته، فنقول: هذا المقام في البيان يأبىٰ البحثَ والتفصيل، ومُقتضاه النظر إلىٰ الظاهر المفهوم من موارد الشرع**) من الكتاب والسنَّة (**وذلك يقتضي تفضيلَ الصبر**) علىٰ الشكر (**فإن الشكر وإن وردت أخبار كثيرة في فضله**) ممَّا تقدم بعضها (**فإذا أضيفَ إليه ما ورد في فضيلة الصبر كانت فضائل الصبر أكثر، بل فيه ألفاظ صريحة في التفضيل**) أما من الكتاب فكقوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [القصص: ٥٤] فالشاكر يؤتَىٰ أجره مرةً، فأشبهَ مقامُ الصبر مقامَ الخوف، وأشبهَ مقامُ الشكر مقامَ الرجاء، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ [الرحمن: ٤٦] وقد اتفقوا علىٰ تفضيل الخوف علىٰ الرجاء من حيث اتفق أهل المعرفة علىٰ فضل العلم علىٰ العمل، فالصبر حالُ مَن مقامُه الخوف، ويقرُب حالُ الصابر في الفضل من مقامه، والشكر حالُ مَن مقامُه الرجاء، كذلك يقرُب حالُ الشاكر من مقامه. ومن السنَّة (**كقوله ﷺ: من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر**) ومَن أوتي حظه منهما لم يبالِ ما فاته من قيام الليل وصيام النهار. وقد تقدم الكلام عليه في مبحث الصبر. فقرن الصبرَ باليقين الذي لا شيء أعز منه ولا أجلّ، وارتفاع الأعمال وعلوُّ العلوم به.

---

(١) في المطبوعة: بحقيقته. والمثبت من أ، وب، وط المنهاج ٧/ ٤٤٦.

(وفي الخبر: **يؤتَىٰ بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين، ويؤتَىٰ بأصبر أهل الأرض فيقال له: أما ترضىٰ أن نجزيك كما جزينا هذا الشاكر؟ فيقول: نعم يا رب. فيقول الله تعالىٰ: كلاَّ، أنعمتُ عليه فشكر، وابتليتك فصبرتَ، لأضعفن لك الأجرَ عليه. فيعطَىٰ أضعاف جزاء الشاكرين**) كذا أورده صاحب القوت. وقال العراقي[1]: لم أجد له أصلاً (وقد) يفضَّل الصبر علىٰ الشكر بوجه آخر وهو أن الصبر حال البلاء، والشكر حال النعمة، والبلاء أفضل؛ لأنه علىٰ النفس أشقُّ (قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝﴾) [الزمر: ١٠] فالشاكر يوفَّىٰ أجره بحساب؛ لأن «إنما» هو تحقيق الوصف ونفيُ ما عداه، وقد رفع عليٌّ رضي الله عنه الصبرَ علىٰ أرفع مقامات اليقين، فقال في حديثه الطويل الذي وصف فيه شعب الإيمان: والصبر علىٰ أربع دعائم: علىٰ الشوق والإشفاق والزهد والترقُّب، فمَن أشفق من النار رجع عن المحرَّمات، ومَن اشتاق إلىٰ الجنة سلا عن الشهوات، ومَن زهد في الدنيا هانت عليه المصائب، ومَن ارتقب الموت سارع في الخيرات. فجعل هذه المقامات أركان الصبر؛ لأنها توجد عنه وتحتاج إليه في جميعها، وجعل الزهد أحد أركانه.

(**وأما قوله ﷺ: الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر**) رواه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة، وقد تقدم (**فهو دليل علىٰ أن الفضيلة في الصبر؛ إذ ذكر ذلك في معرض المبالغة لرفع درجة الشكر فألحقه بالصبر، فكأنَّ هذا منتهَىٰ درجته، ولولا أنه فهم من الشرع علوَّ درجة الصبر لَما كان إلحاق الشكر به مبالغة في الشكر، وهو كقوله ﷺ: الجمعة حج المساكين، وجهاد المرأة حسن التبعُّل**) قال العراقي[2]: رواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده بالشطر الأول من حديث أبي

---

(١) المغني ٢/ ١٠٤٠.

(٢) السابق ٢/ ١٠٤١.

موسىٰ بسند ضعيف، والطبراني[١] بالشطر الثاني من حديثه بسند ضعيف أيضًا: أن امرأة قالت: كتب الله الجهاد علىٰ الرجال، فما يعدل ذلك من أعمالهم من الطاعة؟ قال: «طاعة أزواجهن». وفي رواية[٢]: ما جزاء غزوة المرأة؟ قال: «طاعة الزوج ...» الحديث[٣].

قلت: ورویٰ الشطر الأول أيضًا ابن زنجويه في ترغيبه والقضاعي في مسند الشهاب[٤] وابن عساكر[٥]، وفي لفظ للآخَرين: الفقراء، بدل: المساكين. وروىٰ الطبراني في الكبير من حديث ابن عباس: «جهاد المرأة حُسن التبعُّل لزوجها، وجهاد الضعفاء الحج»[٦].

(وكقوله ﷺ: **شارب الخمر كعابد الوثن**) قال العراقي[٧]: رواه ابن ماجه[٨] من حديث أبي هريرة بلفظ «مدمن الخمر»، ورواه بلفظ «شارب الخمر» الحارث بن أبي أسامة[٩] من حديث عبد الله بن عمرو، وكلاهما ضعيف، وقال

---

(١) المعجم الكبير ١١/ ٤١٠ من حديث ابن عباس، وفيه: «كتب الله الجهاد علىٰ الرجال، فإن أصابوا أثروا، وإن استشهدوا كانوا أحياء عند ربهم، فما يعدل ذلك من أعمالهم؟ قال: طاعة أزواجهن والمعرفة بحقوقهم، وقليل منكن تفعله».

(٢) السابق ١٠/ ٣٥٥.

(٣) بعده في المغني: «وفيه القاسم بن فياض، وثقه أبو داود، وضعفه ابن معين، وباقي رجاله ثقات».

(٤) مسند الشهاب ١/ ٨١ - ٨٢.

(٥) تاريخ دمشق ٣٨/ ٤٣١.

(٦) هذا الحديث رواه البيهقي في شعب الإيمان ٢/ ٤١٥ وابن حبان في المجروحين ١/ ١٦١ من حديث علي بن أبي طالب.

(٧) المغني ٢/ ١٠٤١.

(٨) سنن ابن ماجه ٥/ ٧٩.

(٩) بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث ص ٥٩١، ولفظه: «شارب الخمر كعابد الوثن، وشارب الخمر كعابد اللات والعزىٰ».

ابن عدي[١]: إن حديث أبي هريرة أخطأ فيه محمد بن سليمان بن الأصبهاني.

قلت: ورواه بلفظ المصنف البزار[٢] من حديث عبد الله بن عمرو، وفي سنده فطر بن خليفة، صدوق، ووثَّقه أحمد وابن معين[٣]. ورواه بلفظ «مدمن» البخاريُّ في تاريخه[٤] وابن حبان[٥] من حديث أبي هريرة ومن رواية محمد ابن عبد الله عن أبيه.

(**وأبدًا المشبَّه به ينبغي أن يكون أعلىٰ رتبةً**) من المشبَّه وإلا لَما حسُن وجهُ التشبيه (**فكذلك قوله ﷺ: الصبر نصف الإيمان**) رواه أبو نعيم والخطيب والبيهقي من حديث ابن مسعود، وقد تقدم (**لا يدل علىٰ أن الشكر مثله، وهو كقوله ﷺ: الصوم نصف الصبر**) رواه ابن ماجه والبيهقي من حديث أبي هريرة، وقد تقدم (**فإنَّ كل ما ينقسم بنصفين يسمَّىٰ أحدهما نصفًا وإن كان بينهما تفاوت**) في الدرجات (**كما يقال: الإيمان هو العلم والعمل**) وروىٰ ابن النجار من حديث عبد الله بن أبي أوفىٰ: «الإيمان قول وعمل»[٦]. وروىٰ ابن ماجه[٧] والطبراني[٨] وتمام[٩]

---

(١) الكامل في الضعفاء ٦/ ٢٢٣٤، وعبارته: «وهذا الخطأ من ابن الأصبهاني، حيث قال: عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة، كأن هذا الطريق أسهل عليه، وقد رُوي عن سهيل بإسناد آخر مرسلا».

(٢) مسند البزار ٦/ ٣٦٧.

(٣) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٧/ ٩٠.

(٤) التاريخ الكبير ١/ ١٢٩، وقال: «لا يصح حديث أبي هريرة في هذا».

(٥) رواه ابن حبان في المجروحين ١/ ٤٠٧ من حديث جابر بن عبد الله، وفي لفظ آخر له ١/ ٤١٠: «من مات مدمن خمر لقي الله ع كعابد وثن». ورواه في صحيحه ١٢/ ١٦٧ من حديث ابن عباس بلفظ: «من لقي الله مدمن خمر لقيه كعابد وثن».

(٦) أورده المتقي الهندي في كنز العمال ١/ ٩٥، وزاد: «يزيد وينقص».

(٧) سنن ابن ماجه ١/ ٩٠.

(٨) المعجم الأوسط ٦/ ٢٢٦، ٨/ ٢٦٢.

(٩) فوائد تمام ١/ ٧٧.

والبيهقي[١] والخطيب[٢] وابن عساكر[٣] من حديث علي: «الإيمان عقد بالقلب، وقول باللسان، وعملٌ بالأركان» **(فالعمل هو نصف الإيمان، فلا يدل ذلك علىٰ أن العمل يساوي العلم)** وقد اتفق أهل المعرفة علىٰ أن العلم أفضل من العمل، ثم أشار المصنف إلىٰ نوع آخر من الاستدلال علىٰ تفضيل الصبر بحال سيدنا سليمان عليه السلام وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، وفي أثناء ذلك الإشعار بالرد علىٰ مَن يقول إنهما سيَّان، وبيان ذلك: أنه قد تقدم قولُ مَن قال: إن الصبر والشكر سيَّان لا ترجيح لأحدهما علىٰ الآخر، وأنه استدلَّ بحال أيوب وسليمان عليهما السلام، حيث أثنىٰ عليهما بثناء واحد. وفي هذا غفلة عن لطائف الأفهام، وذهابٌ عن حقيقة تدبُّر الكلام؛ إذ بين ثناء الله تعالىٰ علىٰ أيوب عليه السلام في الفضل علىٰ ثنائه علىٰ سليمان عليه السلام ثلاثة عشر معنىٰ، وشرَّك سليمانَ عليه السلام بعد ذلك في وصفين آخرين، وأفرد أيوب عليه السلام بفضل ثناء ثلاثة عشر [معنىٰ] أول ذلك قوله تعالىٰ في [أول] مدحه: «واذكرْ»، فهذه كلمة مُباهاة، باهَىٰ بأيوب عليه السلام عند رسوله المصطفىٰ ﷺ وشرَّفه وفضَّله بقوله تعالىٰ: واذكرْ يا محمد. فأمره بذكره والاقتداء به، كقوله تعالىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] قيل: هم أهل الشدائد والبلاء، منهم أيوب عليه السلام، قُرضوا بالمقاريض ونُشروا بالمناشير، وكانوا سبعين نبيًّا. وقيل: هم إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وهؤلاء آباء الأنبياء وأفاضلهم، لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [مريم: ٤١] ولقوله: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾ [ص: ٤٥] يعني أصحاب القوة والتمكين وأهل البصائر واليقين، ثم رفع أيوب إلىٰ مقامهم فضمَّه إليهم وجعله سلوة له ﷺ، ثم ذكَّره إياه وذكَّره به، ثم قال: «عبدنا»، فأضافه إليه إضافة تخصيص وتقريب، ولم يُدخِل بينه وبينه لام تعريف فيقول: عبدًا لنا، فألحقه بنُظَرائه من أهل البلاء في قوله: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وهم

---

(١) شعب الإيمان ١/ ١٠٨.

(٢) تاريخ بغداد ٢/ ٦٧، ١١/ ٢٨، ١٢/ ٥٨، ٣١٧.

(٣) تاريخ دمشق ٤٣/ ١٨٣.

أهل البلاء الذين باهَىٰ بهم الأنبياءَ وجعل من ذرِّياتهم الأصفياءَ، فأضاف أيوب إليهم في حُسن الثناء وفي لفظ التذكرة به في الثناء، ثم قال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ فأفرده بنفسه لنفسه، وانفرد له في الخطاب بوصفه، وقال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣] فوصفه بمواجهة التملُّق له ولطيف المناجاة، فظهر له بوصف الرحمة، فاستراح إليه به فناداه فشكا إليه واستغاث به، فأشبهَ مقامُه مقامَ موسىٰ ويونس عليهما السلام في قول أحدهما: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] وفي قول الآخر: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧] وهذا خطاب المشاهدة ونظرُ المواجهة، ثم وصفه بالاستجابة له، وأهَّلَه لكشف الضر عنه، فجعل كلامه سببًا لتنفيذ قدرته، ومكانًا لمجاري حكمته، ومفتاحًا لفتح إجابته. ثم قال بعد ذلك كله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾ [ص: ٤٣] فزاد علىٰ سليمان عليه السلام في الوصف؛ إذ كان بين مَن وُهِب لأهله وبين مَن وُهب له أهله فضلٌ في المدح؛ لأنه قال في وصف سليمان: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ﴾ [ص: ٣٠] فأشبهَ فضلُ أيوب في ذلك علىٰ سليمان كفضل موسىٰ علىٰ هارون عليهم السلام؛ لأنه قال في فضل[1] موسىٰ عليه السلام وتفضيله علىٰ هارون عليه السلام: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم: ٥٣] وكذلك قال في مدح داود: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ﴾ فوهب لموسىٰ أخاه كما وهب لداود ابنه، وأشبهَ مقامُ أيوب في المُباهاة والتذكرة به مقامَ داود عليه السلام؛ لأنه قال أيضًا في وصف [داود] لنبيِّه ﷺ: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ [ص: ١٧] وكذلك قال في نعت أيوب: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ [ص: ٤١] فقد شبَّه أيوبَ بداود وموسىٰ عليهما السلام في المعنىٰ ورفعه إليهما في المقام، وهما في نفوسنا أفضل من سليمان عليه السلام، فأشبهَ أن يكون حال أيوب أعلىٰ من حال سليمان عليهما السلام، ويعلم الله المقدَّمَ، ولكن هكذا أُلقي في قلوبنا، والله أعلم. ثم قال بعد ذلك: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ فذكر نفسه ووصْفَه عند عبده تشريفًا له وتعظيمًا، ثم قال: ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ فجعله

---

(١) في القوت: في مدح.

إمامًا للعقلاء وقدوة لأهل الصبر والبلاء، وتذكرة وسلوة عن الكروب للأصفياء. ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ فذكر نفسه سبحانه ذكرًا ثانيًا لعبده، ووصل اسمه باسمه حبًّا له وقربًا منه؛ لأن النون والألف في «وجدناه» اسمه تعالىٰ، والهاء اسم عبده أيوب، ثم قال: «صابرا»، فوصفه بالصبر، فأظهر مكانه في القوة [وخلَّقه بخُلُقه] ثم قال في آخر أوصافه: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝٣٠﴾ فهذان أول وصف سليمان وآخره، ههنا شرَّكه في الثناء، وزاد أيوبَ بما تقدم من المدح والوصف الذي لا يقوم له شيء، وذلك من قوله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿أَوَّابٌ ۝١٧﴾ وجعل في أول وصف سليمان بأنه وهبه لأبيه داود، فصار حسنة من حسنات داود، واشتمل قوله: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝٣٠﴾ علىٰ أول وصفه وأوسطه، وهو آخر وصف أيوب عليهم السلام أجمعين.

(و) قد جاء (في الخبر عن النبي ﷺ) أنه قال: (**آخر الأنبياء دخولاً الجنة سليمان بن داود**) عليهما السلام (**لمكان مُلكه، وآخر أصحابي دخولاً الجنة عبد الرحمن بن عوف لمكان غناه**) هكذا أورده صاحب القوت. وبمعنىٰ الشطر الأول حديث معاذ الآتي ذِكره بعد بحديث. وروىٰ البزار[١] من حديث أنس: «أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتي عبد الرحمن بن عوف». وفيه أغلب بن تميم، ضعيف. قاله العراقي[٢].

(**وفي خبر آخر**) ولفظ القوت: وفي لفظ آخر: (**يدخل سليمان**) بن داود الجنة (**بعد الأنبياء بأربعين خريفًا**) قال العراقي[٣]: رواه الديلمي في مسند الفردوس[٤] من رواية دينار عن أنس بن مالك، ودينار الحبشي أحد الكذابين علىٰ أنس، والحديث منكر.

---

(١) مسند البزار ١٣/ ٣٦٠، وتمامه: «والذي نفس محمد بيده إن يدخلها إلا حبوا».

(٢) المغني ٢/ ١٠٤٢.

(٣) المغني ٢/ ١٠٤١ - ١٠٤٢.

(٤) الفردوس بمأثور الخطاب ٥/ ٥٠٧، ٥٠٨.

وروى الطبراني في الأوسط[١] من حديث معاذ بن جبل: «يدخل الأنبياء كلهم قبل داود وسليمان الجنة بأربعين عامًا[٢]». وقال: لم يروِه إلا شعيب بن خالد[٣]. وهو كوفي ثقة.

(وفي الخبر: **أبواب الجنة كلها مصراعان إلا باب الصبر فإنه مصراع واحد، وأول من يدخله أهل البلاء، أمامهم أيوب** عليه السلام) هكذا أورده صاحب القوت. وقال العراقي[٤]: لم أجد له أصلاً ولا في الأحاديث الواردة في مصاريع أبواب الجنة مفرَّقة.

ثم قال صاحب القوت: وقد زاد أيوب على سليمان عليهما السلام بعموم هذه الآثار؛ لأنه سيد أهل البلاء، وتذكرة وعِبرة لأولي النُّهَى، وإمام أهل الصبر والضر والابتلاء.

ثم أشار المصنف إلى تفصيل آخر في تفضيل الصبر فقال: (**وكل ما ورد في فضائل الفقر يدل على فضيلة الصبر؛ لأن الصبر حال الفقر، والشكر حال الغِنى**) فمَن فضَّلَ الشكرَ على الصبر في المعنى فكأنَّه فضَّلَ الغِنى على الفقر، وليس هذا مذهب أحد من القدماء، إنما هذه طريقة علماء الدنيا، طرَّقوا لنفوسهم بذلك، وطرَّقوا الخَلق إلى نفوسهم من ذلك؛ لأن مَن فضَّلَ الغنى على الفقر فقد فضَّل الرغبة على الزهد، والعز على الذل، والكبر على التواضع، وفي هذا تفضيل الراغبين والأغنياء على الزاهدين والفقراء، ويخرج ذلك إلى تفضيل أبناء الدنيا

---

(١) المعجم الأوسط ٤/ ٢٥١.

(٢) في المعجم الأوسط: بألفي عام.

(٣) وقال: ولا رواه عن شعيب إلا عمرو، ولا رواه عن عمرو إلا هارون، ولا يروى عن رسول الله ﷺ إلا بهذا الإسناد. فهو تضعيف ظاهر منه للحديث، وكأن الزبيدي يحسن الحديث لذكره توثيق شعيب، وليس الأمر كذلك.

(٤) المغني ٢/ ١٠٤٢.

علىٰ أبناء الآخرة (**فهذا هو المقام الذي يقنع العوامَّ ويكفيهم في الوعظ اللائق بهم والتعريف لِما فيه صلاح دينهم**) إذ ليس فيه صرفٌ عن ظواهر الكتاب والسنَّة.

(**المقام الثاني هو البيان الذي نقصد به تعريف أهل العلم والاستبصار بحقائق الأمور بطريق الكشف والإيضاح**) والتبيين والإفصاح (**فنقول فيه: كل أمرين مبهَمين**) أي غير معلومَي الحقائق (**لا تمكن الموازنة بينهما مع**) وجود (**الإبهام**) فيهما (**ما لم يُكشَف عن حقيقة كل واحد منهما**) فيرتفع الإبهام (**وكل مكشوف**) معلوم بحقيقته (**يشتمل علىٰ أقسام**) متنوعة (**لا تمكن الموازنة بين الجملة والجملة، بل يجب أن تُفرَد الآحاد بالموازنة حتىٰ يتبيَّن الرجحان**) وبه يتوصل إلىٰ الموازنة بين الجملة والجملة (**والصبر والشكر أقسامهما وشُعَبهما كثيرة**) كما تقدم ذِكرُها (**فلا يتبيَّن حكمُهما في الرجحان والنقصان مع الإجمال، فنقول: قد ذكرنا**) في كتاب التوبة (**أن هذه المقامات**) التسعة من مقامات اليقين (**تُنتظَم من أمور ثلاثة: علوم وأحوال وأعمال**) فالعلوم هي الأصول، والأحوال ما ينشأ عنها من المواجيد، والأعمال ما تنشئها المواجيدُ علىٰ القلوب والجوارح من الأعمال (**والشكر والصبر وسائر المقامات**) مما ذُكر ومما سيُذكَر (**هي كذلك**) لا بد في انتظامها من الأمور المذكورة (**وهذه الثلاثة إذا وُزن البعض منها بالبعض لاح للناظرين إلىٰ الظواهر أن العلوم تُراد للأحوال، والأحوال تُراد للأعمال، والأعمال هي الأفضل**) فهذا نظرُ أرباب الظواهر (**وأما أرباب البصائر فالأمر عندهم بالعكس من ذلك، فإن الأعمال**) عندهم إنما (**تُراد للأحوال، والأحوال**) إنما (**تُراد للعلوم، فالأفضل العلوم**) وهي المعارف في كل مقام (**ثم الأحوال**) الناشئة عن مواجيد تلك المعارف (**ثم الأعمال**) علىٰ هذا الترتيب (**لأن كل مراد لغيره فذلك الغير لا محالة أفضل منه، وأما آحاد هذه الثلاثة فالأعمال قد تتساوىٰ وقد تتفاوت إذا أضيفَ بعضها إلىٰ بعض، وكذا آحاد الأحوال إذا أضيفَ بعضها إلىٰ بعض، وكذا آحاد المعارف**) أي إذا أضيفَ بعضها إلىٰ بعض (**وأفضل المعارف علوم المكاشفة، وهي أرفع**) رتبةً

(من علوم المعاملة، بل علوم المعاملة دون المعاملة) نفسها (فإنها) أي تلك العلوم (تُراد للمعاملة، ففائدتها إصلاح العمل، وإنما فُضِّلَ العالِم بالمعاملة علىٰ العابد إذا كان علمه مما يعم نفعُه) علىٰ الكل (فيكون بالإضافة إلىٰ عمل خاص أفضل، وإلا فالعلم القاصر بالعمل ليس بأفضل من العمل القاصر) وإذا عرفتَ ذلك (فنقول: فائدة إصلاح العمل إصلاح حال القلب، وفائدة إصلاح حال القلب أن ينكشف له جلال الله تعالىٰ) وعظمته (في ذاته وصفاته وأفعاله، فأرفعُ علوم المكاشفة معرفة الله سبحانه) في ذاته وصفاته وأفعاله (وهي الغاية التي تُطلَب لذاتها، فإن السعادة تُنال بها) وهي القرب من جوار الله تعالىٰ (بل هي عين السعادة، ولكن قد لا يشعر القلب في الدنيا بأنها عين السعادة، وإنما يشعر بها في الآخرة) عند معاينة الحقائق (فهي المعرفة الحرة التي لا قيد عليها فلا تتقيَّد بغيرها) وجعلها حرة نظرًا إلىٰ انفكاكها عن ربقة التقييد بالغير (وكل ما عداها من المعارف) بمنزلة (عبيد وخدم بالإضافة إليها، فإنها إنما تُراد لأجلها) لا لذاتها (ولما كانت مرادة لأجلها كان تفاوتها بحسب نفعها في الإفضاء إلىٰ معرفة الله تعالىٰ، فإنَّ بعض المعارف يفضي إلىٰ بعض إما بواسطة) واحدة (أو بوسائط كثيرة، فكلما كانت الوسائط بينه وبين معرفة الله تعالىٰ أقل فهي أفضل) فهذه معرفة الموازنة في العلوم والمعارف (وأما الأحوال فنعني بها أحوال القلب في تصفيته وتطهيره من شوائب الدنيا وشواغل الخَلق، حتىٰ إذا طهُرَ وصفا) عنها (اتضحت له حقيقة الحق)[1] وهذا إنما ينشأ من مواجيد المعارف (فإذًا فضائل الأحوال بقدْر تأثيرها في إصلاح القلب وتطهيره وإعداده) أي تهيئته (لأنْ تحصل له علوم المكاشفة) التي هي المرادة لذاتها (وكما أن تصقيل المرآة) عن الكدورات (يحتاج إلىٰ أن يتقدم علىٰ تمامه أحوال للمرآة بعضها أقرب إلىٰ الصقالة من بعض، فكذلك أحوال القلب، فالحالة القريبة أو المقرَّبة من صفاء القلب هي أفضل ممَّا دونها لا محالة بسبب القرب من المقصود)

---

(١) انظر: العواصم من القواصم لابن العربي ص٥٦- ٨٦.

فهذه معرفة الموازنة في الأحوال (وهكذا ترتيب الأعمال، فإن تأثيرها في تأكُّد صفاء القلب) وطهارته من الأدناس (وجلب الأحوال إليه، وكل عمل فإما أن يجلب إليه حالةً مانعة من المكاشفة، موجِبة لظلمة القلب، جاذبة إلىٰ زخارف الدنيا) وبهجاتها (وإما أن يجلب إليه حالة مهيِّئة للمكاشفة، موجِبة لصفاء القلب وقطعِ علائق الدنيا عنه، واسم الأول: المعصية، واسم الثاني: الطاعة. والمعاصي) بأسرها (من حيث التأثير في ظلمة القلب وقساوته متفاوتة، وكذا الطاعات في تنوير القلب وتصفيته، فدرجاتها بحسب درجات تأثيرها، وذلك يختلف باختلاف الأحوال، وذلك أنَّا بالقول المطلق ربما نقول: الصلاة النافلة أفضل من كل عبادة نافلة، وأن الحج أفضل من الصدقة، وأن قيام الليل أفضل من غيره) وهو علىٰ إطلاقه صحيح (ولكن التحقيق فيه أن الغني الذي معه مال) كثير (وقد غلبه البخل وحب المال علىٰ إمساكه، فإخراج درهم له أفضل من قيام ليالٍ وصيام أيام؛ لأن الصيام يليق بمَن غلبته شهوةُ البطن فأراد كسرها) برياضة الصوم (أو منعه الشبعُ عن صفاء الفكر في علوم المكاشفة فأراد تصفية القلب بالجوع) لينفتح له باب المعرفة في الله تعالىٰ (فأما هذا المدبِر إن لم تكن حاله هذه الحال فليس يستضرُّ بشهوة بطنه ولا هو مشتغل بنوع فكر يمنعه الشبعُ منه، فاشتغاله بالصوم خروج منه عن حاله إلىٰ حالٍ غيره، وهو كالمريض الذي يشكو وجع البطن إذا استعمل دواء الصداع لم ينتفع به) لاختلاف العلَّتين (بل حقه أن ينظر في المُهلِك الذي استولىٰ عليه) وغلب طبعَه (والشُّح المطاع) وهو الذي يكون هو مغلوبًا له وذاك حاكمًا عليه بمنزلة الأمير المطاع، فيعمل بموجِب أوامره ولا يطيع باعث الدين أبدًا، وهو (من جملة المهلكات) كما ورد ذلك في الخبر: «ثلاث منجيات وثلاث مهلكات ...» الحديث، وقد تقدم في كتاب ذم البخل (ولا يزيل صيامُ مائة سنة وقيام ألف ليلة منه ذرَّة) منه؛ لانفكاك الجهتين (بل لا يزيله إلا إخراج المال) عن مِلكه (فعليه أن يتصدَّق بما معه) هذا هو الأفضل في حقه (وتفصيل هذا مما ذكرناه في ربع المهلكات، فليُرجَع إليه) فإنه مهمٌّ (فإذًا باعتبار هذه الأحوال يختلف، وعند ذلك يعرف البصير أن الجواب المطلق

فيه خطأ؛ إذ لو قال لنا قائل: الخبز أفضل أم الماء؟ لم يكن فيه جوابٌ حقٌّ، إلا أن الخبز للجائع أفضل، والماء للعطشان أفضل، فإن اجتمعا فليُنظَر إلىٰ الأغلب، فإن كان العطش هو الأغلب فالماء أفضل، وإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل، فإن تساويا فهما متساويان) لا فضيلة لأحدهما علىٰ الآخر (وكذا إذا قيل: السكنجبين أفضل أم شراب اللينوفر) وفي نسخة: النيلوفر. وهو نبات يخرج في البرك والأنهار عند زيادة الماء، وله زهر إسمانجوني، والشراب المتخَذ منه مبرِّد، مرطِّب، نافع من السعال والشوصة وذات الجنب، مقوٍّ للقلب، مسكِّن للعطش، مزيل للسهر الكائن من الحرارة، مليِّن للطبيعة، نافع من الصداع، وهو مع حلاوته لا يستحيل صفراء، بخلاف سائر الأشربة الحلوة (لم يصحَّ الجواب عنه مطلقًا أصلاً. نعم، لو قيل لنا: السكنجبين أفضل أم عدم الصفراء؟ فنقول: عدم الصفراء) أفضل (لأن السكنجبين مراد له، وما يُراد لغيره فذلك الغير أفضل منه لا محالة. فإذًا في بذل المال عملٌ وهو الإنفاق، ويحصل به حالٌ وهو زوال البخل وخروج حب الدنيا من القلب، ويتهيَّأ القلب بسبب خروج حب الدنيا منه) أي من القلب (لمعرفة الله تعالىٰ وحبه، فالأفضل المعرفة، ودونها الحال، ودونها العمل) علىٰ هذا الترتيب.

(فإن قلتَ: فقد حثَّ الشرع علىٰ الأعمال، وبالغ في ذِكر فضلها، حتىٰ طلب الصدقات في قوله تعالىٰ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥، الحديد: ١١] وقال تعالىٰ: ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾) [التوبة: ١٠٤] وغير ذلك مما ورد الحثُّ عليه في الكتاب والسنَّة (فكيف لا يكون الفعل والإنفاق هو الأفضل؟ فاعلمْ أن الطبيب إذا أثنىٰ علىٰ الدواء لم يدلَّ علىٰ أن الدواء مراد لعينه أو علىٰ أنه أفضل من الصحة والشفاء الحاصل به، ولكن الأعمال علاج لمرض القلوب، ومرض القلوب مما لا يُشعَر به غالبًا) لخفائه عنا (فهو كبَرَص علىٰ وجه مَن لا مرآة معه فإنه لا يشعر به، ولو ذُكر له لا يصدِّق به، والسبيل معه المبالغة في الثناء علىٰ غسل الوجه بماء الورد مثلاً إن كان ماء الورد يزيل البَرَص، حتىٰ يستحثُّه فرطُ الثناء علىٰ المواظبة

عليه فيزول برصُه، فإنه لو ذُكر له أن المقصود زوال البرص عن وجهك ربما ترك العلاج وزعم أن وجهه لا عيب فيه.

ولنضرب مثلاً أقرب من هذا فنقول: مَن له ولد علَّمه العلم والقرآن وأراد أن يثبُت ذلك في حفظه بحيث لا يزول عنه، وعلم أنه لو أمره بالتكرار والدراسة لبقي له) في ذهنه (محفوظًا لقال: إنه محفوظ ولا حاجة بي إلىٰ تكرار ودراسة؛ لأنه يظن أن ما يحفظه في الحال يبقىٰ كذلك أبدًا) وليس كما ظن (وكان له عبيد، فأمر الولد بتعليم العبيد، ووعده علىٰ ذلك بالجميل؛ لتتوفَّر داعيته علىٰ كثرة التكرار بالتعليم، فربما يظن الصبي المسكين أن المقصود تعليم العبيد القرآن) فقط (وأنه قد استُخدِم لتعليمهم، فيشكل عليه الأمرُ فيقول: ما بالي قد استُخدِمت لأجل العبيد وأنا أجلُّ منهم) قدْرًا (وأعز عند الوالد، وأعلمُ أن أبي لو أراد تعليم العبيد لقدر عليه دون تكليفي به) بأن يكلِّف به غيري (وأعلم أنه لا نقصان لأبي بفقد هؤلاء العبيد فضلاً عن عدم علمهم بالقرآن. فربما يتكاسل هذا المسكين فيترك تعليمهم اعتمادًا علىٰ استغناء أبيه وعلىٰ كرمه في العفو عنه فينسىٰ العلم والقرآن ويبقىٰ مدبِرًا محرومًا من حيث لا يدري، وقد انخدع بهذا الخبال طائفةٌ) ممَّن خفَّت عقولُهم (وسلكوا طريق الإباحة وقالوا: إن الله تعالىٰ غنيٌّ عن عبادتنا وعن أن يستقرض منا، وأيُّ معنىٰ لقوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥، الحديد: ١١] ولو شاء الله إطعام المساكين لأطعمهم، فلا حاجة بنا إلىٰ صرف أموالنا إليهم. كما قال تعالىٰ حكايةً عن الكفار: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٤٧﴾ [يس: ٤٧] وقالوا أيضًا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] فانظر كيف كانوا صادقين في كلامهم، وكيف هلكوا بصدقهم، فسبحان مَن إذا شاء أهلك بالصدق، وإذا شاء أسعدَ بالجهل ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾) [البقرة: ٢٦] يعني القرآن (فهؤلاء لمَّا ظنوا) إذ ظنوا (أنهم استُخدِموا لأجل المساكين

والفقراء أو لأجل الله تعالىٰ ثم قالوا: لا حظَّ لنا في المساكين، ولا حظَّ لله فينا وفي أموالنا سواء أنفقنا أو أمسكنا، هلكوا كما هلك الصبي لمَّا ظن أن مقصود الوالد استخدامه لأجل العبيد، ولم يشعر بأنه كان المقصود ثبات صفة العلم في نفسه وتأكُّده في قلبه حتىٰ يكون ذلك سبب سعادته في الدنيا، وإنما كان ذلك من الوالد تلطُّفًا به في استجراره إلىٰ ما فيه سعادته. فهذا المثال يبيِّن لك ضلال مَن ضلَّ من هذا الطريق) واستولىٰ الشيطان علىٰ عقله (فإذًا المسكين الآخذ لمالك يستوفي بواسطة المال خبث البخل وحب الدنيا من باطنك، فإنه مُهلِك لك، فهو كالحَجَّام يستخرج الدم منك ليُخرِج بخروج الدم العلةَ المهلكة من باطنك) الحاصلة من تبيُّغ الدم (فالحَجَّام خادم لك، لا أنت خادم للحَجَّام، ولا يخرج الحجام عن كونه خادمًا) لك (بأن يكون له غرض في أن يصنع شيئًا بالدم. ولما كانت الصدقات مطهِّرة للبواطن ومزكِّية لها من خبائث الصفات) لقوله تعالىٰ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم﴾ الآية [التوبة: ١٠٣] (امتنع رسول الله ﷺ من أخذها وانتهىٰ عنها، كما نهىٰ عن كسب الحجام) رواه ابن ماجه من حديث أبي مسعود، وقد تقدم[١] (وسمَّاها) أي الصدقات (أوساخ أموال الناس، وشرَّف أهلَ بيته بالصيانة عنها) قال العراقي[٢]: رواه مسلم[٣] من حديث عبد المطلب بن ربيعة: «إن هذه الصدقة لا تحلُّ لنا، إنما هي أوساخ الناس، وإنها لا تحل لمحمد ولا لآل محمد». وفي رواية له: «أوساخ الناس».

قلت: ورواه أبو داود[٤] والنسائي[٥] بلفظ: «إن هذه الصدقات إنما هي أوساخ الناس، وإنها لا تحلُّ لمحمد ولا لآل محمد».

---

(١) في كتاب الحلال والحرام.

(٢) المغني ٢/ ١٠٤٣.

(٣) صحيح مسلم ١/ ٤٧٧ - ٤٧٨. وقد تقدم هذا الحديث بطوله في كتاب الزكاة.

(٤) سنن أبي داود ٣/ ٤٥٧.

(٥) سنن النسائي ص ٤٠٨.

(والمقصود أن الأعمال مؤثِّرات في القلب، كما سبق في ربع المهلكات، والقلب بحسب تأثيرها يستعد لقبول الهداية ونور المعرفة، فهذا هو القول الكلي والقانون الأصلي الذي ينبغي أن يُرجَع إليه في معرفة فضائل الأعمال والأحوال والمعارف، فلنرجع الآن إلىٰ خصوص ما نحن فيه من الصبر والشكر فنقول: في كل واحد منهما معرفة وحال وعمل) إذ تقدم أن المقامات لا تنتظم إلا بهؤلاء الثلاثة (فلا يجوز أن تقابَل المعرفة في أحدهما بالحال أو العمل في الآخَر، بل يقابَل كل واحد منها بنظيره حتىٰ يظهر التناسب، وبعد التناسب يظهر الفضل) والترجيح (ومهما قوبِلت معرفة الشاكر بمعرفة الصابر ربما رجعا إلىٰ معرفة واحدة؛ إذ معرفة الشاكر أن يرىٰ نعمة العينين مثلاً من الله تعالىٰ) فيشكر (ومعرفة الصابر أن يرىٰ العمىٰ من الله) فيصبر (وهما معرفتان متلازمتان متساويتان، هذا إن اعتبرتَه في البلاء والمصائب، وقد بيَّنَّا أن الصبر قد يكون علىٰ الطاعة وعن المعصية، وفيهما يتَّحد الصبر والشكر؛ لأن الصبر علىٰ الطاعة هو عين شكر الطاعة؛ لأن الشكر يرجع إلىٰ صرف نعمة الله تعالىٰ إلىٰ ما هو مقصود منها بالحكمة، والصبر يرجع إلىٰ ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوىٰ) ومقاومته (فالصبر والشكر فيه اسمان لمسمًّىٰ واحد باعتبارين مختلفين، فثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوىٰ يسمَّىٰ صبرًا بالإضافة إلىٰ باعث الهوىٰ، ويسمَّىٰ شكرًا بالإضافة إلىٰ باعث الدين؛ إذ باعث الدين إنما خُلق لهذه الحكمة وهو أن يصرع به باعث الشهوة) أي يقهر ويكسر (فقد صرفه إلىٰ مقصود الحكمة، فهما عبارتان عن معبَّر واحد، فكيف يفضَّل الشيء علىٰ نفسه) وهذا فيه تأييد لقول مَن ذهب إلىٰ أنهما سيَّان، ومما يدل عليه أنهم قالوا: إن متعلَّقات كلٍّ من الصبر والشكر والرضا والمحبة متحدة لا اختلاف فيها، وإذا اتَّحدت أعمال المقامات فلا يصح التفاضل بينها إلا بأسبابها وأحوالها التي هي حوادث عن الأعمال (فإذًا مجاري الصبر ثلاثة: الطاعة والمعصية والبلايا، وقد ظهر حكمُها في الطاعة والمعصية، أما البلاء فهو عبارة عن فقد نعمة، والنعمة إما أن) تكون (تقع ضرورية كالعينين مثلاً، وإما أن تقع في محل الحاجة كالزيادة

علىٰ قدر الكفاية من المال. أما العينان فصبر الأعمىٰ عنهما أن لا يُظهِر الشكوىٰ، ويُظهِر الرضا بقضاء الله تعالىٰ، ولا يترخَّص بسبب العمىٰ في معنىٰ المعاصي) وفي نسخة: بعض المعاصي (وشكرُ البصير عليهما من حيث العمل بأمرين، أحدهما: أن لا يستعين بهما علىٰ معصية، والآخر: أن يستعملهما في الطاعة. وكل واحد من الأمرين لا يخلو عن الصبر، فإن الأعمىٰ) قد (كُفي الصبر عن الصور الجميلة؛ لأنه لا يراها، والبصير إذا وقع بصره علىٰ جميل فصبر كان شاكرًا لنعمة العينين، وإن أتبع النظرَ) مرةً بعد الأولىٰ (كفر نعمةَ العينين، فقد دخل الصبر في شكره، وكذا إذا استعان بالعينين علىٰ الطاعة فلا بد فيه أيضًا من الصبر علىٰ الطاعة، ثم قد يشكرها بالنظر إلىٰ عجائب صنع الله تعالىٰ؛ ليتوصل به إلىٰ معرفة الله سبحانه، فيكون هذا الشكر أفضل من الصبر، ولولا هذا لكانت رتبة شعيب عليه السلام مثلاً - وقد كان ضريرًا من الأنبياء - فوق رتبة موسىٰ عليه السلام وغيره من الأنبياء؛ لأنه) أي شعيبًا (صبر علىٰ فقد البصر، وموسىٰ عليه السلام لم يصبر مثلاً، ولكان الكمال في أن يُسلَب الإنسان الأطراف كلها ويُترَك كلحم علىٰ وَضَم) أي اللوح من الخشب الذي كان يوضع عليه لحم الجزور ويُقسَّم (وذلك محال جدًّا؛ لأن كل واحد من هذه الأعضاء آلة في الدين، فيفوت بفواتها ذلك الركن من الدين، وشكرُها باستعمالها فيما هي فيه آلة من الدين، وذلك لا يكون إلا بصبر. وأما ما يقع في محل الحاجة كالزيادة علىٰ الكفاية من المال فإنه إذا لم يؤتَ إلا قدر الضرورة وهو محتاج إلىٰ ما وراءه ففي الصبر عنه مجاهدة) شديدة (وهو جهاد الفقراء) أي بمنزلة الجهاد لهم (ووجود الزيادة نعمة، وشكرُها أن تُصرَف إلىٰ الخيرات، وأن لا تُستعمَل في المعصية، فإن أضيفَ الصبر إلىٰ الشكر - الذي هو صرفٌ إلىٰ الطاعة - فالشكر أفضل؛ لأنه تضمَّن الصبر أيضًا) والحاصل أن الشكر داخل في الصبر، والصبر جامع للشكر؛ لأن مَن صبر عن أن يعصي الله بنعمته فقد شكرها، ومَن صبَّر نفسَه علىٰ طاعة الله فقد شكر نعمته (وفيه فرحٌ بنعمة الله تعالىٰ، وفيه احتمال ألم في صرفه إلىٰ الفقراء وتركِ صرفِه إلىٰ التنعُّم المباح، وكأن الحاصل يرجع إلىٰ أن شيئين أفضل من شيء

واحد، وأن الجملة أعلىٰ رتبةً من البعض. وهذا فيه خلل؛ إذ لا تصح الموازنة بين الجملة وبين أبعاضها، وأما إذا كان شكره بأن لا يستعين به علىٰ معصية بل يصرفه إلىٰ التنعُّم المباح، فالصبر ههنا أفضل من الشكر، والفقير الصابر أفضل من الغني الممسك ماله، الصارف إياه إلىٰ المباحات، لا من الغني الصارف ماله إلىٰ الخيرات) الأخروية (لأن الفقير قد جاهد نفسه وكسر نُهْمتها) أي قوَّتها (وأحسنَ الرضا علىٰ بلاء) أمرِ (الله تعالىٰ، وهذه الحالة تستدعي لا محالة قوةً، والغني اتَّبع نُهْمته وأطاع شهوته، ولكنه اقتصر علىٰ المباح، وفي المباح مندوحة عن الحرام) أي سعة عنه (ولكن لا بد من قوة في الصبر عن الحرام أيضًا، إلا أن القوة التي يصدر عنها صبرُ الفقير أعلىٰ وأتم من هذه القوة التي يصدر عنها الاقتصارُ في التنعُّم علىٰ المباح، والشرف لتلك القوة التي يدل العمل عليها، فإن الأعمال لا تُراد إلا لأحوال القلوب، وتلك القوة حالة للقلب تختلف بحسب قوة اليقين والإيمان، فما دلَّ علىٰ زيادة قوة في الإيمان فهو أفضل لا محالة، وجميع ما ورد من تفضيل أجر الصبر علىٰ أجر الشكر في الآيات والأخبار إنما أريدَ به هذه الرتبة علىٰ الخصوص؛ لأن السابق إلىٰ أفهام الناس من النعمةِ الأموالُ والغِنىٰ بها، والسابق إلىٰ الأفهام من الشكر أن يقول الإنسان: الحمد لله، ولا يستعين بالنعمة علىٰ المعصية، لا أن يصرفها إلىٰ الطاعة، فإذًا الصبر أفضل من الشكر، أي الصبر الذي تفهمه العامة أفضل من الشكر الذي تفهمه العامة، وإلىٰ هذا المعنىٰ علىٰ الخصوص أشار) سيد الطائفة (الجنيد رحمه الله تعالىٰ، حيث سُئل عن الصبر والشكر أيهما أفضل؟ فقال: ليس مدح الغنىٰ بالوجود، ولا مدح الفقر بالعدم) كذا في النسخ، ولفظ القوت: وقد سُئل الجنيد عن غني شاكر وفقير صابر أيهما أفضل؟ قال: ليس مدح الغني بالوجود، ولا مدح الفقير بالعدم (وإنما المدح في الاثنين قيامهما بشروط ما عليهما، فشرطُ الغني يصحبه فيما عليه أشياء تلائم صفته وتمتِّعها وتلذِّذها، والفقير يصحبه فيما عليه أشياء تؤلم صفته وتقبضها وتزعجها، فإذا كان الاثنان قائمينِ لله عَزَّوَجَلَّ بشرط ما عليها كان الذي آلَمَ صفتَه وأزعجها أتم حالةً ممَّن متَّع صفتَه ونعَّمها) هذا نقلُ

كلام الجنيد (والأمر علىٰ ما قاله، وهو صحيح من جملة أقسام الصبر والشكر في القسم الأخير الذي ذكرناه، وهو لم يُرِدْ سواه. ويقال: كان أبو العباس) أحمد[1] بن محمد بن سهل (بن عطاء) الأدمي، من كبار مشايخ الصوفية وعلمائهم، وكان كبير الشأن، وهو من أقران الجنيد، وصحب إبراهيمَ المارستاني، مات سنة تسع وثلاثمائة (قد خالفه في ذلك) أي فيما ذهب إليه من تفضيل الصابر علىٰ الشاكر (وقال: الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر، فدعا عليه الجنيد) فيما يقال (فأصابه ما أصابه من البلاء من قتل أولاده وإتلاف أمواله وزوال عقله أربع عشرة سنة، فكان يقول: دعوة الجنيد أصابتني. ورجع إلىٰ تفضيل الفقير الصابر علىٰ الغني الشاكر) هكذا نقله صاحب القوت.

وقال القشيري في الرسالة[2]: وقيل: إن يحيىٰ بن معاذ الرازي تكلم ببلخ في تفضيل الغني علىٰ الفقير، فأُعطيَ ثلاثين ألف درهم، فقال بعض المشايخ: لا بارك الله له في هذا المال. فخرج إلىٰ نيسابور، فوقع عليه اللص وأخذ ذلك المال منه.

(ومهما لاحظتَ المعاني التي ذكرناها علمتَ أن لكل واحد من القولين وجهًا في بعض الأحوال، فرُب فقير صابر أفضل من غني شاكر، كما سبق) تقريره (ورُب غني شاكر أفضل من فقير صابر) قال صاحب القوت: فأما تفصيل التفضيل فعلىٰ ثلاثة أوجُه، أحدها: أن المقامات أعلىٰ من الأحوال، وقد يكون الصبر والشكر حالين، وقد يكونان مقامين، فمَن كان مقامه الصبر وكان حاله الشكر عليه فهو أفضل؛ لأنه صاحب مقام، ومَن كان مقامه الشكر وكان حاله الصبر عليه فحاله مزيد لمقامه، فقد صار [الصبر] مزيدًا للشاكر في مقامه. الوجه الثاني من التفضيل: المقرَّبون أعلىٰ مقامًا من أصحاب اليمين، فالصابرون من المقرَّبين أفضل من

(١) الرسالة القشيرية ص ٩٧.

(٢) السابق ص ٧٠.

الشاكرين من أصحاب اليمين، والشاكرون من المقرَّبين أفضل من الصابرين من أصحاب اليمين. فإن قيل: فإن كان الشاكر والصابر من المقرَّبين فأيُّهما أفضل عندك؟ فقد قلنا: إن اثنين لا يتفقان في مقام من كل وجه؛ لانفراد الوجه بمعاني لطائف اللطيف بمثل ما انفردت الوجوهُ بلطيف الصنعة مع تشابُه الصفات واستواء الأدوات، وأفضلُهما حينئذٍ أعرفُهما؛ لأنه أحبُّهما إليه تعالىٰ وأقربهما منه وأحسنهما يقينًا؛ لأن اليقين أعز ما أنزل الله عَزَّوَجَلَّ.

ثم قال: وجه آخر من بيان التفضيل: نقول: إن الصبر عمَّا يوجب الشكرَ أفضل، وإن الشكر علىٰ ما يوجب الصبرَ أفضل، وهذا يختلف باختلاف الأحوال، تفسيره: أن الصبر عن حظ النفس وعن التنعُّم والترفُّه أفضل إن كان عبدًا حالُه النعمة، فالصبر عن النعيم والغنىٰ مقام في المعرفة، وهو أفضل؛ لأن فيه الزهد المجمَع علىٰ تفضيله. ونقول: إن الشكر علىٰ الفقر والبلاء والمصائب أفضل إن كان عبدًا حاله الجهد والبلاء، فالشكر عليه مقام له في المعرفة، فهو حينئذٍ أفضل؛ لأن فيه الرضا المتفَق علىٰ فضله.

وقال في موضع آخر من كتابه: ومن الناس من يقول: إن الصبر أفضل من الشكر، وليس يمكن بينهما تفضيل عند أهل التحصيل من قِبَل أن الشكر مقام لجملة من الموقنين، والترجيح بين جماعة علىٰ جماعة لا يصح من قِبَل تفاوتهم في اليقين والمشاهدات؛ لأن بعض الصابرين أفضل من بعض الشاكرين لفضل معرفته وحُسن صبره، وخصوص الشاكرين أفضل من عموم الصابرين لحُسن يقينه وعلوِّ شهادته، ولكن تفصيل ذلك من طريق الأحوال والمقامات أنَّا نقول، والله أعلم: إن الصبر عن النعيم أفضل؛ لأن فيه الزهد والخوف، وهما أعلىٰ المقامات، وأن الشكر علىٰ المكاره أفضل؛ لأن فيه البلاء والرضا، وأن الصبر علىٰ الشدائد والضَّرَّاء أفضل من الشكر علىٰ النعم والسَّرَّاء من قِبَل أنه أشقُّ علىٰ النفس، وأن الصبر مع حال الغِنىٰ والمقدرة أن يعصي بذلك أفضل من الشكر

علىٰ النعم من قِبَل أن الصبر عن المعاصي بالنعم أفضل من الطاعة بها لمَن جاهد نفسه فيها، فإذا شكر علىٰ ما يصبر عليه فقد صار البلاء عنده نعمة، وهذا أفضل؛ لأنها مشاهدة المقرَّبين، وإذا صبر عمَّا يشكر عليه من النعم كان أفضل؛ لأنها حال الزاهدين، وفي الخبر: «نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاءً، ثم الأمثل فالأمثل». يعني الأقرب شبهًا بنا فالأقرب، فرفع أهل البلاء إليه، ووصف نفسه به، وجعلهم الأمثل فالأمثل منه، فمَن كان به ﷺ أمثل كان هو الأفضل، فقد كان ﷺ شاكرًا علىٰ شدة بلائه، وكذلك الشاكر من الصابرين يكون أفضل؛ لشكره علىٰ البلاء؛ إذ هو الأمثل والأقرب إلىٰ وصف الأنبياء. وكل مقام من مقامات اليقين يحتاج إلىٰ صبر وإلىٰ شكر، وأحدهما لا يتم إلا بالآخر؛ لأن الصبر يحتاج إلىٰ شكر عليه ليكمُل، والشكر يحتاج إلىٰ صبر عليه ليستوجب المزيدَ، وقد قرن الله تعالىٰ بينهما ووصف المؤمنين بهما فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾ [إبراهيم: ٥، لقمان: ٣١، سبأ: ١٩، الشورىٰ: ٣٣]. ا.هـ. كلام صاحب القوت.

وربما أفرط بعض الصوفية وقال: الفقير الشاكر أفضل من الغني الشاكر (و) أما قولهم: الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر، فإنَّ (**ذلك هو الغني الذي يرىٰ نفسه مثل الفقير؛ إذ لا يمسك لنفسه من المال إلا قدر الضرورة، والباقي يصرفه إلىٰ الخيرات أو يمسكه علىٰ اعتقاد أنه خازن للمحتاجين والمساكين، وإنما ينتظر حاجة تسنح**) أي تَعرِض (**حتىٰ يصرف**) ذلك (**إليها، ثم إذا صرف لم يصرفه لطلب جاه وصيت**) أي شهرة بين الناس (**ولا لتقليد منَّة، بل أداءً لحق الله تعالىٰ في تفقُّد عباده، فهذا أفضل من الفقير الصابر**) بهذا الاعتبار.

(**فإن قلتَ: فهذا**) الذي ذكرتَه (**لا يثقل علىٰ النفس، والفقير يثقل عليه الفقرُ؛ لأن هذا يستشعر لذة القدرة**) والمُلك (**وذاك يستشعر ألمَ الصبر**) علىٰ العدم (**فإن كان متألِّمًا لفراق المال فينجبر ذلك بلذَّته في القدرة علىٰ الإنفاق. فاعلمْ أن الذي نراه أنَّ مَن ينفق ماله عن رغبة وطِيب نفس أكمل حالاً ممَّن ينفقه وهو بخيل به،**

وإنما يقتطعه عن نفسه قهرًا، وقد ذكرنا تفصيل هذا فيما سبق من كتاب التوبة) فليراجَع هناك (فإيلام النفس ليس مطلوبًا لعينه بل لتأديبها) أي لتتأدَّب (وذلك يضاهي ضرب كلب الصيد، والكلب المتأدِّب أكمل من الكلب المحتاج إلىٰ الضرب وإن كان صابرًا علىٰ الضرب، ولذلك يحتاج إلىٰ الإيلام والمجاهدة في البداية) أي في ابتداء السلوك (ولا يحتاج إليهما في النهاية، بل النهاية أن يصير ما كان مؤلمًا في حقه لذيذًا عنده) وهو مقام الرضا، وينشأ عن المحبة (كما يصير التعلُّم عند الصبي العاقل لذيذًا، وقد كان مؤلمًا له أولاً، ولكن لما كان الناس كلهم إلا الأقلِّين في) درجة (البداية بل قبل البداية بكثير كالصبيان) في نقصهم (أطلق الجنيد) رحمه الله تعالىٰ (القولَ بأن الذي يؤلم صفته أفضل، وهو كما قال صحيح فيما أراده من عموم الخلق. فإذًا إذا كنتَ لا تفصِّل الجواب وتطلقه لإرادة الأكثر فأطلِق القولَ بأن الصبر أفضل من الشكر؛ لأنه صحيح بالمعنىٰ السابق إلىٰ الأفهام) وإليه ذهب أكثر الصوفية قديمًا وحديثًا. ورأيت الكمال أبا بكر محمد بن إسحاق الصوفي قد جنح في كتابه «مقاصد المنجيات» إلىٰ تفضيل الشكر علىٰ الصبر وترجيحه عليه، وكلامه فيه غريب، فأحببت أن أورده بتمامه ولا أترك منه شيئًا لتمام الفائدة؛ إذ هو من وادي كلام المصنف، فقال: الفرع الثاني: في فضل الشكر علىٰ الصبر، اختلف العلماء في ذلك بين المرجِّح لأحدهما والمسوِّي بينهما، ولا شك أن الصبر مقام محمود تُعرَف فضيلته بالشرع والتجربة، ولكن قد تقرَّر أن المقامات منازل، ولها ترتيب في السلوك كالشرط والمشروط والوسيلة والمقصود، ومن النوادر أن يصل السالك إلىٰ مقصود قبل الدخول في وسيلته، ولا شك أن الصبر منزل يضع التائب قدمه الأولىٰ فيه، وقد قطع عقبات كثيرة، فيصفو قلب السالك، وتحلو له العبادة، وينكشف له الوجود، فيرىٰ نعم الله الدارَّة عليه ظاهرة وباطنة، فيفرح بنعم الله، ويسلك الطريق بحال الشكر بعد أن كان سالكًا بحال الصبر، ونفس السلوك لا يختلف، وإنما تختلف الأحوال الباعثة عليه، والعمل الواحد لا يحثُّ عليه حالان شرعيان؛ لأن سوادين لا يكونان في محل واحد في زمن واحد احترازًا بذلك عن

وازع الطبع فإنه يحثُّ وازع الشرع في زمان واحد. نعم، يكون أحدهما للسالك، والثاني فعلاً لحقيقته وقوته واستيلائه، وقد ترجَّح الشكر عندي بهذه المقدمة وبترجيحات سبعة هي معروضة عليك، فنذكر أولاً حقيقة التفاضل، ثم نورد فيها بما وعدنا به حقيقة التفاضل بين الأشياء. الفضيلة مأخوذة من الفضل وهو الزيادة، فمهما تشارك شيئان في أمر واختصَّ أحدهما بمزيد يقال: فضلَه، وله الفضل عليه. ولا يصح التفاضل بين عملين من حيث إن أحدهما أشقُّ علىٰ فاعله، فقد قال ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون [شعبة] أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق». وليس سد رأس البئر من الطريق بأسهل من قول «لا إله إلا الله»، وقد أثنىٰ الله علىٰ أعمال الملائكة بعدم السآمة والملل والانقطاع، وأن تسبيحهم يجري منا مَجرىٰ النفَس، وذلك غاية المَلاذِّ، ولا من حيث كثرة الثناء علىٰ أحدهما دون الآخر، فقد شوَّقنا ربُّنا جلَّ جلاله إلىٰ الجنة وما فيها أكثر ممَّا شوَّقنا من النظر إلىٰ وجهه تعالىٰ، ولا قائل بأن لذات الجنة أفضل من لذة النظر إلىٰ وجهه تعالىٰ، فعلىٰ هذا تعرف أن حقيقة التفاضل وزن ذات الشيئين وصفاتهما بميزان البراهين، فأيُّهما رجح فهو الأفضل، مثال ذلك: الشكر أرجح من الصبر بسبعة أسباب:

أحدها: أن الله تعالىٰ تسمَّىٰ بهما جميعًا، فجاء في الحديث الذي أخرجه الترمذي: الصبور، وجاء في كتاب الله: الشكور، فكما قيل في الصبور: مضمَّن في الشكور، وزاد عليه بثنائه علىٰ نفسه وعلىٰ عباده بكلامه القديم، ولا يوجد مثل هذا في اسمه الصبور.

الثاني: النظر في سببهما، وسبب الصبر معرفة الآلاء، وسبب الشكر معرفة ذي النعماء، وشتَّان بين المعرفتين.

الثالث: النظر في حالهما، فحال الصبر استدعاء المكابدة والمجاهدة للغلبة، وحال الشكر استدعاء الفرح برؤية المنَّة، والخادم الفَرِح أفضل من المتكلِّف عند المخدوم.

الرابع: النظر في أعمالهما، فعمل الصبر محنة وابتلاء، وعمل الشكر نعمة مشكور عليها عند الشاكر، وفرقٌ بين مَن شهد التكاليف محنةً وابتلاء فيصبر عليها وبين مَن يراها نعمة تشوِّقه إلىٰ جوار الله تعالىٰ فيشكر عليها.

الخامس: النظر في علاجهما، وعلاج الصبر رؤية الجزاء للظفر، وعلاج الشكر رؤية المريد لطاعة المجيد.

السادس: النظر في استدامتهما في السلوك، فالشكر مستحبٌّ للسالك في كل مقام وحال، والأحوال والمقامات لا نهاية لها، فالشكر علىٰ ذلك لا نهاية له، والصبر ينقطع عند أول مقام من مقامات الرضا بالإجماع من مشايخ السلوك.

السابع: النظر في الاستدامة المطلقة؛ إذ لو فرضنا أن الصبر دائم لكان إلىٰ الموت، والشكر في الآخرة من المؤمن والكافر، قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤] وقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٥٢] فهذا يعمُّ المؤمنَ والكافر.

فهذه سبع ترجيحات كافية للمتأمِّل، فهكذا ينبغي أن يكون الترجيح بين شيئين، إذا رُجِّح أحدهما عُمِلَ في الارتقاء إليه، والله أعلم. انتهىٰ كلامه.

(**فإذا أردتَ التحقيق ففصِّلْ، فإنَّ للصبر درجات، أقلُّها تركُ الشكوىٰ مع الكراهية، ووراءها الرضا**) بمقدور الله تعالىٰ (**وهو مقامٌ وراء الصبر، ووراءه الشكر علىٰ البلاء، وهو**) مقام (**وراء الرضا؛ إذ الصبر مع التألم، والرضا يمكن بما لا ألم فيه ولا فرح، والشكر لا يمكن إلا علىٰ محبوب مفروح به، وكذلك للشكر درجات كثيرة ذكرنا أقصاها، ويدخل في جملتها أمورٌ دونها**) أي دون تلك الدرجات (**فإن**) توفيقنا للحسنىٰ وتيسيرنا لليسرىٰ ثم صرف الكفر وأخلاق الكفرة وأعمالهم ثم تزيين الإيمان وتحبيبه إلينا وتكريه الفسوق والعصيان فضلاً منه ومنَّة من جملة النعم بعد الإيمان، فشكرُ ذلك لا يُقام به إلا بما وهب وأنعم به من المعرفة بذلك

والمعونة [عليه] و(**حياء العبد من تتابُع نعم الله عليه شكرٌ، ومعرفته بتقصيره عن الشكر شكر، والاعتذار من قلة الشكر شكر، والمعرفة بعظيم حلم الله وكثيف ستره شكر، والاعتراف بأن النعم ابتداءً من الله تعالىٰ من غير استحقاق**) من العبد بل [هو] مضاف إلىٰ نعمه (**شكر، والعلم بأن الشكر أيضًا نعمة من نعم الله وموهبة منه شكر، وحُسن التواضع للنعم والتذلُّل فيها شكر، وشكر الوسائط**) بالدعاء لهم وحُسن الثناء عليهم لأنهم ظروف العطاء وأسباب المعطي تخلُّقًا بأخلاق المولَىٰ (**شكرٌ؛ إذ قال ﷺ: مَن لم يشكر الناس لم يشكر الله**) رواه أحمد والترمذي من حديث أبي سعيد، وابن جرير من حديث أبي هريرة، والطبراني من حديث جرير، وقد تقدم في كتاب الزكاة (**وقد ذكرنا حقيقة ذلك في كتاب أسرار الزكاة**) فليُرجَع إليه (**وقلة الاعتراض وحُسن الأدب بين يدي المنعم شكرٌ، وتلقِّي النعم بحُسن القبول واستعظام صغيرها**) وتعظيم حقيرها (**شكر**) لأن طائفة هلكت باستصغار الأشياء واستحقار وجود المنافع بها جهلاً بحكمة الله تعالىٰ واستصغارًا لنعمه، فكان ذلك كفرًا بالنعم (**وما يندرج من الأعمال والأحوال تحت اسم الشكر والصبر لا تنحصر آحادُها، وهي درجات مختلفة، فكيف يمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما علىٰ الآخر إلا علىٰ سبيل إرادة الخصوص باللفظ العام، كما ورد في الأخبار والآثار**) علىٰ ما تقدم ذِكرُها (**وقد رُوي**) كذا في النسخ، والأولىٰ: حُكي، كما هو نص الرسالة (**عن بعضهم أنه قال: رأيت في بعض الأسفار شيخًا كبيرًا قد طعن في السن**) كثيرًا، وعنده عجوز (**فسألته عن حاله، فقال: إني كنت في ابتداء عمري أهوىٰ**) أي أحب (**ابنة عمٍّ لي، وهي كذلك كانت تهواني**) أي تحبني (**فاتفق أنها زُوِّجت مني، فليلة زفافها**) وفي بعض نسخ الرسالة: فلما زُفَّت إليَّ بالليل (**قلت: تعالي حتىٰ نحيي هذه الليلةَ شكرًا لله تعالىٰ علىٰ ما جمعنا**) أي علىٰ اجتماعنا علىٰ وجهٍ حلال (**فصلَّينا تلك الليلة، ولم يتفرَّغ أحدنا إلىٰ صاحبه**) لينال شهوته منه (**فلمَّا كانت الليلة الثانية قلنا مثل ذلك**) مع زيادة، أي قال كلٌّ منا لصاحبه: تعالَ نحيي هذه الليلة شكرًا لله تعالىٰ علىٰ ما منَّ علينا به من الاجتماع وما وفَّقنا له من الشكر (**فصلَّينا**

طول الليلة) ودُمنا علىٰ ذلك **(فمنذ سبعين أو ثمانين سنة ونحن علىٰ تلك الحالة)** وفي بعض نسخ الرسالة: علىٰ تلك الصفة **(كل ليلة) ثم قال هو لها: (أليس)** الأمر **(كذلك يا فلانة)**؟ وسمَّاها باسمها **(قالت)** له **(العجوز: هو كما يقول الشيخ)** وهكذا يكون حال مَن عرف مقدار النعم ورغب في تواليها عليه فشكرها بالفعل والقلب واللسان. هكذا أورد هذه القصة القشيريُّ في الرسالة.

(فانظر إليهما لو صبرا علىٰ بلاء الفُرقة أن لو لم يجمع الله بينهما، وانسِبْ صبر الفُرقة إلىٰ شكر الوصال علىٰ هذا الوجه) وفائدة ذِكر العجوز والشيخ الإعلام بأنهما داما علىٰ الاشتغال بالله من حالة الصِّبا إلىٰ تلك الحالة **(فلا يخفَىٰ عليك أن هذا الشكر أفضل. فإذًا لا وقوف علىٰ حقائق المفضَّلات إلا بتفصيل، كما سبق)** وأما ترجيح بعض علىٰ بعض علىٰ الإطلاق من غير اطِّلاع علىٰ حقائق المفضَّلات فلا تحقُّق فيه؛ لأن مَن اطَّلع علىٰ مقاصد الشريعة ووسائلها عرف الفاضل والأفضل من نفس الحقائق، واطَّلع علىٰ حكمة الشرع في ذلك **(والله تعالىٰ أعلم)** وبه تم كتاب الصبر والشكر.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد أفضل المخلوقات، وعلىٰ آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلىٰ ما بعد يوم الممات.

قال مؤلِّفه: وكان الفراغ من تحرير ذلك في الثالثة من ليلة الثلاثاء سادس عشر شعبان سنة ١٢٠٠. وكتبه مؤلفه المذكور أستاذنا أبو الفيض سيدي محمد مرتضىٰ الحسيني، غفر الله له بمَنِّه وكرمه، حامدًا لله ومصلِّيًا ومستغفرًا.

فهرس موضوعات كتاب الصبر والشكر

٣٢ - كتاب الصبر والشكر